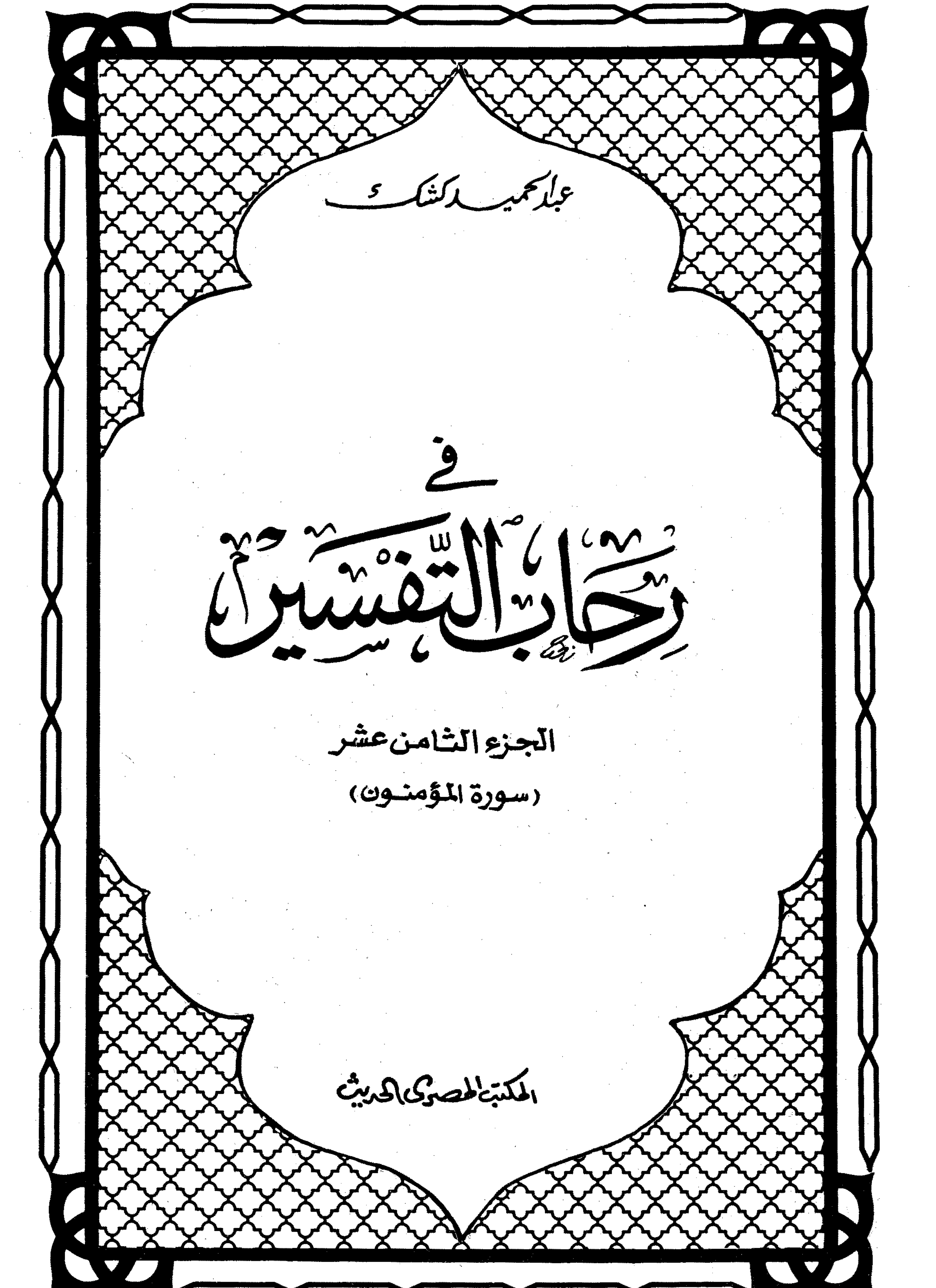


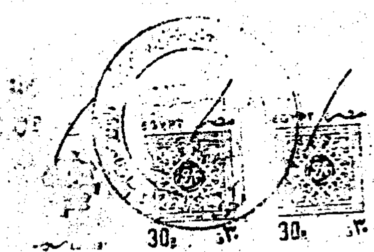
عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء الثامن عشر
(سورة المؤمنون)
المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الإسـلامية
الإدارة العـامة
للبحـوث والتـأليف والترجمـة



السيد / الأستاذ / مدير المكتب المصري الحديث (أحمد يكن)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : في رحاب التفسير
الجزء الثامن عشر .... تأليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في ٢٥ / ٢ / ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٥ / ١٠ / ٨٩

« سورة المؤمنون »

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، وعدد آياتها مائة وثمانى عشرة عند الكوفيين ، وتسع عشرة عند الباقين ، وكلماتها ألف ومائتان وأربعون ، وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وواحد .

مقصود السورة

ومعظم ما اشتملت عليه : الفتوى بفلاح المؤمنين ، والدلالة على أخلاق أهل الإسلام ، وذكر العجائب فى تخليق الأولاد فى الأرحام ، والإشارة إلى الموت والبعث ، ومنة الحق على الخلق بإنبات الأشجار ، وإظهار الأنهار ، وذكر المراكب ، والإشارة إلى هلاك قوم نوح ، ومذمة الكفار وأهل الإنكار ، وذكر عيسى ومريم وإيوائهما الى ربوة ذات قرار ، وإمهال الكفار فى المعاصى والمخالفات ، وبيان حال المؤمنين فى العبادات والطاعات ، وبيان حجة التوحيد ، وبرهان النبوات ، وذل الكفار بعد الممات ، وعجزهم فى جهنم حال العقوبات ، ومكافأتهم فى العقبى ، على حسب المعاملات فى الدنيا فى جميع الحالات ، وتهديد أهل اللهو واللغو والغفلات ، وأمر الرسول بدعاء الأمة وسؤال المغفرة لهم ، والرحمات فى قوله : ﴿ رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

المتشابهات

وقوله: ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ﴿ ومنها ﴾ بالواو ، وفى الزخرف ﴿ فاكهة ﴾ على التوحيد ، ﴿ منها تأكلون ﴾ بغير واو ، راعى فى السورتين لفظ الجنة ، وكانت فى هذه ﴿ جنات ﴾ بالجمع ، فقال : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ، وفى الزخرف : ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد ، وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ ، فقال: ﴿ فيها فاكهة ﴾ وقال فى هذه السورة: ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بزيادة الواو ، لأن تقدير الآية : منها تدخرون ، ومنها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة ، فإنها للأكل فقط ، فلذلك قال : ﴿ منها تأكلون ﴾ .

ووافق هذه السورة ما بعدها أيضا ، وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾ فهذا للقرآن معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ وبعده ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا ﴾ فقدم ﴿ من قومه ﴾ فى الآية الأخرى ، وأخر فى الأولى لأن صلة ﴿ الذين ﴾ فى الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ، ثم ذكر بعده الجار والمجرور ، ثم ذكر المفعول وهو المقول ، وليس كذلك فى الأخرى ، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى ، فقدم الجار والمجرور ، لأن تأخيره يلتبس وتوسيطه ركيك ، فخص بالتقدم .

قوله : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وفى حم فصلت : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الله ، وليس فيه ذكر الرب ، وفى السجدة تقدم ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ سابقا على ذكر لفظ الله ، فصرح فى هذه السورة بذكر الله ، وهناك بذكر الرب ، لإضافته إلى العالمين ، وهم من جملتهم ، فقالوا إما اعتقادا ، وإما استهزاء : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فأضافوا الرب إليهم .

قوله : ﴿ واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ وفى سبأ : ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ كلاهما من وصف الله سبحانه ، وخص كل سورة بما وافق فواصل الآى .

قوله : ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ بالألف واللام ، وبعده : ﴿ لقوم لا يؤمنون ﴾ لأن الأول لقوم صالح ، نعرفهم بدليل قوله : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ والثانى نكرة وقبله :﴿ قرونا آخرين ﴾ وكانوا منكرين ، ولم يكن معهم قرينة عرفوا بها ، فخصوا بالنكرة .

قوله : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ وفى النمل : ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ لأن ما فى (هذه) السورة على القياس ، فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالضمير المنفصل ، فأكد ﴿ وعدنا نحن ﴾ ثم عطف عليه ﴿ آباؤنا ﴾ ثم ذكر المفعول وهو ﴿ هذا ﴾ وقدم فى النمل المفعول موافقة لقوله:﴿ ترابا ﴾ لأن القياس فيه أيضا : كنا نحن وآباؤنا ترابا فقدم ﴿ ترابا ﴾ ليسد مسد نحن ، وكانا متوافقين .

قوله : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده:﴿ سيقولون لله ﴾ الأول جواب ، لقوله:﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ جواب مطابق لفظا ومعنى ، لأنه قال فى السؤال : ﴿ قل لمن ﴾ فقال فى الجواب : ﴿ لله ﴾ وأما الثانى والثالث فالمطابق فيهما فى المعنى ، لأن القائل إذا قال لك : من مالك هذا الغلام ؟ فلك أن تقول : زيد ، فيكون مطابقا لفظا ومعنى ، ولك أن تقول لزيد فيكون مطابقا للمعنى ، ولهذا قرأ أبو عمرو:الثانى والثالث : ﴿ الله ﴾ ﴿ الله ﴾ مراعاة للمطابقة .

قوله : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ وقبله ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الجدب عند بعضهم ، ويوم بدر عند البعض ، والثانى فى القيامة وهم فى الجحيم ، بدليل قوله : ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ .

وقد جاء فى فضلها ماروى عن عائشة-رضى الله عنها-أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ [(١)] ثم قرأت:﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾حتى انتهت إلى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل الخيرات لعلهم يفلحون ، وحقق فلاحهم فى بدء هذه السورة .

(٢) أنه تكلم فى كل من السورتين فى النشأة الأولى ، وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .

(٣) وأن فى كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم ، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين .

(٤) أنه نصب فى كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٣٩ - وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والترمذى فى البر : ٦٩ . والنسائى فى قيام الليل : ٢ . وابن ماجه فى الأحكام : ١٤ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٥ . والإمام أحمد فى ٦ : ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢١٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

تفسير المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد .

وأفلح : دخل فى الفلاح . **كأبشر** : دخل فى البشارة .

والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء .

والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح .

واللغو : هجر القول وقبيحه .

والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .

والفرج : سوءة الرجل والمرأة .

وحفظه : التعفف عن الحرام .

وابتغى : طلب .

وراء ذلك : أى غير ذلك .

والعادون : أى المتناهون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية .

والأمانات : واحدها أمانة،وهى ما ائتمن المرء عليه من قبل الله كالتكاليف الشرعية،أو من قبل الناس كالأموال المودعة لديه،والنذور والعقود ونحوها .

والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه وما أمر به الله كما قال : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ (١) .

والرعى : الحفظ .

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة آل عمران .

والراعى : القائم على الشىء لحفظه وإصلاحه .
يحافظون : أى يواظبون عليها .
الفردوس : أعلى الجنة .

التفسير

روى الإمام أحمد -رضى الله عنه- بسنده عن عبدالرحمن بن عبدالقارى قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا[١] . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة) ثم قرأ: ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر .

وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم :(لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها ، وقال لها : تكلمى . فقالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها، وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك فى كتابه) .

وقال البزار :(حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة،وملاطها المسك فقال لها،تكلمى،فقالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك) .

وعن أنس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : (خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . قالت:﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ فقال الله : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[٢] .

بدأ الله هذه السورة الكريمة بحرف يفيد التحقيق وهو (قد) وذلك من باب التوكيد لوعد الله لهؤلاء بالفلاح .

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ :

هذا حكم الله للمؤمنين بالفلاح ، والله إذا حكم صدق ولا معقب لحكمه ، وهذا قضاء الله للمؤمنين بالسعادة والفوز ، والله إذا قضى فلا راد لقضائه ، يقول الحق ولا يقول غير الحق لأنه الحق ، وفى هذه الآية الكريمة التى تفيض نورا ورحمة ما يدل على ثبوت الفلاح للمؤمنين ثبوتا قطعيا مؤكدا ، بحرف (قد) .

فمن هؤلاء الذين استحقوا هذا الشرف ، ونالوا تلك الرتبة ، وفازوا بهذه الدرجة العظمى ، وتمتعوا بحكم الله الصادق ؟

إنهم المؤمنون ، أى:المتصفون بالإيمان ، والإيمان كلمة مدلولها الصدق اليقينى ، ومحله القلب ، كما قال تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾[٣] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٣ : ١ .
(٢) الآية ٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

وقال تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾(٢) .

فما مدلول هذه الكلمة ؟ وما مدلول صفات أصحابها ؟ بين الرسول ﷺ مدلول الإيمان فى حديث شريف قال فيه : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)(٣) .

فإذا ما نحن قرأنا كتاب الله وجدناه قد حدد للمؤمنين صفات ، وبين لهم مبادىء التزموها ، وساروا على نهجها ، فاستحقوا هذه الصفة صفة المؤمنين ، فمن هذه المبادىء موقفهم من ضرب الأمثال فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ (٤) .

وعلى الطرف الآخر موقف الكافرين .

قال تعالى : ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾ (٥) .

موقف المؤمنين الثبات على مبدأ الحق ، وهو موقف تزول الجبال ولا يزول ، الحق من الله ، لأن الله لا يقول إلا الحق .

ويقول الله فى شأنهم أيضا :

﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ (٦) .

وهذا ما أكده حديث رسول الله الذى سبق ذكره .

وهذا أيضا توكيد لما سبق فى أول سورة البقرة ، فى قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٧) .

والمؤمنون لا يعرفون الوهن ولا الحزن ، إنهم فوق الأحداث ، لا تلين قناتهم ، إذا عربد الباطل فى عرضات الدنيا .

لقد قال الله فى شأنهم : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ (٨) .

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١ ، ٧ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ١٠ ، وفى الإيمان : ٤ . والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ١٨١ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٧) الآيات ٣ ـ ٥ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ١٣٩ ـ ١٤١ من سورة آل عمران .

والمؤمنون إذا نزلوا ميدان القتال قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، قال جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله** ﴾ (١) .

ثم بين على الطرف الآخر الفريق المضاد فقال : ﴿ **والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت** ﴾ .

والمؤمنون -كما وصفهم الله- أوفياء بالعقود . والعهود ، لا يعرفون نقضها أو مخالفتها .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ (٢) .

ولا يعرفون ولاية إلا لله ورسوله والمؤمنين .

قال تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ (٣) .

والمؤمنون كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ (٤) .

والمؤمنون ثابتون عند التقاء الصفوف ، ذاكرون لله ، قال الله تعالى يخاطبهم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ (٥) .

وهم الذين تواصوا فيما بينهم على المحبة والنصرة ، قال الله فى شأنهم : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ (٦) .

وهم الذين عقد الله معهم ذلك العقد الخالد فقد اشترى الأنفس والأموال وأعطاهم الجنة ، ووصفهم بصفات الحسن والكمال والفضيلة ، والتنزه عن الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾ (٧) .

وهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (٨) .

وقال فى شأنهم : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ (٩) .

وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم**

---

(١) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٥٥ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٢ - ٤ من سورة الأنفال .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .
(٦) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٧) الآيتان ١١١ ، ١١٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ١٠ من سورة الحجرات .
(٩) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[١] .

والمؤمنون هم الذين وقفوا موقف الالتزام عند قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ [٢] .

ووقفوا موقف الالتزام عند قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾[٣] .

وعند قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ [٤] .

وعند قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [٥] .

والمؤمنون هم الذين اتبعوا الإرشاد فى قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [٦] .

وهم الذين استثناهم الله فى قوله : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [٧] .

إن هؤلاء المؤمنين عرفوا الحق حقا فاتبعوه ، ورأوا الباطل باطلا فاجتنبوه ، التزموا الأوامر ، واجتنبوا النواهى ، وقفوا عند حدود الله موقف السمع والطاعة ، كانوا كما قال الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾[٨] .

وكانوا كما قال الله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [٩] .

هذه صورة قرآنية صادقة للمؤمنين الذين استحقوا أن يحكم الله لهم بالفلاح ، فى قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فلاح فى الدنيا والآخرة ، كما وعد الله تعالى فى قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[١٠] .

استحقوا أن يقول الله فى شأنهم : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١ من سورة الممتحنة .
(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .
(٥) الآية ٩ من سورة المنافقون .
(٦) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٧) سورة العصر .
(٨) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة النساء .
(٩) الآية ٥١ من سورة النور .
(١٠) الآية ٥٥ من سورة النور .

وكانوا أهلا لرحمة الله عندما قال فى حقهم : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [١] .

وكانوا أهلا لنصر الله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [٢] .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [٣] .

وكانوا جديرين بالحياة الطيبة : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [٤] .

وكانوا أهلا لطمأنينة القلب: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ [٥] .

وكانوا أهلا لأن يشكر الله سعيهم: ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ [٦] .

وكانوا أهلا لهذا الجزاء الربانى: ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [٧] .

ونالوا نعمة السكينة فى القلوب : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ [٨] .

وفازوا بهذا الفضل العظيم الذى بينه الله فى قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [٩] .

واستحقوا أن يكونوا أصحاب الميمنة كما قال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة ﴾ [١٠] .

وتشرفوا بأن يكونوا حزب الله كما قال جل شأنه : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [١١] .

واستثناهم الله من الذين انحدروا فى الأوحال حيث قال جل شأنه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ [١٢].

فهنيئا لكم ما أصبحتم فيه ، يامن طهرت قلوبكم من الحقد ، وألسنتكم من الزلل ، وأيديكم من الخطيئة ، وأعينكم من الرذيلة ، وسمعكم من النقائص .

هنيئا لكم يامن حكم الله لكم بالفلاح ، وإنها لدرجة لا يستحقها إلا أنتم يا أصحاب القلوب الطيبة ، يامن قال الله فى شأنكم : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى

---

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٣) الآية ٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الرعد .
(٦) الآية ١٩ من سورة الإسراء .
(٧) الآية ٧٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ٤ من سورة الفتح .
(٩) الآية ٤ من سورة الأنفال .
(١٠) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة البلد .
(١١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(١٢) الآيات ٤ - ٦ من سورة الزيتون .

هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خيّر ولنعم دار المتقين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

الخشوع فى الصلاة:حضور القلب وسكون الجوارح ، قيل لحاتم الأصم رضى الله عنه : (كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال : إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، معتقدا أن الله مطلع علىَّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها علىَّ) .

حسبك أن تعلم أن الصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت على النبى وأمته فى السماء وهذا مما يدل على أنها صلة واتصال وثيق بين العبد وربه،وعلى علو مكانتها ورفعة درجتها،وها نحن أولا نلقى بعض الأضواء على تلك الفريضة حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكامها:والله ولى التوفيق .

تعريفها :

الصلاة عبادة تتضمن أقوالا وأفعالا مخصوصة ، مفتتحة بتكبير الله تعالى ، مختتمة بالتسليم .

منزلتها فى الإسلام :

وللصلاة فى الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى ، فهى عماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، قال رسول الله ﷺ : (رأس الأمر الاسلام،وعموده الصلاة،وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله)[٢] .

وهى أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات،تولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة .

قال أنس : (فرضت الصلاة على النبى ﷺ ليلة أسرى به خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمسا ثم نودى يامحمد : إنه لا يبدل القول لدى وإن لك بهذه الخمس خمسين)[٣] . رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه .

وهى أول ما يحاسب عليه العبد . نقل عبدالله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله) . رواه الطبرانى .

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا جعل يقول ـ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) .

وهى آخر ما يفقده من الدين فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : (لتنقض عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النحل .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٥ . والنسائى فى الصلاة : ١ .

الصلاة) . رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .

والمتتبع لآيات القرآن يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرولذكر الله أكبر** ﴾[١] . (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى)[٢] . ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾[٣] .

وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[٤] . ومرة بالصبر : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[٥] . وطورا بالنسك : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾[٦] . ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٧] .

وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ، ويختتمها بها كما فى سورة : سأل « المعارج » وفى أول سورة المؤمنون : ﴿ **قد أفلح المؤمنون.الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون.أولئك هم الوارثون.الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف فقال تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون** ﴾[٨] .

وقال مبينا كيفيتها فى السفر والحرب والأمن : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾[٩] .

وقد **شدد** النكير على من يفرط فيها ، وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾[١٠].

وقال : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[١١].

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة ، سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله هو وذريته مقيما لها فقال : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء** ﴾[١٢] .

حكم ترك الصلاة :

ترك الصلاة جحودا بها وإنكارا لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين ، أما من تركها

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .
(٣) الآية ١٤ من سورة طه .
(٤) الآية ٤٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٤٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢ من سورة الكوثر .
(٧) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة .
(٩) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة النساء .
(١٠) الآية ٥٩ من سورة مريم .
(١١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الماعون .
(١٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم .

مع إيمانه بها واعتقاده فرضيتها ولكن تركها تكاسلا أو تشاغلا عنها بما لا يعد فى الشرع عذرا ، فقد صرحت الأحاديث بكفره ، ووجوب قتله .

أما الأحاديث المصرحة بكفره فهى :

١ ـ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) [١] . رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود ،والترمذى،وابن ماجه .

٢ ـ وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) [٢] . رواه أحمد وأصحاب السنن .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف) [٣] . رواه أحمد والطبرانى .

وكون تارك المحافظة على الصلاة مع أئمة الكفر فى الآخرة . يقتضى كفره ، قال ابن القيم : تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته ، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف . .

وعن عبد الله بن شقيق العقيلى قال : (كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . رواه الترمذى .

وقال محمد بن نصر المحروزى : سمعت إسحاق يقول : (صح عن النبى ﷺ : أن تارك الصلاة كافر) وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن محمد ﷺ أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر .

وقال ابن حزم:وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة : أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد ، ولا نعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا . ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب .

ثم قال : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة . متعمدا تركها حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وجابر بن عبد الله ، وأبو الدرداء رضى الله عنهم ، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل ، وإسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك ، والنخعى ، والحكم بن عتيبة ، وأبو أيوب السختيانى ، وأبو داود الطيالسى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ . وأبو داود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧ . والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٩ .

والأحاديث المصرحة بوجوب قتله فهى :

عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله،والصلاة المكتوبة،وصوم رمضان) . رواه أبو يعلى بإسناد حسن . وفى رواية أخرى : (من ترك منهن واحدة بالله كافر ولا يقبل منه صرف ولا عدل ـ أى: لا يقبل منه فرض ولا نفل ـ وقد حل دمه وماله) . .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل) [١] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قال : (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع . قالوا يارسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا) [٢] . رواه مسلم .

جعل المانع من مقاتلة أمراء الجور الصلاة .

وعن أبى سعيد قال : بعث على ـ وهو اليمنى ـ إلى النبى ﷺ بذهيبة قسمها بين أربعة،فقال رجل: يارسول الله اتق الله . فقال : (ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟) ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال: لا لعله أن يكون يصلى فقال خالد : وكم من رجل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال النبى ﷺ : (إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس . ولا أشق بطونهم) [٣] . مختصر من حديث للبخارى ومسلم وفى هذا الحديث أيضا جعل الصلاة هى المانعة من القتل،ومفهوم هذا أن عدم الصلاة يوجب القتل .

فعليك أيها الأخ المسلم أن تحافظ على الصلاة فى أوقاتها ، فإن أول ما تحاسب عليه يوم القيامة الصلاة ، وعليك أن تستحضر عظمة الله فى قلبك ، وأن تصلى صلاة مودع ، فالصلاة عماد الدين ، وأساس الإسلام ، وقد مدح الله تعالى من أداها بشروطها وأركانها وسننها فقال :﴿ **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى الصلاة : ٢٨ ، وفى الاستتابة : ٣ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ٢٨ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢ . وأبو داود فى الزكاة : ١ ، وفى الجهاد : ٩٥ . والترمذى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٨ . والنسائى فى الزكاة : ٣ ، وفى الإيمان : ١٥ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التحريم : ١ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٦٢ ـ ٦٤ . وأبو داود فى السنة : ٢٧ . والترمذى فى الفتن : ٧٨ . والنسائى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢١ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٦١ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد فسر اللغو بتفسيرات منها : أنه الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصى ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ [١] . فى صفة عباد الرحمن ، كما قال جل شأنه : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ [٢] . وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾[٣] .

قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك .

بمكارم الأخلاق كن متحليا ... واصدق وجد نافس الأبطالا

والله فاعبد واستقم وتصدقن ... وادع الشكور فلا يرد سؤالا

قل ماتشاء ففضل ربى واسع ... والله وهاب قضى وأنالا

قد نلت ثانية بفضل حديثه ... أعطيت ما أهوى وأصلح بالا

فقد أدبنا الإسلام بأدب الصمت حتى لا يقع اللسان فى اللغو ، فهاك ما جاء على لسان نبى البر وإمام الهدى ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ وما ذكره العلماء فى التأدب بالصمت والبعد عن اللغو :

● عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت:يارسول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده)[٤] . رواه البخارى ومسلم والنسائى .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [٥] . رواه البخارى ومسلم .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (الصلاة على ميقاتها) قلت : ثم ماذا يارسول الله ؟ قال :(أن يسلم الناس من لسانك) . رواه الطبرانى بإسناد صحيح وصدره فى الصحيحين .

● وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة ؟ فقال : (إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة : أعتق النسمة ، وفك الرقبة ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر،فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا عن خير)[٦] . مختصر رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٦٤ ، ٦٥ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ . والترمذى فى القيامة : ٥٢ . والنسائى فى الإيمان : ٨ ، ٩ ، ١١ . والدارمى فى الرقاق : ٤ ، ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٣٧٩ ، وفى ٣ : ١٥٤ .

(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، وفى الرقاق :٢٦ . وأبو داود فى الوتر : ٢ ، ١٢ . والنسائى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الفتن : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ .

(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٢٩٩ .

المعنى :

قصرت الخطبة : أى إن كنت أفصحت عن غرضك باختصار وبلاغة تعبير وحسن بيان .

أعرضت المسألة : لقد أجدت فى إظهار طلبك وأحسنت بيانا .

أعتق النسمة : النسمة: الروح ، أى: أعتق ذا روح وكل دابة فيها روح فهى نسمة . وإنما يريد الناس : ومنه حديث على (والذى فلق الحبة وبرأ النسمة) أى: خلق ذات الروح .

فك الرقبة : أطلقها من الأسر وأزال أغلال حبسها ومدها بالحرية ونعمة الحياة الرغدة ، قال تعالى : **﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾** .

أى: فلم يعمل فى حياته ما يساعده على اجتياز منطقة الأهوال بإزالة أسر النفس الذليلة ، وقد قال عمر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وأمر بالمعروف : انصح وأرشد إلى سبل الخير ، وامنع الناس عن ارتكاب المعاصى ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

إلا عن خير : احذر النطق إلا فى البر وفعل الخير والثناء والشكر .

● وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك) (١) . رواه أبو داود والترمذى وابن أبى الدنيا فى العزلة .

● وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن ملك لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

● وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويشهد أنى رسول الله : فليسعه بيته ، وليبك على خطيئته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ليغنم ، وليسكت عن شر فيسلم) رواه الطبرانى .

● وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) (٢) . رواه البخارى والترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة) (٣) . رواه الترمذى .

● وعن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : فسكتوا فلم يجبه أحد،قال : هو حفظ اللسان) . رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقى .

● وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو ليلى ولفظه قال : (من خزن لسانه ستر الله عورته،ومن كف غضبه كف الله عنه عذابه،ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره) . ورواه البيهقى

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والامام أحمد فى ٤ : ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، وفى ٥ : ٢٥٩ .
(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ .
(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام مالك فى الكلام : ١١ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٢ .

مرفوعا وموقوفا على أنس، ولعله الصواب .

● وروى الطبرانى فى الصغير والأوسط عنه أيضا عن النبى ﷺ قال : (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه) .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (والذى لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان) . رواه الطبرانى موقوفا بإسناد صحيح .

● وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : (من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة ، فقال رجل : يارسول الله ألا تخبرنا ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأعاد رسول الله ﷺ مقالته ، فقال الرجل : ألا تخبرنا يارسول الله ؟ ثم قال رسول الله ﷺمثل ذلك أيضا ، ثم ذهب الرجل يقول مثل مقالته ، فأسكته رجل إلى جنبه ، قال رسول الله ﷺ : من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة : ما بين لحييه وما بين رجليه) (١) . رواه مالك مرسلا . ولج : أى دخل الجنة .

● وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله : (من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة) (٢) . رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى واللفظ له ورواته ثقات .

● وفى رواية للطبرانى : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أحدثك بثنتين من فعلهما دخل الجنة ؟ قلنا : بلى يارسول الله.قال : يحفظ الرجل ما بين فقميه وما بين رجليه) والمراد بما بين فقميه : هو اللسان وبما بين رجليه : هو الفرج .

● وعن أبى رافع رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : (من حفظ ما بين فقميه وفخذيه دخل الجنة) . رواه الطبرانى .

● وعن ركب المصرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله) . رواه الطبرانى .

● وعن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ؟ قال : (قل ربى الله ثم استقم) (٣) قال : قلت:يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ (فأخذ بلسان نفسه ثم قال : هذا) . رواه الترمذى .

● وعنه رضى الله عنه قال : (قلت : يارسول الله أى شيء أتقى ؟ فأشار بيده إلى لسانه) . رواه أبو الشيخ بن حبان .

● وعن الحارث بن هشام رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (أخبرنى بأمر أعتصم به ؟ فقال رسول الله ﷺ : أملك هذا وأشار إلى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه) (٤) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١١ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٨ .
(٣) أخرجه مسلم فى الايمان : ٦٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤١٣ ، وفى ٤ : ٣٨٥ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٩٨ .

● وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى ﷺ فى سفرة ، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[١] حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر : الاسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله قال : كف عليك هذا ـ وأشار إلى لسانه ـ قلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)[٢] . رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة .

﴿ المعنـــى ﴾

ليسير : أى: لسهل .

من يسره الله عليه : وفقه وألهمه الصواب والحكمة .

الصوم جنة : وقاية يتحصن بها من المعاصى ويتذرع بها من ارتكاب الذنوب .

تطفىء الخطيئة : تزيل شعلتها وتخفف حدتها .

تتجافى : تترك .

رأس الأمر : أوله .

وعموده : قوامه وعماده ودعامته .

ذروة سنامه : أعلاه وأرقى جزء فيه .

ثكلتك أمك : فقدتك وصارت ثكلى إذ فقدت وحيدها .

يكب الناس : يقلب ويرمى .

حصائد ألسنتهم : أى: ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه: مفردها حصيدة: تشبيها بما يحصد من الزرع ، وتشبيها للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به . يريد ﷺ :

أ ـ توحيد الله جل وعلا فى العبادة والطاعة .

ب ـ أداء الصلوات فى أوقاتها .

ج ـ الإنفاق فى الخير وأداء الحقوق المالية والجسمية (﴿ صدقة تطهرهم ﴾) .

د ـ صيام رمضان .

هـ ـ تلك أركان الإسلام الخمسة المشهورة، ثم بين ﷺ فائدة الصوم : الهداية إلى الصراط المستقيم

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٩ . ومسلم فى الإيمان : ٢٣٧ . وأبو داود فى السنة : والترمذى فى الديات : ٨ . والنسائى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

والتباعد عن العصيان والتحصن من الذنوب،كما أن الصدقة تمحو أدران الخطايا وتنظف الصحائف وتجعلها نقية طاهرة بيضاء ناصعة،ومن أسلم فاز وأفلح **وأدرك** الخير كله ودعامة البر الصلاة،وأشرف الأعمال الصالحة الدفاع عن دين الله ونصره والذب عنه ، وثمرة ما تقدم طيب القول وحلو الحديث .

● روى الطبراني مختصرا قال : قلت : (يارسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم ، إنك لن تزال سالما ماسكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك) .

● وروى أحمد وغيره عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم أن معاذا سأل رسول الله ﷺ فقال : (يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة بعد الصلاة المفروضة؟ قال لا : ونعما هى . قال : الصوم بعد صيام رمضان؟ قال : لا ونعما هو قال : فالصدقة بعد الصدقة المفروضة قال : لا ونعما هى . قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ، ثم وضع إصبعه عليه ، فاسترجع معاذ فقال : يارسول الله أنؤاخذ بما نقول كله ويكتب علينا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺمنكب معاذ مرارا فقال له : ثكلتك أمك يا معاذ بن جبل وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم)[1] .

● وعن أسود بن أحدم رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أوصنى:قال : (تملك يدك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك يدى ؟ قال : تملك لسانك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك لسانى ؟ قال : لا تبسط يدك إلا إلى خير ، ولا تقل بلسانك إلا معروفا) رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : (قلت يارسول الله أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها زين لأمرك كله . قلت : يارسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإنه ذكر لك فى السماء ونور لك فى الأرض . قلت : يارسول الله زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك . قلت : زدنى . قال : وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . قلت : زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مرا . قلت : زدنى،قال : لا تخف فى الله لومة لائم . قلت : زدنى ، قال : ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك) . رواه أحمد والطبرانى .

● وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، فضلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . الحديث .

﴿ المعنــى ﴾

الصمت : السكوت والرزانة والتؤدة فى النطق .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

يميت القلب : يبعده عن الاتعاظ فلا يتأثر ويجعله جامدا قاسيا لا يعمل صالحا ، ولا يرتدع عن منكر ولا ينزجر عن قبيح .

قل الحق : الموافق للصواب والعدل .

لومة لائم : عتب عاتب أو عقاب جبار خاسر .

ليحجزك عن الناس : ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذى تعلمه من تقصيرك وعدم تكميلك وأنك فى حاجة إلى تكميل وطاعة وصحة . يشير ﷺ إلى :

أ ـ خشية الله فى جميع الأعمال .

ب ـ قراءة القرآن وذكر الله عز وجل .

ج ـ اعتقال اللسان وحبسه إلا فى القول الحميد .

د ـ تجنب الهزء والسخرية والازدراء .

هـ ـ قول الحق وحبه ونصره .

و ـ العمل لوجه الله وحده وعدم الخوف إلا منه جل وعلا .

ز ـ الإقبال على تجميل النفس بالاستزادة فى الطاعات وعدم العيب والتحلى بمكارم الأخلاق ، وترك الغيبة والنميمة ، وفى النهاية:احتجز الرجل بالإزار : إذا شده على وسطه ، فاستعاره للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشيء والتعلق به ، ومنه حديث (والنبى آخذ بحجزة الله) أى:بسبب منه .

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه **للزلل**
إن اللسان صغير جرمه له جرم عظيم كما قيل فى المثل

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : (يارسول الله أوصنى . قال : عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فى سبيل الله فإنها رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء،واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان) . رواه الطبرانى فى الصغير .

﴿ المعنـــى ﴾

تقوى الله : فى تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روى : (الحلال بين والحرام بين ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه) [١] قال الله تعالى : **﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[٢] ، **﴿ إن الله مع الذين اتقوا**

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٩ . ومسلم فى المساقاة : ١٠٧ ، ١٠٨ . وأبو داود فى البيوع : ٣ . والترمذى فى البيوع : ١ . والنسائى فى البيوع : ٢ . وابن ماجه فى الفتن : ١٤ . والدارمى فى البيوع : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ - ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأعراف .

والذين هم محسنون ﴾ (١) ، ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا** ﴾ (٢) ، ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ (٣) .

يقال : اتقى فلان بكذا : إذا جعله وقاية لنفسه .

رهبانية المسلمين : غلو فى تحمل العبد من فرط الرهبة، والرهب : مخافة مع تحفظ، والمعنى الدفاع عن دين الله ونصره وجهاد الأعداء زيادة قربان من الله تعالى للمسلمين ويدل على شدة خوفهم منه جل وعلا .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : لقى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال : (يا أبا ذر : ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل فى الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يارسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذى نفسى بيده ما عمل الخلائق بمثلهما) . رواه ابن أبى الدنيا .

قال النبى ﷺ : (يا أبا الدرداء : ألا أنبئك بأمرين خفيف مؤنتهما عظيم أجرهما ، لم تلق الله عز وجل بمثلهما ؟ طول الصمت . وحسن الخلق) رواه ابن أبى الدنيا .

قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ؟ الصمت وحسن الخلق) .

﴿ المعنى ﴾

خفيفتان : العمل بهما خفيف ولكن يجلبان حسنات جمة هما :

(أ) التحلى بالمكارم .

(ب) التمسك بالسكوت :

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له اذا لم يكن فى فعله والخلائق

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف
أمات رياح اللؤم وهى عواصف ومغنى العلا يؤدى ورسم الندى يعفو

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا جوادا ويبعث للعبيد سحائبا
كالشمس فى كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

الأديب المهذب الأصيد العذي الزاكى الجعد السرى الهمام
حسبك الله ما تضل عن الحق ولا تهتدى إليك أثام

● وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رفعه قال : (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا) [١] ، رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما .

● وعن أبى وائل عن عبد الله رضى الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال : يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أكثر خطأ ابن آدم فى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أسلم : (أن عمر دخل يوما على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وهو يجنب لسانه، فقال عمر : مه غفر الله لك ، فقال له أبو بكر : إن هذا أوردنى شر الموارد) [٢] . رواه مالك وابن أبى الدنيا .

● وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله عز وجل ، وقلة الشىء) . رواه الحاكم .

بعجب ، أى :لا توجد وتجتمع فى إنسان إلا على وجه عجيب ، أى: قل أن تجتمع فيه .

الصمت : السكوت عما لا يغنى ، أى :مالا ثواب فيه إلا بقدر الحاجة .

أول العبادة : أساسها ومبناها .

التواضع : لين الجانب لخلق الله لا لأمر دنيوى .

ذكر الله : لزوم الدوام عليه .

قلة الشىء : الذى ينفق منه على نفسه فإنه لا يجامع السكوت والتواضع ولزوم الذكر بل الغالب على المثل الشكوى وإظهار الضجر وشغل الفكرة الصارف عن الفكر .

وقال الحفنى : أى من عجب ووجه العجب أن قلة الشىء الآتى يقتضى كثرة اللجاج فكيف يجامع الصمت . . يرشدك ﷺ إلى صفات أربع عنوان الأدب ، ومعين المكارم ، ومجلب المحامد والمحاسن :

أ ـ إطالة السكوت والرزانة والأناة والحلم والتؤدة والإتقان وعدم كثرة الكلام .

ب ـ لين الجانب وخفض الجناح والبشاشة وطلاقة الوجه ونزع رداء الكبر والعجب .

ج ـ طاعة الله وعبادته وتمجيده وتسبيحه وتكبيره .

د ـ الرضا والقناعة : (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) [٣] .

● وروى أيضا عن وهيب قال : قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه :(وأربع لا يجتمعن فى أحد من الناس إلا بعجب) . الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وأبو الشيخ وغيرهما .

● وروى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (سمعته يقول : خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة : لا تكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فعيب ، ولا تمار حليما ولا سفيها ، فإن الحليم يغلبك ، وإن السفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام) . رواه ابن أبى الدنيا .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٦ .
(٢) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١٢ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٠ .

﴿ المعنـــى ﴾

الدهم : العدد الكثير من النوق الواقفة بذخا وترفا ونعيما .

لا يعنيك : لا يهمك أمره فإنه زيادة ولغو وفضول وتطفل .

فيما يعنيك : ولا تكلم فيما يعنيك كذا ، والمعنى إذا تحادثت فى مهام أمورك فأصب المرمى وابحث عن الإجادة واختر الموقع الذى ينجحك .

ولا تمار : ولا تجادل ولا تخاصم . يقال :ماريته · جادلته .

ولا تمـار سفيهـا فى محـاورة ولا حليما لكى تنجو من **الزلل**
ولا يغـرنك من تبـدو بشاشتـه إليك مكرا فإن السم فى العسل

ويشير-صلى الله عليه وسلم-إلى نصائح خمس أجدى من النعم والجياد المرسلة والعز المقيم :

- الاجتهاد فى الكلام فيما فيه فائدة خشية ضياع الوقت واكتساب الذنوب .
- انتهاز فرصة النجاح للكلام .
- ترك محاربة العاقل اللبيب الفطن الأريب،والأحمق المغفل القبيح .
- ذكر الصديق الغائب بكل ثناء طيب .
- الجرى فى مضمار المحسنين المجيدين المتقين الذين يخشون الله تبارك وتعالى .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من صمت نجا) (١) . رواه الترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (٢) . رواه البخارى ومسلم .

● وروى عن النبى ﷺ قال : (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات فى الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم) (٣) . رواه مالك والبخارى واللفظ له .

والنسائى والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولفظه :

(إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفا فى النار) (٤) .

ورواه البيهقى . ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض،وإن الرجل ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه) .

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتحدث بالحديث ما يريد به سوءا إلا ليضحك به القوم يهوى به أبعد من السماء) . رواه أبو الشيخ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٠ . والدارمى فى الرقاق : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٩ ، ١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٩ .

(٣) البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والترمذى فى الزهد : ١٢ . وابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى الزهد : ٥٠ . والترمذى فى الزهد : ١٠ . وابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٤٠٢ ، ٥٣٣ .

● **وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم فيسقط بها أبعد من السماء، ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه فيسخط الله بها عليه لا يرضى عنه حتى يدخله النار) . رواه أبو الشيخ .**

● **وعن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)** [١] . رواه مالك والترمذى .

● وعن أمة بنت الحكم الغفارية رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الرجل ليدنو من الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قيد رمح فيتكلم بالكلمة فيتباعد منها أبعد من صنعاء) . رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى) [٢] . رواه الترمذى والبيهقى .

● وعن مالك رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم-عليه السلام-كان يقول : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية) [٣] . ذكره فى الموطأ .

● وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ : (كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله) . رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا .

● وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال) [٤] . رواه البخارى واللفظ له، ومسلم وأبو داود .

● وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثر الناس ذنوبا أكثرهم كلاما فيما لا يعنيه) . رواه أبو الشيخ فى الثواب .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) [٥] . رواه الترمذى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : توفى رجل، فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع : (أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ : (أولا تدرى ، فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه) [٦] . رواه

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ١٦ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦٢ .

(٣) أخرجه الامام مالك فى الكلام : ٨ .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٢ . ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ . والدارمى فى الرقاق : ٣٨ . والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، وفى ٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ وابن ماجة فى الفتن : ١٢ والإمام مالك فى حسن الخلق : ٣ والإمام أحمد فى ١ : ٢٠١ .

(٦) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ .

الترمذى .

● وروى ابن أبى الدنيا وأبو يعلى عن أنس أيضا رضى الله عنه قال : (استشهد رجل منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئا لك يا بنى الجنة . فقال النبى ﷺ : ما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره) .

● وروى أبو يعلى أيضا والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، شهيدا فبكت عليه باكية فقالت : وا شهيداه،قال : فقال النبى ﷺ : ما يدريك أنه شهيد ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه) .

● وعن أبى سلمة بن عبدالرحمن أن امرأة كانت عند عائشة ومعها نسوة فقالت امرأة منهن : (والله لأدخلن الجنة ، فقد أسلمت وما سرقت وما زنيت ، فأتيت فى المنام فقيل لها : أنت المتألية لتدخلن الجنة ؟ كيف وأنت تبخلين بما لا يغنيك ؟ وتتكلمين فيما لا يعنيك ؟! فلما أصبحت المرأة دخلت على عائشة فأخبرتها بما رأت . وقالت : اجمعى النسوة اللاتى كن عندك حين قلت ما قلت ، فأرسلت إليهن عائشة رضى الله عنها فجئن . فحدثتهن المرأة بما رأت فى المنام) . رواه البيهقى .

﴿ فضائل الصمت كما بينها ﷺ فى أحاديثه ﴾

أولا : يعد الصامت من أفاضل المسلمين .

ثانيا : يدخل الجنة من لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل .

ثالثا : يكسب محبة الله ويدفع غضبه ويسبب الستر ويبعد الفضيحة .

رابعا : يوصل إلى حقيقة الإيمان .

خامسا : يعد الصامت من أصحاب العزيمة القوية والإرادة الصارمة والهمة السامية .

سادسا : الصامت فى ظل الله وينضر وجهه وتشرق طلعته،والثرثار يكب على وجهه فى النار .

سابعا : الصامت العامل بسنة خير الخلق ﷺ . بعيد منه الشيطان قريب من رضا الرحمن .

ثامنا : يسلم الساكت من الأخطاء ويفر من الذنوب بصمته ولا يرد مواطن السوء بكلامه .

تاسعا : يكسو الصامت المهابة والرزانة والوقار (يصبن بعجب) .

عاشرا : ينجو الساكت من كل معصية ولا يهوى من سقطاته .

الحادى عشر : يبعد الساكت من اللغو والرفث والفسوق (أكثر الناس ذنوبا) .

الثانى عشر : يضيع الكلام الكثير الحسنات ودرجة الجهاد تمحوها لفظة من سخط الله تعالى « الشهداء »

قال ابن المقرى :

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه للزلل
فكم ندمت على ما كنت فهت به وما ندمت على مالم تكن تقل
وأضيق الأمر أمر لم تجد معه فتى يعينك أو يهديك للسبل
عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة كعفة الخود لا تغنى عن الرجل

إن المشاور إما صائب غرضا أو مخطىء غير منسوب إلى الخطل
لا تحتقر الرأى يأتيك الحقير به فالنحل وهو ذباب طيب العسل

﴿ بيان آفات اللسان كما فى إحياء علوم الدين ﴾

أولا : الكلام فيما لا يعنيك .

ثانيا : فضول الكلام ، أى:الزيادة على قدر الحاجة قال تعالى : **﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾** [١] .

ثالثا : الخوض فى الباطل ، أى:الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء . ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المكروهة وأحوالهم المذمومة .

قال ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ....) .

رابعا : المراء والجدل . قال مالك بن أنس رحمه الله : المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن ، والمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار فرية الكياسة .

والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

خامسا : الخصومة:أى،لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء أو اعتراضا ، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

سادسا : التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة « الثرثارون المتفيهقون » .

سابعا : الفحش والسب وبذاءة اللسان ومصدره الخبث واللؤم .

ثامنا : اللعن إما لحيوان أو إنسان أو جماد .

تاسعا : الغناء والشعر ، أى:الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والإيماء .

الثانى عشر : إفشاء السر .

الثالث عشر : الوعد الكاذب،فان اللسان سباق إلى الوعد،ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق،قال الله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾** [٢] .

الرابع عشر : الكذب فى القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب .

ولأبى العتاهية :

اسلك بنى مناهج السادات وتخلقن بأشرف العادات
لا تلهينك عن معارك لذة تفنى وتورث دائم الحسرات
إن السعيد غدا زهيد قانع عبد الإله بأخلص النيات

---

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .

أقم الصلاة لوقتها بشروطها فمن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن منه الأجل لأوجه الصدقات
فى الأقربين وفى الأباعد تارة إن الزكاة قرينة الصلوات
وارع الجوار لأهله متورعا بقضاء ما طلبوا من الحاجات
واخفض جناحك إن منحت إمارة وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وللعميد الطغرائى :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة اليأس من رقة الغزل
حلو الكلام كأن رجع حديثه در يساقطه إليك لسانه

وقال ابن السكيت :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرة القول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولزهير بن أبى سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

لا تراني راتعا فى مجلس لحوم الناس كالسبع الضرم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذى الجنا أبقى وإن كان ظلم

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى رسالة فمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

﴿ الآيات الدالة على فضائل الصمت الناهية عن اللغو ﴾

● قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (١) .

---

(١) الآيات ١ ـ ٣ من سورة المؤمنون .

واللغو:كل ما لا فائدة فيه لا للجسم ولا للنفس ولا للروح ولا للعقل ، فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيده فى حياته العاجلة ، أو حياته القابلة .

● وقال تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ (١) .

● وقال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين** ﴾ (٢) .

فلا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت بحفظه من جميع الآفات ، ألا ترى المؤمن قاتلا وقته بالجلوس على المقاهى يلعب النرد والشطرنج ، أو يخوض فى أعراض الناس ، أو يتحدث فى شئونهم بمالا يجدى نفعا ، أو يتدخل فيما لا يعنيه من شئون السياسة ، وليس من أربابها ولا من المنوط بهم درسها ، والدفاع عنها ، بل تراه هادئا ثابتا صامتا ساكتا لا يتكلم إلا فى مفيد ، ولا يتحرك إلا فى نافع ، ولا يفكر إلا فى منتج . يجد فى تحصيل رزقه وأهله وولده ليكف يده عن المسألة ، ويصون وجهه عن بذل مائه ، ويجلب العزة والكرامة والنبالة .

قال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.وفى الغريب : اللغو من الكلام : مالا يعتد به ، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور .

قال أبو عبيدة : لغو ولغا نحو عيب وعاب وأنشدهم عن اللغا ورفث التكلم يقال:لغيت تلغى نحو لقيت تلقى وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا قال تعالى : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾ (٣) ، ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما** ﴾(٤) .

● قال تعالى : ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما . إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا** ﴾(٥) .

● قال تعالى : ﴿ **واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ (٦) .

● قال تعالى : ﴿ **وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون** ﴾(٧) .

● قال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** ﴾ (٨) .

وقد قال الله تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ **ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ (٩) أى:اترك أولئك الكفرة الذين ينكرون ﴿ **إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟** ﴾(١٠).

وقال تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾(١١) .

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٥ من سورة النبأ .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الواقعة .
(٥) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء
(٦) الآية ١٠٨ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١٠) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١١) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام .

ينهى الله تعالى عن سب الآلهة التى يعبدها الكفار خشية أن يتطاولوا على عظمة الله وجلاله .

قال البيضاوى : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها، وكذلك العاقل يصمت أو يهجر الكلام القبيح فلا يجلس فى مجالس العصاة الفساق .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾ . هذه تزكية لأموالهم بعد تطهير قلوبهم بالإيمان ، وتزكية أرواحهم بالصلاة ، وتطهير ألسنتهم عن اللغو ، أثبت لهم القرآن الكريم هنا تزكية أموالهم بإخراج حق السائل والمحروم .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** ﴾ (١) .

ولابد لنا أن نسلط بعض الأضواء الكاشفة على تلك الفريضة المحكمة حتى نقطع المعاذير عن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ونسوا أنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ، ونبدأ بتعريفها :

فما هى الزكاة ؟ :

تعريفها : الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ، فإنها مأخوذة من الزكاة وهى النماء والطهارة والبركة ، قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ .

وهى أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية ، وقد فرضها الله تعالى بكتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته .

● روى الجماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن قال : (**إنك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**) (٢) .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ . ومسلم فى الإيمان ٢٩ . وأبو داود فى الزكاة : ٥ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ . والترمذى فى البر : ٦٨ . وابن ماجه فى الزكاة : ١ . والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

● وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير عن على كرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال : (إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما) .

قال الطبرانى : تفرد به ثابت بن محمد الزاهد .

قال الحافظ : وثابت : ثقة صدوق روى عنه البخارى وغيره وبقية رواته لا بأس بهم .

وكانت فريضة الزكاة بمكة فى أول الإسلام مطلقة لم يحدد فيها المال الذى تجب فيه ولا مقدار ما ينفق منه ، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم .

وفى السنة الثانية من الهجرة ـ على المشهور ـ فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال ، وبينت بيانا مفصلا .

الترغيب فى أدائها :

● قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ أى:خذ ـ أيها الرسول ـ من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهى التطوع ﴿ **تطهرهم وتزكيهم** ﴾ أى: تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين ، وما يتصل بذلك من الرذائل ، وتزكى أنفسهم بها.أى:تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعلمية ، وحتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية .

● وقال الله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ [(١)] .

جعل الله أخص صفات الأبرار الإحسان ، وأن مظهر إحسانهم يتجلى فى القيام من الليل ، والاستغفار فى السحر ، تعبدا لله ، وتقربا إليه كما يتجلى فى إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنوا عليه .

● وقال الله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ [(٢)] .

أى:إن الجماعة التى يباركها الله ويشملها برحمته هى الجماعة التى تؤمن بالله ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بإيتاء الزكاة .

● وقال الله تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [(٣)] .

جعل الله إيتاء الزكاة غاية من غايات التمكين فى الأرض :

---

(١) الآيات ١٥ ـ ١٩ من سورة الذاريات .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

● روى الترمذى عن أبى كبشة الأنمارى : أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة أقسم عليهم وأحدثكم حديثا فاحفظوه : « ما نقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر »[(١)].

● وروى أحمد والترمذى وصححه عن أبى هريرة :

أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه أو فصيله ، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد)[(٢)]. قال وكيع : وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات** ﴾[(٣)] ، ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾[(٤)].

وروى أحمد ـ بسند صحيح ـ عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين . والجار والسائل)[(٥)].

وروى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت ألا آثم : لا يستر الله عبدا فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة)[(٦)].

وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره).

وروى البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[(٧)].

الترهيب من منعها :

قال الله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٩٣ ، وفى ٢ : ٤٣٦ .
(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٨ . ومسلم فى الزكاة : ٦٣ ، ٦٤ . والترمذى فى الزكاة : ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٤٨ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢٨ . والدارمى فى الزكاة : ٣٤ . والإمام مالك فى الصدقة : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٣١ ، ٣٨٢ ، ٤١ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٢٥١ .
(٣) الآية ١٠٤ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٢٧٦ من سورة البقرة .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .
(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٧١ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .
(٧) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ . ومسلم فى الايمان : ٩٧ ، ٩٨ . والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ . والدارمى فى البيوع

قال تعالى : ﴿ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾(١).

وروى أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (مامن صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا أحمى عليه فى نار جهنم ، فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبهته ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومامن صاحب إبل لايؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ماكانت ، تستن عليه،كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى ، نار ، ومامن صاحب غنم لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قالوا : فالخيل يارسول الله ؟ قال : الخيل فى نواصيها-أو قال : الخيل معقود فى نواصيها-الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التى هى له أجر فالرجل سيتخذها فى سبيل الله ويعدها له فلا تغيب شيئا فى بطونها إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها فى بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر فى أبوالها وأرواثها ، ولو استنت شرفا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر ، وأما التى هى له ستر : فالرجل يتخذها تكرما وتجملا ، ولاينسى حق ظهورها وبطونها فى عسرها ويسرها ، وأما التى هى عليه وزر فالذى يتخذها أشرا وبطرا وبذخا ورياء الناس ، فذلك الذى عليه الوزر.قالوا : فالحمر يارسول الله ؟ قال : ماأنزل الله على فيها شيئا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٢)(٣) .

● وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه- يعنى شدقيه - ثم يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ (٤)(٥) .

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقى-واللفظ له - عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

(يا معشر المهاجرين ، خصال خمس - إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٣) خرجه مسلم فى الزكاة : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ . وأبو داوذ فى الزكاة : ٣٢ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٩ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٩٠ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٥) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣ . ومسلم فى الزكاة : ٢٧ ، ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٦ ، ٢٠ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢ . والإمام مالك فى الزكاة : ٢٢ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٩٨ ، ٢٧٩ ، ٣١٦ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة . وجور السلطان ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض مافى أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[١] .

وروى الشيخان عن الأحنف بن قيس قال : (جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نخض كتفه،ويوضع على نخض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتزلزل)[٢] .

ثم ولى فجلس إلى سارية ، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدرى من هو . فقلت: (لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئا : قال لى خليلى . قلت : من خليلك ؟ قال : النبى ﷺ أتبصر أحدا ؟ قال : فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلنى فى حاجة له ، قلت : نعم . قال : ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير،وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا . لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل)[٣] .

﴿ المعانى ﴾

بطح : أى بسط ومد

القرقر : المستوى الواسع من الأرض .

كأوفر : أى كأعظم ما كانت .

تستن : أى تجرى .

مضى : أى مر .

الظلف للغنم : كالحافر للفرس .

عقصاء : أى ملتوية القرنين .

جلحاء : أى التى لا قرن لها .

المرج : أى المرعى .

الشرف : أى العالى من الأرض .

الأشر : أى البطر .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٤ . ومسلم فى الزكاة : ٣٤ .

البطر : شدة المرح .
وبذخا : تكبرا .
الجامعة : أى المتناولة لكل خير وبر .
الفاذة : أى القليلة النظير .
مثل : صور .
الشجاع : الذكر من الحيات .
الأقرع : الذى ذهب شعره من كثرة السم .
زبيبتان : أى نكتتان سوداوان فوق عينيه .
الفاحشة : أى الزنا .
الأوجاع : أى الأمراض .
السنين : أى الفقر .
القطر : أى المطر .
بأسهم : أى حربهم .
رجل خشن الشعر : هو أبو ذر رضى الله عنه .
الرضف : أى الحجارة المحماة .
نخض : أى أعلى الكتف .

*** حكم مانعها :**

الزكاة من الفرائض التى أجمعت عليها الأمة ، واشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين ، بحيث لو أنكر وجوبها أحد خرج عن الإسلام ، وقتل كفرا إلا إذا كان حديث عهد بالإسلام ، فإنه يعذر لجهله بأحكامه .

أما من امتنع عن أدائها ـ مع اعتقاده وجوبها ـ فإنه يأثم بامتناعه دون أن يخرجه ذلك عن الإسلام ، وعلى الحاكم أن يأخذها منه قهرا أو يعزره ، ولا يأخذ من ماله أزيد منها إلا عند أحمد والشافعى فى القديم فإنه يأخذها منه ونصف ماله ، عقوبة له لما رواه أحمد والنسائى وأبو داود والحاكم والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (فى كل إبل سائمة . فى كل أربعين ابنة لبون لايفرق إبل عن حسابها من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا تبارك وتعالى ، لا يحل لآل محمد منها شيء)[1] .

وسئل أحمد عن إسناده فقال : صالح الإسناد . وقال الحاكم فى بهز : حديثه صحيح .

ولو امتنع قوم عن آدائها مع اعتقادهم وجوبها وكانت لهم قوة ومنعة ، فإنهم يقاتلون عليها حتى يعطوها ، لما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل

(١) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ١ . والبخارى فى الاعتصام : ٢ . ومسلم فى الايمان : ٣٢ . والترمذى فى الإيمان : ١ . والنسائى فى الزكاة ٢ : ٣ . والإمام مالك فى الزكاة : ٣٠ .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) .

ولما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : 'أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . فقال عمر : فو الله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق) [1] .

ولفظ مسلم وأبى داود والترمذى : (لو منعونى عقالا) بدل (عناقا) .

المعانى

عقوبة له : ويلحق به من أخفى ماله ومنع الزكاة ثم انكشف أمره للحاكم .

مؤتجرا : أى طالبا الأجر .

عزمة : أى حقا من الحقوق الواجبة .

روى البيهقى أن الشافعى قال : هذا الحديث، لا يثبته أهل العلم بالحديث ولو ثبت قلنا به .

نقاتل الناس : المراد بهم بنو يربوع وكانوا جمعوا الزكاة وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبى بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم فهؤلاء الذين عرض الخلاف فى أمرهم ووقعت الشبهة لعمر فى شأنهم مما اقتضى مناظرته لأبى بكر واحتجاجه على قتالهم بالحديث وكان قتاله لهم فى أول خلافته سنة إحدى عشرة من الهجرة

عناقا : أى أنثى المعز التى لم تبلغ سنة .

*** على من تجب :**

تجب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب من أى نوع من أنواع المال الذى تجب فيه الزكاة .

ويشترط فى النصاب :

١ ـ أن يكون فاضلا عن الحاجات الضرورية التى لا غنى للمرء عنها : كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ ـ وأن يحول عليه الحول الهجرى ويعتبر ابتداؤه من يوم ملك النصاب ولابد من كماله فى الحول كله . فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله .

قال النووى : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور : أنه يشترط فى المال الذى تجب الزكاة فى عينه ويعتبر فيه الحول كالذهب والفضة والماشية : وجود النصاب فى جميع الحول فإن نقص النصاب فى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وفى ٢٥ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، وفى ٦ : ٨ .

لحظة من الحول انقطع الحول . فإن كمل بعد ذلك استؤنف الحول منه حين يكمل النصاب .

وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب فى أول الحول وآخره ، ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو كان معه مائتا درهم فتلفت كلها فى أثناء الحول إلا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت فى أثناء الحول إلا شاة ثم ملك فى آخر الحول تمام المائتين أو تمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .

وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار فإنها تجب يوم الحصاد . قال الله تعالى : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ (١) .

وقال العبدرى : (أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو نماء فى نفسه كالحبوب والثمار ، فهذا تجب الزكاة فيه لوجوده ، والثانى ما يرصد للنماء كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والماشية ، فهذا يعتبر فيه الحول ولا زكاة فى نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

بعدما زكى الله تعالى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بإخراج الزكاة ، زكى أعراضهم بالحفاظ عليها إلا فى حدود ما أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ .

أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم (قربانُ الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة ، والإعراض عن الشهوات .

﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

أى:فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان ، والمتعدون لحدود الله .

نعم إن المؤمنين هم الذين حفظوا فروجهم من الحرام فلم يقعوا فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط واستمناء باليد لا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السرارى التى أخذت فى الحروب ، لا التى شاعت فى القرون السابقة ، وكانت تباع فى الأسواق ، فالشرع لم يحلل الرق إلا فى صورة واحدة هى فى حروب الإسلام مع الكفار ، فتقسم النساء على المحاربين إكراما لهم ، مع أن الدين حض فى كل مناسبة على تحرير الرقاب ، ولم يكن الرق واجبا حتميا بل جعله فى يد الإمام يفعله متى شاء ، وعلى ذلك فلنا أن نحرمه الآن لما يترتب عليه .

ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك** ﴾ أى:غير الأزواج والإماء ، فأولئك هم المعتدون المتجاوزون ، وعلى ذلك حرم نكاح المتعة ، **والاستمناء** باليد .

والإجماع من كل العلماء ماعدا أحمد بن حنبل على تحريمه لظاهر الآية ، ولحديث أنس بن مالك : (سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم . ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار فى أول الداخلين : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ،

---

(١) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)

* الرق .. وملك اليمين *

اعلم أن الإسلام محرر العبيد ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [١] .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه !

والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير !

والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء :

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام ، والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن ، أو طعنة لغامز ، لو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام :

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه : (ما يقال عن الإسلام) :

مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، **أولاهما** : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما **الوجهة الأخرى** التى يتفق عليها الماديون والمبشرون : فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياسا على نجاح الإسلام بين الافريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية ، فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ، ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ، ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الاسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا ، وهم ـ أى:دعاة المادة والتبشير ـ أول من يعلم من تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها

---

(١) الاية ١٦٤ من سورة ال عمران

للإسلام ، وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

هكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الاسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه ، كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب،أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (فى الدين والأخلاق والقومية) ما نصه :

محمد محرر البشرية :

عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟

وإن تعجب لشىء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم ، بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الإختلاس والاغتصاب ، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب : فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين** ﴾[1] .

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة يوسف .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لانقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، ومیازیب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها . وسأفسر لك ذلك :

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء ، حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين ، ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار ، وأمنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف والسلب ولا البيع والشراء ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل . . لم يعد شيء من ذلك كله ـ منذ ظهر الإسلام ـ يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بين الأحرار والاماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الاسلام ـ قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ـ أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام ـ وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ـ قد ترك ـ إلى جانب هذه الأبواب ـ منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين ـ فى هذه الحال ـ أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ، ولا استرقاقه ، وإنما

نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [(١)] .

كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفا بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمى الحرب) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظراته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجا له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون منه نزولا على حكم الضرورة اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى وإنما يتخذه إجراء مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ﴾ [(٢)] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار) [(٣)] .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهما مكررا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح (قانون الكفارات) وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع (كفارة الإساءة) التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه : وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه) [(٤)] .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة . أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه ـ عند أكثر الأئمة ـ أن

---

(١) الآية ٤ من سورة محمد (٢) الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة البلد .

(٣) أخرجه البخارى فى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : وأبو داود فى العتاق : ١٣ . والترمذى فى النذور ١٤٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ١١٣ ، ٣٢١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٤ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٤٥ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ ، ٣٠

يصير العبد حرا بمجرد إصابته فينزع من ملك السيد قهرا عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم ، لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين : ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك - ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق : فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟

نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية فأعد لهم فيها وسائل للترفيه ، تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات . . ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم . . هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم : فأعينوهم)[1] .

صدقت يا نبى الرحمة - صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ - منع لإنشائه وابتدائه .

٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ - عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى :

أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات ، وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو فى كل شئونه :

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة . يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعا متساوين فى الإنسانية لأنهم جميعا صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . . (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) .

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى العتق : ١٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٠ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وهذه المساواة العامة للإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق ـ فى قليل أو كثير ـ من طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟ التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية ، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبدا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه . والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانا ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق تبارك وتعالى أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة ؟ والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة ... لمن كان فى بحر الحقيقة راقى

شخوص وأشكال تمر وتنقضى ... فتفنى جميعا والمهيمن باقى

الاسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعلن فى خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] .

ويقول القرآن الكريم : **﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[2] .

أخا الاسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

* *

إن المساواة تدعو إليها الفطرة العامة ويقضى بها المصير المشترك ويتطلبها عدل السلوك سلام الإنسانية . . . قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعا إلى عبادة الرب الواحد ، رب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤١١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

العالمين ، وهذه المساواة فى الإنسانية : تستلزم المساواة فى الحقوق . . فالناس جميعا أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع . .

فالحق أساس هذا الدين والعدل سياجه والناس ـ مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم ـ أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة يامن قلت : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ (١) .

العدالة فى الاسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق يستوى فيه الأصدقاء ، والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله جل شأنه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (٢) .

وأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة . . انها غضبة مضرية . .

وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى (أسامة بن زيد) الحب ابن الحب يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل ـ كانت قد سرقت ـ ويقول له غاضبا معنفا : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم يخطب فى الناس قائلا : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها) (٣) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمن هذا المبدأ الخالد بعدما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول :

(أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه).

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الحدود : ١٢ . ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ . وأبو داود فى الحدود : ٤ . والترمذى فى الحدود : ٦ . والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى الحدود : ٦ . والدارمى فى الحدود : ٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ٤٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى أمر القضاء : (آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك) .

وها هو ذا (ضرار الصدائى) يصف أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية فيقول : (كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه،ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته،ولا نبتدئه لعظمته،يعظم أهل الدين ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . . . كان ـ والله ـ غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه) .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية وقد قال له كلمته الخالدة : ياعمرو : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

أبعد هذا التكريم للبشرية يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول:إن الرق فى الإسلام يعتبر تهمة توجه ضده وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئا بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾[1] .

هذا الإسلام هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ما جرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم الأول أمام عمر وكان الخصم يهوديا وكان عمر ـ كعادته ـ ينادى عليه قائلا : ياأبا الحسن فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ظهر الغضب على،وجه على فظن عمر أن عليا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة وعلى هو من تعلم : حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا . . قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ؟ فقال على رضى الله عنه : إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكنيتى ! !

أرأيت أن المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له فيغضب ، ويعد هذا تمييزا فى موطن القضاء . . وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن : (موطن القضاء ورد الحقوق) ! ! !

* *

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟ !

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

---

(١) الأيتان ٨ ، ٩ من سورة الحج .

شتان ثم شتان بين عدل الخالق جل شأنه وبين ظلم المخلوق ! !

وحسبك ياأخى أن تعلم أن الاسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو . . مع الفقير والغنى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾(١) .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى والعدل الربانى . . تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفريق بين الأسود والأبيض وتجعل للبيض حقوقا لا ينالها مواطنوهم السود .

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب أفريقيا وغيرهما من دول العالم بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان ! !

* *

محمد : الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾(٢) .

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الإسلام وجماله . . فأولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم ان يقولوا:إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد فقد كانت أول رضعة وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه أبى لهب ، تسمى (ثويبة) وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد ﷺ : فرح بهذا الخبر فرحا عظيما ، وكانت مكافأته لها : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة . . وكان مولده الشريف إيذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى إنها السيدة الجليلة (بركة الحبشية) المكناة بـ (أم أيمن) .

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله ﷺ وقال لها سيدنا محمد ﷺ بعد موت أمه : (أنت أمى بعد أمى) وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى الإسلام . . إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى ﷺ من النساء ، وأقامت (أم أيمن) بمكة تحتمل أذى المشركين إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه . ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع . حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ، ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش .

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨ من سورة الجاثية .

أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال .

ومما حضرته من الغزوات غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى ﷺ .

هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر النساء المهاجرات حظا فى الشهداء من رجالهن . . فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن الذى مات شهيدا (يوم خيبر) وبعد موت (عبيد) : تزوجت بزيد بن حارثة ، وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقد مات « زيد » شهيدا فى (مؤتة) فصبرت على فقد زوجها (زيد) وابنها (أيمن) وكان (أسامة) غلاما فعكفت على رعايته والعناية به حتى جعلت منه رجلا يقود جيشا : فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى ﷺ ولم يكن (أسامة) قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبى ﷺ كانت (أم أيمن) تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما دخلا عليها بكت فقالا لها : ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت (أم أيمن) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه ، سنة ٦٤٣ م .

**

أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول ﷺ ، فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ !

إن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن محمدا ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله ﷺ الذى قال فى شأنه : (أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى)[1] .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام :-

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فاحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف أبوه بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل فحج قوم من (كلب) وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى (حارثة بن شرحبيل) ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا (زيدا) فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به (سوق عكاظ) فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن

(١) أخرجه البخارى فى الصلح : ٦ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٠١٧ والإمام أحمد فى ١ : ١٠٨ ، ١١٥ ، وفى ٥ : ٢٠٤ .

خويلد ، لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش : محمد ﷺ وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه .

فخرج (حارثة) وأخوه (كعب) بفدائه ، وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فدخلا عليه وقالا : يابن عبد الله ! يابن عبد المطلب ! يابن هاشم ! يابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئنا فى ابننا فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء .

فقال لهم الرسول ﷺ : (ادعوه فخيروه فإن أختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى) .

فدعاه النبى ﷺ وقال له : (هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله ﷺ : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما) .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يازيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ! قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر وقال : (يامن حضر:اشهدوا أن زيدا ابنى ، أرثه ويرثنى) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا .

ونزلت الرسالة على محمد-صلوات الله وسلامه عليه- فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء ، ولم يفارق النبى-صلوات الله وسلامه عليه-لحظة فأحبه النبى حبا شديدا وأذن النبى ﷺ فى الهجرة لأصحابه ، هاجر زيد ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى (يثرب) وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين فى الله ، ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ، واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى (المريسيع) وشهد (الخندق) و (الحديبية) و (حنينا) .

وخرج (زيد) أميرا فى سبع سرايا أولها (القردة) فاعترض لعير قريش فأصابها . وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر (زيد) (فرات بن حيان العجلى) وقدم بالعير على النبى ﷺ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلف) .

وأراد رسول الله ﷺ أن يغزو الروم فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثة) فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة) .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الإسلام (زيد بن حارثة) .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة؟

هذا (زيد) يقود جيشا فيه (جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ﷺ الشريف الكريم ، وفيه (خالد بن الوليد) وخالد هو سيف الله المسلول .

ومن بعد زيد : قاد ابنه (أسامة) الحملة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق ، وعمر الخليفة ، فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية وزكى النفوس وطهر القلوب ! !

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتها لك شرعة قدسية غراء

والمسلمون جميعهم جسد إذا عضو **شكا** سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى (مؤتة) وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ ! وتناولته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول الله ﷺ .. وأخيرا .. استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة !

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، حيث قال : (زيد ابنى) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى ﷺ يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) .

ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فقال له الرسول ﷺ : (ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

* *

يرحمك الله يازيد بن حارثة ! يامن أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم عليك الله بالإسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق .. يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة فلقيته شهيدا ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] . .

بلال بن رباح

مؤذن رسول الله (وكفى بالأذان شرفا)

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة

(١) الأيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

وكرامة ؟

كان (بلال) عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف ، كان كلما اشتد عليه الأذى ، وتضاعفت أمامه الكروب . . ازداد إيمانا على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة ، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه .

ولا عجب فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان ، حديد الوجه ، حديد القلب . . لو وزعت قسوة قلبه على الناس ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : (أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد) .

أجل يابلال ! إن الله واحد فى ذاته لا شريك له،واحد فى صفاته لا نظير له . . إنه رب السماء والضعفاء والجبال والشجر . . إنه رب عزيز قادر له الجبين قد سجد !

ويردد (بلال) هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ويشتاط عدو الله غضبا فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله . عذب ما شئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئا ؟ !

لله درك يابلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله ﷺ .

عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله ﷺ : (إنك أندى صوتا) . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق البيت الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا المؤذن ؟

فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ **يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾[1] .

سرعة بديهته رضى الله عنه :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك ، عندما سألك سائل فقال لك يابلال : ابن من أنت ؟ فقلت له على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة !

صدقت يابلال فرسول الله ﷺ يؤيدك كل التأييد إذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)[2] .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى ، لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يابن السوداء،فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك : امتلأ غضبا وقال

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٤٩ : ٥٠ ، وفى المناقب : ٧٣. وأبو داود فى الأدب : ١١١. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

فى حدة وشدة : (ياأباذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)[١] .
وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتارة ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يابلال : طأ على خدى بقدميك) .
إنه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .
إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان ، فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم !

دعابة لطيفة : ـ

لقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء النفر الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والعتق : يبش لهم **ويبتسم** .
سأل رسول الله ﷺ بلالا ذات يوم ـ وكان يوم الأضحى ـ بم ضحيت يابلال ؟ فقال:يارسول الله : لم أجد إلا (ديكا) فضحيت به فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة:(مؤذن ضحى بمؤذن) .
وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا .
فرحمك الله يابلال ، يامن رفعت إلى مكانة فى الإسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلا عظيما ، وأجرا كريما .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، **وقدح** زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .
نشأ بين قوم فى بلاد الفرس يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائما على شأن النار يغذيها بالوقود ، إذا ما أوشكت أن تضعف . . . !
ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات . . هل يليق بالإله أن يكون محتاجا إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . .
وأخيرا . . . ولى هاربا وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة . . . ونزل على أحد الرهبان فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء ، وولى (سلمان) وجهه شطر المدينة فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه قد اشتراه فصار (سلمان) عبدا مملوكا لذلك اليهودى ، يقوم على خدمته ورعاية شئونه .
ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر منه الصفات التى أرشده إليها الراهب الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى ﷺ لا يقبل الصدقة . ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حرا ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه فقال الرسول ﷺ لهم : (سلمان منا آل البيت) .

---
(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى الأدب : ٤٤ . ومسلم فى الإيمان : ٣٨ ، ٤٠ وأبو داود فى الأدب : ١٢٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ٠١ الإمام أحمد فى ٥ : ١٦١ .

وكان (لسلمان) موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) . . عندما ادلهمت الخطوب واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة استشار الرسول أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأى قبولا مطلقا فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى (لسلمان) هذا الموقف الإسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه ، وعمق تغلغله فى مفاهيم الإسلام . . قال له سائل : ياسلمان : من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : (أنا ابن الإسلام) ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين (عمر) بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الإسلام .

أجل ياسلمان !

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب **أبا** لهب

كان (سلمان) رجلا مجدا فى حياته لا يعرف الكسل . . كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه . . كان يأتى بـ (خوص) النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الربح أقساما ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة !

وقد صدق فيه قول رسول الله ﷺ : (إن الله يرضى لرضا سلمان ، ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها) .

رحمك الله ياسلمان ، وجزاك عن الإسلام خيرا ، يامن قال عنك الرسول ﷺ:(سلمان منا آل البيت) :

هنيئا لك ، ثم هنيئا لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه . .

وخلاصة القول : ـ

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ﷺ عن هؤلاء المستضعفين ، وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا ان نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد ان عليها صدأ الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الإسلام على افترائهم ؟

لقد مروا برسول الله ﷺ ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[1] .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

وقال أيضا : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[١] .

بل لقد كرمهم القرآن تكريما دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[٢] .

وكان السيد الجليل رسول الله ﷺ إذا لقيهم يقول : (مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا) .

ذلكم هو الإسلام العظيم

إن الإسلام هو الحق الذى لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ولا أرباعها ، ويأبى الترقيع ، ولقد صدع الإسلام فى عهد النبوة كل محاولة لمساومة أصحابه واستدراجهم لقبول بعض الحلول ، أو التنازل عن بعض الحق .

فهذه قريش تقترح على محمد أن يعبد آلهتها شهرا لتعبد إلهه شهرا آخر ، فينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم من أمثال هذه المساومات ، فيقول : ﴿ **قل يأأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين** ﴾[٣] .

وجاء عتبة بن ربيعة يوما إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه العروض السخية ، يعرض عليه المال والملك والسلطان ، على أن يترك الأمر الذى جاء به ، ويتخلى عن الإسلام ، لكن محمدا ﷺ التفت إليه مستعليا بإيمانه ، معتزا بإسلامه ، قائلا : (ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) .

وقد يكون من نافلة الكلام أن نقول إن البشرية لم تعرف فى مدار التاريخ منهجا (واقعى) الخصائص كالاسلام ، فهوا المنهج (الوحيد) الذى غير مجرى الحياة الإنسانية ، وأحدث فى المجتمع البشرى انقلابا جذريا شاملا ، قوض كل الأفكار ، وكل الأخلاق ، وكل المعتقدات الجاهلية .

فالمنهج الإسلامى تجاوز نطاق النظريات (التجريدية) وتجسدت مبادئه واقعا حيا عاشه الناس ، وحفظه التاريخ ، ونطقت به الشواهد والأحداث .

وكان مبدأ (لا إله إلا الله) دفعة العقيدة فى قلوب الناس ، ومحرك الثورة الأصيل فى نفوسهم ورمز انخلاعهم من ضلالات الجاهلية وأوضارها وانصهارهم فى بوتقة الدين الجديد ، وكان الجذوة المتقدة التى حررت الإنسان من عبودية الأصنام ، وكرمته من اتخاذ الناس أربابا من دون الله ، وألزمته إفراده سبحانه بالربوبية والألوهية ، والخضوع والحاكمية ، فلم تكن (لا إله إلا الله) شعارا تتحرك به الألسن من غير وعى ، أو ترديده الشفاه بدون إدراك .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الانعام .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٣) سورة الكافرون .

وإنما كان هتافا ربانيا عميقا يحدو القلوب إلى السماء ويشدها نحو العلاء ، فتمتلىء بقوة الله قوة ، وتحس فى وصاله طمأنينة ، وتغدو بجواره عزيزة كريمة .

بهذا الامتلاء العقيدى والعبق الإيمانى ، كان العربى بعد الإسلام يقف أمام طواغيت فارس والروم ، يدعوهم إلى الإسلام باعتزاز ، ويبين تعاليمه بجرأة ، ثم يحذرهم عاقبة جحودهم وكفرانهم ، ويخيرهم بين الجزية والحرب ، ذكرت كتب التاريخ أنه قبيل معركة (القادسية) طلب رستم قائد الفرس من المسلمين أن يرسلوا إليه وفودا ورسلا منهم ليباحثهم ويباحثوه ، ويفاوضهم ويفاوضوه .

فندب المسلمون فيمن ندبوا (المغيرة بن شعبة) ليكون سفيرهم إلى رستم ، فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطتهم (أدنى) من مجلس رستم جاء وجلس معه على سريره ، فغضب وأمر بإنزاله عن السرير ، فالتفت المغيرة إليهم قائلا : (إننى لم أر أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننتكم كذلك ، وكان أحسن بكم ان تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، مع أنى لم آتكم وإنما دعوتمونى ، فقد علمت أنكم مغلوبون ، ولن يقوم لكم ملك على هذه السيرة ،

وتكلم رستم فعظم من شأن فارس ، ثم قال : (كانت عيشتكم سيئة ، وكنتم تقصدوننا فى الجدب ، فنردكم بشىء من التمر والشعير ، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من جهد ، فنحن نعطى لأميركم كسوة وبغلا وألف درهم ، وكل رجل منكم حمل تمر ، وتنصرفون ، فلست أشتهى قتلكم) .

فلم يكن من المغيرة إلا أن التفت إليه قائلا: (أما الذى وصفتنا به من سوء الحال والضيق ، فنعرفه ولا ننكره ، والدنيا دول ، والشدة بعدها رخاء ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلا على ما أوتيتم ، وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال ، وإن الله بعث فينا رسولا يدعونا إلى كذا ، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك فهو الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة) .

والعبادات فى الإسلام ليست طقوسا جامدة ، أو مراسيم ميتة ، لا هدف لها ولا غاية ، بل إن الإسلام أرادها (مدرسة) للتربية (ومصنعا) للأخلاق والمثل ، أرادها معراجا تسمو به النفوس وتحلق ، ومصفاة تصفو بها الأرواح وتزكو ، فالإسلام يحرص من عباداته على نتائجها وآثارها ، ويحاسب على مدى التفاعل بها فضلا عن فرضية أدائها .

فالمدلول التطبيقى ، والهدف العملى لمبدأ (الصلاة) أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وأنه لا قيمة للصلاة عند الله ما لم تؤد هذا الغرض ، فقال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[1] .

وقال الرسول ﷺ : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا) ,

وقال : (كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب) .

وقال : (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) .

والمدلول التطبيقى والهدف العملى لمبدأ (الصوم) ترويض النفس وسائر الأعضاء على الطاعة ،

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

وأنه لا ثواب لمن صام بطنه وأفطر فرجه ، أو صامت معدته عن الطعام وأفطرت جوارحه على البغى والفحش والفجور ، وهذا ما يؤكده الإسلام فى أحاديث كثيرة للرسول ﷺ ، يقول فيها : (**إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم ، إنى صائم**)[1] .

ويقول : (كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش) .

ويقول : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) . وجاء فى الخبر : (**إن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا ان تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذنانه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : قل لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك فقال الرسول ﷺ : هاتان صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما ، قعدت إحداهما إلى الاخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا مما أكلتا من لحومهم**)[2] .

وهكذا تستهدف فلسفة العبادة فى الإسلام تحقيق الأثر الفعلى ، وحصول التحول الكيفى فى حياة الناس .

كذلك القول فى القواعد الأساسية التى يقوم عليها التشريع الإسلامى ، فإنها تمتاز بقابليتها الأصلية ، واستعدادها الفطرى للتطبيق .

فالتشريع الإسلامى ليس كسائر التشاريع المسطرة فى بطون الكتب البعيدة عن صميم حياة الناس ، بل إن نزعته التطبيقية وخصائصه التنفيذية تجعله منهجا ثوريا وحركيا وانقلابيا ، فيه كل امكانات الثورة ، وكل متطلبات الحركة ، وكل حاجات الانقلاب .

فمن الشواهد التطبيقية لمبدأ (المساواة) فى الإسلام أن رسول الله ﷺ قلد أسامة بن زيد إمرة الجيش الإسلامى ، وهو ابن عبد رقيق ، وفى الجيش كبار الصحابة ، وأن بلالا الحبشى بلغ فى الاسلام مقاما عظيما وشأوا كبيرا ، جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا ذكره يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) .

وإنه لما خرج المسلمون لفتح مصر رغب المقوقس فى المفاوضة فأرسل إليهم وفدا ليعلم ما يريدون ثم طلب منه أن يبعثوا إليه وفدا منهم ، فشكل عمرو بن العاص (قائد الجيش آنذاك) وفدا قوامه عشرة من المسلمين ، برئاسة (عبادة بن الصامت) وكان شديد السواد طويلا .

ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة ، فأبى أن يكلمه رجل أسود ، وقال لمن معه : نحوا عنى هذا الأسود ، وقد مواغيره يكلمنى : فقال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه ، وقد امره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٢ ومسلم فى الصيام : ١٦١ ، ١٦٢ . وأبو داود فى الصوم : ٢٥ . والترمذى فى الصوم : ٥٤ . والنسائى فى الصيام : ٤٢ ، ٤٣ . وابن ماجه فى الصيام : ١ . والدارمى فى الصوم : ٢٧ ، ٥٠ والإمام أحمد فى ١ : ١٩٥ ، وفى ٢ : ٢٧٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤٣١ .

فقال لهم المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

ومن الشواهد **التطبيقية** لمبدأ (العدالة) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، ولكن على منازلنا فى كتاب الله تعالى ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين **الراعى** بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى غنمه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أعلن مبدأ العدالة فى كلام جامع قال فيه :(**لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى**)[١] .

فقد أصبح القول عملا ، والمبدأ واقعا فى حياة المسلمين ، وعلائقهم ومعايشهم ، وتحقق فيهم قول الله تعالى:﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾[٢] .

بهذه النماذج التطبيقية كانت تتجسد مبادىء الإسلام التشريعية فى حياة المسلمين ، لم تكن شعارات للاستهلاك والمتاجرة ، كما أنها لم تكن نظريات ومثاليات مجردة عاجزة عن التطبيق ، عارية عن التصديق .

كذلك فإن قيام المجتمع الاسلامى فى عهد النبوة ، واستمراره زمنا ليس بالقصير ، دليل حاسم على قابلية الاسلام للتطبيق .

يقول (توماس كارليل) : ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فإنه حطب جاف أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب ، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة منذ بدء العالم ،فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

ولو تخطينا الإسلام إلى سواه من الاتجاهات والمبادىء الفكرية والسياسية (الوضعية) لرأينا أنها لا

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٧ ، وفى الفتن : ٢٠ .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

تزال تخبط في مجالات التطبيق خبط عشواء ، فلا تكاد تستوى حتى تتعثر ، ولا توشك أن تتقدم حتى تتقهقر ، ويكفى أنها لم تقدم حتى الآن بين يدى الواقع ما يؤكد قابليتها التطبيقية ، بل إن الفشل عنوان تجاربها ، ومحاولاتها الكثيرة المستمرة .

ويلاحظ المتتبع للتطورات الفكرية والسياسية فى العالم آثار التخبط التى يعانيها الاتجاه الماركسى فى مجالات التطبيق .. وبخاصة فى أرض التجربة الأولى فى (روسيا) .

ففى أيلول عام ١٩٦١ نشرت جريدة (البرافدا) الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفياتى ، مشروع برنامج جديد للحزب يؤكد للمرة الثالثة خروج الحزب عن مبادئه الأساسية ..

فقد تضمن المشروع فكرة إلغاء النهج الثورى الذى تعتمده الشيوعية فى هدم الكيان الرأسمالى ، والذى نصت عليه الفقرة الواردة فى الصفحة ٢٥ من كتاب (المادية الدياليكتيكية) بما يلى : (وبالتالى فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرير الطبقة العاملة من النير الرأسمالى يمكن تحقيقها لا بتغييرات بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل بتغيير كيفى للنظام الرأسمالى أى بالثورة) .

وهذا ما جعل بكين وموسكو ـ فى السنوات الأخيرة ـ مسرحا لانشقاق كبير ، وخطير على مستقبل الاتجاه الماركسى نفسه !!

وفضلا عن جنوح المنهج الجديد الذى ـ نشرته الجريدة المذكورة ـ عن فلك النظام الأساسى للحزب الشيوعى .

فقد أكد المنهج من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعى خلال العشرين سنة المقبلة ، فشل النظام الشيوعى خلال الأربعين سنة الماضية فى خلق الأساس الأيدلوجى والمادى للمجتمع الشيوعى ، وهذا يعنى بدون شك أن الشيوعية كفكرة فقدت القدرة على ما (تسميه بالحتمية التاريخية فى الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية) .

ويعود منشأ هذا العجز إلى أن النظرية الشيوعية لا ترتكز على أصول وقواعد عامة شاملة مرنة ، مما عرضها إلى كثير من التعديل والتبديل فى نظرياتها المنهجية والفكرية .

فمبدأ محو الملكية الفردية عدل عنه إلى حل وسط .. وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة ، والتجارة الخارجية ، والمصارف ، والمشاريع العامة ، كذلك عدل عن مبدأ توزيع السلع الاستهلاكية ، فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفياتى المعدل عام ١٩٣٦ (من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل . ومن لا عمل له ليس له الحق فى أن يأكل)

ثم جاء المشروع الجديد الصادر عام ١٩٦١ يشير إلى أن الاتحاد السوفياتى سيطبق خلال العشر السنوات الواقعة مابين (١٩٧١ ـ ١٩٨٠) مبدأ التوزيع حسب الحاجة ...

وبذلك يتراجع الشيوعيون مرة أخرى عن تعديل عام ١٩٣٦م .

ومن شواهد الفشل التطبيقى لمبدأ المساواة فى المجتمع الشيوعى .. يقول (كرين برنتون) فى كتابه (الثورة الشيوعية عناصرها ـ تحليلها ـ نتائجها صفحة ٣٣٥) : يعيش الروس الآن ـ كما يعرف

حتى المناصرون للشيوعية فى مجتمع يتفاوت فيه توزيع السلع الاستهلاكية ودخل الفرد تفاوتا كبيرا ، فالسياسى الروسى ذو المكانة ، أو مدير المصنع أو الكاتب أو راقصة الباليه يتمتع هؤلاء بثروة مادية تجعل من المجتمع الروسى مجتمعا يفتقر فى أساسه إلى المساواة الاقتصادية ، بقدر ما يفتقر إليها أى مجتمع رأسمالى . .

وثمة شواهد كثيرة على إخفاق (الشيوعية) فى مجالات التطبيق يضيق المجال لتعدادها . .

وقد خدع كثير من شبابنا بمظاهر المدنية الغربية . . وظنوا أن نظافة القوم فى مظاهرهم دليل على نظافة أرواحهم وضمائرهم ، وأن سبقهم فى ميادين الكشوف والاختراع يكفى لجعلهم مثلا عليا فى كل شىء .

ولكن ما كانت المبادىء لتوزن فى ميزان الحق بوفرة إنتاجها الآلى ، بل لما حققته فى المجتمع من قيم أخلاقية وإنسانية .

والحضارة الغربية بهذا المقياس مفلسة غاية الإفلاس . .

وإننا لا نجد من معانى الشعارات التى ينادى بها الغربيون إلا مظاهر التضليل والخداع .

يقول الأستاذ (جودا) أستاذ الفلسفة الانجليزية فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق .

فالأخلاق متأخرة جدا عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء والأخلاق فى انحطاط حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هو يمتاز فى أخلاقه . . فى شرهه **وطمعه** . . فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره . . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة . . (إلى أن يقول):إذ هو لا يدرى كيف يعيش ! !

وفى نطاق المساواة فشل الغرب فشلا ذريعا فى تطبيق مبدأ المساواة العنصرية والتطبيقية بين الناس ، فالتمييز العنصرى لا يزال مشكلة المشاكل فى أميركا . واحتقار البيض للملونين فى البلد الذى يدعى الحرية ، كرسته القوانين الرسمية نفسها ، فالرجل الأسود محروم من التعليم فى مدارس البيض ، وهو محروم من تأدية العبادة فى معابد البيض . . بل هو ممنوع فى بعض الولايات من السير فى شوارع البيض ؟ ومما روته الصحافة الغربية عن قصص التمييز العنصرى مؤخرا القصة التالية (لقد أفرج عن القس الزنجى الأميركى (وليمس كنج) من العاشرة صباح الأحد حتى التاسعة من صباح الاثنين ، لحضور الصلاة العامة ثم أعيد بعدها إلى السجن ليقضى مدة العقوبة المحكوم بها ، لأنه أكل فى مطاعم البيض ؟)

وفى اتحاد جنوب أفريقيا أجرت (بريطانيا) استفتاء مزيفا لتقرير بقاء الاتحاد عضوا فى الكومنولث البريطانى ، أو إعلان الجمهورية فيه ، وقد أعطى هذا الحق لجميع الأوربيين المقيمين فى الاتحاد وعددهم مليون ونصف مليون شخص ، بينما حرم منه سكان البلاد الوطنيون الأصليون وعددهم تسعة ملايين ونصف مليون ؟

وأجدنى فى غنى عن تقديم شواهد على فشل الغرب وكذبه فى دعوى السلام والحرية . . فالعالم العربى والإسلامى عانى وما يزال يعانى الكثير من ويلات الاستعمار وخداعه ووحشيته .

وهاهى ذى أميركا اليوم ترتكب باسم الحرية والسلام فى فيتنام وغيرها أبشع المجازر . . لتقدم بين يدى العالم من جديد دليلا **على** إفلاسها الإنسانى والأخلاقى والعقائدى .

كذلك القول فيما قامت به بريطانيا من تقتيل وتدمير فى جنوب الجزيرة العربية باسم الحرية والسلام . .

ويعلق الأستاذ (جودا) على ذلك فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) فيقول : (انظر إلى الطيارة التى تحلق فى السماء . . يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر . . ولكن انظر إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطيارة وغيرها من المخترعات . . إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء بالغازات السامة ، وإحراق الأجساد . . وهذا من مقاصد الحمق أو مقاصد الشياطين) .

الإسلام ضرورة

إذا كانت هذه أبسط مظاهر الفشل التى تواجهها الاتجاهات الفكرية والمعسكرات السياسية فى العالم أجمع .

وإذا كان المنهج الإسلامى ـ التجربة الوحيدة ـ فى حياة الإنسانية التى برهنت عن أصالتها وعمقها . . والتى حققت النجاح وبلغت الكمال ، **فقد** بات على الأمة أن تلتمس بواعث نهضتها ، وعوامل قوتها ، وطريق وحدتها وحريتها تحت راية الإسلام المجيدة ، وفى ظل قيادته الكريمة الرشيدة .

قوله تعالى: ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾

من صفات المؤمنين الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الفردوس ، الحفاظ على الأمانات والعهود ، ومن الأمانات الحفاظ على سلامة العقيدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[١]

كذلك من الأمانات الحفاظ على النفس ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾[٢] وكذلك الحفاظ على العقل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[٣] .

كذلك الحفاظ على العرض ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾[٤] كذلك الحفاظ على المال ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[٥]

والأمانات هنا بمعناها الواسع تفيد معنى الرعاية لحقوق الله تعالى ، قال تعالى:﴿ **فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة** ﴾[٦]

وقال سبحانه ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذاحكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا** ﴾[٧]

وقال جل شأنه:﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾[٨]

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٣٢ من سورة الاسراء .
(٥) الآية ٢٩ من سورة النساء .
(٦) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

وهنا يقول تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾

وذلك بعد أن زكى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بالزكاة . وأعراضهم بالعفة ، بعد ذلك زكى معاملاتهم برعاية الأمانة والعهود .

وفى سورة الأحزاب يقول عز من قائل : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾[١]

وكما حافظوا على الأمانات حافظوا على العهود **والعقود** والميثاق ، كل هذه مسئوليات يسأل الانسان عن الوفاء بها ، قال تعالى ﴿ **يأأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[٢] وقال عز من قائل: ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾[٣]

وقال تبارك اسمه: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾[٤]

ومن الرعاية للأمانات والعهود آداء الدين ، وهذا أمر قد خانه كثير من الناس ، فأصبح الغالب على أحوالهم المماطلة فى أداء الديون ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والادلاء بها إلى الحكام ، ولو علم هؤلاء ما جاء على لسان الصادق المعصوم-صلوات ربى وسلامه عليه-فى هذا الشأن لو علموا ذلك لأدوا الأمانات إلى أهلها ، ولوقفوا عند المحافظة على حسن المعاملات .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (**أعوذ بالله من الكفر والدين . فقال رجل : يا رسول الله ، أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم**)[٥] رواه النسائى والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (**الدين راية الله فى الأرض ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا وضعه فى عنقه**) . رواه الحاكم .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (**لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها . قالوا : وماذاك يا رسول الله ؟ قال : الدين**)[٦] . رواه أحمد

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**من فارق روحه جسده ، وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول والدين والكبر**)[٧] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعا : (**من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء، ومن تداين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتضى الله عز وجل لغريمه يوم القيامة**) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله**)[٨] . رواه البخارى .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٢١ من سورة النساء .
(٤) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٨ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .
(٧) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ . والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .
(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ،

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من حمل من أمتى دينا ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه)[١] رواه أحمد .

وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها : مالك وللدين ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا ألتمس ذلك العون)[٢] .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كانت ميمونة تدان فتكثر فقال لها أهلها فى ذلك ولاموها ووجدوا عليها ، فقالت : لا أترك الدين ، وقد سمعت خليلى وصفيى ﷺ يقول : (ما من أحد يدان دينا يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أداه الله عنه فى الدنيا)[٣] . رواه النسائى .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل يدين دينا وهو مجمع ألا يوفيه إياه لقى الله سارقا)[٤] رواه ابن ماجه

● ورواه الطبرانى فى الكبير ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئا مات يوم يموت وهو زان،وأيما رجل اشترى من رجل بيعا ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئا مات يوم يموت وهو خائن/والخائن فى النار) .

وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : (من تدين بدين وهو يريد أن يقضيه حريص على أن يؤديه فمات ولم يقض دينه ، فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد ألا يقضيه فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أنا لن نوفى فلانا حقه منك؟فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة فى حسنات رب الدين ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت فى سيئات المطلوب) . رواه البيهقى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم)[٥] .

رواه ابن ماجه .

ولفظه:قال رسول الله ﷺ : (الدين دينان فمن مات وهو ينوى قضاءه فأنا وليه ومن مات وهو لا ينوى قضاءه فذاك الذى يؤخذ من حسناته ،ليس يومئذ دينار ولا درهم) .

المعنى

رب الدين : صاحب الأمانة المودعة .

قضى من حسناته : أى أخذ من ثوابه المدخر له سدادا لدينه الذى كان عليه فى حياته .

ليس ثم دينار : أى ليس يوم القيامة مال يدفع وإنما هناك أخذ الأجر تنفيذا وقضاء قال تعالى:﴿ وأما من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٤ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات :١١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٢ .

آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾[١] وقال تعالى: **﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾**[٢] .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد) . قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : (فى الدين، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه)[٣] . رواه النسائى .

المعنى

الغد : اليوم الثانى

يقضى دينه : يؤدى. والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين وأن عقابه صارم ويدخل النار ولو كان المدين صالحا مجاهدا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ (ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدا: قال، فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بك، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى **بالألف** دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى مركب **لآتيك** بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هلا كنت بعثت إلى بشىء . قال أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[٤] . رواه البخارى .

المعنى

يسلفه : يقرضه .

كفى بالله شهيدا : الله مطلع علينا ورقيب وتكفى شهادته وحده سبحانه وتعالى .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٥٧ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٣٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى الشروط : ١٦ ، وفى الزكاة : ٦٥ ، وفى الاستقراض : ١٧ ، وفى الكفالة : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٨ .

فائتنى بالكفيل : الضامن
صدقت : وفى رواية أبى سلمة فقال: سبحان الله نعم .
مسمى : موعد محدد
زجج . أى: سوى موضع النقر وأصلحه وهو من تزجيج الحواجب : وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذا من الزج وهو النصل كأن يكون النقر فى طرق الخشبة فشد عليه زجا ليمسكه ويحفظ ما فيه وقال، عياض : معناه سمرها بمسامير كالزج أو حشا شقوق لصاقها بشىء ورقعه بالزج وقيل : معناه أصلح موضع النقر .
جهدت : اجتهدت
ولجت فيه : دخلت فيه .

رجل اقترض مبلغا من آخر إلى زمن معلوم ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركبا ، فأتى بخشبة وضع المبلغ فيها ورماها فى البحر ثقة بالله تعالى . وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة فأخذها للدفء فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يرويها لنا سيدنا رسول الله ﷺ عن صالحين برين مؤمنين معتمدين على الله جل وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما ، وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان ، وحب الخير والتوكل على الله ، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ، والوفاء والصدق ورد الودائع ، وقد قال الله تعالى فينا: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1]

اكتسبت الأمة الشرف العظيم والتفوق الباهر والخيرية من رسولها الصادق الأمين محمد ﷺ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلهما ، ونتقى الله ونثق به وندعوه رغبا ورهبا ونخشاه .

قال تعالى: ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾[2]

وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتح عن عبد الله بن عمرو بن العاص يرفعه : (أن رجلا ذهب إلى النجاشى فقال له أسلفنى ألف دينار إلى أجل ، فقال : من الحميل بك ، قال : الله ، فأعطاه الألف فضرب بها الرجل ، أى: سافر بها فى تجارة فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسته الريح فعمل تابوتا)[3] فذكر الحديث .

فالذى أقرض هو النجاشى فيجوز أن تكون نسبته إلى بنى إسرائيل بطريق الاتباع لهم ، نشرها : قطعها بالمنشار فانتثرت الدنانير منها والصحيفة فقرئت وعرف ما فيها . وفى الفتح: فى الحديث جواز الأجل فى القرض . ووجوب الوفاء به ، وقيل: لا يجب بل هو من باب المعروف . وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب للاتعاظ والائتساء، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه، وفيه بداءة الكاتب بنفسه، وفيه طلب الشهود فى الدين وطلب الكفيل .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٣) اخرجه أبو داود فى البيوع : ٠٢ وابن ماجه فى الصدقات : ٩ .

وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن من صح توكله تكفل الله بنصره وعونه .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تزوج امرأة على صداق وهو ينوى ألا يؤديه إليها فهو زان ومن ادان، دينا وهو ينوى ألا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال : فهو سارق) . رواه البزار .

وعن ميمون الكروى عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان، وأيما رجل استدان دينا لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

المعنى

صداق : مهر .

زان : مرتكب الفاحشة .

سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

خدعها : خانها وغشها .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ، فيقال: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول: يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتى على إما حرق وإما سرق وإما مضيعة، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)[1] . رواه أحمد .

بفضل رحمته : لأنه أخذ الدين لحاجة وفى نيته الأداء إذا استطاع .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه الغربة فينكح خشية على دينه فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)[2]. رواه ابن ماجه هكذا والبزار .

ولفظه : (ثلاث من تدين فيهن ثم مات ولم يقض فإن الله يقضى عنه : رجل يكون فى سبيل الله فيخلق ثوبه فيخاف أن تبدو عورته ـ أو كلمة نحوها ـ فيموت ولم يقض دينه ، ورجل مات عنده رجل مسلم فلم يجد ما يكفنه به ولا ما يواريه فمات ولم يقض دينه ، ورجل خاف على نفسه العَنَت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضى عنه يوم القيامة) .

المعنى

المعنى: ثلاثة يرد الله عنهم غائلة الدين ، ويبعد عنهم عقاب المماطلة :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١٠ : ١٩٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أ ـ المستدين للجهاد فى سبيل نصر دين الله ، وتكبيت أعداء الإسلام ، والذب عن حياض آدابه .
ب ـ المدين لتكفين الفقير ودفنه .
جـ ـ الأعزب الذى يستدين ليتزوج .

يخلق ثوبه : يبلى

تبدو عورته : تظهر سوءته فاستدان ليتجمل وليخفى ما يجب ستره والعورة للرجل من السرة إلى الركبة ،والمرأة جميع جسمها ،فإن الله يرضى الدائن ويغدق عليه بنعيمه فيرضى عن مدينه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ما لم يكن فيما يكرهه الله . قال : وكان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه : اذهب فخذلى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى بعد أن سمعته من رسول الله ﷺ)[١] . رواه ابن ماجه .

المعنى:

إن الله مع الدائن : الذى يعطى المحتاج ويفرج كربة المتضايق المهموم المحزون مدة إعطائه فى حلال يرضى الله جل وعلا ،يقال دنت الرجل : أخذت منه دينا وادنته جعلته دائنا وذلك بأن تعطيه دينا . قال أبو عبيدة : دنته أقرضته ،ورجل مدين ومديون ،ودنته : استقرضت منه . قال الشاعر :

ندين ويقضى الله عنا وقد نرى   مصارع قوم لا يدينون صنيعا .

قال تعالى:﴿ **إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾[٢] و﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾[٣] .

فخذلى بدين : صحابى جليل يريد أن يكون له فضل على الناس بالقرض رجاء أن الله يشمله برحمته ورضوانه ورعايته قال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾[٤]

وقال أيضا : ﴿ **وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[٥] .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ،ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم وصححه .

المعنى :ـ

حالت شفاعته : منعت عقابا فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله .

فقد ضاد الله . أى:كان لله عدوا وضدا وأعلن الحرب على الله تعالى لأنه ساعد المجرمين وضيع حقوق

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٠. والدارمى فى البيوع : ٥٥
(٢) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١١ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٧ من سورة التغابن .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الحديد .

الله فى وساطته، قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾(١).

أى: الذين يحادون الله هم : العصاة والفساق ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار لذهاب معالم الحق ، وتفشى الباطل وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه، أى: من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والمراد أنه لا ينبغى أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة فى الزجر عن **موالاة أعداء الله والاحتراز** والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم . .

وقال تعالى : **﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾**(٢) .

فليس ثم : يوم القيامة **﴿ يوم يؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾**

خاصم : جادل وفجر وشق عصا الطاعة .

سخط الله : غضبه

ينزع : يرجع. والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

ردغة : جاء تفسيرها أنها عصارة أهل النار، والردغة : طين ووحل كثير .

المخرج : يصدق ويبعد عن الذم ويجتنب الغيبة والنميمة ويهجر الزور ويترك الباطل .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام: رجل فقال أنا يا رسول الله، فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين . قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشئ)(٣) . رواه أبو داود .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها : أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)(٤) . رواه أبو داود

---

(١) **الآيات** ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٣) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩ . والنسائى فى البيوع : ٩٨ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠ .

(٤) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩.

وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ورجل يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحا ودما ورجل يأكل لحمه فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد لها قضاء أو وفاء) . الحديث رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى

مأسور : فى سجن من جهنم وفى يديه سلاسل النار وأغلالها فيشعر بالذلة والعقاب .

الوحدة : العزلة والعذاب والحرمان من نعيم الجنة وفيه الترهيب من الدين وعدم الوفاء بالسداد وعدم حسن الأداء .

لايدع له قضاء : لا يترك شيئا يقوم بأدائه والمعنى يبعثر جميع أمواله ويوزعها فرارا من أداء دينه .

يؤذون : يقدمون لهم الآلام زيادة على الذى لحقهم .

الحميم : الماء الشديد الحرارة قال تعالى: ﴿ **وسقوا ماء حميما** ﴾[1] ﴿ **يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾[2] .

الجحيم : النار . أى: يمشون بين عذابين . ماء مغلى ونار الله الموقدة .

والثبور : العذاب والهلاك .

ما بال : ما حال أو شأن .

تابوت : صندوق من نار .

يجر أمعاءه : تخرج معدته .

يسيل فوه : يخرج فمه مادة قذرة .

أموال الناس : المذموم البعيد من رحمة الله من تداين دينا لم يترك له سدادا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[3] . رواه أحمد والترمذى .

وعن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف فتحملها أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران على فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت إنما مات أمس . قال : فعاد إليه من الغد ؟ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : الآن بردت جلدته)[4] . رواه أحمد بإسناد حسن .

---

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٩ من سورة الحج .
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢, والإمام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه،وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران . فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم.فقال على رضى الله عنه : هما على يا رسول الله برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن أبى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك؛إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة .) . رواه الدارقطنى ورواه أيضا عن طريق عبيد الله الوصافى عن عطية عن أبى سعيد .

المعنى :

معلقة : مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يؤدى ما عليها بردت جلدته . أى: بعد دفع الدينارين لصاحبهما زال عنه العذاب وتنعم .

كف : امتنع

فعدل عنه : بعد الصلاة

هما على : أنا أدفعهما وفاء لدينه .

برىء منهما : خلصت ذمته منهما وطهرت .

فك رهانك : أطلقت من أسر العذاب .

مرتهن : محبوس فى النار

للمسلمين عامة : الثواب يشمل كل من فك عسر مسلم وأزال عنه حقوق دينه وأتمه ووفاه قال تعالى : **﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾**[1] وقال تعالى: **﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾**[2] .

أى: فعلة الحسنى **﴿ من أمرنا ﴾** مما نأمر به **﴿ يسرا ﴾** سهلا ميسرا غير شاق .

وروى عن أنس رضى الله عنه (أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين ، فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه أبو يعلى والطبرانى .

ولفظه قال :

كنا عند النبى ﷺ : فأتى رجل يصلى عليه ، فقال : هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : نعم . قال : فما ينفعكم أن أصلى على رجل روحه مرتهن فى قبره لا تصعد روحه إلى السماء؟فلو ضمن رجل دينه فصليت عليه فإن صلاتى تنفعه) .

قال الحافظ : قد صلى النبى ﷺ،إنه كان لا يصلى على المدين ثم نسخ ذلك .

فروى مسلم وغيره من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

الدين فيسأل هل ترك لدينه قضاء فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : (صلوا على صاحبكم) فلما فتح الله عليه الفتوح قال : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)[1] .

المعنى

جبريل نهانى : فى أول الرسالة امتنع ﷺ من الصلاة ترهيبا للذى يأخذ ولا يفى ، وستجد بعد ذلك أن هذا النهى زال .

مرتهن : محبوس لا يذهب إلى نعيم الجنة حتى يؤدى عنه دينه .

لاتصعد روحه : لاتسمو إلى أعلى فتشعر بنعيمها ومرافقة الأبرار الصالحين .

ضمن : تعهد بالوفاء عنه، ترغيب منه ﷺ فى زيادة أجر المحسنين الذين يؤدون حقوق الله عن أصحابهم .

فقه الأحاديث

وقد استعاذ ﷺ من الدين لتبعد أمته عنه لأضراره :

أولا : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة وغلبة الدائن وسلطته على المدين . (أتعدل الكفر بالدين) .

ثانيا : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين لضعته .

ثالثا : عدم الدين يجلب السعادة وتنسم الحرية والشعور بالكرامة والمروءة (أقلل من الدين) .

رابعا : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامسا : ترك الدين فى الرخاء أحسن خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدى به وبذا يدخل جهنم بسبب دينه وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضا انتقاما منه وترضية لصاحب الدين .

سادسا : كثرة الاستدانة تجلب الفقر وتنزع البركة من المال وتنذر بالخراب والخسران (أتلفه الله) .

سابعا : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط على شريطة نية الوفاء وحسن الأداء (التمس ذلك العون) .

ثامنا : قضاء حاجات الناس وفك كروبهم محمدة ومجلبة للخير ورضوان الله (كانت ميمونة تدان فتكثر) .

تاسعا : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء كالغصب والنهب (لقى الله سارقا) (وهو خائن) .

عاشرا : الزوج إذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم وعيشته معها محرمة وهو عاص ربه (زان) .

الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسنا فى نصر دين الله (وعليه دين ما دخل الجنة) .

الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء سعادة ومحبة من الله وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله (كفى بالله وكيلا) .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه (صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك) .

---

(١) أخرجه مسلم فى الفرائض : ١٤, وأبو داود فى الوصايا : ١٧. والنسائى فى الجنائز . وابن ماجه فى الصدقات : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٧٠

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس مشمول بعز الله ورحمته (الله مع الدائن) فاحذر ياأخى من الدين ما استطعت واقتصد فى إنفاقك وتوسط ولا تسرف .

تحذير

وقد حذر رسول الله ﷺ من مطل الغنى كما رغب فى إرضاء صاحب الدين ..

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع) [1] رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . [أتبع، أى: أحيل] .

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (لى الواجد يحل عرضه وماله) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(لى الواجد) بفتح اللام وتشديد الياء : أى مطل الواجد الذى هو قادر على وفاء دينه يحل عرضه ، أى: يبيح أن يذكر بسوء المعاملة، وعقوبته حبسه .

وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال . وفى رواية : إن الله يبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط من رواية الحارث الأعور عن على والحارث وثق ولا بأس به فى المتابعات .

المعنى

مطل : تأخير الحق وتسويف دفعه للدائن .

الغنى : أى القادر على وفاء الدين لربه بعد استحقاقه .

ظلم : محرم عليه، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى: ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلما . حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى غريمه من إضافة المصدر للفاعل. وقيل من إضافته للمفعول والمعنى أنه يجب وفاء الدين وإن كان مستحقه غنيا ولا يكون غناه سببا لتأخيره عنه وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

فليتبع : فليحتل ندبا لا وجوبا خلافا للحنابلة . أى: إذا أحيل بالدين الذى له على موسر فليرض ، وقوله: ظلم يشعر بكونه كبيرة والجمهور على أن فاعله يفسق لكن هل يثبت فسقه بمرة واحدة أم لا ؟ قال النووى : مقتضى مذهبنا التكرار . والراجح عند المتأخرين من الشافعية الأول فلا يكون كبيرة إلا بالتكرار ثلاث مرات فأكثر ويدخل فى المماطل كل من لزمه حق كالزوج لزوجته والحاكم لرعيته .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحوالات : ١ ، ٢ ، وفى الاستقراض : ١٢ . ومسلم فى المساقاة : ٣٣. وأبو داود فى البيوع : ١٠. والترمذى فى البيوع : ٦٨. والنسائى فى البيوع : ١٠٥ ، ١٠١. وابن ماجه فى الصدقات : ٨. والإمام مالك فى البيوع : ٨٤. والدارمى فى البيوع : ٤٨. والإمام احمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣ - ٤٦٥ .

الغنى : صاحب الخيرات الجمة الذى يأكل حقوق الناس،وكبير السن الفاسق الذى يرتكب المعاصى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبىّ ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله) فذكر الحديث إلى أن قال : (والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم) [١] رواه أبو داود .

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ: (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ونون الماء،ومن انصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى

المختال : الذى يعجب بنفسه .

العائل : الفقير المتصف بالغطرسة .

الشيخ الزانى : الذى يفعل الفاحشة مع أن قوة الشباب زالت منه ويلزمه الوقار والأدب .

ما قدس : ما رضى عنها وما طهرها،والمعنى أن الله تعالى يذل ويهين كل طائفة لا تساعد الفقير على أخذ الحق من الجبار المستكبر،وفيه الحث على نصر الحق وإغاثة الضعيف رجاء دوام عز الله ونصره لمحبى الحق والعدل .

متعتع : غير ناقص متعب .

غريمه : دائنه .

صلت : دعت له بالاستغفار وزيادة النعم .

نون الماء : حوت البحر .

ساخط : غضبان .

كتب : تقيد فى صفحاته سيئات تتكرر مدى الأيام حتى يؤدى ما عليه لأنه ظلمه بتسويفه ونقصه .

وعنها رضى الله عنها قالت : (كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بنى ساعدة فأتاه يقتضيه فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمرا دون تمره ، فأبى أن يقبله فقال : أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال : صدق ومن أحق بالعدل منى ، لاقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولايتعتعه ، ثم قال : ياخولة عديه واقضيه فإنه ما من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٥٧ .

عليه دواب الأرض ونون البحار وليس من عبد يلوى غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه فى كل يوم وليلة إثما) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا قدست أمة لا يعطى الضعيف فيها حقه غير متعتع) . رواه أبو يعلى ، ورواته رواة الصحيح .

ورواه ابن ماجه بقصته ولفظه قال : (جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك إلا قضيتنى،فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : إنى أطلب حقى ، فقال النبى ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم،ثم أرسل إلى خولة بنت قيس ، فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك ؟ فقالت:نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فأقرضته فقضى الأعرابى وأطعمه،فقال : أوفيت أوفى الله لك،فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع) [1] . رواه البزار من حديث عائشة مختصرا . والطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد جيد .

المعنى

ويحك : كلمة رحمة واستعطاف

تدرى : أتعلم من تحادث .

هلا : هلا للتحريض .أى،أود أن تكونوا مع صاحب الحق تساعدونه .

فأقرضينا : أعطينا شيئا سلفة : والقرض : تمليك شىء على أن يرد مثله .

فقضى : أدى ما عليه ﷺ للأعرابى وأكرمه وقدم له الغداء وأحسن ضيافته .

أوفيت : أتممت الأداء وزدت زادك الله كمالا ورقيا ثم مدح ﷺ المحسنين .

ماذا يريد رسول الله ﷺ

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه (فليتبع) .

ثالثا : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته (لى الواجد) .

رابعا : كل من قدر على أداء ما اقترض ولم يف حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين وحل عليه غضب الله وكراهته (الغنى الظلوم) .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها (ما قدس الله أمة) أى:طهرها من الخطايا .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع (صلت عليه دواب الأرض) أى:كل ما دب وفيه الحياة .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه وسجلت عليه الآثام بكرور الأزمان (يلوى غريمه) ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه . (ياخولة غديه واقضيه) ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف الفظ الغليظ الذى اشتد عليه حتى قال : (أخرج عليك إلا قضيتنى) أى:أعلن

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٧١.

عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى . مسكين أيها الأعرابى !!

شىء قليل اقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت وليس عنده شىء مطلقا ، لكن أبى كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ، ويغدق عليه بإحسانه ، ويرد ما أخذه مضاعفا ، ثم دعا له ﷺ الأعرابى: (أوفيت أوفى الله لك) هكذا تكون مكارم الأخلاق:حسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود .

وهنا درس مفيد ، وعظة بالغة ، لعلنا نعمل بها ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابى ويفهموه درجة السيد الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ على نصر الضعيف ، ومجاراة الحق ، والأخذ بيد الضعيف (هلا مع صاحب الحق كنتم) .

أرأيتم أبدع من هذا ؟

يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا فى صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته ، وعز سلطانه ، والأبدع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا ، مستغرق فى طاعة الله ، فقرض من الاعرابى ، ثم قرض من خولة ما يؤدى به حق الأعرابى ، حتى أفرحه وأكسبه رضله ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء ، وطيب القضاء ، ثم قال ﷺ:(أولئك خيار الناس) أى:الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ، ويساعدون على تنفيذه ، وكذا د فع الحق بسهولة . من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايبهم وأحسنهم .

فعليك ـ أخى ـ بحسن المعاملة ، ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ، فتفى بوعدك ، وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتخشاه ، وتحسن كما أحسن الله إليك ، قال تعالى : **﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾** (١)

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤتمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه

قال تعالى : **﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾** (٢) .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ، ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره ، واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة .

﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى **﴿ كفيلا ﴾** أى:شهيدا شاهدا بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ، ورأيت حفظ الله لماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٩١ من سورة النحل .

وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١) .

وقال تعالى:﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ (٤) .

قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .

﴿ زكاها ﴾ :أنماها بالعلم والعمل ﴿ دساها ﴾:نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق والخيانة .

وقال تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (٧) .

من سورة الأنفال :

أى :مبدلا إياها بالنقمة لخيانتهم ومعاصيهم يزيل الخير ويحفهم بالضر سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾ (٨)

وقال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (٩) .

خاتمة الصفات

قوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ :

كما افتتح الله تعالى صفات المؤمنين بقوله :﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ اختتمها بالمحافظة على تلك الصلوات فهم فيها خاشعون ، وعليها محافظون .

خاشعون فى أدائها ، لا تنصرف قلوبهم إلى شواغل الدنيا ، محافظون على أوقاتها وأركانها وشروطها وسننها .

قوله تعالى :﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ :

أى:أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات ، كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا . لا يخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ما سلف ـ أن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر ، فى حياته الروحية وكمالاته النفسية .

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النحل .
(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الآيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام
(٧) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٣٨ من سورة الحج .

وروى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة)[1] . ثم قرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر .

المبدأ والمعاد

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

تفسير المفردات

السلالة : ماسل من الشيء واستخرج منه، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكناسة البيت .

قرار : أى مستقر .

مكين : أى متمكن .

العلقة : الدم الجامد .

المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .

تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

التفسير

عن أنس رضى الله عنه : (قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت: يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾[2] وقلت : يارسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾[3] . وقلت لأزواج النبى ﷺ : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت ﴿ **عسى ربه إن طلقكن** ﴾[4] . الآية . ونزلت ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ فقلت : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ياعمر) أخرجه الطيالسى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٤ : ٢٦٨ ، ٢٧١ . والدارمى فى المقدمة : ٢ .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٥ من سورة التحريم .

أيها الإنسان: أصلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى جوفك العذرة ، تنتنك عرقة ، وتؤذيك بقة ، وتقتلك شرقة ، فكيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين .

سبحانك ربى يا من قلت: ﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ (١) ويا من قلت : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ (٢) .

﴿ **ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ (٣) .

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ :

أى: ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية ، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا .

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾ .

ولابد من تسليط الأضواء العلمية الكاشفة على هذا القرار المكين الذى سماه خالقه قرارا، أى: مستقرا . ووصفه بأنه مكين ، ذلك لأن عادة الجسم قد جرت على أمر معهود وهو طرد الأجسام الغريبة ، فلماذا لم يطرد الرحم النطفة التى حبت فيه من ماء الرجال ، وهى غريبة ، ذلك لأن الله هيأ المكان ليكون قرارا ، وليكون مكينا .

فماذا يقول العلم ؟ وماذا يقول العلماء المتخصصون فى الأجنة ؟

إن العلم له حديث شجون فى هذا المجال الذى إن دل على شىء فإنما يدل على الوحدانية الخالصة ، والعلم المحيط ، والإرادة النافذة ، والقدرة الفائقة ، لمن يقول للشىء كن فيكون ، ولمن يقول: ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (٤) .

القرار المكين :

﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ .

---

(١) الآية ٣٩ من سورة المعارج .
(٢) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .
(٣) الآيات ٦ - ٨ من سورة الانفطار .
(٤) الآية ٦ من سورة آل عمران .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ :

لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، حتى تصير جنينا ، ثم حميلا ، ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

ولذا فلابد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين ، كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة . .

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ، ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم ، ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو ، حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من مليليتر ونصف ، بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف مليليتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض . . والعجان (يعرف الأطباء العجان باسمه اللاتينى الاغريقى PERINEUH) وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض ، كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية ، ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ، ولبرزت إلى الخارج ، وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزق عضلات العجان فى حالات الولادة المتعسرة ، أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى إلى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم ، وبالجزء العلوى من المهبل ، ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام ، وبالمستقيم من الخلف ، يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفة الإنسانية فى أدوارها المختلفة ، كما أننا نلاحظ توازنا عجيبا بين الضغط الموجود فى تجويف البطن وتجويف الحوض ، بحيث يمسك بالأعضاء فى أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضا . . واتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل مما يساعد مساعدة فعالة فى ثبات الرحم فى مكانه . . ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات . خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات ولهذه العضلات اهمية خاصة فى منع النزيف من الرحم ، وخاصة بعد الولادة إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم ، ولكن الله هيأ هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة إفراز هرمون الحمل البروجسترون . . إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة عكس هرمون الأنوثة الأوستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : (إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريبا وكان خاليا من الفضول المانعة له عن فعله اشتد شوقه إلى المنى حتى أن الإنسان يحس فى وقت الجماع وكأن الرحم يجذب إحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم) .

ولا يمكن أن يحصل ذلك اثناء الحمل مثلا . . لأن هرمون البروجسترون (هرمون الحمل)

يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

بعد أن أجملنا العوامل التى تحفظ الرحم فى مكانه ، وتجعله القرار المكين سنبدأ بشىء من التفصيل ودون أن ندخل فى تفصيلات علم التشريح فذلك متروك لطلبة الطب والأطباء .

١ - الحوض : (BONY PELVIS) :

يتكون الحوض من مجموعة من العظام متصلة ببعضها البعض اتصالا دقيقا محكما فتكون مثل الصندوق الخشبى ولكن له فتحتان رئيسيتان : من أعلى حيث يتصل بتجويف البطن ومن أسفل حيث يغطى **بعضلات العجان** وبه نهاية القناة الهضمية ونهاية الجهاز البولى والتناسلى . . وتسمى عظمتا الحوض على جانبيه بالحرقفة والورك والعظم الخلفى يدعى العجز والعصعص . . أما العظم الأمامى فيسمى العانة .

ويتصل الحوض بالعمود الفقرى حيث يتصل عظم العجز بالفقرات القطنية كما تتصل الحرقفة من كلا الجانبين بعظمتى الفخذ ويحفظ الحوض فى الأنثى أجهزتها التناسلية الهامة : الرحم والمبيض وقناتى الرحم والمهبل . . كما يحفظ لكلا الرجل والمرأة المثانة ومتعلقاتها والمستقيم ومتعلقاته والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب .

ولا شك أن وظيفة حوض المرأة تختلف إلى حد ما عن وظيفة حوض الرجل فبالإضافة إلى حفظ الأعضاء التى ذكرناها فإن على حوض المرأة أن يكون مستعدا لنمو الرحم نموا هائلا .

كما أن عليه أن يتقبل إخراج الجنين ومتعلقاته مثل المشيمة والأغشية إلى العالم الخارجى أثناء الولادة .

ولذا لابد أن يختلف حوض المرأة فى تركيبه عن حوض الرجل .

ويقول علماء الأجنة : (يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بغض الضروريات اللازمة التى لا يحتاج إليها حوض الرجل . . فنمو الجنين فى الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض . . ومن مخرجه وقت الولادة بالنسبة للأم وللطفل . . وتنحصر كل هذه التغييرات فى أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر . . وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريسَ) .

(وإن تكن رقة العظام ونعومتها وبساطة تضاريسها وصغر شوكاتها وقلة غور حفرها ظاهرة جلية فى أكثر عظام الهيكل فى السيدة غير أنها تتجلى بأوضح شكل فى عظام الحوض للأنثى التى بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر من صفاتها المميزة للأنوثة زيادة على تكيفها النوعى الخاص بما يناسب ما يتطلب منها من القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل) .

وهكذا يحفظ الحوض العظمى الرحم بداخله بحيث لا يصله شىء من الكدمات والهزات التى تتعرض لها المرأة . . بل لو أصيبت المرأة فى حادث أو سقطت من شاهق وكسرت عظامها فإننا نجد الرحم فى أغلب الأحوال سليما لم يمسسه سوء ، بل لو أن شخصا اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم إلا إذا كانت المرأة حاملا فى الشهر الرابع فما بعده . . وأما

قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأى أذى .

والحوض على متانته له مفاصل اربعة ، يمكن من خلالها أن يتحرك قليلا حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة ، بينما حوض الرجل لا يكاد يتزحزح وكل مفصل من هذه المفاصل محروس بمجموعة من الأربطة والصفاقات المتينة المحكمة .

وقد احتار القدماء من الأطباء حيرة شديدة فى كيفية خروج الطفل من هذا المكان الضيق فظن بعضهم أن العظام لابد أن تنفلق ولو للحظات حتى يمر الجنين .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ، ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ، ويقول لها أرخى من قبضتيك قليلا ، فتسمع له ، وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا ، حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات . فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتخاء (RELAXIN) فيقول للحوض : اتسع ، فيتسع وعند ذاك يمر الطفل فى ذلك الطريق الضيق الذى احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر دون أن ينحشر انحشارا مميتا .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك فى كل طور من أطوار حياتك ، منذ كنت نطفة مغلقة ، فعظاما فلحما يكسو العظام لحما ، فخلق من بعد خلق .

والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء وتدفع عنك الأذى ، فإن حان موعد خروجك إلى الدنيا هيأ لك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طيعة لينة .

وأمر الرحم بالإنقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى الى الضغط عليك ضغطا يؤدى إلى وفاتك ، وهيأ الطريق لخروجك فى ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن نخرج منه لولا رحمته ، ثم تخرج لتجد غذاءك جاهزا فى ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك إياه من ثديها ، مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم .

ثم يرعاك طفلا ويافعا . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكرا لله على عظيم منته وآلائه ، وأحراك أن تطيع فلا تعصى أبدا ، ولكنها النفس الأمارة بالسوء ، ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار . . ولابد من أوبة . . ولابد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يفتح ذراعيه بالليل ليتوب مسىء النهار ويفتح ذراعية بالنهار ليتوب مسىء الليل .

ولنعد الى القرار المكين حيث رأينا العظام وهى تحرس الرحم حراسة ما بعدها حراسة ∴ وسنرى الآن كيف تساهم عضلات الحوض والعجان بالمحافظة على الرحم وجعله قرارا مكينا .

٢ ـ عضلات الحوض والعجان : PELVIC AND PERINEAL MUSCLES)

تساهم عضلات الحوض والعجان مساهمة فعالة فى حفظ أعضاء الحوض وأهمها الرحم ومتعلقاته والمثانة ومتعلقاتها ونهاية القناة الهضمية والأوعية الدموية والأعصاب وهناك كثرة من العضلات المتصلة بالحوض . . إلا أن أهم العضلات المسئولة عن حفظ الرحم الشرج والمثانة هى :

١ - العضلة الرافعة للشرج LEVATOR ANI **MUSCLE**
٢ - العضلة العصعصية COCCYGIUS MUSCLE

وهما يكونان الحجاب الحاجز للحوض بمساعدة الصفاقات .. وهما تحفظان أعضاء الحوض فى أماكنها المحدودة والمرسومة ضد العوامل المختلفة الطارئة والدائبة .

والعضلة الرافعة للشرج هى أهم العضلتين ، وتلتف أليافها الأمامية حول المهبل فى المرأة ، وحول البروستاتا فى الرجل .. وتحفظهما فى مكانهما المقرر لهما .

أما أليافها الوسطى والخلفية فتلتف حول القناة الشرجية ونهاية المستقيم وتحفظ بذلك المستقيم والشرج .

ونتيجة لتوترها الدائم تمنع المستقيم والمهبل والرحم والمثانة من أن تسقط كما يقع فى بعض الحالات المرضية .. مثل تمزق العضلة الرافعة للشرج أثناء الولادة المتعسرة ، أو نتيجة لإصابة أعصاب تلك العضلة بأحد الأمراض التى تصيب الأعصاب والعضلات ، فتؤدى إلى ارتخائها مما يسبب سقوط المهبل أو سقوط الشرج إلى خارج الجسم .

وللعضلة الرافعة للشرج دور هام فى الولادة .. إذ أن أليافها الخلفية تساهم فى إطالة الدور الأول للولادة حتى يتسنى لعنق الرحم أن يتمدد .. أما فى المرحلة الثانية وهى إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج فتساهم كل من العضلات الرافعة للشرج والعضلات العصعصية فى زيادة الضغط فى تجويف الحوض والرحم بانقباضها المتتالى مما يساعد مساعدة فعالة فى إخراج الجنين وقذفه للخارج .
كما أن هذه العضلات تساهم أيضا فى الدور الأخير من الولادة وهو إخراج المشيمة وطردها من الرحم بعد إخراج الوليد .

٤ - صفات الحوض :

يشتمل الحوض على نسيج ليفى غشائى يحيط بأعضاء الحوض وبعضلاته وأوعيته وتربط هذه الصفاقات أعضاء الحوض بعضها ببعض وتعرف بالأربطة الحقيقية ويتخللها نسيج عضلى غير إرادى وتعرف الصفاقات التى تغطى الرحم والمثانة والمستقيم والقناة الشرجية بالصفاقات الحشوية لأنها تغطى الأحشاء ، أما تلك التى تغطى العضلات فتعرف بالصفاقات الجدارية لأنها تغطى جدران الحوض .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك الجنين الساجد

سبحانك يامن قلت وقولك الحق: **﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾** [١] .

---

(١) الايتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

كل هذه الأطوار تحدث فى عالم الأرحام ، ولابد من معرفة علمية كاملة بهذا القرار الذى نشأنا فيه ، ولابد لنا أن نتحدث عن أربطة الرحم ، حتى نقف مسبحين بحمد ربنا ، مقرين له بالجلال والكمال والعظمة المطلقة .

٤ ـ أربطة الرحم : ـ

إن وضع الرحم فى وسط الحوض الحقيقى بحيث لا تتعدى قمة الرحم الحرف العلوى لعظم العانة ، ولا يتعدى أسفل الرحم (عنق الرحم) الشوكتين الوركيتين فى أسفل الحوض : .

إن وضع الرحم هكذا يجعله محروسا تماما بعظام الحوض من كل جهة ، ويمسكه فى مكانه كما تقدم ذكره من صفاقات وعضلات بالإضافة إلى أربطة الرحم . .

وللرحم جملة أربطة يتعاون بعضها مع بعض فى جهاتها المختلفة ، لحفظ الرحم فى موضعه الطبيعى ، ولكنها فى نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية ، كما تسمح له بالنمو الهائل فى فترة الحمل ، بحيث يتضاعف حجم الرحم آلاف المرات فى نهاية الحمل عما كان عليه قبيل الحمل ، وبحيث يملأ الرحم تجويف البطن حتى يصل إلى عظمة القفص حتى ليجعل التنفس عسيرا على الأم ، وخاصة عند الاستلقاء على ظهرها .

ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة . . بل إنه أعظم من ذلك بكثير . . إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه .

وتقسم أربطة الرحم الكثيرة إلى مجموعتين : ـ

المجموعة الأولى : ـ

وتدعى بالأربطة الرحمية الكاذبة : وتسمى كاذبة لأنها مكونة من انعطاف البريتون ، وليست بها صفاقات ولا عضلات تمييزا لها عن الأربطة الحقيقية المكونة من الصفاقات والعضلات ، ولكن تسميتها كاذبة لا ينفى عنها أنها تقوم بمهمة عظيمة فى حفظ الرحم فى مكانه ، وأهم هذه الأربطة هى :

أ ـ **الرباط الرحمى العريق** : ويغطى معظم الرحم من الأمام والجنبين ، وجزءا كبيرا من السطح الخلفى للرحم ، ويحتوى على أوعية الرحم الدموية والمبيض وأعصابه وأوعيته الدموية كما يمر به :

ب : **الرباط المبيضى الرحمى** : الذى يربط بين المبيض والرحم ويثبت كلا منهما إلى الآخر .

جـ : **الرباط الرحمى المثانى** : ويثبت الرحم من أمام إلى المثانة .

د ـ **الرباط الرحمى المستقيمى** : ويثبت الرحم من خلف إلى المستقيم .

المجموعة الثانية :

أما الأربطة الحقيقية التى بها الصفاقات وشىء من العضلات ، فتمسك بالرحم من كل جهة ، وتثبته

فى مكانه وتجعله القرار المكين .

وأهم هذه الأربطة هى : ـ

أ ـ **الرباط الرحمى المبروم** : ويتصل بقرن الرحم من كل جانب ثم يتجه مبتعدا عن الرحم ، حتى يتصل بجبل الزهرة الذى يقع على عظم العانة ، ويثبت الرحم من الجهة الأمامية .

ب ـ **الرباط الرحمى العجزى** : ويربط ما بين الرحم وعظم العجز وبذلك يثبت الرحم من الجهة الخلفية .

جـ ـ **الرباط الحامل للمبيض والرباط المبيضى** : وهذه الأربطة تثبت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

كما أن هناك مجموعة من هذه الأربطة تساهم فى تثبيت الرحم مثل الرباط العانى الرحمى المثانى الذى يربط ما بين الرحم وما بين المثانة وعظم العانة من الأمام ، . . . ويساهم مساهمة فعالة فى تثبيت الرحم من الجهة الأمامية . . كما يساهم الرباط الوحشى لعنق الرحم فى تثبيت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

٥ ـ مساندة الأعضاء الأخرى فى تجويف الحوض : ـ

إن امتلاء الحوض بالأعضاء مثل المثانة ومتعلقاتها ، ونهاية القناة الهضمية (المستقيم والقناة الشرجية) والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب ، كلها تساهم فى حفظ الرحم فى مكانه .

٦ ـ توازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض : ـ

يتولد ضغط فى تجويف البطن نتيجة تقلصات عضلات الحجاب الحاجز ، وعضلات جدار البطن . . ويدفع ذلك أعضاء الحوض ومنها الرحم إلى أسفل . . ويقابل ذلك الضغط من أعلى ضغط من أسفل نتيجة تقلص عضلات العجان مثل العضلات الرافعة للشرج ، فتدفع بالرحم إلى أعلى ، ونتيجة لتوازن هذا الضغط يبقى الرحم فى مكانه .

٧ ـ عنق المهبل :

يتصل الرحم بواسطة عنق المهبل ونتيجة لهذا الاتصال يبقى الرحم فى مكانه .

٨ ـ هرمون الحمل : البروجسترون :

يؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم ، فيجعلها متئدة وقورة بدلا من تلك الحركات النزقة التى يسببها هرمون الأنوثة الأوستروجين ، . . . ولا شك أن لهرمون الحمل البروجسترون تأثيرا هاما فى استقرار الرحم فى فترة الحمل ، حتى لا يقذف الرحم بالجنين ، وخاصة فى أشهر الحمل الأولى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الهرمون يستعمل فى كثير من حالات الإجهاض المنذر ، أو حالات الإجهاض المتكرر للوقاية من حصول الإجهاض .

وهكذا تتضافر هذه العوامل العديدة فى جعل الرحم القرار المكين وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة المرسلات .

ويقول : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

أهمية الرحم :

إن الرحم هو القرار المكين الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، وتعلق فيه حتى تصير علقة فمضغة فعظاما . . فلحما يكسو العظام . . ثم ينشئه الله خلقا آخر حتى يخرجه الله طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

وللرحم أهمية لاتدانيها أهمية أخرى غير المخ حيث ينتهى إليه الفكر والروية،والقلب حيث تنبعث منه الدورة الدموية .

ومما يدل على تلك الأهمية فى الإسلام أنه قد ورد ذكر الرحم فى مواقع متعددة :

والآيات الكريمة تتحدث عن الرحم بمعنيين :

المعنى الأول :

العضو التناسلى للمرأة وهو المهد والفراش والمحضن للنطفة الإنسانية يحوطها ويغذيها ويرعاها حتى تبلغ أوج نموها وكماله ، فيخرجها الله بشرا سويا . وبهذا المعنى نزلت الآيات الكريمة التالية : -

● ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾(١) .
● ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾(٢) .
● ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾(٣) .
● ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾(٤) .
● ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾(٥) .

المعنى الثانى :

هو صلة القربى الناتجة عن الرحم وما يحمله ، وهو الوشائج والصلات الناتجة عن التزاوج ، فالآباء والأبناء والأخوال والأعمام ومجموعة الأقارب التى تتصل بهم - وإن بعدوا - يطلق عليهم لفظ الرحم .

وقد ورد ذكره بهذا المعنى فى قوله تعالى :

● ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾(٦) .
● ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(٧) .
● ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾(٨) .
● ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾(٩) .

---

(١) الآية ٦ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٨ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٥ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .
(٦) الآية الأولى من سورة النساء .
(٧) الآية ٧٥ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٢٢ من سورة محمد .
(٩) الآية ٨١ من سورة الكهف .

ومن الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الرحم بمعنى الصلة :

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم معلقة بالعرش تقول:من وصلنى وصله الله: ومن قطعنى قطعه الله)[١] أخرجه مسلم

● عن عبد الرحمن بن عوف-رضى الله عنه-قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : (أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمى،فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته)[٢]. (أى:قطعته وأهلكته) . البخارى فى الأدب المفرد .

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم شجنة من الله . من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله)[٣] . البخارى فى صحيحه ، والشجنة : عروق الشجر المتشابكة . . والمعنى أن الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها والقاطع لها مقطوع من رحمته تعالى .

● عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ من القطيعة قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك:قالت:بلى؟قال:فذاك لك . ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »)[٤] أخرجه البخارى ومسلم .

● عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ قال : (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[٥] . أخرجه البخارى ومسلم .

●(من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه)[٦] أى:يكثر رزقه ويطول عمره من وصل رحمه . أخرجه البخارى ومسلم .

● (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[٧] . الأدب المفرد للبخارى .

● (ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من قطيعة الرحم والبغى)[٨] . البخارى فى الأدب المفرد .

● (ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها)[٩] . صحيح البخارى

---

(١) أخرجه مسلم فى البر : ١٧. والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩١ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٣. والترمذى فى البر : ١٦. والإمام أحمد فى ١ : ١٩ ، ٣٢١ ، وفى ٢ : ٢٩٥ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٩٨ .

(٤) أخرجه البخارى فى التفسير سورة : ٤٧ فى الترجمة ، وفى التوحيد : ٣٥ . مسلم فى البر : ١٦. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ١٨ ، ١٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٤ ، وفى ٣ : ١٤ ، ٨٣ ، وفى ٤ : ٣٩٩ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٢ ، وفى البيوع : ١٣. ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، وفى ٥ : ٢٧٩ .

(٧) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟

(٨) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟

(٩) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٥. والترمذى فى البر : ١٠.

● مما سبق يتبين أهمية الرحم القصوى فى الإسلام ، وكيف اشتق المولى-تبارك وتعالى-اسمها من اسمه ، وكيف جعلها معلقة بعرش الرحمن ، وكيف وصلها-سبحانه وتعالى-بنفسه ، ووصل من وصلها ، وقطع من قطعها .

لا شك أنه تشريف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان . . (على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد) وذلك راجع إلى أن الرحم منبت للبذرة الإنسانية . . فيها تنمو وتترعرع . . يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجها إلى الدنيا انقبض الرحم انقباضات متتالية حتى يخرجها إلى الدنيا سليمة معافاة . دون أن يمسها بأذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تودى بحياة الجنين،ولكن الله يجعل له سبيلا ليخرج،ويجعل تلك الانقباضات متقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلا من الضغط المباشر على الجنين .

والرحم موضوع فى وسط حوض المرأة يكون محميا ومصونا من كل أذى . . ولا يقابله فى الرجل سوى أثر مندثر فى شكوة البروستاتا .

والرحم عضو عضلى أجوف وجدار ثمين ومتين وهو كمثرى الشكل ، ويبلغ طوله ٣ بوصات ، وعرضه بوصتان ، وسمكه بوصة واحدة فى الأنثى البالغة .

فإذا حملت المرأة فإن الرحم ينمو ويكبر حتى يملأ البطن من القفص إلى العانة ، أما حجم تجويف الرحم فى الأنثى البالغة فلا يزيد على،مليلترين أما فى نهاية الحمل فإن حجم الرحم يتسع لسبعة آلاف ملليتر ، أى ان حجمه يتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة . .

ووزن الرحم فى غير أوقات الحمل لا يزيد على خمسين جراما ، فإذا كان فى نهاية الحمل فإن وزن الرحم ذاته يبلغ ألف جرام أو تزيد ، أما محتوياته فتزن خمسة آلاف جرام . . . أى:أن وزنه بمحتوياته يزيد أكثر من مائة مرة .

والرحم هو العضو الوحيد فى جسم الانسان الذى له هذه القابلية للتغير السريع من حال إلى حال ، وهو بذلك أسرع نمو يعرفه جسم الإنسان حتى أخطر السرطانات لا تنمو بمثل سرعة نمو الرحم ، وما يحمله فى طياته ومع ذلك فشتان ما بين النمو السرطانى الخبيث ، ونمو الرحم الحميد العاقبة ، المأمون الغائلة . : فذاك يؤدى إلى الموت والهلاك،وهذا يؤدى إلى النماء والبقاء . . .

مم يتركب الرحم ؟

يتكون الرحم من جسم وعنق وكلاهما مكون من طبقات ثلاث :

* **أولها من الخارج** : طبقة البريتون التى تغطى جسم الرحم وشيئا من عنقه من الخلف .
* **وثانيها الطبقة العضلية** : وهى عضلات سميكة غير ارادية وتشمل فى ذاتها ثلاث طبقات من الألياف وهى :

أ ـ **الطبقة السطحية** : وأكثر أليافها طولية .

ب ـ **الطبقة المتوسطة** : **وأليافها مختلفة الاتجاهات وبعضها على شكل 8** (ثمانية بالانجليزى) .

جـ ـ **الطبقة الداخلية** : ومعظم أليافها دائرية وتتركز حول عنق الرحم لتكون عاصرة للعنق .

وللعضلات وظائف عديدة أهمها حماية غشاء الرحم الذى تنغرز فيه البويضة الملقحة لتصبح جنينا كما أن وظيفة العضلات قفل الأوعية الدموية العديدة عند الطمث وعقب الولادة . . ولولا ذلك لنزفت الوالدة حتى تموت .

* **وثالث طبقات الرحم** : هى الطبقة المخاطية . . وهى الغشاء المبطن للرحم . . وغشاء الرحم هو الفراش الوثير للنطفة الأمشاج التى تعلق به . . وعن طريقه تتغذى وتنمو . . وهذا الغشاء مكون من طبقات تتخللها الأوعية الدموية الكثيرة . . والغدد الرحمية العديدة . . وتقع هذه الطبقة بالذات تحت تأثير الهرمونات ولها دورة شهرية كاملة تبدأ من سن البلوغ وتنتهى فى سن اليأس .

قناة الرحم :

وتوجد للرحم قناتان على كل جانب واحدة . . . وتنتهى القناة بانتفاخ يعرف باسم البوق الذى يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب . . . فإذا أفرز المبيض البويضة تلقفتها أهداب البوق وحملتها حملا رفيقا ، ودفعتها مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنة لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير فيه . . وهناك تبقى البويضة حتى تأتيها الحيوانات المنوية فى رحلتها الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، فإذا ما نجح حيوان منوى فى تلقيح البويضة . . .

وأصبحت البويضة ملقحة « النطفة الأمشاج » أى المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة . . عندئذ تبدأ هذه البويضة المخصبة فى الانقسام حتى تصير مثل الكرة . . وتسير فى قناة الرحم تدفعها شعيرات دقيقة فى غشاء قناة الرحم حتى تصل إلى الرحم فى ستة أيام فإذا ما وصلت إلى الرحم فقد أدت قناة الرحم واجبها وأسلمت أمانتها إلى الرحم . . وهناك يستقبل الرحم البويضة الملقحة بعد أن مهد لها الفرش والبطائن وتنغرز فيه وتعلق بجداره وتحاط بالدم الغليظ من كل جهة ، وبما أن العلقة لا تكاد تبين . . ولا يظهر منها إلا هذا الدم الغليظ فقد أجمع المفسرون القدامى على أن العلقة هى دم غليظ وأصابوا من جهة وأخطأوا من أخرى . . فهى محاطة بالدم الغليظ ولكنها ليست هى ذاتها الدم الغليظ .

وتدعى قناة الرحم أيضا القناة المبيضية ، كما تدعى قناة فالوب ، نسبة إلى الطبيب الذى وصفها أول مرة .

* **المهبل** : -

هو شق ضيق يصل ما بين فتحة الفرج من أسفل وعنق الرحم من أعلى ، وجداره الأمامى اقصر من جداره الخلفى ، إذ طول الجدار الأمامى سبعة سنتيمترات ، بينما طول الجدار الخلفى تسعة سنتيمترات .

وبما أن جدار المهبل مكون من عضلات انتصابية ، فإن الجدارين يكونان ملتصقين إلا عند الجماع أو الولادة . . ويظل عنق الرحم فى أعلى المهبل ويحاذى المهبل من أمام قناة مجرى البول وأسفل المثانة . . أما من خلف فيوجد المستقيم والقناة الشرجية ومن الملاحظ أن قناة مجرى البول فى الأنثى مستقلة عن الجهاز التناسلى ، فهى منفصلة عنه ولها فتحة (صماخ) فى أعلى الفرج من أمام لا تكاد تبين ، لفرط صغرها ، أما فى الذكر فإن قناة مجرى البول تمر فى الإحليل (القضيب) حتى تنتهى إلى الفتحة (الصماخ) على حشفة القضيب .

* المبيضان : ـ

ويوجد مبيض على كل جانب فى الحوض الحقيقى للمرأة . وهما يقابلان الخصيتين (الأنثيين) عند الرجل .

هناك مبيضان على كل جانب واحد ويقع فى الحفرة المبيضية من الحوض ، وهو مصنع البويضات أو النطف المؤنثة . وهو يقابل الخصية لدى الرجل ، وشكله مثل اللوزة ، وطوله نحو ثلاثة سنتيمترات ، وعرضه نصف طوله ، وسمكه نصف عرضه . .

ويمسك بالمبيض فى مكانه مجموعة من الأربطة مثل الرباط المبيضى الرحمى الذى يربط ما بين المبيض وزاوية الرحم العليا ، ومنها الرباط الخامل للمبيض وهو متصل بالرباط العريض للرحم ومنها مساريقا المبيض (المساريقا هى ما يدعى بالانجليزية MESNTRY وهى عبارة عن طبقتين من البريتون تغطيان سطح المبيض إلا من جانب واحد فقط ، جيث تدخل منه الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب/ وللأمعاء كذلك مساريقا خاصة بها) .

وبواسطته تدخل الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب من وإلى المبيض .

ويغذى كل مبيض شريان من الأورطى البطنى ، ومخرجه أسفل الشريان الكلوى مباشرة فى أعلى المنطقة القطنية ، أى من بين الصلب والترائب ، كما أن الأوردة الخارجة من المبيض تذهب إلى نفس المنطقة ، الوريد الأيمن إلى الوريد الأجوف السفلى ، أما الوريد الأيسر فيصب فى الوريد الكلوى الأيسر ، وأعصاب المبيض كذلك تأتى من الضفيرة الكلوية والضفيرة التى حول الأورطى البطنى ، كما أن المبيض يبعث بإشاراته وأخباره إلى الجهاز العصبى عبر العصب الظهرى العاشر .

من كل هذا يتضح بكل جلاء أن منشأ المبيض وتغذيته وترويته إنما تأتى من بين الصلب والترائب ، تماما كما هو الحال بالنسبة للخصية . . . وسنشرح ذلك عند تعرضنا لتفسير قوله تعالى ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[1] .

ويتكون المبيض من محفظة متينة تحيط به من كل جانب ، ما عدا فرجته التى تدخل وتخرج منها الأعصاب والأوعية الدموية واللمفاوية المغذية للمبيض ، وبداخل هذه المحفظة نسيج ليفى غنى بأوعيته الدموية يعرف بسداة المبيض . . أما لحمته فمكونة من أجسام كروية مختلفة الأحجام ، متفاوته فى درجة نموها . . وتعرف هذه الأجسام الكروية الشكل بالحويصلات المبيضية . . أو حويصلات (جراف) نسبة إلى الطبيب الذى اكتشفها . .

وتحتوى كل حويصلة على بويضة واحدة . . ويبلغ تعدادها فى الجنين أربعمائة ألف أو تزيد ، ولكن الآلاف منها تضمر وتموت فى فترة النمو ، حتى إذا بلغت المرأة المحيض لم يبق منها إلا بضعة آلاف فقط . . ينمو منها حويصلة واحدة كل شهر طوال حياة المرأة التناسلية فتخرج بويضة مرة فى الشهر . . فلا تزيد مجموع البويضات التى يفرزها المبيض فى حياة المرأة على أربعمائة بويضة . . وقد تقل عن ذلك . . !

---

(١) الأيات ٥ ـ ٧ من سورة الطارق .

أعلمت أين خلقنا ؟ ثم مم خلقنا ؟ ثم كيف تحولت سلالة الطين أو الماء المهين إلى نطفة فى قرار مكين ، وكيف تطورت النطفة إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام ؟ وكيف لم يكن بين مرحلة العظام واللحم إلا مسافة قريبة من الزمان ؟

لذا جاء العطف بالفاء فى قوله تعالى ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾

وكيف بعد ذلك تحولنا إلى خلق آخر ، لقد قامت الخلايا بتكوين الأنسجة ، وقامت الأنسجة بعد ذلك بتكوين الأعضاء ، وقامت الأعضاء بتكوين الأجهزة . أليس هذا خلقا آخر نفخ الله فيه الروح؟ ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

أما آن لك أن تهتف معى قائلا : ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾

عظمت بركته وجلت قدرته ، أما آن لك أن تهتف بلسان الحال والمقال قائلا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ والخلق هنا بمعنى التقدير والتسوية ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾[2]

قوله -تعالى-: ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ :

هذا هو المصير المحتوم الذى لا مفر منه ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[3] .

إن الإنسان لا شك خالع ثوب الحياة الدنيا إلى حياة باقية خالدة . .

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء !

وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء !

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !

فسبحان من أوجب الوجود لذاته وكتب الفناء على جميع خلقه !

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمة عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

* * *

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، فكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[4] . . ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[5] .

تأمل هذه الأيات وأعمل فيها الفكر . تجدها كلها قضايا كلية موجبة صدرت بكلمة (كل) فلا استثناء لأحد . . . ولم تسبقها أداة نفى ، لتعلم أن هذه الدنيا لها أجل معلوم وموعد لا يتخلف .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الأعلى .
(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

وسبحان من يقول :

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[١] .

الإنسان آية من آيات الله تعالى

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[٢]

قال أحد العارفين بالله وهو يناجى ربه : (سبحانك ربى ! آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك) .

قيل للإمام على رضى الله عنه : (متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ قيل له : فما الدليل على وجوده ؟ فقال : ومتى غاب ؟ سبحانه ! هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه . . . سبحانه ! علا : فقهر ، وبطن : فخبر، وملك : فقهر !) .

حقيقة الانسان

فى إحدى أمسيات شهر شعبان من عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كنت أطالع كتابا تحت عنوان . . (الطاقة الإنسانية) للأستاذ أحمد حسين ، فراعنى هذا الفصل الذى تحدث فيه عن نشأة الإنسان ، وعن الأسرار الإلهية البالغة التى احتوى عليها خلقه ، فأردت أن تشاركنى - أخى القارىء - فى هذا الجلال الذى يأخذ بذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة إلى محراب الخشوع للخالق العظيم جل جلاله . .

فمن نحن :

إليك ما قاله العلم الحديث فى الإجابة عن هذا السؤال :

نشأة الإنسان : -

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانا كأى حيوان آخر : من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى (٣٠٠,٠٠٠) بويضة ، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية !!

اما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على (١/٨٠٠) من البويضة ، وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى (وهو هـ . مولر) نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى : -

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليونا ومائتى ألف بويضة ، لما شغلت أكثر من (٨/٥) من الجالون .

أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين ! !

والمعروف أن البليون : ألف مليون .

---

(١) الأيتان ١٦ ، ١٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤ من سورة التين .

التلقيح : ـ

ويمضى العلم فى كشف هذه الأسرار فيقول :

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر لإخصابها فى وقت الحيض ، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فى غشاء بوق فالوب ، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم .

فى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام . . اذ تكون قد قذفت بنصف مادتها ، او بعبارة أخرى كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) اسطح البويضة ، ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات ، مكونين بذلك مخلوقا جديدا مؤلفاً من خلية واحدة ، طفحت فوق مخاط المهبل ، وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام ، كأى خلية أخرى ومع ذلك : فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها .

إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما ، ومع ذلك فهى شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين .

هذه الخلية الميكرو سكوبية الأولى : هى الإنسان الخلية . . إنها كتاب الكون بكل ما خط فى هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف .

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرا سويا ، ليتحقق لنا مصداق ذلك .

إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان .

رحلة الإنسان فى الخلايا :

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما إلى أربع ، فثمان ، فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين . .

وعند هذا القدر من الانقسام ، ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين ، الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ، ومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة النقطة العائمة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورا بعد طور ، ومرحلة إثر أخرى ، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) وتارة أقرب منها إلى السمكة .

والذى يهمنا أن نشير إليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة ، وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين الى الضفدعة .

وفى الشهر الثالث : وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت .

وفى الشهر الرابع :

وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

وفى الشهر السادس حتى الخروج :
فإذا كان الشهر السادس : فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ، ووزنه ثلثى كيلو جرام ، وبعد (٢٥٢) يوميا ، اى فى أواخر التاسع : يكمل نمو الجنين ، ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام . .

ويقذفه الرحم خارج الجسم ! !

إنه لم يعد بعد الآن جنينا . . إنه طفل الانسان .

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، يتغير المحيط من حوله ، ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رئتيه ، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .

مولد الجنين : وعندما يولد الجنين : فإن وزنه فى العادة ٢ $\frac{٣}{٤}$ أو ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا .

وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم : قد بدأ من هذه البويضة التى كانت (٢٠,٠٠٠,٠٠٠/١ من الأوقية . . أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات ، ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول :

لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى : لأنتج حجما أضخم من المجموعة الشمسية ، أى جسما قطره ملايين الأميال ، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .

أشكال الخلايا المختلفة :

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون (٢٦) مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعا لذلك تشكلا خاصا يمكنها من أداء دورها الخاص .

كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى ، أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة او نجمية أو خيطية أو مستديرة ، أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العصى أو العناكب ، أو على شكل القوس او متفرعة كالشجرة .

فكيف تفرز هذه الخلايا اسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاما ، أو تمعن فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع أحمر وآخر أسود ، خلايا تغص بالتفاعلات الكيميائية الناثرة ، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة ، كما لو كانت ميتة . . خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان ، البعض يصبح نظاما لاعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد ، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة

المقررة فى العضو الذى لن يستعمل إلا بعد فترة معينة ، وفى ظروف معينة :
إنها تعمل فى الظلام لإنتاج الإبصار الذى يعمل فى النور .
إنها تعمل - فى صمت - جهاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية .
إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتا .
ومع ذلك : فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس فى نهاية الأصبع لتتصل بها ! !
إن كل شىء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول (شرنجتون) .

بقاء الجسم عند (كاريل) :

أما (كاريل) فيقرب لنا صورة ما يحدث فى بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل (طوبة) واحدة تسرع فى بناء منزل بمفردها ، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى ، أو مجىء البنائين والفعلة ، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط ، ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ ، والواح للسقف ، وفحم للتدفئة ، وبناء المطبخ والحمام .

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك ، إنه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم : مواد البناء ، بل وتصنع العمال انفسهم .

واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين ، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذى يبصر به الإنسان الكائنات المرئية ؟ !

اسمع - يأخى - إلى هذا العجب العجيب ، واسجد لله فى محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء . . . هو الذى احسن كل شىء خلقه . . إنه صنع الله وإتقانه :

تكوين العين :

يقول العلماء الكونيون : من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذى يتكون منه الجزء الاكبر من العين ، ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ، ينشأ القسم الثانى . . . هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة !

وكرة العين ليست فى طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه) ، وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها،والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

إن العين تكون فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها معد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب ، وهو الإبصار ، فهى (أى:العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين فى المؤخرة .

تدرج عدسة العين :

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها . . هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر !

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكرسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لاتمام عملية الإبصار ، فحيث يقل الضوء : يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض . ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ؟ أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشىء المراد رؤيته .

ولأمر ما : شاء الله أن يجعل هذه القزحية الغينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق . . فالعسلى ، تبعا للون قزحية الأبوين ، وكلاهما ملىء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه .

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف ، لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية ، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة .

ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها .

وإذا كان من خصائص جلد الانسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة ، (من حرارة ، وبرودة ، وضغط ، وألم) ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس . . . ذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم ، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الاحوال .

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائما أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

صنع الله الذى أتقن كل شىء :

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ونعنى به شبكية العين ، هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء . بل بدون تغيير على الإطلاق ، فقد يبدأ الطفل عملية البصر ، إلى أن يكون شيخا هرما قادرا على الإبصار .

ومع ذلك : فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهارا بغير انقطاع ، فتتلقى مختلف

الصور من كل لون وطراز ، وتبرق بها إلى المخ ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعا للصورة التى يهمها التقاطها ، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف ـ حسب الحاجة ـ فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائما على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

سبحان المبدع :

وأخيرا فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدما على حفظ ذاتها . . . فلو هددها اى خطر ، ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها ، لتحمى نافذة العين الشفافة ! ! وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذى ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد .

وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى : حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين (٣٧) مليون عنصر مستقل ، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المحطات التى توصل كل منها إلى محطة أبعد منها .

والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة فى محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك ؟ !

وليست العين فى نهاية الأمر ـ سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية **بتأليف** باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هى التى تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة ، حتى إذا تم تكوين العين : فإن هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص : **تقف فجأة عند حد ما أنجزته ، فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبى ، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .**

وقد يتصور القارىء ذلك الذى وصفناه ضربا من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذى قلناه هو حق لامرية فيه .. إنه الواقع العجيب الذى يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة . . .

فسبحان ربى العظيم ! !

القلب ووظيفته

يحدثنا القرآن الكريم ، عن القلب على أنه مركز الوعى والإدراك والفهم العميق ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[1].

(١) الآية ٣٧ من سورة ق .

وقوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ [١]

وهناك حديث مادى للعلم يشرح لنا فيه (القلب) على أنه مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا ، لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف . . . إجلالا وإكبارا وتعظيما لله ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، إنه صنع الله الذى خلق كل شىء فقدره تقديرا .

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك . .

إن القلب يمثل الحركة الدائمة ، ما بقى الإنسان حيا . . فهو الذى يدق ، يدق فى النوم مثل ما فى اليقظة ، وفى المرض مثل ما فى الصحة وهذه (الدقة) تعنى أن القلب ـ ذلك الجهاز العجيب ـ يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة .

فلو عاش الإنسان ستين عاما أو تسعين ـ أو أكثر من ذلك أو أقل ـ فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان . . ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ فى المتوسط سبعين ضخة ، (أو دقة) فى الدقيقة فإن ما يضخه (أو يدقه) فى العام (٣٧) مليون دقة فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره ، فإن ذلك يعنى ان قلبه قد دق ـ أو بالأحرى قد ضخ الدم (٢٥٩٠) مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل !

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر ـ ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان ! !

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبا من الدم ، أى يملأ فنجان شاى فى كل دقيقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ (٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة ، أى نحو (٨) آلاف لتر فى اليوم ، وهو ما يساوى (٨) أمتار مكعبة (أو ما يساوى ١٥ طنا من الدم فى اليوم الواحد) لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئا يسيرا جدا . . ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل فى المتوسط ولا يزيد عرضه على (٣ ١/٢) بوصة وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف !

فأى سر إلهى عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التى تقوم بهذه الأعمال الحادة ، والتى تعجز آلات فى حجم الجبال أن تقوم بها ؟ ! !

إنه صنع الله الذى اتقن كل شىء ! !

الجهاز العصبى

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبى . . ذلك الذى تحار فيه عقول المفكرين ، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين . . فسبحانك اللهم !

يامن يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا صنعتك ... وكل ما فى الكون من صنعتك !

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج .

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز ؟

يقول العلم : ـ

إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية عن دورة الدورة الدموية .

فالإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه .

والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر :

احدهما : واع بموجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية ، وأهم أجزائه المخ .

الثانى : لا شعورى آلى ذاتى الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم . وهو ما يسمى « الجهاز السمبتاوى » ! !

الجهاز المركزى

يتكون الجهاز الرئيسى ـ أو المركزى ـ من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم : الدماغ الذى يحتل الجمجمة ، ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة . . وينقسم المخ إلى قسمين : أيمن وأيسر ، بكل منها أربع قطع ، أو فصوص،واحد مقدمى ،وآخر جانبى من الخارج ، وثالث : جانبى من الداخل ورابع مؤخرى .

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ ـ إحداها : عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات ، وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ ـ الطبقة الثانية : داخلية بيضاء ، وتكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية ـ على ما يقال ـ على أكثر من (١٢,٠٠٠) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع .

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف .

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة ، تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الارادية . . . فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس .

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، والمخ هو الذى يرسل الاشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس الى المخ : أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة . أما الألياف التى تنقل الرسائل منه الى

العضلات ، فتسمى ، أعصاب الحركة ، او الأعصاب المرجعة ، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى (الروابط) .

وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ وإليه ـ عن طريق الأعصاب ـ بنحو ثلاثين مترا فى الثانية الواحدة .

وإذا قورن المخ البشرى بالمخ الالكترونى ، فإنه يوازى مخا يحتوى على الأقل ١٥,٠٠٠ مليون أنبوبة ألكترونية .

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور (جوهانس شالريه) عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى ، الذى يؤكد ان المخ البشرى يحتوى على ١٥,٠٠٠ الف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من (الوات) وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين ، وواحد على (٢٠٠) ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين (٨) إلى (١٤) سيكل فى الثانية ! !

مراكز الإحساس والحركة بالمخ

واللحاء ، أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الاعمال الفكرية ، كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الادراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم .

أقسام مراكز المخ : وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

١ ـ حسية ٢ ـ حركية ٣ ـ مشتركة

فأما الحسية : فتشمل مراكز السمع ، والبصر ، والذوق والشم والحس .

وأما الحركية : فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء : كاليد والرجل ، والوجه ، والعنق ، واللسان .

ويدخل فى هذه : مراكز للشعور بحركة الجسم .

وأما المراكز المشتركة : فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل . وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريبا .

وبين مركزى البصر والسمع : مركز الكلمات المرئية ، والكلمات المسموعة : كل بجانب المركز الذى يلائمه .

ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام ويقع خلفه مركز الكتابة ، فمركز الكلام .

وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه : تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب : من الأمام إلى الخلف .

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام . وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه : على الترتيب من أعلى إلى أسفل .

وتحت مركزى حركات الرأس والوجه : يقع مركز حركات اللسان والشفتين .
وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ .
ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .
وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز : يستتبعه ـ على الفور ـ حدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد .
ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد ، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيخ

يقع المخيخ : تحت المخ . وفوق النخاع المستطيل وخلفه . وفى أسفل مؤخرة الجمجمة ، ويتكون ـ مثل المخ ـ من طبقتين .
طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف .
وطبقة داخلية بيضاء اللون ، وتكثر بها الألياف العصبية .
وينقسم (المخيخ) إلى ثلاثة فصوص . واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ويسمى بالدودة .
ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ : بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكى تحفظ توازن الجسم . فإذا حصل خلل فى المخيخ : اضطربت حركات الشخص وسكناته ، وراح يتمايل تمايل الثمل ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة . . ولا يتدخل المخ فى شئونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية : كتعلم المشى للطفل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى بحيث يمكن اعتباره جزءا منه .
ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ .
ويتكون ـ على عكس المخ والمخيخ ـ من مادة بيضاء اللون بداخله . . أما الألياف : فتكثر فى طبقته الخارجية .
ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل : (العصب السمبتاوى) فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى (النخاع الشوكى) ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر .

ويتكون ـ مثل النخاع المستطيل ـ من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل .

وتخرج من كل من جانبى النخاع الشوكى : أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى : هى القيام بالأعمال المنعكسة ، مما سنتحدث عنه فى الفصل التالى إن شاء الله .

الأعصاب

وتكون الأعصاب : الجهاز الدائرى للجسم ، والعصب : مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة .

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

١ ـ **أعصاب حس** : أو أعصاب مرسلة : وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ ـ **أعصاب الحركة** : أو أعصاب مرجعة : وهى تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ ـ **أعصاب مشتركة** : أو وصلية : وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، وقد تكون الرسالة التى عملها : رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى:الدماغ والنخاع الشوكى . ولذلك : فهى تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى،أما الأعصاب الدماغية : فيخرج بعضها من المخ ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات : ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

الجهاز العصبى ، الآلى أو السمبتاوى

وإلى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى ، يقوم الجهاز العصبى الآلى ، وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبى العمود الفقرى ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبى العمود الفقرى ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ، ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة ، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكى بقليل ، وترسل هذه

العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية : كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .
ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض : اسم (بارا سمبتاوية) .
أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية)
ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب فى وقت واحد .

(فالباراسمبتاوية) تبطىء القلب ، فى حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين ، بينما تسبب الأخيرة تقلصها،وهكذا : وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة .

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء .

فالأعصاب (السمبتاوية) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة .

سيطرة الجهاز العصبى على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين : (المركزى ، والسمبتاوى) تتحقق للانسان ـ بإذن الله تعالى وإرادته ـ سيطرته الكاملة على جسده .

تبارك الله أحسن الخالقين

هذا هو الإنسان ، الذى إن دل خلقه على شيء ، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته !

تباركت ربنا وتعاليت ! !
يامن قلت وقولك الحق :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

ثم ماذا . . . ؟

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾
وماذا بعد الموت ، برزخ وبعث ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .
ومن هنا : فسوف يدور حديثنا حول مرحلة الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة . . من عالم الفناء إلى دار البقاء . .

ونعنى بمرحلة الانتقال : مرحلة ما بعد الوفاة إلى أن تقوم الساعة ، وهو ما يسميه علماء العقيدة : بعالم (البرزخ) الذى صرحت به الآية الكريمة : ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾[١] .

ونبدأ الكلام بما يسن فعله للمحتضر ، وهو الذى أوشك أن يسلم الروح إلى خالقها ، ليضع قدمه على عتبة الآخرة .

فما هى هذه السنن ؟

ها نحن أولاء نبينها على الوجه التالى : -

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

أولها : تلقين المحتضر : لا إله إلا الله . لما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[٢] .

والمقصود (بموتاكم) هنا : المحتضرون ، الذين هم فى سياق الموت من المسلمين .

وروى أبو داود وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[٣] .

والتلقين : إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها ، فلا معنى لتلقينه ، والتلقين : إنما يكون لحاضر العقل القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ، والعاجز عن الكلام يردد الشهادة فى نفسه .

قال العلماء : وينبغى ألا يلح عليه فى ذلك .

﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾[٤] واجعلنا من الذين تقول فيهم : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٥] .

ولو علم المسلمون ما لكلمة التوحيد من مثوبة عند الله ما غفلوا عنها ولأضاءوا قلوبهم بنورها واستناروا بضوئها .

وحسبنا أن نقول: إنها الكلمة الطيبة التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾[٦] .

إنها كلمة الله التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾[٧] .

إنها كلمة التقوى ، التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦ . والترمذى فى الجنائز : ٧. والنسائى فى الجنائز : ٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٣. والإمام أحمد فى ٣ : ٣.

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦. والإمام أحمد فى ٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٧ .

(٤) الآية ٨ من سورة آل عمران .

(٥) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس

(٦) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة إبراهيم .

(٧) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[١] .

إنها اللواء الذى عمل الأنبياء جميعا لرفعه . . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] .

إنها الراية التى عاش فى ظلها الأنبياء والمرسلون : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[٣] .

إنها الكلمة التى أضاءت سيناء وما حولها : ﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً . فلما أتاها نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾[٤] .

وقد ورد فضل لا إله إلا الله : فى كلام النبى ﷺ فعن أبى هريرة-رضى الله-عنه قال : قلت: يارسول الله (من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ:لقد ظننت ياأبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال:لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه)[٥] . رواه البخارى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله،وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) زاد عبادة:(من أبواب الجنة الثمانية شاء)[٦] رواه البخارى .

وفى رواية لمسلم عنه أيضا : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : حرم الله عليه النار)[٧] .

وعن أنس-رضى الله عنه-أن النبى-صلى الله عليه وسلم-ومعاذ ردفه على الرحل ، قال : (يامعاذ ابن جبل . قال:لبيك يارسول الله وسعديك (ثلاثا) قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار .

قال يارسول الله أفلا اخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما)[٨] . رواه البخارى ومسلم ومعنى (تأثما) أى:تحرجا من الإثم وخوفا منه أن يلحقه إن كتمه .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٢)الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢ من سورة النحل .

(٤) الآيات ٩- ١٥ من سورة طه .

(٥) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ١٠. والدارمى فى المقدمة : ٨. والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٣ ، ٤٦١ ، وفى ٥ : ٢٩٢ ، ٣١٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦ ، وفى الاستتابة : ٩. ومسلم فى الإيمان : ٤٧ . والترمذى فى الإيمان : ١٧. والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦.

(٨) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٩ ، وفى الجمعة : ١٨ . ومسلم فى الإيمان : ٥٣. والترمذى فى الصلاة : ٢٠٠ . وابن ماجه فى الزهد : ١٩. والدارمى فى الجهاد : ٨ .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال: لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله) . رواه الطبرانى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)(١) . رواه الترمذى .

وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (قال موسى ﷺ: يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به . قال : قل لا إله إلا الله قال: يارب كل عبادك يقول هذا، قال: قل لا إله إلا الله قال: إنما أريد شيئا تخصنى به . قال : ياموسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله)(٢) . رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله)(٣) . رواه ابن ماجه والنسائى .

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: (كنا عند النبى ﷺ فقال: هل فيكم غريب ؟ (يعنى أهل الكتاب) قلنا: لا يارسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله : فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال : الحمد لله اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)(٤) رواه أحمد

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جددوا إيمانكم: قيل: يارسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)(٥) . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها) رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله)(٦) رواه أحمد والبزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا منشرهم: وكأنى أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)

وفى رواية : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر) . رواه الطبرانى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بوصية نوح لابنه ؟

قالوا : بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يابنى إنى أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٥.
(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٠١
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥.
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٤ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٩ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

أوصيك بقول لا إله إلا الله فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السماوات والأرض فى كفة : لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقسمتهن حتى تخلص إلى الله) رواه البزار .

وروى الترمذى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : (التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملأه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه)[١] .

وعن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل)[٢] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه عن رجلين من أصحاب النبى ﷺ أنهما سمعا النبى ﷺ يقول : (ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصا بها روحه مصدقا بها قلبه ناطقا بها لسانه إلا فتق الله عز وجل له السماء فتقا حتى ينظر إلى قائلها من الأرض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله) رواه النسائى .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : (خير الدعاء : دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)[٣] . رواه الترمذى

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا يريد بها إلا وجه الله أدخله الله بها جنات النعيم) . رواه الطبرانى

لا إله إلا الله

كلمة التوحيد ، لها أثر كريم فى تفريج الكروب :

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال لا إله إلا الله قبل كل شيء ، ولا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى كل شيء : عوفى من الهم والحزن) . رواه الطبرانى .

هذا الحشد المقدس من الأحاديث النبوية الشريفة : يتألق ضياؤه ، مستمدا من كلمة التوحيد ، ويضيء سناه مشرقا من كلمة لا إله إلا الله .

نسأل الله تعالى أن يذكرنا بها عندما يحين الأجل ويجعلها آخر كلمة نختتم بها صحيفة الدنيا .

الخطوة الثانية التى يستحب فعلها عند الاحتضار :ـ

توجيهه إلى القبلة

يستحب توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٦٥ . ومسلم فى الذكر : ٢٩ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٤ ، وفى الرهون : ١٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣ ، ٢٣٦ ، ٣٨٧ ، وفى ٥ : ٤٢٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ ، وفى الدعاء : ٥ . والترمذى فى الدعوات : ١٨٤ ، ١١٢ . والإمام مالك فى القرآن : ٢٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٧ ، ٥١٥ .

لما رواه البيهقى والحاكم وصححه ، عن أبى قتادة : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور ، فقالوا : توفى وأوصى بثلث ماله لك .

وأن يوجه للقبلة إذا ما احتضر ، فقال النبى ﷺ : أصحاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ما له على ولده ، ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم أغفر له وأرحمه وأدخله جنتك وقد فعلت) قال الحاكم : ولا أعلم فى توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد : (أن فاطمة بنت النبى ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها) .

وهذه الصفة : التى أمر الرسول ﷺ النائم أن ينام عليها والتى يكون عليها الميت فى قبره .

وفى رواية عن الشافعى : (أن المحتضر يستلقى على قفاه ، وقدماه إلى القبلة وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه إليها) . والأول الذى ذهب إليه الجمهور : أولى .

الثالثة : قراءة سورة يس

يستحب قراءة سورة يسٓ عند المحتضر : ـ

وذلك لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان وصححاه عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : (يسٓ قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة ألا غفر له ، واقرأوها على موتاكم)[١] .

قال ابن حبان : (أراد به من حضرته المنية لا أنها تقرأ على الميت) .

ويؤيد هذا المعنى : ما رواه أحمد فى مسنده عن صفوان قال : (كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يسٓ عند الموت خفف عنه بها) قال أبو الدرداء . وأبو ذر : قال رسول الله ﷺ : (ما من ميت يموت فتقرأ عنده يسٓ إلا هون الله عليه) .

الرابعة : تغميض عينيه

يستحب تغميض عينى المحتضر : ـ

لما رواه مسلم أن النبى ﷺ دخل على أبى مسلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : (إن الروح إذا قبض : تبعه البصر)[٢] .

الخامسة : تغطيته

يستحب تغطية الميت :

صيانة له عن الانكشاف وسترا لصورته المتغيرة عن الأعين ، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : (أن النبى ﷺ حين توفى : سجى ببرد جده)[٣] . رواه البخارى ومسلم .

ثم : يجوز تقبيل الميت إجماعا ، فقد قبل رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت ، وأكب أبو بكر على رسول الله ﷺ بعد موته فقبله بين عينيه وقال : يانبياه ، ياصفياه ! !

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .
(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ٦ .
(٣) أخرجه البخارى فى اللباس : ١٨ ، وفى الجنائز : ٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٣ . والنسائى فى الجنائز : ٢ ، ٣٩ .

المبادرة بتجهيزه متى تحقق موته

من حق الميت على الأحياء : أن يسرعوا بتجهيزه :

وذلك لما رواه أبو داود أن طلحة بن البراء فى مرضه أتاه النبى ﷺ يعوده فقال : (إنى لا أرى طلحة إلا وقد حدث فيه الموت فأذنونى به وعجلوا ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانى أهله)[1] .

ولا ينتظر به قدوم أحد . . خوف تغيره ، فقد قال الرسول ﷺ : (ياعلى : ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤا)[2] .

تجهيز الميت : ـ

والآن : ـ

نبين الأحكام الشرعية التى تتعلق بتجهيز الميت : وتجهيزه عبارة عن غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . وهذه الأمور الأربعة : واجبة على الحى نحو الميت .

وسوف نتناول الحديث عنها تفصيلا .

غسل الميت : ـ

يرى جمهور الفقهاء أن غسل الميت فرض كفاية أى:إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، لأن رسول الله ﷺ أمر به وحافظ على ذلك المسلمون .

وهذا بالنسبة لموتى المسلمين فقط .

الشهداء : ـ

وهو الذى قتل بأيدى الكفار ، وهو يجاهد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله ، وهذا الشهيد : لا يغسل ، ويكفن فى ثيابه الصالحة لتكفينه ويدفن فى دمائه ، ولا يغسل منها شىء .

روى أحمد أن رسول الله ﷺ أمر بدفن شهداء أحد فى دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم .

قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ : لعل ترك الغسل والصلاة : لأن يلقوا الله بكلومهم (أى بجراحهم) .

وذلك لما جاء أن ريح دمهم : كريح المسك ، واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون فيمن قاتل من جراحات وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمهم بأهلهم وهم أهلهم بهم .

وقيل : إن الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة إنما تكون على الميت أما الشهيد : فهو حى .

ومصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذى فى الصلاة : ١٣ ، وفى الجنائز : ٧٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٧ ، ١٨ . والامام أحمد فى ١ : ١٠٥ .

(٣) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

وقيل : إن الصلاة على الميت شفاعة له،والشهداء قد نالوا هذه الكرامة باستشهادهم لأنهم يشفعون لغيرهم .

شهداء يغسلون ويصلى عليهم :

هناك أنواع من الشهداء يغسلون ويصلى عليهم . وقد بينهم لنا الحديث الشريف . . فقد روى جابر بن عتيك أن النبى ﷺ قال : (الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله : المطعون : شهيد والغريق : شهيد ، وصاحب ذات الجنب : شهيد ، والمبطون : شهيد ، وصاحب الحرق : شهيد ، والذى يموت تحت الهدم : شهيد ، والمرأة تموت بجمع : شهيدة)[١].

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا يارسول الله : من قتل فى سبيل الله فهو الشهيد:قال.إن شهداء أمتى إذن لقليل:قالوا.فمن هم يارسول الله ؟ قال : من قتل فى سبيل الله : فهو شهيد،ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون : هو شهيد،ومن مات فى البطن : فهو شهيد، والغريق : شهيد)[٢].

وهذا نموذج آخر من الشهداء الذين يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم : عن سعيد بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه : فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه : فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله : فهو شهيد)[٣] . رواه أحمد والترمذى وصححه .

* * *

أما وقد علمنا : من الذين يغسلون والذين لا يغسلون . . فما هى صفة الغسل ؟

صفة الغسل

الواجب فى غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ولو كان جنبا أو حائضا .

والمستحب فى ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته ما لم يكن صبيا . ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره .

اما غاسل الميت فينبغى أن يكون ثقة ، أمينا ، صالحا ، لينشر ما يراه من الخير ويستر ما يراه من الشر .

فقد قال رسول الله ﷺ : (ليغسل موتاكم المأمونون)[٤] رواه ابن ماجه .

كيفية الغسل

يبدأ الغاسل أولا بعصر بطن الميت عصرا خفيفا ، لإخراج ما عسى أن يكون بها من الفضلات ، ويزيَل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته (فإن لمس العورة حرام ، للحى والميت ، على حد سواء) . ثم يوضئه وضوء الصلاة بعد ذلك ، لقول رسول الله ﷺ:(إبدأ

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٣٠, وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. والإمام أحمد فى ٥ : ٤٤٦.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ١٦٥. وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. وابن ماجه فى الجهاد : ١٧. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٥ ، ٤٤١ ، وفى ٥ : ٤٤٦.

(٣) أخرجه الترمذى فى الديات : ٢١. وأبو داود فى السنة : ٢٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٠٨

بميامنها)[١] ومواضع الوضوء منها ، ثم يغسله بعد ذلك ثلاثا بالماء والصابون أو الماء الخالص ، مبتدئا باليمين فإن رأى الزيادة على الثلاث ـ بعدم حصول الإنقاء بها أو لشىء آخر ـ غسله خمسا أو سبعا ففى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (اغسلها وترا : ثلاثا أو خمسا أو سبعا أو أكثر من ذلك إن رأين [٢] .

فإذا كان الميت ، أنثى : ندب نقض شعرها وغسله وأعيد تضفيره وأرسل خلفها .

ففى حديث أم عطية : (أنهن جعلن رأس ابنة النبى ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نقضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم)[٣] .

فإذا فرغ من غسل الميت : جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل اكفانه ووضع عليه الطيب . .

قال رسول الله ﷺ : (إذا أجمرتم الميت فأوتروا) . رواه البيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

وقال أبو وائل : كان عند على رضى الله عنه مسك فأوصى أن يحنط به وقال : هو فضل حنوط رسول الله ﷺ .

ويكره تقليم أظفار الميت ، أو أخذ شىء من شعر شاربه أو إبطه. أو عانته ، وإذا خرج من بطنه شىء من النجاسات ، وجب تطهيره من هذه النجاسات .

وحكمة وضع الكافور والروائح الطيبة عند الغسل : لأنه وقت تحضر فيه الملائكة .

والغسل للميت : إذا كان الماء موجودا فإذا عدم الماء : فإنه ييمم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا ماء فتيمموا ﴾ ولقول رسول الله ﷺ : (جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا)[٤] . وكذلك ييمم الميت : إذا كان الجسم ، بحيث لو غسل : لتهرى .

الكفن -

بعد ما فرغنا من الكلام عن غسل الميت فإن تكفينه بما يستره ـ ولو كان ثوبا واحدا ـ فرض كفاية .

ويستحب فى الكفن أن يكون حسنا ، نظيفا ، ساترا للبدن . .

لما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال : (إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه)[٥] .

وأن يكون الكفن أبيض ، لما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبى

---

(١) أخرجه البخارى فى الوضوء : ٣١. ومسلم فى الجنائز : ٤٢ ، ٤٣. وابو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٣١. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٨.

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ . ومسلم فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١. وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٢٨ ، ٣٢ـ ٣٥ ، ٣٦. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام مالك فى الجنائز : ٢. والامام أحمد فى ٥ : ٨٤ ، ٨٥ ، وفى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٣ ، ١٤ ، ١٦. ومسلم فى الجنائز : ٣٨. وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٠ ، ٣٥ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٢٢.

(٥) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤٩. والترمذى فى الجنائز : ١٩. والنسائى فى الجنائز : ٣٧. وابن ماجه فى الجنائز : ١٢. وأبو داود فى الجنائز : ٣٠. والامام أحمد فى ٣ : ٢٩٥ ، ٣٢٩ ، ٣٧٢.

-صلى الله عليه وسلم-قال : (البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم)[١] .

وأن يجمر ويبخر ويطيب . . لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر : أن النبى ﷺ قال : (إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثا)[٢] .

وأوصى أبو سعيد وابن عمر وابن عباس-رضى الله عنهم-أن تجمر أكفانهم بالعود .

وأن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل وخمس لفائف للمرأة . ! لما رواه الجماعة عن عائشة رضى الله عنها-قالت : (كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة)[٣] . وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم :

وقال سفيان الثورى : يكفن الرجل فى ثلاثة أثواب : إن شئت فى قميص ولفافتين وإن شئت فى ثلاث لفائف . ويجزىء ثوب واحد إن لم يوجد ثوبان .

والثوبان يجزئان ، والثلاثة - لمن وجد - أحب إليهم ، وهو قول الشافعى وأحمد واسحق ، وقالوا : تكفين المرأة فى خمسة أثواب .

وعن أم عطية : (أن النبى ﷺ ناولها إزارا ودرعا وخمارا وثوبين)[٤] .

وقال ابن المنذر : أكثر من نحفظ عنه من أهل العلم : يرى أن تكفن المرأة فى خمسة أثواب .

تكفين المحرم : -

إذا مات المحرم : غسل كما يغسل غيره ممن ليس محرما وكفن فى ثياب إحرامه ولا تغطى رأسه ولا يطيب لبقاء حكم الاحرام . .

لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : (بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة اذ وقع عن راحلته فقصته فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : (اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبيا)[٥] .

المغالاة فى الكفن : -

تكره المغالاة فى الكفن لقول رسول الله ﷺ (لا تغالوا فى الكفن ، فإنه يسلب سلبا سريعا)[٦] رواه ابو داود وفى إسناده ابو مالك .

وعن حذيفة قال : لا تغالوا فى الكفن . اشتروا لى ثوبين نقيين،وقال أبو بكر-رضى الله-عنه : اغسلوا ثوبى هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنونى فيها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الطب : وفى اللباس : ١٣ . والترمذى فى الجنائز : ٨ ، وفى الأدب : ٤٦ . والنسائى فى الجنائز : ٣٨ ، وفى الزينة : ٩٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٢ . والامام أحمد فى ١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، وفى ٥ : ١٠ ، ١٢ ، ٢١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣١ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ ، ٢٥ ، ٩٤ . ومسلم فى الجنائز : ٤٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٩ . وابن ماجه فى الجنائز : ١١ . والامام مالك فى الجنائز : ٥ ، ٦ ، ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٣١ .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ومسلم فى الاشربة : ٧٤٢

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ - ٢١ . ومسلم فى الحج : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٨٠ والترمذى فى الحج : ١٠٣ والنسائى فى الحج : ٤٧ ، ٩٧ - ٩٩ ، ١٠١ . وابن ماجه فى المناسك : ٨٩ . والدارمى فى المناسك : ٣٥ . والامام أحمد فى ١ : ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٣١ .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن هذا خلق ، قال : إن الحى أولى بالجديد من الميت إنما هو للمهلة .

ويحرم على الرجال أن يكفنوا فى الحرير . ويكره للنساء ذلك قال أحمد : لا يعجبنى أن تكفن المرأة فى شىء من الحرير .

وكره ذلك : الحسن وابن المبارك وإسحاق .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ من غيرهم خلافه .

صلاة الجنازة

الواجب الثالث بعد الغسل والتكفين : هو الصلاة على الميت .

وقد اتفق أئمة الفقه على أن الصلاة على الميت فرض كفاية ، لأمر رسول الله ﷺ بها ولمحافظة المسلمين عليها .

فضلها : -

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد)(١) .

وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : ياعبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم رجع : كان له مثل أحد)(٢) .

فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خبابا إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت ، فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة . فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

شروطها : -

يشترط فيها الشروط التى تفرض فى سائر الصلوات المكتوبة : من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر ، والأصغر ، واستقبال القبلة وستر العورة .

وروى مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة فى أنه لا يشترط فيها الوقت بل تؤدى فى جميع الأوقات متى حضرت ولو فى أوقات النهى عند الأحناف والشافعية .

وكره أحمد وابن المبارك واسحاق : الصلاة على الجنازة فى وقت الطلوع والاستواء والغروب إلا إن خيف عليها التغيير .

أركانها : -

ولصلاة الجنازة أركان لابد منها .. إذا فقد منها ركن وقعت غير صحيحة وهى كما يلى :

النية :

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥٧. ومسلم فى الجنائز : ٥٥. والنسائى فى الجنائز : ٥٤. والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٨٣ .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٩. والبخارى فى الايمان : ٣٥.

يقول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[(١)] .
وقول رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)[(٢)] .

القيام :

للقادر عليه وهو ركن عند جمهور العلماء . . فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكبا أو قاعدا من غير عذر .

قال فى المغنى : ولا يجوز ان يصلى على الجنائز وهو راكب ، لانه يفوت القيام الواجب . . وهذا قول أبى حنيفة والشافعى وأبى ثور ولا أعلم فيه خلافا .

ويستحب ان يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام كما يفعل فى الصلاة وقيل : لا . والأول أولى .

التكبيرات الأربع :

لما رواه البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ (صلى على النجاشى فكبر أربعا)[(٣)] قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات وهو قول سفيان ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق .

أما رفع اليدين عند التكبير :

فالسنة عدم رفعهما فى صلاة الجنازة ، إلا فى أول تكبيرة فقط : لأنه لم يأت عن النبى ﷺ أنه رفع فى شيء من تكبيرة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

قال الشوكانى : والحاصل انه لم يثبت فى غير التكبيرة الأولى شيء يصلح للاحتجاج به عن النبى ﷺ وأفعال الصحابة وأقوالهم : لا حجة فيها ، فينبغى أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الاحرام ، لانه لم يشرع فى غيرها إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن كما فى سائر الصلوات ولا انتقال فى صلاة الجنازة .

قراءة الفاتحة سرا :-

بعد تكبيرة الاحرام ، الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد التكبيرة الثانية .

لما رواه الشافعى فى مسنده عن ابى امامة بن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : (أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الامام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنازة فى التكبيرات ولا يقرأ فى شيء منهن ، ثم يسلم سرا فى نفسه) .

قال فى الفتح : وإسناده صحيح : وروى البخارى عن طلحة بن عبد الله قال : صليت مع ابن عباس على جنازة ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، فقال : إنها من السنة ورواه الترمذى وقال : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من الصحابة وغيرهم يختارون ان يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق .

---

(١) الآية ٥ من سورة البينة .
(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ١ ، وفى النكاح : ٥ . ومسلم فى الايمان : ٢٣ . ومسلم فى الامارة : ١٥٥ . وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والترمذى فى فضائل الجهاد : ١٦ . والنسائى فى الطهارة : ٥٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٦ . والامام احمد فى ١ : ٢٥ ، ٤٣ .
(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠

وقال بعضهم : لا يقرأ فى الصلاة على الجنازة إنما هو الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ والدعاء للميت ، وهو قول الثورى وغيره من أهل الكوفة .

ومن حجج القائلين بفرضية القراءة : أن الرسول ﷺ سماها صلاة .. بقوله (صلوا على صاحبكم)(١) وقال : (لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن)(٢) .

وتؤدى الصلاة والسلام على رسول الله بأية صيغة ، ولو قال : اللهم صلى على محمد لكفى . واتباع المأثور : أفضل ، مثل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية كما هو الظاهر وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .

الدعاء - بعد التكبيرة الثالثة : -

وهو ركن ، باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)(٣) . رواه أبو داود والبيهقى وابن حبان وصححه . وهو يتحقق بأى دعاء مهما قل . والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة الآتية :

قال أبو هريرة : دعا رسول الله ﷺ فى الصلاة على الجنازة فقال : (اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت رزقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها جئنا شفعاء له فاغفر له ذنبه)(٤) .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا النبى ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول : (اللهم إن فلان ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق . اللهم فاغفر له وارحمه فإنك أنت الغفور الرحيم)(٥) . رواهما أحمد وأبو داود .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ وقد صلى على جنازة - يقول : (اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه وعافه وأكرم منزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره واهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وقه فتنة القبر وعذاب النار)(٦) .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : (اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا وشاهدنا وغائبنا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده)(٧) . رواه أحمد وأصحاب السنن .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٩٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤٥٣ ، وفى ٣ : ٢٩٦ .
(٢) أخرجه الترمذى فى المواقيت : ١١٥.. والامام أحمد فى ٥ : ٣١٦ ، ٣٢٢ .
(٣) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٦.
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٥٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٥٩ .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٥٦. والامام أحمد فى ٣ : ٤٩١.
(٦) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٨٥ ، ٨٦. والنسائى فى الجنائز : ٧٧. وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٦ : ٢٣ ، ٢٨ .
(٧) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٥٦. والترمذى فى الجنائز : ٣٨. وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦٨ ، وفى ٤ : ١٧٠ ، وفى ٥ : ٢٩٩ ، ٣٠٨ .

فإذا كان المصلى عليه طفلا : استحب أن يقول المصلى : (اللهم اجعله لنا سلفا وفرطا وذخرا)[١] . رواه البخارى والبيهقى من كلام الحسن .

قال النووى : وإن كان صبيا أو صبية : اقتصر على ما فى حديثه : (اللهم اغفر لحينا وميتنا . . . الخ) وضم إليه : اللهم اجعله فرطا لأبويه وسلفا وذخرا وعظة واعتبارا وشفيعا وثقل به موازينهما وأفرغ الصبر على قلوبهما ولا تفتنهما بعده ولا تحرمهما أجره)

واستحب العلماء : الدعاء ايضا بعد التكبيرة الرابعة : لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى أنه ماتت له ابنة فكبر عليها أربعا ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم قال : كان رسول الله ﷺ يصنع فى الجنازة هكذا .

وقال الشافعى : يقول بعدها : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .

وقال ابن أبى هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

السلام : -

والسلام : ركن من أركان صلاة الجنازة وذلك لأن تحليل الصلاة : التسليم وصلاة الجنازة ضمن الصلوات.وقال ابن مسعود : التسليم على الجنازة : مثل التسليم فى الصلاة . .

وأقله السلام عليكم أو سلام عليكم .

كيف نصلى على الجنازة

وعلى الجملة فهذا بيان بترتيب الخطوات التى تؤدى بمقتضاها صلاة الجنازة :

بعد استيفاء شروط صحة الصلاة من طهارة وستر للعورة واستقبال للقبلة : يقف المصلى ناويا الصلاة على من حضر من الموتى رافعا يديه مع تكبيرة الاحرام ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ويشرع فى قراءة الفاتحة ثم يكبر ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يكبر ثم يدعو للميت ثم يكبر ثم يدعو ، ثم يسلم .

موقف الامام : -

من السنة أن يقف الامام عند رأس الرجل ويقف عند وسط المرأة لحديث أنس : (أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه فلما رفعت أتى بجنازة امرأة فصلى عليها فقام وسطها فسئل عن ذلك ، وقيل له أهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ومن المرأة حيث قمت ؟ قال : نعم)[٢] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه : قال الطحاوى : وهذا أحب إلينا فقد قوته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ .

* * *

ثم إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكورا أو إناثا : صفوا واحدا بعد واحد بين الامام والقبلة ليكونوا جميعا بين يدى الامام ووضع الأفضل مما يلى الامام وصلى عليهم جميعا صلاة واحدة .

وإن كانوا رجالا ونساء : جاز أن يصلى على الرجال وحدهم والنساء وحدهم وجاز أن يصلى عليهم جميعا وصفت الرجال أمام الامام وجعلت النساء مما يلى القبلة .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٣.

وعن نافع عن ابن عمر-رضى الله عنهما- أنه صلى على تسع جنائز (رجال ونساء) فجعل الرجال مما يلى الامام وجعل النساء مما يلى القبلة ، وصفهم صفا واحدا (ووضعت جنازة أم كلثوم بنت على (امرأة عمر) وابن لها يقال له زيد والامام يومئذ سعيد بن العاص وفى الناس يومئذ ابن عباس وابو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة فوضع الغلام مما يلى الامام فقال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى قتادة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هى السنة)[1] . رواه النسائى والبيهقى . قال الحافظ : وإسناده صحيح .

وفى الحديث أن الصبى إذا صلى عليه مع امرأة كان الصبى مما يلى الامام والمرأة مما يلى القبلة .

وإن كان فيه رجال ونساء وصبيان : كان الصبيان مما يلى الرجال .

صفوف الصلاة على الجنازة

يستحب أن يصف المصلون على الجنازة ثلاثة صفوف وأن تكون مستوية لما رواه مالك بن هبيرة: قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له)[2] .

فكان مالك بن هبيرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة ان يجعلهم ثلاثة صفوف رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

وقال أحمد : أحب إذا كان فيهم قلة : أن يجعلهم ثلاثة صفوف قالوا : فإن كان وراءه أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين فى كل صف رجلين وكره أن يكونوا ثلاثة ، فيكون فى صف : رجل واحد .

فضل صلاة الجمع الكثير

يستحب صلاة الجمع الكثير على الجنازة كلما أمكن ذلك ، ففى صلاتهم على الميت : شفاعة له . . . بهذا صرحت الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له : إلا شفعوا فيه) رواه مسلم والنسائى والترمذى ، وعنده : (مائة فما فوقها)[3] .

وعن كريب : أن ابن عباس-رضى الله عنهما-مات له ابن بقديد (او بفان) فقال : ياكريب : انظر ما اجتمع له من الناس ؟ قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : قلت : نعم . قال : أخرجوه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)[4] . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٤.

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٧٩.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٦١. والترمذى فى الجنائز : ٠٤٠ والنسائى فى الجنائز : ٧٨. والامام أحمد فى ٤ : ٧٩ ، وفى ٦ : ٣٢ ، ٠٤٠.

(٤) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٤١.

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : (ما من رجل يصلى عليه مائة إلا غفر الله له) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن الحكم بن فروخ قال : (صلى بنا ابو المليح على جنازة فظننا أنه قد كبر فأقبل علينا بوجهه ، فقال : أقيموا صفوفكم ولتحسن شفاعتكم) .

قال أبو المليح : حدثنى عبد الله عن إحدى أمهات المؤمنين ـ وهى ميمونة زوج النبى ﷺ ـ قالت : أخبرنى النبى ﷺ ، قال : (ما من ميت يصلى عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه ، فسألت أبا المليح عن الأمة ؟ قال : أربعون)[١] رواه النسائى .

وعن مالك بن هبيرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب)[٢]

وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة : جزأهم ثلاثة صفوف . . . لهذا الحديث . . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه ، والترمذى وقال : حديث حسن .

* * *

لا قضاء على من فاته بعض التكبير مع الامام فى صلاة الجنازة وهذا هو الرأى المعتمد :

روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله إنى أصلى على الجنازة ، ويخفى على بعض التكبيرة . قال : (ما سمعت : فكبرى . وما فاتك : فلا قضاء عليك)[٣] .

وقال ابن عمر والحسن : لا يقضى ما فات من تكبيرة الجنازة ويسلم مع الامام . وقال أحمد : إذا لم يقض : لم يبال .

واتفقت كلمة العلماء على أن المسلم : يصلى عليه : ذكرا كان أو أنثى صغيرا كان أو كبيرا .

الصلاة على السقط

إذا ولد مولود ولم يمض على حمله أربعة أشهر فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه ويلف فى خرقة ويدفن من غير خلاف بين جمهور الفقهاء ، فإذا ولد لأربعة أشهر فصاعدا فإنه يغسل ويصلى عليه لقوله ﷺ : (والسقط يصلى عليه)[٤] . وذلك لأنه إذا بلغ أربعة أشهر فى الرحم : يصير نسمة نفخ فيها الروح) فيصلى عليه .

ولا يصلى على كافر

لا تجوز الصلاة على الكافر وذلك لما صرحت به آيات الكتاب الكريم قال تعالى : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾[٥] ولقوله جل شأنه : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٩.
(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٠٤٠ والامام أحمد فى ٤ : ٧٩.
(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ١٧٧.
(٤) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٤٥. والامام أحمد فى ٤ : ٢٤٩.
(٥) الآية ٨٤ من سورة التوبة .

أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه)[١] .

الصلاة على الميت بعد دفنه : ـ

تجوز الصلاة على الميت بعد الدفن في أى وقت ، ولو كان قد صلى عليه قبل دفنه ! لما رواه يزيد ابن ثابت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فلما وردنا « البقيع » : إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل : فلانة ، فعرفها فقال : ألا آذنتمونى بها ؟ قالوا : يارسول الله كنت قائلا صائما فكرهنا أن نؤذيك ، فقال : (لا تفعلوا . . لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به فإن صلاتى عليه رحمة ثم أتى القبر فصفنا خلفه ، وكبر عليه أربعا)[٢] . رواه أحمد والنسائى والبيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق رضى الله عنهم .

وفى الحديث : أن الرسول ﷺ صلى على صاحبة القبر بعد ما صلى عليها أصحابه قبل الدفن ، لانهم ما كانوا ليدفنوها قبل الصلاة عليها .

قال الفقهاء : ـ

وفى صلاة أصحاب الرسول ﷺ معه على القبر : ما يدل على أن ذلك ليس خاصا به صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن القيم : ردت هذه السنن المحكمة : بالمتشابهة ، من قوله : (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) وهذا حديث صحيح .

والذى قاله : هو الذى صلى على القبر فهذا قوله ، وهذا فعله .

ولا يناقض احدهما الآخر . . . فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر غير الصلاة التى على القبر . . . فهذه صلاة الجنازة على الميت ، التى لا تختص بمكان . . . بل إن فعلها فى غير المسجد أفضل من فعلها فيه فالصلاة عليه على قبره : من جنس الصلاة عليه على (نعشه) فإنه المقصود بالصلاة فى الموضعين ولا فرق بين كونه على (النعش) وعلى الأرض وبين كونه فى بطنها . . . بخلاف سائر الصلوات ، فإنها لم تشرع فى القبور ولا إليها لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد .

الصلاة على الغائب : ـ

تجوز الصلاة على من غاب من أموات المسلمين كما هى جائزة على من حضر من أمواتهم .

وكيفيتها : أن يستقبل المصلى القبلة ، وينوى الصلاة عليه ، ويكبر ، ويفعل مثل ما يفعل فى صلاة الجنازة .

---

(١) الأيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٧٢ ، وفى الجنائز : ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ . ومسلم فى الجنائز : ٧١. وأبو داود فى الجنائز : ٣٤ ، ٥٧ . والنسائى فى الجنائز : ٤٣ ، ٧٦. وابن ماجه فى الجنائز : ٣١ ، ٣٢. والامام مالك فى الجنائز : ١٥. والامام أحمد فى ٢ : ٣٥٣ ، ٣٨٨ ، وفى ٣ : ٤٤٤ ، وفى ٤ : ٣٨٨ ، وفى ٥ : ٤٠٦ .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ (أن النبى ﷺ نعى الناس « النجاشى » فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر أربع تكبيرات)

قال ابن حزم : ويصلى على الميت الغائب بإمام وجماعة .

صلاة النساء على الجنازة

يجوز للمرأة أن تصلى على الجنازة ، مثل الرجل : سواء صلت منفردة ، أو صلت مع الجماعة . فقد انتظر عمر أم عبدالله حتى صلت على (عتبة) وأمرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن يؤتى بسعد بن أبى وقاص لتصلى عليه .

السير بالجنازة

هناك أمور يحسن بيانها تتعلق بحمل الجنازة والسير بها . نثبتها فيما يلى ؛ -

وصى الشارع الحكيم بتشييع الجنازة وحملها ، ومن السنة أن يحملها من جميع جوانبها ، حتى ينال ثواب جهاتها المختلفة : -

روى ابن ماجه والبيهقى وأبو داود والطيالسى عن ابن مسعود قال : (من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها ، فإنه من السنة . ثم إن شاء فليتطوع وإن شاء فليدع)(١) .

والمراد بسرير الميث : نعشه .

وقد رغب النبى ﷺ فى إتيان هذا البر العظيم حيث قال : (عودوا المريض وامشوا مع الجنازة : تذكركم الآخرة)(٢) . رواه أحمد ، ورجاله ثقات .

ويستحب الاسراع بها . . وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة : فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك : فشر تضعونه عن رقابكم)(٣) .

وروى البخارى فى التاريخ (أن النبى ﷺ أسرع حتى تقطعت نعالنا يوم مات سعد بن معاذ) .

والمقصود بالاسراع بها : عدم البطء الذى قد يدعو إلى التبختر .

وبناء عليه : فينبغى أن يعرف ألا يؤدى الاسراع إلى فسادها أو المشقة على مشيعيها .

المشى مع الجنازة :

اختار جمهور العلماء : المشى أمامها ، وقالوا : إنه الأفضل . . لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر : كانوا يمشون أمامها ، رواه أحمد وأصحاب السنن .

ويرى بعض الفقهاء أن المشى خلفها أفضل . . لأن ذلك هو المفهوم من أمر رسول الله ﷺ باتباع الجنازة والمتبع : هو الذى يمشى خلفه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٧١ ، وفى الأطعمة : ١ ، وفى النكاح : ٧١ ، وفى المرضى : ٤ . والامام أحمد فى ٣ : ٢٣ ، ٣١ ، ٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥١ . ومسلم فى الجنائز : ٥٠ ، ٥١ . وأبو داود فى الجنائز : ٤٦ . والنسائى فى الجنائز : ٤٤ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٥ . والامام مالك فى الجنائز : ٥٨ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٨٠ ، ٤٨٨ .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكل جائز ﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات** ﴾[١] .

أشياء تكره عند الجنازة :

هناك أشياء تكره رأينا أن ننبه إليها ، لكراهة فعلها عند الجنازة ولخفائها على كثير من الناس ولانتشار فعلها .

رفع الصوت : سواء كان ذلك بذكر أو قراءة أو كان بغيرهما . وذلك لما رواه ابن المنذر عن قيس ابن عباد أنه قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر وعند القتال) .

ومن البدع : أن يقول قائل خلف الجنازة : استغفروا للميت . بهذا قال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير والحسن والنخعى ، وأحمد وإسحق والأوزاعى .

يقول الامام النووى ـ رضى الله عنه ـ : واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما لأنه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة . . وهو المطلوب فى هذا الحال . فهذا هو الحق ولا تغتر بكثرة من يخالفه .

* * *

مما سبق يتبين أن رفع الصوت عند الجنازة أمر كرهه الشارع وعلينا أن نلتزم بما أتانا به الشرع ، ومن أراد أن يذكر الله : فليذكره تعالى فى نفسه ، تضرعا وخيفة ، وحتى لا يفوته الهدى النبوى الشريف .

كذلك من الأشياء المكروهة عند الجنازة ونهى الشرع عنها ، تلك العادة الجاهلية . . فقد كانوا يتبعون الجنازة بالنار ، أى يحملون مشاعل النار معها .

قال الامام البيهقى ـ رضى الله عنه ـ : جاء فى وصية عائشة وعبادة بن الصامت وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ (أن لا تتبعونى بنار) .

وروى ابن ماجه أن أبا موسى الأشعرى حين حضره الموت قال (لا تتبعونى بمجمر)[٢] [وهو ما يوضع فيه الجمر] . . قالوا : ياأبا موسى ، أوسمعت فيه شيئا ؟ قال نعم . . . من رسول الله ﷺ أما إذا كان دفن الميت ليلا : فلا بأس باصطحاب ما يضىء الطريق إلى المقبرة .

ولقد ورد هذا عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه الامام الترمذى عن ابن عباس (أن النبى ﷺ دخل قبرا ليلا فأسرج له سراج)[٣] .

كذلك يكره لمن اتبع الجنازة أن يقعد قبل أن توضع الجنازة على الارض فإن فعل : أمر بالقيام حتى توضع الجنازة .

وكذلك يكره اتباع النساء للجنازة وهذا عمل قد عمت به البلوى فى البلاد : قرى كانت أو مدنا . . والشرع يكرهه والناس فى غفلة .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٨ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٦٢ .

قالت الصحابية الجليلة أم عطية رضى الله عنها : نهينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا . أى:لم يوجب علينا .

دفن الميت

بعد الفراغ من الحديث عن تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه : نبين هنا حكم دفن الميت وما يتعلق بذلك :

أجمعت كلمة الفقهاء على أن دفن الميت ومواراة جسده إلى التراب : فرض كفاية . . . إذا قام به البعض : سقط عن الباقين .

وذلك لما صرحت به آيات القرآن . . قال تعالى : ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا** ﴾[2] أى جامعة للأموات والأحياء ؟ فالأموات فى بطنها والأحياء على ظهرها .

وما قصة ابنى آدم عن بالنا ببعيدة . . قال تعالى : ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ فأصبح من النادمين** ﴾[3] .

توضيح

يظن الكثير من الناس أن دفن الميت ليلا قد يؤذيه ، فيظل طول حياته خائفا ! !

وهذا افتراء على شرع الله ولا يقول بهذه المسألة إلا كل من غفل عن قوله جل شأنه ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم** ﴾[4] .

ولو علم هؤلاء أن الميت قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وعالم البرزخ ، وأن هذا العالم لا يخضع لقوانين هذه الدنيا . . لو علموا هذا :

ما اجترأوا على أن يشرعوا فى دين الله ما ليس منه .

ويرى جمهور علماء المسلمين أن الدفن بالليل . كالدفن بالنهار سواء بسواء فقد دفن رسول الله ﷺ الرجل الذى كان يرفع صوته بالذكر : ليلا .

ودفن على فاطمة رضى الله عنها : ليلا .

وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود . رضى الله عنهم أجمعين .

الحكمة من الدفن : -

والحكمة من دفن الميت : أن يوارى الميت فى حفرة تحجب رائحته ، وتمنع السباع والطيور عنه .

ومن هنا : ينبغى تعميق القبر . والدفن فيه : إكرام لابن آدم الذى أوصى الله تعالى به إذ يقول : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾[5] .

---

(١) الآية ٢١ من سورة عبس .
(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .

ما يستحب للميت : ـ

يستحب توجيه الميت فى قبره إلى القبلة والدعاء له وحل أربطة الكفن .

والسنة التى جرى عليها العلم : ان يجعل الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة .

ويقول واضعه : (بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ) ثم يحل أربطة الكفن .

كذلك يستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، لأنه يسأل فى هذه الحالة :

فعن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت : وقف عليه وقال : (استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل)[١] . رواه ابو داود .

ما نهى عنه الشرع

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر لما فى ذلك من المباهاة والرياء والفخر :

فقد روى ابو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عقر فى الاسلام)[٢] .

قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

قال الخطابى : كان أهل الجاهلية يعقرون الابل على قبر الرجل الكريم ويقولون : نجازيه على فعله لانه كان يعقرها فى حياته فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعما بعد مماته ، كما كان مطعما فى حياته .

كذلك نهى الشارع عن الجلوس على القبر ، والاستناد إليه ، والمشى عليه وذلك لما رواه عمرو بن حزم قال : رآنى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : (لا تؤذ صاحب هذا القبر) . رواه احمد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من ان يجلس على قبر)[٣] . رواه احمد ومسلم .

دفن أكثر من واحد فى قبر

إذا تعذر إفراد كل ميت بقبر لكثرة الموتى وقلة الدافنين او ضعفهم ، فإنه فى هذه الحالة يجوز دفن اكثر من واحد فى قبر واحد : لما رواه أحمد والترمذى وصححه : أن الانصار جاءوا إلى النبى ﷺ يوم أحد . فقالوا : يارسول الله : أصابنا جرح وجهد فكيف تأمرنا ؟ فقال : (احفروا ؟ واوسعوا ؟ واعمقوا واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر قالوا : فأيهم نقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنا)[٤] .

التأدب مع أموات المسلمين

لا يجوز سب أموات المسلمين ، أو ذكر مساوئهم ، وذلك لأنهم فى دار من الأليق والأفضل أن يذكروا فيها بالرحمة .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٦٩.

(٢) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٠٧٠ والامام أحمد فى ٣: ١٩٧.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٩٦. وأبو داود فى الجنائز : ٧٣. والنسائى فى الجنائز : ٩٧ ، ٠١٠٥ وابن ماجه فى الجنائز ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذى فى الجهاد : ٣٤. والنسائى فى الجنائز : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١. وابن ماجه فى الجنائز : ٤١. والامام أحمد فى ٤ : ١٩ ، ٢٠ ، وفى ٢ : ٣٢٤ ، ٤٧٢ ، ٥٣٢ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : (لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا [١] .

أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة أو عمل فاسد ، فإنه يباح ذكر مساوئهم . إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه ، كالتحذير من حالهم والتنفير من قولهم ، وترك الاقتداء بهم .

أما إذا لم يكن فيه مصلحة : فلا يجوز .

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبى ﷺ : « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال : « وجبت » فقال عمر رضى الله عنه ما وجبت ؟ قال : (هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا اثنيتم عليه شرا فوجبت له ، أنتم شهداء الله فى الأرض)[٢] .

نقل الميت

يحرم عند الشافعية : نقل الميت من بلد إلى بلد إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة . أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى إحدى هذه البلاد ، لشرفها وفضلها .

ولو أوصى بنقله إلى غير هذه الأماكن الفاضلة : لا تنفذ وصيته ، لما فى ذلك من تأخير دفنه ، وتعرضه للتغير .

ويحرم كذلك نقله من القبر إلا لغرض صحيح : كأن دفن من غير غسل أو إلى غير القبلة ، أو لحق القبر سيل أو نداوة .

قال فى المنهاج : ونبشه بعد دفنه للنقل وغيره : حرام إلا لضرورة كأن دفن بلا غسل أو فى أرض أو ثوب مغصوبين أو مع مال أو دفن لغير القبلة .

وعند المالكية : يجوز نقله من مكان إلى مكان آخر قبل الدفن وبعده لمصلحة : كأن يخاف عليه أن يغرقه البحر ، أو يأكله السبع ، أو لزيارة أهله له ، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول إليه . ونحو ذلك .

فالنقل حينئذ جائز ما لم تنتهك حرمة الميت بانفجاره أو تغيره أو كسر عظمه .

ويستحب دفن الشهيد حيث قتل .

وذلك لما روى عن النبى ﷺ قال : (ادفنوا القتلى فى مصارعهم)[٣] .

وروى ابن ماجه (ان رسول الله ﷺ أمر بقتلى أحد ان يردوا إلى مصارعهم)[٤]

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٩٧ . ومسلم فى فضائل الصحابة : ٢٢١ . وأبو داود فى السنة : ١٠ والترمذى فى البر : ٥١ . والنسائى فى الجنائز : ٥٢ . وابن ماجه فى المقدمة : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٣٠٠ ، وفى ٣ : ١١ ، ٥٤ ، وفى ٥ : ٢٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الشهادات : ٦ ، وفى الجنائز : ٥٨ . وأبو داود فى الجنائز : ٧٢ . والترمذى فى الجنائز : ٦٣ والنسائى فى الجنائز : ٥٠ والامام أحمد فى ٢ : ٢٦١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٢٥٨ ، وفى ٣ : ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ .

(٤) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ٢٨ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٠٨ ، ٣٩٨ .

قضاء الدين

الاسلام : دين الوفاء والحياء ، وإن لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام : الحياء .

ومن القضايا الخطيرة فى الاسلام : قضية المال ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

ومن ثم جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى باب الدين تحث حثا أكيدا على أدائه ، وعدم المماطلة فى ذلك الأداء

بل إن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من الدين ويقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال)(١) .

بل تزيد دقة الاسلام فى التحذير من المماطلة فى الديون إلى درجة أن الرسول ﷺ كان يستعيذ بالله من الكفر والدين :

روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه كان يقول (أعوذ بالله من الكفر والدين فقال رجل : يارسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم)(٢) . رواه النسائى .

الدين : مذلة : ـ

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الدين راية الله فى الأرض فإذا أراد الله ان يذل عبدا أوضعه فى عنقه) . رواه الحاكم .

وقد وصى رسول الله ﷺ أحد أصحابه هذه الوصية فقال له : (أقل من الذنوب . يهن عليك الموت ، وأقل من الدين : تعش حرا) . رواه البيهقى .

وصية حكيم لابنه :

وقال أحد الحكماء لابنه وهو يعظه : يابنى لقد ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب من العافية ، وتجرعت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة إلى الناس ، وحملت الصخر والحديد فلم أجد اثقل من الدين .

وقد عد رسول الله ﷺ الدين نوعا من أنواع الخوف بعد الأمن .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها قالوا وما ذاك يارسول الله قال : الدين)(٣) . رواه أحمد .

البراءة من ثلاثة : ـ

عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من فارق روحه جسده وهوبرىء من ثلاثة

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ـ ٤٢ ، ٤ ، ٥٧. ومسلم فى الذكر : ٤٩ ـ ٥١ ، ٧٣. وابن ماجه فى الدعاء : ٠٣ وابو داود فى الوتر : ٣٢. والترمذى فى الدعوات : ١١٣. والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ٥ ـ ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٨ ـ ٤٠ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ١٨٦ ، وفى ٣ : ١١٣ ، ١٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، وفى ٦ : ٣٧١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٨.

(٣) اخرجه الامام احمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .

دخل الجنة : الغلول والدين والكبر)[١] .

الغلول : أى السرقة من الغنم ـ والكبر : احتقار الناس ورفض الحق

الدين والنية :

لنية الأداء عند الله : إذن بتيسير ولنية الاتلاف : إذن بتعسير .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من أخذ أموال الناس يريد اداءها : أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها : أتلفه الله)[٢] . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها مالك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا التمس ذلك العون)[٣] .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل تدين دينا وهو مجمع الا يوفيه اياه : لقى الله سارقا)[٤] . رواه ابن ماجه والبيهقى .

خطورة الدين :

عن محمد بن عبدالله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال: فى الدين ، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين مادخل الجنة حتى يقضى دينه)[٥] . رواه النسائى .

الصدق والأمانة : فى الوفاء

هذا حديث نسوقه بطوله لما فيه من عظات بالغات ، وعبر طيبات ، أحرى بكل عاقل ان يتصف بها ؛

عن أبى هريرة رضى الله عنه (أن رسول الله ﷺ ذكر رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل ان يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم . فقال : كفى بالله شهيدا قال : فائتنى بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلا . قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها الف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ، فقال :

---

(١) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أخرجه النسائى فى البيوع : ٩٨ .

اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى استودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[١] . رواه البخارى .

سمو الإسلام

نظرة الاسلام دائما رفيعة وعالية ، فهو فى باب الدين لا يجد غضاضة من أن يستدين المسلم فى هذه الأمور الثلاثة : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من يدين فى ثلاث خلال :

الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)[٢] رواه ابن ماجه .

دين الميت

لعلك أيها القارىء الكريم قد أدركت بما لا يدع مجالا للشك ما يترتب على الدين من مسئولية ومؤاخذة وإليك الآن ما يتعلق بدين الميت ، فاستمع إلى صوت النبوة فى سكينة ووقار ، تعلم الخبر اليقين ، واسأل الله النجاة من خزى الدنيا ، وعذاب الآخرة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[٣] أى ان امرها موقوف لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك أو محبوسة عن الجنة . وهذا فيمن مات وترك مالاً يقضى منه دينه .

أما من مات ولا مال له عازما على القضاء فقد ثبت ان الله تعالى يقضى عنه ، ومثله من مات وله مال وكان محبا للقضاء ولم يقض من ماله ورثته :

فعند البخارى من حديث ابى هريرة : ان النبى ﷺ قال : (فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله)[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٤٩ .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١.
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦. وابن ماجه فى الصدقات : ٩٢. والامام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ،وفى الاستقراض من : ٢. وابن ماجه فى الصدقات : ١١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

وروى أحمد وأبو نعيم والبزار والطبرانى عن النبى ﷺ قال : (يدعى بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله عز وجل فيقول : ياابن آدم : فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن اتى علىَّ إما حرق و إما سرق واما ضيعة فيقول الله : صدق عبدى وأنا احق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)[1]

وقد كان النبى ﷺ يمتنع عن الصلاة على المديون فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال (صلى على من مات مديونا وقضى عنه)

وقال فى حديث البخارى : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)[2] .

وفى هذا ما يدل على ان من مات مدينا : استحق أن يقضى عنه من بيت مال المسلمين ويؤخذ من سهم الغارمين أحد مصارف الزكاة ، وأن حقه لا يسقط بالموت .

بل كان رسول الله ﷺ عندما تأتيه الجنازة يسأل ويقول (أعلى صاحبكم دين) ؟

عن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه ، فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف ، فتحملهما أبو قتادة فأتيناه فقال أبو قتادة : الديناران علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد فقال : قد قضيتها فقال رسول الله ﷺ الآن بردت جلدته)[3] . رواه أحمد

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ويسأل عن دينه : فإن قيل عليه دين : كف عن الصلاة عليه وان قيل ليس عليه دين : صلى عليه ، فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ : (هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم فقال على رضى الله عنه : هما علّى يارسول الله برىء منهما ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن ابى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت : فك الله رهانه يوم القيامة فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة) رواه الدارقطنى .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : (هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه ابو يعلى والطبرانى .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١٥ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفرائض : ١٥ ، ١٦ . وأبو داود فى الامارة : ١٥ . والترمذى فى الجنائز : ٦٩ . والنسائى فى الجنائز : ٦٧ . وابن ماجه فى المقدمه : ٧ . والدارمى فى البيوع : ٥٤ . والامام أحمد فى ٣ : ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، وفى ٤ : ١٣٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

الرسول يسأل :

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام رجل فقال : أنا يارسول الله . فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟ قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه ، فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء)[1] رواه ابو داود

بعض ما ورد عن الدين :

وقد وردت أحاديث أخرى فى دين الميت نورد بعضها فيما يلى :

عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ، ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم : لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه : حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : انه قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الاوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)[2] رواه ابو داود والبيهقى .

التحذير من مطل الغنى :

رأينا - من باب تتمة الفائدة - أن نبين ما يتعلق بالمماطلة فى دفع الدين ، خصوصا إذا كان المدين غنيا .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم)[3] .

ويبين الرسول ﷺ أن مطل الغنى (أى مماطلته فى أداء الديون) ظلم وأن الله تعالى لا يحب ثلاثة .

فعن على رضى الله عنه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لايحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال »

بل وإن الرسول ﷺ يشدد النكير فى مماطلة الدفع فيقول : (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع) ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض

---

(١) أخرجه ابو داود فى البيوع : ٩. والنسائى فى البيوع : ٩٨. وابن ماجه فى الصدقات : ٢٠ والامام أحمد فى ٤ : ١٣٦ ، وفى ٥ : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود فى الوصايا : ١٧.

(٣) أخرجه البخارى فى الاستقراض : ١٢. ومسلم فى المساقاة : ٣٤. وأبو داود فى البيوع : ١٠ والترمذى فى البيوع : ١٠. وابن ماجه فى الصدقات : ٨. والدارمى فى البيوع : ٤٨. والامام أحمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٣٧٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

و« نون » الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط : كتب عليه فى كل يوم وليلةوجمعة وشهر : ظلم) . رواه الطبرانى فى الكبير .

فائدة : ـ

كلمات يقولهن المدين والمهموم والمكروب والمأسور : ما من أحد فى هذه الدنيا إلا وتعتريه الهموم وتتناوشه الكروب فتلك طبيعة الأيام !

جبلت على كدر ، وأنت تريدها صفوا من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار ! !

إذا كان ذلك كذلك ، فما هو الملجأ ؟

الملجأ أن نردد هذه الأذكار التى جاءتنا من الصادق المعصوم ، فإن فى ترديدها عبادة ، وفى ذكرها التجاء إلى الله يقول فى محكم كتابه : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾[1] .

جاء عبد مكاتب إلى الامام على رضى الله عنه ، فلما جاء ذلك العبد إلى الامام على قال له : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل جبير دينا . أداه الله عنك ؟ قل « اللهم اكفنى بحلالك من حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك)[2] . رواه الترمذى .

الرسول ﷺ وأبو أمامة : ـ

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له : (أبو أمامة) جالسا فيه ، فقال : يأبا أمامة :(مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال : (أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عنى دينى)[3] . رواه أبو داود .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك ؟ قل يامعاذ : اللهم مالك الملك : تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء : ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك) . رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد .

ما يستفاد من أحاديث الدَّيْن : ـ

نبين هنا ما يريده رسول الله ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النمل .
(٢) أخرجه الترمذى فى الدعاء : ١١٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٤٠ . وأبو داود فى الوتر : ٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ . والنسائى فى الاستعاذة : ٧ ، ٨ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢٢ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ .

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأداء دينه .

ثالثا : حسن معاملة الدائن بتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .

رابعا : كل من قدر على أداء ما افترض ولم يف : حشر مع الظالمين ، وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين . وحل عليه غضب الله وكراهته .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه : سجلت عليه الآثام بمرور الأزمان .

دعاء مبارك : ـ

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ـ إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا ، قالوا : يارسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات : قال : أجل ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن)(١) . رواه أحمد والبزار وأبو يعلى فى صحيحه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله) رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه وزاد فى آخره : (لا إله إلا أنت) .

* * *

الاستغفار : ـ

من الاذكار التى تفرج الكروب وتزيل الهم والغم،الاستغفار : أى قولك : أستغفر الله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجا . ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)(٢) رواه ابو داود واللفظ له والنسائى وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقى .

لا حول ولا قوة إلا بالله : من الأذكار التى يفرج الله بها الهم والكرب والغم : قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله :

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ٣٩١ ، ٤٥٢ .

(٢) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٤٨ .

كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها : الهم) . رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وكلاهما من رواية بشربن رافع . أبى الأسباط ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

وصيته ﷺ لأسماء بنت عميس : ـ

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب ـ أو فى الكرب ـ : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا)[١] . رواه ابو داود والنسائى وابن ماجه . وكان دعاؤه ﷺ عند الكرب : (لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم)[٢] . رواه البخارى . ومسلم والترمذى .

فضل دعوة « ذى النون »

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له)[٣] . رواه الترمذى واللفظ له ، والنسائى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وزاد الحاكم فى رواية له : فقال رجل يارسول الله : (هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ **ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[٤] .

دعاء موسى الكليم : ـ

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حتى جاوز البحر ببنى اسرائيل ؟ قلنا : بلى يارسول الله قال قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) قال عبدالله فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ) . رواه الطبرانى فى الصغير

فتح أبواب السماء لقبول الدعاء : ـ

عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إذا نادى المنادى فتحت له أبواب السماء واستجيب الدعاء . فمن نزل به كرب أو شدة فليتحين المنادى ، فإذا كبرَّ كبرَّ وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حىّ على الصلاة قال : حىّ على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة التقوى أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته) . رواه الحاكم من رواية عفير بن معدان .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ .
(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٢٧ . ومسلم فى الدعوات : ٨٣ . والترمذى فى الدعاء : ٣٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٧ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ .
(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٨ .
(٤) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .

فائدة نبوية كريمة : ـ

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما كربنى أمر إلا تمثل جبريل فقال : يامحمد ، قل : توكلت على الحىّ الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبره تكبيرا) . رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

دعاء الأسير : ـ

وروى الأصبهانى عن إبراهيم يعنى ابن الأشعث ـ قال : سمعت الفضيل يقول : إن رجلا على عهد رسول الله ﷺ أسره العدو فأراد أبوه ان يفديه به ، فأبوا عليه إلا بشىء كثير لم يطقه ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال : اكتب إليه فليكثر من قول : (توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل وكبره تكبيرا . قال : فكتب بها الرجل إلى ابنه ، فجعل يقولها ، فغفل العدو عنه ، فاستاق أربعين بعيرا فقدم بها إلى أبيه) .

* * *

فضل رعاية حقوق العباد : ـ

بعد هذا الطواف المبارك حول أقوال الرسول ﷺ التى دلت على الوفاء وأداء الدين . . فسوف نسوق هذه الآيات الكريمة ، من كتاب الله تعالى . . والتى تخبرنا عن حب الله للمتقين وإحسانه إلى المؤمنين الذين لا تضيع بينهم الحقوق .

قال الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾[١] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة النحل أيضا ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون** ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الاسراء ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾[٤] .

وقال تعالى فى سورة الشمس : ﴿ **قد أفلح من زكاها . . وقد خاب من دساها**)[٥] .

وقال تعالى فى سورة الانعام : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة** ﴾[٦] .

وقال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما**

---

(١) الأيتان ٩١ ، ٩٢من سورة النحل .
(٢) الأية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الأية ٣٤ من سورة الاسراء .
(٤) الأية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الأيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام .

بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحج : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾[٣] .

عود إلى بدء

استحباب الدعاء والاسترجاع عند الموت :-

بعد الفراغ من الكلام عن أحكام الديون عامة ، وعن ديون الميت خاصة ، نواصل مسيرتنا عما يتعلق بما بعد الموت ، وما يستحب أن يقوله المصاب بعد وقوع الموت .

يروى أحمد ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، إلا آجره الله تعالى فى مصيبته وأخلف له خيرا منها)[٤] قالت : (فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لى خيرا منه رسول الله ﷺ) .

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[٥] .

● وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : (يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء - إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة)[٦] .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قول الله تعالى : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[٧] . قال : أخبر الله عز وجل : (أن المؤمن إذا سلم الأمر لله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله والرحمة وتحقيق سبيل الهدى) .

استحباب الإعلام بموته :-

استحب الفقهاء اعلام أهل البيت وقرابته واصدقائه واهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة فى تجهيزه .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الانفال .

(٢) الآية ٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الحج .

(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٥. والامام أحمد فى ٦ : ٣٠٩ ، ٣٢١ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٣٦. والامام أحمد فى ٤ : ٤١٥ .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦. والامام مالك فى الجنائز : ٣٩. والامام أحمد فى ٢ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٤٤٣ ، وفى ٤ : ٢٣٧ ، وفى ٥ : ٢٥٣ .

(٧) الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ (نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر عليه أربعا)[١].

● وروى احمد والبخارى عن أنس رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم)[٢].

وقال البيهقى : وبلغنى عن مالك بن أنس أنه قال : لا أحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته لم يكن به بأس .

تحريم النياحة على الميت :-

النياحة على الميت : هى رفع الصوت بالبكاء عليه . . فقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مصرحة بتحريمها :

● عن رسول الله ﷺ أنه قال : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[٣] .

وعن ام عطية قالت : (أخذ علينا رسول الله ﷺ الا ننوح)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

● وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : (أنا برىء ممن منعه رسول الله ﷺ . . ان رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة)[٥] .

[الصالقة : هى التى ترفع صوتها بالندب والنياحة ، والحالقة ، هى التى تحلق رأسها عند المصيبة ، والشاقة هى التى تشق ثوبها]

● وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : (أغمى على عبدالله بن رواحة فجعلت أخته تبكى : واجبلاه واكذا ، واكذا (تعدد عليه) فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لى : أنت كذلك ؟)[٦] . رواه البخارى وزاد فى رواية . (فلما مات : لم تبك عليه) .

ومن هنا كان واجبا على المسلم قبل موته أن يوصى ويبرأ من كل ما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية . فإن كان يرضيه النياحة ولا ينهى من ينوح قبل موته راضيا بذلك : وقع فى المسئولية بعد الموت .

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت ليعذب ببكاء الحى : إذا قلت : واعضداه ، وا تعساه ، واناصراه ، واكاسياه . جند الميت فقيل له : أناصرها أنت ؟ أكاسيها أنت ؟) . رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٧ ، ٧٢ . والبخارى فى الجنائز : ٤ ، ٥ . ومسلم فى الجنائز : ٦٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٥٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٢٥ ، وفى المغازى : ٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٢٩ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥١ . والامام احمد فى ٥ : ٣٤٢ - ٣٤٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٤٦ . ومسلم فى الجنائز : ٣١ . والنسائى فى الجنائز : ١٥ . والامام أحمد فى ٣ : ١٩٧ ، وفى ٥ : ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٨ . ومسلم فى الايمان : ١٦٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى المغازى : ٤٤ .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت)[١] . رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة من الكفر بالله : شق الجيب ، والنياحة ، والطعن فى النسب) . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تصلى الملائكة على نائحة ولا حرنة)[٢] . رواه أحمد وإسناده حسن .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن هذه النوائح يجمعن يوم القيامة صفين فى جهنم : صف عن يمينهم وصف عن يسارهم فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

● وروى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : (لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة)[٣] رواه ابو داود وليس فى اسناده من ترك .

● وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفى أرض غربة لأبكينه بكاء يتحدث عنه . . فكنت وقد تهيأت للبكاء عليه ، إذ أقبلت امرأة تريد أن تساعدنى فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال : أتريدين أن تدخلى الشيطان بيتا اخرجه الله منه ؟ فكففت عن البكاء ، فلم أبك)[٤] . رواه مسلم .

● وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)[٥] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

● وعن أسيد بن أبي أسيد التابعى عن امرأة من المبايعات قالت : (كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا : الا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننشد شعرا)[٦] . رواه ابو داود .

وعن أبي امامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور)[٧] . رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

الإحداد على الميت

وهذا الاحداد متعلق بالنساء . . ومعناه : ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل والحرير والطيب والخضاب .

---

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٧ . ومسلم فى الايمان : ١٢١ ، وفى الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٩١ ، ٣٣٧ ، ٥٣١ ، وفى ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٣٦٢ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٦٥ .

(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ١٠ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ . ومسلم فى الايمان : ١٦٥ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ ، ٢٥ . والنسائى فى الجنائز : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ . والامام أحمد فى : ٣٨٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٥ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ ، وفى المناسك : ٥٦ ، والامام أحمد فى ٤ : ١٥ .

وأقصى مدة للاحداد على غير الزوج : ثلاثة أيام ، بشرط أن يأذن لها زوجها بذلك فإن لم يأذن لها : كان ذلك غير جائز .

● روى الجماعة (إلا الترمذى) عن أم عطية أن النبى ﷺ قال : « لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج : فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا ، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب (برود يمانية) . ولا تكتحل ولا تمس طيبا ولا تختضب ولا تمتشط إلا إذا طهرت تمس نبزقا من قسط أو ظفار)[1] (نوعان من العود الذى يتطيب به) .

والنبزق : القطعة .

أى أنه يجوز وضع الطيب عند الغسل من الحيض .

وهكذا يتبين أن مدة الاحداد على وفاة الزوج أربعة أشهر وعشرة أيام أى مدة عدة الوفاة ، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للزوج فقط عرفانا له ومراعاة لحقه .

صنع الطعام لأهل الميت : ـ

استحب الشارع : صنع الطعام لأهل الميت لأنه من باب البر والتقرب إلى الأهل والجيران .

لما مات جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم)[2] رواه ابو داود وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

قال الشافعى : واحب لقرابة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم فإنه سنة وفعل أهل الخير .

واستحب العلماء الالحاح عليهم ليأكلوا ، لئلا يضعفوا بتركه : استحياء أو لفرط جزع .

واتفق الأئمة على كراهة صنع اهل الميت طعاما للناس يجتمعون عليه لما فى ذلك من زيادة المصيبة عليهم وشغلا لهم لشغلهم وتشبها بصنيع أهل الجاهلية : لحديث جرير ، قال : (كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه : من النياحة)[3] . وذهب بعض العلماء إلى التحريم .

قال ابن قدامة . . فإن دعت الحاجة إلى ذلك : جاز ، فإنه ربما جاءهم من يحضر بيتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم ، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه .

سكرة الموت : ـ

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[4] .

قال رسول الله ﷺ وهو يعالج سكرات الموت :

(سبحان الله ! إن للموت لسكرات)[5] .

هذه كلمة نسوقها لترقيق القلوب إذا قست ، وتذكرة للعيون إذا جمدت . .(فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

---

(١) أخرجه النسائى فى الطلاق : ٦٤ ، ٦٥. وابو داود فى الطلاق : ٤٦. والامام احمد فى ٦ : ٣٠٢.
(٢) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٢١. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٩.
(٣) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٠٤.
(٤) الآية ١٩ من سورة ق .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤. والترمذى فى الجنائز : ٧. والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١.

● وروى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولم يلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وبيده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه (مرتين أو ثلاثا) ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول : أيتها النفس المطمئنة الزاكية أخرجى إلى مغفرة الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الشفاة فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين فيجعلونها فى ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها ، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى يمينى وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى . . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك فيقول :دينى الاسلام فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ فيقولان له : وما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . . قال فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له فى قبره مد البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له : أبشر ، للذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب اقم الساعة ـ شوقا إلى ما يرى من النعيم)[١] .

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

نحن فى عيشة الوصال الهنية نختلى الراح فى الكئوس الهنية
قد هجرنا دار الفناء وسرنا لدار . . . حياتها أبدية
آنستنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشرية
وسمعنا الخطاب : طيبوا فلا حزن عليكم ولا تخافوا منية
قد حظيتم برؤيتى وخطابى وسكنتم دار الجنان العلية

بقية الحديث :

قال : (وأما العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط الله وغضبه فتتفرق الأعضاء كلها فينزعها كما تنزع الفسود من الصوف المبلول : فتنقطع الأعضاء كلها فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ويخرج منها رائحة منتنة كأنتن رائحة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما

(١) أخرجه ابو داود فى السنة : ٢٤ . والترمذى فى الدعوات : ١٣٢ . والامام احمد فى ٤ : ٢٨٧ ، وفى ٦ : ٨١ ، ٣٦٢ .

هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان ابن فلان (بأقبح اسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون ، فلا يفتح له . . ثم قرأ رسول الله ﷺ :«لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»ويقول الله تعالى : (اكتبوا كتابه فى سجين ثم تطرح روحه طرحا . . ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

فتعاد روحه فى جسده ثم يأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان له من ربك فيقول : هاه ! هاه لا أدرى : فيقولان له : ما دينك : فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ، فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فينادى مناد من السماء : كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحو له بابا الى النار . . . فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول له : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . . فيقول : من أنت . فيقول : أنا عملك الخبيث السىء فى دار الدنيا .

فيقول : رب لا تقم الساعة) .

مناجاة

أيا من كلما نودى أجابا ومن بجلاله ينشى السحابا

وكلم فى الدجى موسى بلطف كلاما ثم ألهمه الخطابا

ويامن رد يوسف بعد بُعدٍ وكان أبوه ينتحب انتحابا

ويامن خص أحمد واصطفاه وأعطاه الرسالة والكتابا

وقربه وسماه حبيبا وأعتق من شفاعته الرقابا

لك الفضل المبين على عطاء مننت به وضاعفت الثوابا

روضة روحانية

كثيرا ما تنغمس النفس فى ماديات الحياة فتشعر بظلمة قائمة دكناء وتحتاج عندئذ إلى ما يبدد عنها غياهب ظلماتها . . وليس هناك ما يبدد غياهب هذه الظلمات إلا ذكر الله . . قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] .

قال أحد الحكماء فى مناجاة الندم والتوبة : ـ

واحسرتى : واشقوتى من يوم نشر كتابيه !

واطول حزنى : إن أكن أوتيته بشماليه !

وإذا سئلت عن الخطايا ماذا يكون جوابيه !

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

واحرّ قلبى : أن يكون مع القلوب القاسيه !
كلا . ولأقدمت لى عملا ليوم حسابيه !
بل إننى : لشقاوتى وقساوتى وعذابيه !
بارزت بالزلات فى أيام دهر خاليه !
من ليس يخفى عنه من قبح المعاصى خافيه !
أستغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه !
فعسى الاله يجود لى بالعفو ثم العافيه.

عظة وعبرة : ـ

فعليك يأأخى بالاخلاص لله وإياك والرياء فإنه يضيع الثواب ويحبط العمل :

روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال : (يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها ، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها : نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا : كان أهون علينا .

قال : ذلك أردت بكم . . كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالمعاصى ، وإذا لقيتم الناس : لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم . . هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى . . . فاليوم أذيقكم أليم عذابى مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة) .

فاللهم ارزقنا الاخلاص فى القول والعمل وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين وقنا خزى الدنيا وعذاب الاخرة .

رباه ! !

أيامن جل عن كيف ، وأين وعن ند وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون فاستكانت وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت بحيث لاكون وعون وحاشا أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت وليس أين ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علما وأنت لكل ما فيها مراصد
ويامن ماله فى الملك ثان ولا مثل وليس له معاضد
فقد عودتنا الاحسان لطفا وصعب عندنا قطع العوايد

اعلم ـ يأخا الاسلام ـ أن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

فيأأخى :

(جدد السفينة : فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد : فإن السفر طويل ، وأخلص العمل : فإن الناقد بصير وخفف الحمل : فإن العقبة كئود)

إن النفس لأمارة بالسوء

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه : ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة ... فإن هى استحلت المرعى فلا تهم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

يرحم الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد طلب معاوية بن أبى سفيان من ضرار الصدائى أن يصفه له ، فقال : ياضرار صف لى عليا ، قال : أعفنى ياأمير المؤمنين ، قال معاوية : لتصفنه . قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله : بعيد المدى ، شديد القوى . . . يقول فصلا ، ويحكم عدلا . . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من نواحيه . . يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته . . كان ـ والله ـ غزير العبرة طويل الفكرة . . يقلب كفه ، ويخاطب نفسه . . يعجبه من اللباس مُا قصر ، ومن الطعام ما خشن . . كان فينا : كأحدنا . . يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن ـ مع تقربته ايانا وقربه منا ـ لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه : لعظمته . . . يعظم اهل الدين ، ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . . وأشهد : لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه متمثلا فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يادنيا : غرى غيرى . . أبى تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير . . . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن : لقد كان ذلك . . فكيف حزنك عليه ياضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ؟ !

يارب ! : ـ

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحا ... إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى علىَّ فلم أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعال كلها ... ويحى ـ إذن ـ من وقفة الديان
ياأيها الاخوان ! إنى راحل ... مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب : إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسىء المذنب الحيران ؟؟

أخا الاسلام :

الدنيا إلى شتات وكل حىٍّ إلى ممات !

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا . . والجبال جبال

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

وقال الجنيد - رحمه الله - دخلت على السرى السقطى عند الموت ، وكان أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبى ما بى ؟ والذى أصابنى من طبيبى ؟ . فأخذت المروح لأروح عليه « فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد قائلا :

القلب محترق ، والدمع مستبق والقلب مجتمع والعبد مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى و الشوق والقلق !

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذى كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدًا : ان تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يومئذ تعرضون ، لا تخفى منكم خافية ﴾[1] .

خطرات

قال منصور بن عمار رحمه الله : خرجت ذات ليلة مظلمة ، فسمعت من يناجى الله تعالى ويقول :

إلهى ! وعزتك وجلالك : ما أردت بمعصيتى مخالفتك ! ولقد عصيتك - إذ عصيتك - وما أنا بمكانك جاهل ، ولكن خطيئتى عرضت علىّ ، وسولت لى نفسى أعاننى عليها شقائى ، فغرنى سترك المُرخى علىَّ ، فعصيتك بجهلى وخالفتك لشقوتى ، فمنَ يستنقذنى من عذابك وبحبل من أعتصم ، إن قطع حبلك عنى ؟

واحسرتاه ! إذا قيل للمخفين : جوزوا وللمثقلين : حطوا . . أترانى : مع المخفين أجوز ؟ ام مع المثقلين أحط ؟ ويلى ! كلما كبر سنى : كثرت ذنوبى . . ويلى : كم أتوب ؟ وكم أدعو ؟ أما آن لى أن أستحى من علام الغيوب ؟ ! ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت ؟

ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت حين تبدى صحائفى ما أتيت
ما اعتذارى إذا وقفت ذليلا قد نهانى وما أرانى انتهيت
ياغنيا عن العباد جميعا وعليما بكل ما قد سعيت
ليس لى حجة ولا لى عذر فاعف عن زلتى وما قد جنيت

ثم قال :

يارب أنت أمرتنى ونهيتنى وأريتنى طرق الضلالة والهدى
وعلمت انى لا أفر من الذى قدرت لى . . إن كان خيرا أو ردى
وسلكت بى ما شئت للشىء الذى فى الخلق ما أخفيته عنهم سدى
فاقبل بفضلك توبتى لك مخلصا وارحم فإنى قد بسطت لك اليدا
واصفح عن العبد الذى ياسيدى قد جاء معترفا وعاش موحدا

(١) الآية ١٨ من سورة الحاقة .

إذا علمت هذا يأخى : فصمْ عن الدنيا وافطر على الموت واعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ؟ حقيقة لا مفر منها . وهكذا يتطرق بنا الحديث هل يجوز اعداد الكفن والقبر قبل الموت .

والجواب على ذلك : نعم

فقد جاء في الحديث (أن امرأة أهدت بُردة إلى النبى ﷺ وطلبها أحد أصحابه فأعطاه إياها فقال له الصحابة : ما أحسنت . . لقد لبسها النبى ﷺ . . وهو فى حاجة إليها فقال الصحابى والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفنى قال سهل رضى الله عنه ـ : فكانت كفنه) .

ويستفاد من هذا الحديث : جواز تحصيل ما لابد منه للميت ـ من كفن ونحوه ـ وفى حال حياته ويلتحق به : حفر القبر .

وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت .

قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لا بأس أن يشترى الرجل موضع قبره ويوصى أن يدفن فيه .

وروى عن عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أنهم فعلوا ذلك .

فائدة

يستحب للمؤمن أن يسأل الله أن يقبض روحه فى أحد الحرمين الشريفين : لما رواه البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه قال : (اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

فقلت : أنّى هذا ؟ فقال : يأتينى به الله إن شاء الله)[١] . وروى الطبرانى عن جابر أن النبى ﷺ قال : (من مات فى أحد الحرمين : بعث آمنا يوم القيامة) .

أجر من مات له ولد

اعلم أن الصبر على فقد الأولاد ـ ذكورا كانوا أم إناثا ـ له عند الله من الأجر ما يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٢] ،

روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : (ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة ، بفضل رحمته إياهم)[٣] .

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا يوما . فوعظهن . وقال : (أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد : كانوا لها حجابا من النار ، قالت

---

(١) اخرجه الامام مالك فى الجهاد : ٣٤.

(٢) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الجنائز : ٦ ، ٩١. ومسلم فى البر : ١٥٣ . والترمذى فى الجنائز : ٦٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٧. والنسائى فى الجنائز : ٢٥. والامام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، وفى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ ، وفى ٥: ١٥١ ، ١٥٣:

امرأة : واثنان؟ قال : واثنان ؟)[١].

أعمارنا قصيرة : -

يامن بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

ما أقصر الاعمار !

كما أخبر بذلك الصادق المعصوم ﷺ : فقد روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم : من يجوز ذلك)[٢].

فياأخى : اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك .

الدنيا سجن المؤمن

ما أجمل لقاء الله على الايمان والتقوى ! ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٣]. ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون)[٤].

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾[٥].

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنازة ، قال : (مستريح أو مستراح منه ! فقالوا : يارسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)[٦].

خاتمة

من المناسب أن نختم بحثنا هذا بأحاديث عن رسول الله ﷺ تملأ النفس طمأنينة وسكينة ومعرفة بالله عندما يحل القضاء ، وينزل البلاء بالعبد :

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الاعتصام : ٩. ومسلم فى البر : ١٥٢. والترمذى فى البر : ١٣. والامام أحمد فى ٣ ٣٤ ، ٧٢.

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١. وابن ماجه فى الزهد : ٢٧.

(٣) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(٤) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٤٢. ومسلم فى الجنائز : ٦١. والنسائى فى الجنائز : ٤٨ ، ٤٩. والامام مالك فى الجنائز : ٥٥. والامام أحمد فى ٥ : ٢٩٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٤ .

عن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك . . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعقتها ، أو موبقها)[١] . رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد خيرا وأوسع من الصبر)[٢] . رواه البخارى ومسلم فى حديث تقدم .

● وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء) . رواه الطبرانى والحاكم .

وعن علقمة قال : قال عبدالله : (الصبر : نصف الايمان ، واليقين : الايمان كله) رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن : إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . . إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٣] . رواه مسلم .

● وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : (إن الله عز وجل قال ياعيسى : إنى باعث من بعدك أمة : إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى) . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

وروى عن سخبرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت ، فقالوا يارسول الله : ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . رواه الطبرانى .

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين !

وهكذا عشنا فى رحاب قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

من دلائل القدرة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ

(١) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ ، والامام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ـ ٣٤٤. ومسلم فى الطهارة : ١.

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٠ ، وفى الرقاق : ٢٠. ومسلم فى الزكاة : ١٢٤. وأبو داود فى الزكاة : ٢٨. والترمذى فى البر : ٧٧. والدارمى فى الزكاة : ١٨. والامام مالك فى الصدقة : ٧. والامام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٩٣.

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤. والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦.

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

تفسير المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة، أى: مطروق بعضها فوق بعض ، من قولهم: طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله: **﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾**[1] وقوله : **﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾**[2] .

الخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، **غافلين** : أى مهملين **﴿ يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾** .

السماء : هنا السحاب

بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض أى: جعلناه ثابتا قارا فيها .

الذهاب : الازالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه .

والشجرة : هى الزيتون وطور سيناء : هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا .

والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن ، وصباغ حسن ، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل والزيت .

التفسير

بعد ذكر الله تعالى مبدأ الانسان ومعاده فى قوله تعالى : **﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من**

---

(١) الآية ١٥ من سورة نوح .

(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

طين . إلى قوله . . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ أقام الأدلة الباهرة والحجج القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته التى ظهرت أثارها ظهور الشمس فى ضحاها فمن تلك الأدلة قوله جل جلاله ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ والمراد بها السموات العلا وسميت طرائق لانها متطارقة اى متطابقة يطابق بعضها بعضا أو سميت كذلك لانها طرق الملائكة تغدو فيها وتروح قال تعالى عن تلك السموات :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير. الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[٢]

وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[٣]

وقال سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾[٥] .

إن الذى خلق السموات العلا وهذه حقيقة لا مراء فيها قادر بالأولى أن يعيد الأجسام بعد الموت ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أى ما كنا مهملين شأنا من شئون المخلوقات فإن الله سبحانه أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٧] .

سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[٨] .

إن العناية الألهية قد احاطت بدقائق الاشياء وحقائقها . ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٩] .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه

---

(١) الايات ١ - ٥ من سورة الملك .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الذاريات
(٣) الآية ٣٨ من سورة ق .
(٤) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة نوح .
(٦) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٧) الآية ٥٩ من سوة الانعام .
(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة سبأ .
(٩) الاية ٦ من سورة هود .

الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

ثم يسوق القرآن الكريم دليلا آخر على القدرة الفائقة والعظمة المطلقة وذلك فى إنزال الماء من السماء ، أى السحاب وإسكانه الأرض فيقول سبحانه : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾

فالماء نعمة كبرى من نعم الله تعالى ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾[١]

ثم هل تأملت معنى قوله تعالى ﴿ **بقدر** ﴾ إنها كلمة تعطيك معنى النظام الدقيق الذى قام عليه الكون كما تعطيك معنى العناية والصيانة وحسن التدبير واتقان الصنع قال تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[٢] .

فهذا الماء الذى ينزل من السماء قد أعد بعناية فائقة فلا هو بالقليل المخل والذى لا يفى بالغرض ولا هو بالكثير المتلف والطوفان المغرق فسبحان من قال وخلق كل شىء فقدره تقديرا وجل شأنه إذ يقول ﴿ **إنَّا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾[٣]

ثم تتجلى نعمة الله على عباده فى قوله ﴿ **وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾ فالله تعالى لا يقهره أحد على فعل شىء ولولا رحمته بنا وتجاوزه عن سيئاتنا لذهب بهذا الماء الذى أسكنه جوف الأرض وذلك بإمساك السماء عن المطر أو بذهابه غائرا فى الأرض فلا تجد له أثرا فى بئر أو عين ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾[٤] .

فلو أن هذى الريح ثارت وأعصرت أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجريه كما شاء راويا

يقول العلم فى حقائقه الثابتة عن الظواهر الجوية : ـ

إن الظواهر الجوية لقيت تنويها كثيرا فى القرآن الكريم ولم يكن بد من أن يكون ما ورد فيها من الآيات مجملا ، إذ التفصيل غير ممكن ولو أمكن لمافقه العقل حين نزل القرآن منه شيئا بل لقام حائلا دون قبول العقل إذ ذاك رسالة القرآن . والعقل لا يزال فى حيرة من حقيقة كثير من تلك الظواهر ، فقد وجد الانسان أن الجو من أعوص المشاكل وان دراسته من أصعب الأمور وصعوبتها ليست راجعة فقط إلى تعقد مسائله ولكن إلى ضرورة توحيد جهود الأمم فى القيام بتلك الدراسة لانها تتعلق بظواهر عامة تشمل الأرض بأسرها لا إقليما خاصا منها كالرياح ونشوئها وتصريفها والسحاب ونشوئه وتسخيره .

---

(١) الآيات ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الواقعة .
(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الملك .

فإن الرياح التى تهب على بلد أو السحب التى تصب ماءها فيه ليست مناشئها فى ذلك البلد ولكن فى خارجه من الأقطار القريبة أو البعيدة وإذا كان الانسان قد عرف بصورة عامة العوامل التى تتسبب عنها الرياح فإن تحليل أى ريح معينة إلى عواملها الخاصة من الناحية الكيفية بل من الناحية الكمية ، من أصعب الأمور ، وهذا التحليل حين يمكن لا يتحقق إلا بواسطة معلومات شتى يحصل عليها الانسان بأرصاد شتى فى أقطار شتى والارصاد الجوية إذا أمكنت بانتظام قريبا من سطح الأرض فالقيام بها بانتظام بعيدا عن سطح الأرض فى المناطق العليا من الجو لا يصبح فى مقدور الانسان وإن كان الانسان الآن فى طريقه إلى التمكن منها .

والتفسير الذى وصل إليه الانسان ليس تفسيرا مفصلا للآيات الكونية الواردة فى الرياح والسحاب وغيرهما فهو تفسير مجمل تفسير يحوى إشارات إلى أمهات الحقائق الجوية التى كشف عنها العلم الحديث .

ولنمهد لذلك بشرح مختصر لكيفية تكون السحاب والمطر والبرد والرعد والصواعق :

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب القريب من الأرض ولابد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكلما كانت الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الاولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين ان تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال وهذه تفعل فعلها بطريقين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق والطريق الثانى طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الامكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا . وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية .

وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

سبحانك اللهم أنت الواحد خلقت فقدرت وقسمت الأرزاق بين العباد فعدلت وأقسمت وقولك الحق فقلت: ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1] .

وقلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حباً وعنباً . وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[2] .

وقلت : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا ﴾[3] . فتبارك الله أحسن الخالقين .

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .
(٣) الآية ٤٨ ، ٤٩ من سورة الفرقان .

قوله تعالى ﴿ **فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾

وهكذا تتجلى قدرة الخالق العظيم فى عالم النبات فمن الماء وغيره من العناصر أنشأ الله تعالى لنا ﴿ **جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .[1] سبحانك من خالق عظيم قلت وقولك الحق ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[2] .

وسبحانك من خالق عظيم واحد فى ذاتك لا قسيم لك واحد فى صفاتك لا شبيه لك واحد فى أفعالك لا شريك لك كل الوجود على الوجود شاهد . . قلت وقولك الحق ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنابه حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾[3] .

أنزلت من السماء ماء بقدر فأنشأت لنا به ﴿ **جنات ألفافا** ﴾ وحدائق غلبا وفاكهة وأبا وزينت الأرض بالنخيل والأعناب لنأكل منها ونتخذ منها رزقا حسنا ونتبادل المنافع فى بيعها وشرائها لتسير مواكب الحياة والكل يعيش فى رزقك ، وينعم بخيرك ، فأنت صاحب الانعام كله ، يا مبدع الكائنات ، ورافع السموات ، ومدبر الشأن وخالق الانسان ومعلمه البيان ، سبحانك أنت الواحد الديان .

استمع معى أيها العاقل الى كلمة العلم فى عالم النبات .

تقول الحقائق العلمية : إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يأخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون ، وأحيانا الأزوت ، ومن الأرض يأخذ الماء وبعض الأملاح خصوصا الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعا فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات سواء كانت الخضرة فى الساق أو الفروع أو الأوراق . لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال إن حياة النبات وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض ، وتسقى بالماء فتنبت ، أى تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملا ورقتين صغيرتين خضراوين . هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الانبات . لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩
(٣) سورة النمل الآية ٦٠

والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . . وعلى الجذير والوريقتين تغذى النبات بعد ذلك ، فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ ـ تمتص الأكسجين من الهواء لاحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقا بطيئا وتطرد أكثر فضلات التغذى من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء . هذه العملية عملية تنفسية ، وتجرى ليلا ونهارا وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ ـ تمتص ثانى أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيرا كيماويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثيلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم إن النبات فى التمثيل الخضرى يحلل ثانى أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأكسجين ، والواقع أنه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيبا تنتج عنه مواد عضوية وأكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون . وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الانبات إنما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير فالجذير يمتص الماء والأملاح . والوريقات تمتص الاكسجين وثانى أكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى تحوله إلى مواد معقدة نسبيا إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر والسويق إلى ساق والوريقات إلى أوراق كثيرة ثم إذا جاء دور الاثمار إلى أزهار وحب وثمار .

ولكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لاتمامه من طاقة فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ولكن الله سبحانه وتعالى يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أكسيد الكربون والماء .

أى أنها تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى الا نهارا فى حين أن التنفس يجرى نهارا وليلا ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيرا فى الشمس منه فى الظل ، لأنه متوقف أيضا على مقدار ثانى أكسيد الكربون فى الهواء وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية وثانى أكسيد الكربون والماء من ناحية أخرى . أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل ، أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر .

وأما ثانى أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريبا من وجه الأرض مثلا تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ : ١٣ فى ١٠,٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧

إلى ٢,٩ ، وفى الشتاء من ٣ الى ٣,٦ فى كل ١٠,٠٠٠ وتزداد النسبة طبعا حيث يكثر الاحتراق أو التعفن أو التخمر ، لكن الرياح وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٣,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠,٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدارا هائلا من ثانى أكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء . على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاما . إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعا باختلاف النباتات واختلاف الظروف . لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة . فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلفها بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام .

صحيح أن هذه المواد تدخل فى عناصرها الأكسجين **والأيدروجين** وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ : ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ووقفت بوقوفها كل حياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضروريا للحياة . وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت .

إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل فى النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى والكربون يستمده النبات من ثانى أكسيده من الجو . ويتغذى الحيوان بالنبات ثم يموت النبات فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويصعد ثانى أكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض وأحيانا من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ويتغذى الحيوان بالنبات وتتحلل فضلاتها وأجسامها فى الأرض بعد الموت وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى وهكذا دواليك . طبعا هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد معه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله سبحانه بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار وهذا هو سر

خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الانسان فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتى حظا من العلم فى هذا العصر الحديث .

أما بعد : فاسألوا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقولوا له من خليقك؟إنه سيجيبكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

قوله تعالى ﴿ **وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾

أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

قوله تعالى ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾

﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها .

ثم فصل منافعها وذكر منها أربعا فقال :

● ﴿ **نسقيكم مما فى بطونها** ﴾ فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .

● ﴿ **ولكم فيها منافع كثيرة** ﴾ فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء وبيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .

● ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ أى وتأكلون منها بعد ذبحها فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾[1] وقال (**أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ـ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون** ﴾[2] .

---

(١) سورة النحل الآية (٧)

(٢) سورة يس الآيات (٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣)

الأنبياء والأمم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

الملأ : أشراف القوم ، يتفضل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون

فتربصوا : أى انتظروا

بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا

وفار : نبع

التنور : وجه الأرض

استويت : أى علوت

لآيات : أى عبر

لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعاملتهم معاملة من يختبر .

القرن : الأمة ، المراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾[1] أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم .

لخاسرون : أى لمغبونون فى أرائكم ، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم .

هيهات : أى بعد

ما توعدون : هو البعث والحساب .

بمؤمنين : أى بمصدقين .

عما قليل : أى بعد زمان قليل

ليصبحن : أى ليصيرن

الصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لا ينتفع بها

بعدا : هلاكا .

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩

تترى : من المواترة : هى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى.أحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما تتحدث به تعجبا منه وتلهيا به وقد جمعت العرب الفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول ﷺ ولكن الجمهور على انه جمع .
الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف .
السلطان : الحجة
عالين : أى متكبرين
عابدون : أى خدم منقادون قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا
وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : التوراة : الآية الحجة والبرهان .
وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما .
الربوة : وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل .
ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار
معين : أى ماء جار
الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه .
أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم .

المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن عدد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به وفى خلق الحيوان كذلك ـ ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا فكفروا بهذه النعم ، وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم بعذاب من عنده ، فأصبحوا كأمس الدابر والمثل السائر وفى هذا تخويف لقريش ، وإنذار لهم على ما يفعلون ، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم .

وبعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين ـ عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ويعملوا صالح الأعمال كفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ثم حذرهم وانذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم ، ظاهرها وباطنها لا تخفى عليه من أمورهم خافية ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه ولكن الأمم قد فرقت دينها شيعا وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حظوة من ربهم ـ كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون ●

التفسير

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ **أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ،**

فقال لهم متعطفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه فإنه لا رب لكم غيره ، ولا معبود سواه .

﴿ **أفلا تتقون ؟** ﴾ أى أفلا تخشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ،

﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** ﴾ أى فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع . . ما نوح إلا رجل منكم ليس له ميزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحى من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون له الصولة والسلطان عليكم وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شيء .

وبعد أن بينوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أمورا ثلاثة :

١ - ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

٢ - ﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا رب غيره ولا معبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئا مثل هذا أنكروا نبوته وفيه اشارة أيضا إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

٣ - ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة** ﴾ أى وما نوح إلا رجل به خبل فى عقله ، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجل لا يزن قوله ، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة ، فلا يلتفت إذن إلى ما يدعى ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ودحض مزاعمه من صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا : ﴿ **فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى فتلبثوا وانتظروا ، لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم اذ هم يعلمون انه أرجح الناس عقلا ، واوزنهم قولا .

ولم يرد سبحانه على هذه الشبهة لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكا أم بشرا .

وارادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له لا ضير فى ذلك بل هو واجب وإن أرادوا أنه يبغى التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم :

﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقولهم :

﴿ **به جنة** ﴾ كذب صراح لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته **وماأوتيه** من أصالة الرأى وثاقب الفكر .

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم ويأسه من إيمانهم ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون** ﴾ أى قال انصرنى بإنجاز ما أوعدتهم به من عذاب لقولى: ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ .

ونحو الآية قوله ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾[1] وقوله : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾[2] .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

﴿ **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى فقلنا حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك ، من التعدى عليك ،، وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ .

أى فإذا جاء قضاؤنا من قومك بعذابهم وهلاكهم ، ونبع الماء من وجه الأرض فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كناقة وجمل وحصان ورمكة وأدخل **ولدك** ، ونساءهم إلا من سبق عليه القول منا بأنه هالك **فيمن** يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ أى ولا تسألنى أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتى قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾ أى فإذا اطمأننت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة.

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تظهير الأرض من دنس شركه واضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنسانا: نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث ، وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنسانا وكل الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾ أى وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة ﴿ **باسم الله مجريها ومرساها** ﴾ **وحين** ركوب الدابة : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين** ﴾[4]

---

(١) سورة القمر الآية (١٠)

(٢) سورة نوح الآية (٢٦)

(٣) قال الحافظ ابن كثير : عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار ، كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنما كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل : بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة ، وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت ، لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها . والله أعلم وأحكم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥ ط الشعب)

والكنائن : جمع كنة ـ بفتح الكاف وتشديد النون ـ وهى امرأة الابن أو الأخ .

(٤) الزخرف : ١٣

وحين النزول ﴿ وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾

﴿ **إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين** ﴾ أى: إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام - لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينزجرون عن كفرهم .

ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب وقد كنا مختبريهم بالتذكير بهذه الآيات لننظر ماذا يفعلون قبل أن ننزل بهم عقوبتنا .

ونحو الآية قوله ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر** ﴾[1] .

عبرة وعظة

إن قصة نوح عليه السلام فيها من العبر ما لا يحصى ومن العظات ما لا يستقصى فهو الصبور الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وقال لربه : ﴿ **إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾[2]

وهو الذى ما ترك سبيلا إلى الدعوة إلا سلكها اقرأ معى قوله تعالى ﴿ **ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾[3] لقد سلك بهم طريق الترغيب فقال ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[4] كما سلك بهم طريق الترهيب فقال : ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارا. وقد خلقكم أطوارا** ﴾[5] ثم سلك بهم طريق الاقناع والحجة ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾[6] كل هذا بذله نوح ولما لم يجد فيهم أرضا تنبت التوحيد قال نوح ﴿ **رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾[7] فانظر إلى هؤلاء الذين أنكروا البراهين الساطعة وجحدوا الحجج القاطعة وعبدوا من دون الله أصناما لا يخلقون وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

فماذا تتوقع بعد هذا الجهاد المتصل والكفاح المستمر إلا أن يدعو نوح بعد هذا الصبر على هؤلاء المعاندين المكابرين ويعلل دعوته بعلة مقبولة ﴿ **وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[8].

(١) سورة القمر الآية (١٥)
(٢) سورة نوح الآيات (٥ ، ٦ ، ٧)
(٣) سورة نوح الآية (٩)
(٤) سورة نوح الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢)
(٥) **سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤**
(٦) **سورة نوح الآيات : ١٥ - ٢٠**
(٧) **سورة نوح الآيات : ٢١ - ٢٤**
(٨) سورة نوح الآية (٢٧)

لقد كان نوح من الأنبياء الذين لقبوا بأولى العزم وهم خمسة :
نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد عليهم جميعا صلوات الله وتسليماته .

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[١] .

وهذا هو الدرس المشترك فى قصص الأنبياء الصبر مع الله ، والصبر بالله ، والصبر فى الله والصبر لله ، ولن يكون هناك صبر عن الله لأن الصبر عن الله جفاء .

قال الأمام الغزالى فى فضيلة الصبر كما جاء فى كتابه
(إحياء علوم الدين) :

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : **﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾** وقال تعالى : **﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ﴾**[٣] وقال - تعالى - **﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**[٤] وقال تعالى : **﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾**[٥] وقال تعالى **﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾**[٦]
- فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله - تعالى - : فى الحديث القدسى **« الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه** معهم فقال تعالى : **﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾**[٧] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى - **﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾**[٨] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى **﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾**[٩] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ (الصبر نصف الايمان)[١٠] .

وقال ﷺ (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل

(١) سورة الاحقاف الآية (٣٥)
(٢) سورة السجدة الآية (٢٤)
(٣) سورة الاعراف الآية (١٣٧)
(٤) سورة النحل الآية (٩٦)
(٥) سورة القصص الآية (٥٤)
(٦) سورة الزمر الآية (١٠)
(٧) سورة الانفال الآية (٤٦)
(٨) سورة آل عمران الآية (١٢٥)
(٩) سورة البقرة الآية (١٥٧)
(١٠) الحديث فى شعب الايمان للبيهقى الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان والخطيب عن ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ : الصبر نصف الايمان واليقين الايمان كله .
- وقال البيهقى : تفرد به يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد المخزومى ، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع ا هـ قال المناوى : ويعقوب ، قال الذهبى : ضعفه أبو حاتم وغير واحد ا هـ قلت : الحديث رواه أبو نعيم من طريق آخر عن النبى ﷺ وقال : تفرد به المخزومى عن سفيان بهذا الاسناد ، ورواه الثورى عن أبى اسحاق عن جرير النهدى عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ مثله ا هـ
(راجع حليه الأولياء ٥/ ٣٤ ، فيض القرير ٤ / ٢٣٣ رقم ٥١٣٠ ، الاحياء بتخريج العراقى ٤/ ٦٠

وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)[١] .

ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ [٢] .

● وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال (الصبر والسماحة)[٣].

وقال أيضا (الصبر كنز من كنوز الجنة)[٤] وسئل مرة (ما الايمان فقال الصبر)[٥] وهذا يشبه قوله ﷺ (الحج عرفة)[٦] معناه معظم الحج عرفة

وقال أيضا ﷺ (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس)[٧] وقيل مما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام (تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الانصار فقال :

(أمؤمنون أنتم ، فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال ﷺ مؤمنون ورب الكعبة)[٨] .

● وقال ﷺ (فى الصبر على ما تكره خير كثير)[٩] .

● وقال المسيح عليه السلام : (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون)

● وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين)[١٠]. والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: عليك

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الاحياء ٤ / ٦٠ : لم أجده هكذا مطولا ، وقال فى ١ / ٧٢ الاحياء (كتاب العلم) : وروى ابن عبد البر من حديث معاذ : ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحكم .

(٢) سورة النحل الآية (٩٦) .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ، قاله العراقى (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠)

(٤) الحديث قال عنه العراقى فى تخريج الاحياء : غريب لم أجده ا هـ ونقله عنه العجلونى فى كشف الخفاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤/ ٦٠ ، كشف الخفاء ٢/ ٢٧ رقم ١٥٨٩)

(٥) قال الحافظ العراقى : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس مرفوعا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد. ويزيد ضعيف الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠

(٦) الحديث رواه الترمذى فى تفسير سورة البقرة ، وأبو داود فى المناسك/ ٦٨ ، وابن ماجه فى المناسك ٥٧ ، والدارمى فى المناسك/ ٥٤ .

(٧) قال الحافظ العراقى : هذا الحديث لا أصل له مرفوعا ، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس (الاحياء بتخريج العراقى ٦١/٤)

(٨) قال العراقى : الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦١)

(٩) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ١ /٣٠٧ـ ٣٠٨ فى حديث طويل عن ابن عباس رضى الله عنهما : واعلم ان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . .

(١٠) الحديث رواه الطبرانى من حديث عائشة ، وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى

بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر .

الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .

وأعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه : (بنى الايمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل) .

وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين) يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى وما يحمل فوق العدلين على البعيد واشار به إلى قوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] ـ وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾[2] بكى وقال:واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى .

● وقال أبو الدرداء:ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصيل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور :

معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف : هى الأصول وهى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر الأعمال ، فالمعارف : كالأشجار ، والأحوال : كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى ، واسم الايمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه فى اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة ، فالصبر على التحقيق عبارة عنها ، والعمل كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب ، بين الملائكة والانس والبهائم ، فإن الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة ، أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها ، وبيانه : أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة ، وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام : فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يعرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الانسان : فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلف فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب ، وليس له قوة

---

(١) سورة البقرة رقم (١٥٧)

(٢) سورة ص رقم (٤٤)

الصبر البتة ، اذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبا الاجند الهوى كما فى البهائم ، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده اكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين : احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف .

أما البهيمة فلا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ

وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية ، يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى ذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى ، وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من ملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين ، فإذن : ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات فى الدنيا والآخرة ، فإذا قوى يقينه اعنى المعرفة التى تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى ، وتسخيره اياهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الادميين ، وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له ، فهو إذن صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال ، وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة ، فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه فيكتب اعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية ، فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة ، وكذا بالاسترسال هو معوض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فثبت له به حسنة ، وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتها ، فلذلك سميا كراما كاتبين ،

أما الكرام : **فلانتفاع** العبد بكرمهما ، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلاثباتهم الحسنات والسيئات ، وانما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب ، والملكوت ، لا من عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين ، مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى ، واعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال ﷺ : (من مات فقد قامت قيامته) وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** ﴾[١] وفيها يقال ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[٢] أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة زمرا ، والمجرمون إلى النار زمرا ، لا آحادا ، والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توافرت من غير نقصان .

واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التى أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف ومكان ،

وإنما تخاف من تزلزله ان يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا : فالهواء أبدا متزلزل ، وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا ، فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ، ولكن أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة وهو حصته منها ، فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت

---

(١) سورة الانعام الآية (٩٤)

(٢) سورة الاسراء الآية (١٤)

سماؤه إذا السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ، فهذه هى القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، وغمت الأهوال ، واعلم ان هذه الصغرى وإن حاولنا فى وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها ، وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فإن للانسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم . وله فى سلوكه إلى الكمال منازل واطوار ، من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم ، فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل وأوسع ، وأعظم ، ففى الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل إعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين ، وإليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ **وننشئكم فيما لا تعلمون** ﴾[١] فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، ومؤمن بالملك والملكوت ، والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ، أو ما سمعت قول سيد الأنبياء (وكفى بالموت واعظا)

أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ (اللهم هون على محمد سكرات الموت) أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾[٢] ويأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾[٣] فيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ﴿ **أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾[٤] أم يحسبون ان الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون ، كلا ﴿ **إن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾[٥] ولكن ﴿ **ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾[٦] وذلك لقوله ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**)[٧]

ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هى أعلى من علوم المعاملة ، فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الأدميين ، لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ، ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الاقبال على الاستفادة منها ، والسيئة فى الاعراض عنها ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى

---

(١) سورة الواقعة الآية (٦١)
(٢) سورة يس الآية (٥٠)
(٣) سورة يس الآية (٣٠)
(٤) سورة يس الآية (٣١)
(٥) سورة يس الآية (٣٢)
(٦) سورة الانعام الآية (٤)
(٧) سورة يس الآيتان : ٩ ، ١٠

الاستفادة ، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض . ولعمرى : انه قد تظهر مبادىء اشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر فى الآخرة بل على القيم العدل والولى البر الشفيق ان كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، ان يكتب على الصبى سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبى فينال بها درجة القرب من رب العالمين ، كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الاشارة بقوله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[1] وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ .

بيان كون الصبر نصف الايمان

اعلم أن الايمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين ، وعلى مقتضى اطلاقين : أحدهما ان يطلق على التصديقات والأعمال

جميعا فيكون للايمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى ، والكسل . فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر) الحديث إلى آخره .

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، أو يضره فيهما ، وله بالاضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالاضافة إلى ما ينفعه حال الشكر ، فيكون الشكر أحد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول .

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد والبخارى وأبى داود والترمذى
الحديث رواه البخارى عن سهل بن سعد بلفظ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه : السبابة والوسطى . فتح البارى ١٣/ ٤٣

ورواه أبو داود عنه بلفظ : كهاتين فى الجنة وقرن بين اصبعيه (أصابعه) الوسطى ، والتى تلى الابهام . (عون المعبود ١٤ / ٦٠)

ورواه الترمذى عنه بلفظ : وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . (تحفة الأحوذى ٦/ ٤٥/ ٤٦)
(راجع فتح البارى ١٣ / ٤٣ ، عون المعبود ١٤ / ٦٠ ، تحفة الأحوذى ٦ /٤٥-٤٦)
ورواه الطبرانى عن أم سعيد بنت عمرو بن مرة الجمحية بلفظ : من كفل يتيما له أو لغيره من الناس كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين ـ قال الهيثمى : ورجاله ثقات ـ (مجمع الزوائد ٨ / ١٦٣)

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه (الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر)[١] وقد يرفع أيضا إلى رسول الله ﷺ ، ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة تطلب اللذيذ و الغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال ﷺ بهذا الاعتبار (الصوم نصف الصبر)[٢] لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان ، فهكذا ينبغى ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسقها إلى الايمان ، والاصل فيه ان تعرف كثرة أبواب الايمان ، فإن اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الاسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة إلى ما عنه الصبر :

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو : إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك : قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر ، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ، وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة، ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال (هو الصبر) لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال (الحج عرفة) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى : ﴿ **والصابرين فى البأساء** ﴾[٣] أى المصيبة ﴿ **والضراء** ﴾ أى الفقر

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان ، والديلمى فى مسند الفردس عن أنس مرفوعا بلفظ : الايمان نصف فى الصبر ونصف فى الشكر .
(جمع الجوامع ١ /٣٩٧)
(٢) الحديث رواه ابن ماجة فى أبواب الصيام رقم ٤٤ عن أبى هريرة بلفظ : الصيام نصف الصبر
قال المنادى : رمز السيوطى لحسنه وكأنه لم ير قول ابن العربى فى السراج : حديث ضعيف جدا ا هـ
ورواه البيهقى فى شعب الايمان عنه بزيادة : وعلى كل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصيام ـ قال المناوى : وفيه محمد بن يعقوب ، قال الذهبى فى الضعفاء : له مناكير ، وموسى بن عبيد ضعفوه ، وقال أحمد : لا تحل الرواية عنه)
(فيض القدير ٤ / ٢٥١ رقم ٥٢٠٠ ، ٥٢٠١)
(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧)

﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة ـ ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث أن الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أو لا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع ، لابد وأن يزل ، وإلى الفريقين الاشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾[2] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

عاد قوم هود

قوله تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين.فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى أنه أوجد من بعد مهلك قوم نوح أهل قرن آخرين أى أمة:أخرى ، والقرن : هو المدة من الزمان التى قد تصل إلى مائة عام ويراد بها هنا أهله الذين وجدوا فيه ، والمقصود بذلك الأمة ، والمراد هنا بأهل القرن الآخرين هم عاد قوم هود عليه السلام والذين كانوا يسكنون الأحقاف بين عمان وحضر موت ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف فى شأنهم ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .[3]

وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧)
(٢) سورة الملك الآية (٢٢)
(٣) سورة الأعراف الآيات : ٦٦ ـ ٧٢
(٤) سورة هود الآيات : ٥٠ ـ ٦٠

وقال تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم . ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة فصلت :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[٢]

وقال تعالى فى سورة الاحقاف :-

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[٣] .

لقد أرسل الله إلى هؤلاء الجبابرة رسولا منهم : هو نبى الله هود فقال لهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أى : أطغيتم فلا تتقون ولا تخافون ﴿ اتقوا الله الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ فماذا كان رد الملأ وهم أشرافهم وكبراؤهم اسمع معى إلى قوله جل شأنه :-

﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾—

هذا منطق أهل الباطل فى كل زمان ومكان يريدون دائما أن يحقروا أهل الحق ويستهزئوا بهم فأى مطعن لغامز وأى مغمز لطاعن ، فى أن يكون النبى بشرا !! لقد قالوا لنوح من قبل ﴿ ما هذا إلا بشر

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٢٣ إلى ١٤٠)
(٢) سورة فصلت الآيتان (١٥ ، ١٦)
(٣) سورة الأحقاف الآيات (٢١ إلى ٢٦)

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وهنا يقولون عن هود :
﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾

وقالوا عن رسول الله ﷺ : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾[١] وما أرادوا بذلك إلا أسلوب التحقير والتوبيخ ولقد قالوا للأنبياء مثل ذلك اقرأ معى ما قاله القرآن الكريم عن فرعون : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[٢] .

واقرأ معى ما جاء فى سورة إبراهيم :
﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٣]

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يبعث الأنبياء من البشر حتى يكون بينهم وبين طباع البشر ملاءمة ومواءمة وبذلك يستطيعون أن يعيشوا مشاكلهم وقضاياهم ولو كانوا ملائكة لاختلفت الطباع كل الاختلاف إذ الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٤]

التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، فكيف يتكيفون مع البشر وكيف يعيشون مشاكلهم .

أما الأنبياء فقد أكلوا وشربوا وناموا وتزوجوا ، وكان لهم ذرية قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[٥]

إن الملأ المستكبرين الذين كفروا بالله ربا ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث بعد ما أترفوا ، وتمتعوا بلذائذ الحياة ، طعنوا فى الأنبياء بأنهم بشر يأكلون ويشربون ، ثم بنوا على هذه المقدمة الباطلة نتيجة باطلة بنيت على الزور والبهتان فقالوا : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان (٧ ، ٨)
(٢) سورة الزخرف الآيات (٥١ إلى ٥٣)
(٣) سورة ابراهيم الآيات (١٠ ، ١٢)
(٤) سورة الأنبياء (٢٠)
(٥) سورة الرعد الآية (٣٨)

المقدمة باطلة : فما بنى عليها باطل ، إذ كون النبى بشرا ، لا يعد طعنا فى رسالته ، ولو سمعت معى ما جاء فى سورة الاسراء بهذا الصدد ، وما تحدوا به إمام الأنبياء والمرسلين لأخذتكم الدهشة واستولى عليكم العجب قال تعالى فى سورة الاسراء :-

﴿ قلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى !! هل كنت

إلا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[١] .

إن الملأ من قوم هود أرادوا أن يؤكدوا تكذيبهم بلقاء الآخرة فقالوا **﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون)**

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، وكأنهم قالوا إن وعد الأنبياء بالبعث بعد الموت وتحلل الأجسام وتحويلها إلى تراب وعد كاذب .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ثم أكدوا هذا التكذيب بقولهم (هيهات .. هيهات لما توعدون)

هيهات : أسم فعل ماض بمعنى بعد ، ولقد أكدوه توكيدا لفظيا بتكراره حتى يزدادوا إنكارا وجحودا بالبعث ، أى بعد هذا الوعد وأصبح فى مجال المستحيل ولقد قال أهل مكة ومن لف لفهم هذا الكلام .

قال تعالى **﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾**[٢] .

وقال عز من قائل :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٣]

وقال تبارك اسمه **﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من**

---

(١) سورة الاسراء الايات (من ٨٨ إلى ٩٦)
(٢) سورة النحل الآية (٣٨)
(٣) سورة يس الايات (من ٧٧ إلى ٧٩)

قبل ولم يك شيئا ﴾[١] وقال عظمت قدرته :

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[٢]

لقد أكد الملأ لأقوامهم مرة بعد مرة إنكار البعث فماذا قالوا : **﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾** .

أى ما حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .

والخلاصة ـ أنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم . وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهدوا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين)

أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله فتارة يقول : ما لكم من إله غير الله خالق السموات والأرض وأخرى يقول :ـ إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة (وما نحن له بمؤمنين) فزع إلى ربه .

﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾

أى: قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .

فأجابه ربه إلى ما سأل .

﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرن مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . ثم أخبر أنه أنجز وعيده منهم فقال :

﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قبل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله فجعلناهم كغثاء السيل ، لا غناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾، أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

ولقد قال الله فى شأن قوم نوح **﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾** وقال فى قوم هود: **﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾** وهنا يقول تعالى: **﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾** :

---

(١) سورة مريم (٦٦ ، ٦٧)

(٢) سورة التغابن (٧)

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باق

فاسألوا التاريخ عن الجبابرة والأكاسرة والقياصرة والأباطرة ، اسألوا التاريخ عمن عمر ومجد وبنى وشيد ؟! تلك بيوتهم خاوية ، سكنتها الذئاب العاوية .

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الجبابرة الأكاسرة الألى جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من ذا الذى ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

يأيها الناس إذا حكمتم فاحكموا بالعدل ، وإذا غرتك قوتك أيها الجبار فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك واحذروا الظلم فإنه لا يدوم وإذا دام دمر .

● جاء فى الحديث :

● (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار)[1] .

● وروى عبد الله بن أبى الدنيا بسنده إلى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تعنت لزوجها فى الدنيا ، ويشهد على الرجل يداه ورجلاه بما كان يولى زوجته من خير أو شر ، ثم يدعى بالرجل وخدمه مثل ذلك فما يؤخذ منهم دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات الظالم ترفع إلى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن مردويه

ورواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه لكنه بلفظ : من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه (فتح البارى ١٤/١٨٧ كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة)

ورواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : رحم الله عبدا كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال ، فجاءه فاستحله قبل أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم ، فان كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وان لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم وقال الترمذى حسن صحيح (**تحفة الأحوذى** ٧/ ١٠٣) أبواب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص)

ورواه الامام أحمد عن أبى هريرة أيضا بلفظ : من كانت عنده مظلمة من أخيه من عرضه أو ماله فليحلله اليوم قبل ان يؤخذ حين لا يكون دينار ولا درهم ، وان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه (المسند ٢/٥٠٦)

من هنا تعلم أن الرواية المذكورة فى التفسير مخالفة للروايات الواردة فى ذلك فالواجب استبدالها **برواية البخارى** المذكورة عاليه ، أو ذكر الروايات الثلاث .

المظلوم ، وسيئات المظلوم تحمل على الظالم ، ثم يؤتى بالجبارين **بمقامع** من حديد فيقال سوقوهم إلى النار ﴾[١] .

● وكان**شريح** القاضى يقول : سيعلم الظالمون حق من انتقصوا ، إن الظالم لينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر والثواب

● وروى إذا أراد الله بعبد خيرا سلط عليه من ظلمه ،

دخل طاووس اليمانى على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق يوم الأذان ، قال هشام : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿ **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ فصعق هشام : فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف المعاينة ؟

● وقال سعيد بن المسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة .

● وقال مكحول الدمشقى : ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك إلا حضر معهم فيجمعون فى تالوب من نار فيلقون فى جهنم .

وجاء خياط إلى سفيان الثورى رحمه الله تعالى فقال : إنى أخيط ثياب السلطان أفترانى من أعوان الظلمة ؟ فقال له سفيان : بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الابرة والخيوط .

● وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (أول من يدخل النار يوم القيامة السواطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدى الظلمة)

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : الجلاودة ، أى أعوان الظلمة ، والشرط أى بضم **المعجمة** وفتح الراء : ولاة الشرطة وهم أعوان الولاة والظلمة الواحد منهم شرطى : بضم ففتح - كلاب النار يوم القيامة .

● وروى : إن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام : ﴿ **أن مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم** ﴾[٢] .

وفى رواية : (فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة)

---

(١) الحديث أورده الحافظ **المناوى** فى الجامع الازهر ١ / ١٨ عن أبى أيوب بلفظ : أول من تختصم يوم القيامة الرجل وامرأته ، **والله مايتكلم لسانها ، ولكن يداها ورجلاها فيشهد ان عليها بما كانت تعيب لزوجها ويشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى** الرجل وخدمه بمثل ذلك ، ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم لا دوانيق ولا قراريط ، ولكن حسنات هذا تدفع[١] إلى هذا الذى ظلم وسيئات هذا الذى ظلمه تدفع عليه ثم يؤتى بالجبارين فى مقامع من حديد فيقال : ما وردهم إلى النار فو الله ما أدرى يدخلونها أو كما قال الله وان منكم إلا واردها الآية .

ـ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثى ضعيف وثق وسعيد بن منصور ، وكان **مالك** يرضاه وبقية رجاله رجال الصحيح ا هـ وقال السيوطى فى الجامع الكبير ٣٤٠/١ : رواه الطبرانى فى الكبير وابن **مردويه** إلا أنه قال : فيقال اوردهم إلى النار

(٢) الحديث أورده الحافظ المناوى فى (الاتحافات السنية ص ٣١٩ رقم ٢٣٠) بلفظ : أوحى الله إلى داود أن قل للظلمة لا يذكرون ، فإنى أذكر من يذكرنى ، وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم .

وقال : رواه الحاكم فى تاريخه والديلمى وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما . ا هـ

وجاء عن النبى ﷺ أنه قال : (لا يقضى أحدكم فى موقف يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه)[١] .

وجاء عن النبى ﷺ قال : (أمر بعبد من عباد الله يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قيل : إنك صليت بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره فهذا حال من لم ينصر المظلوم مع قدرته على نصره فكيف حال الظالم ؟) .

قال بعضهم :رأيت فى المنام رجلا ممن كان يخدم الظلمة والمكاسين بعد موته ، وهو فى حالة قبيحة ، فقلت له : ما حالك ؟ فقال شر حال ، فقلت له : إلى أين صرت ؟ فقال إلى عذاب الله ، قلت : فما الظلمة عن ربهم ؟ قال شر حال أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٢]

وقال بعضهم :

رأيت رجلا مقطوع اليد من الكتف ، وهو ينادى من رآنى فلا يظلمن أحدا ، فتقدمت إليه وقلت له : يا أخى ما قصتك ؟ فقال يا أخى قصتى عجيبة ، وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة ، فرأيت يوما صيادا قد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى ، فجئت إليه فقلت : أعطنى هذه السمكة ، فقال لا أعطيكها ، أنا آخذ ثمنها قوتا لعيالى ، فضربته وأخذتها منه قهرا ، ومضيت بها قال فبينما أنا ماش بها حاملها ، إذ عضت على إبهامى عضة قوية ، فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدى ، ضربت على إبهامى وآلمتنى ألما شديدا حتى لم أنم من شدة الوجع وورمت يدى ، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم ، فقال : هذه بدو أكلة ، اقطعها وإلا تلفت يدك كلها ، فقطعت إبهامى ، ثم ضربت يدى فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم ، فقيل لى اقطع كفك فقطعتها ، وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى شديدا ، ولم أطق النوم ولا القرار ، وجعلت استغيث من شدة الألم .

فقيل لى : اقطعها من المرفق فقطعتها ، فانتشر الألم إلى العضد وضربت على عضدى أشد من الألم فقيل لى اقطع يدك من كتفك ، وإلا سرى إلى جسدك كله فقطعتها ، فقال لى بعض الناس : ما سبب ألمك فذكرت له قصة السمكة ، فقال لى : كنت رجعت من أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة ، فاستحللت منه واسترضيته ولا قطعت يدك ، فاذهب الآن إليه واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك ، قال : فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته ، فوقعت على رجليه أقبلهما وأبكى وقلت : يا سيدى سألتك بالله إلا ما عفوت عنى ، فقال لى : ومن أنت ؟ فقلت أنا الذى أخذت منك السمكة غصبا ، وذكرت له ما جرى وأريته يدى فبكى حين رآها ثم قال : ياأخى قد حاللتك منها لما قد رأيت بك من هذا البلاء ،فقلت له : بالله يا سيدى هل كنت دعوت على لما أخذتها منك ؟ قال نعم . قلت :

---

(١) الحديث اورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣ / ٣٠٤ عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه .
وقال : رواه الطبرانى والبيهقى باسناد حسن ا هـ

(٢) سورة الشعراء (٢٢٧)

اللهم هذا تقوى على بقوته على ضعفى وأخذ منى ما رزقتنى ظلما فأرنى فيه قدرتك ، فقلت له : يا سيدى قد أراك الله قدرته فى وأنا تائب إلى الله عز وجل عما كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب ولا أكون من أعوانهم ما دمت حيا إن شاء الله تعالى .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ .

وفى هذه الآيات الكريمة يخبر تعالى عن سنته الكونية فى الأمم ، فيقول ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين** ﴾ . أى من بعد عاد قوم هود . أنشأنا وأوجدنا أهل قرون آخرين كثيرين ، فلما كذبوا أهلكناهم ، وتلك عاقبة الظالمين ، وإذا جاء أجلهم وحان عقابهم لا يسبقون هذا الأجل الذى حدده الله لهم ولا يستأخرون عنه ﴿ **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾[١]

قال تعالى : ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ وقال سبحانه ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار ● عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[٢] ثم أخبر تبارك اسمه انه أرسل رسله تترى أى متتابعين فبلغت الرسل رسالات ربها وصدقت بكلماته وكتبه ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[٣]

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، فكذبوا وأوذوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فكان الجزاء العادل ، فأتبعنا بعضهم بعضا أى أخذناهم بالعذاب أمة بعد الأخرى ، وجعلناهم أحاديث للناس وأعاجيب يتحدثون بها ويتلهون من شأنها ﴿ **فبعدا لقوم لا يؤمنون** ﴾ وهلاكا لهم وعلى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المجيد أن تأخذ من أحداث التاريخ عبرة فإن القصص فى القرآن مدرسة عظمى لم ينزله الله لنتسلى به أو نتغنى بقراءته إنما أنزله ليكون لنا تذكره ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[٤]
﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾[٥] . فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد.وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾
﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾[٦] .

(١) سورة نوح (٤)
(٢) سورة الرعد (٨،٩)
(٣) سورة النحل (٣٦)
(٤) يوسف (١١١)
(٥) الأعراف (١٠١ / ١٠٢)
(٦) سورة هود (١٠٠ - ١٠٤)

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾

قوله تعالى ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ﴾ . أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل - موسى وأخاه هارون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه ، من الايمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾[٢] وقد كان من دأبهم العتو والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ ﴾ أى فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا ؟

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والحط من قدرهما وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة وقد قاسوا الشرف الدينى والامامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقد فاتهم أن مدار النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم ، يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة . فيتلقون الوحى من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شىء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر ﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ أى ولقد أنزلنا على موسى التوارة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهى بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

---

(١) سورة الأعراف (٩٦)

(٢) سورة النازعات (١٧ ، ١٨ ، ١٩)

المسيح وأمه

﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾

ابن مريم هو المسيح ، وإنما كان آية ، لأنه خلق بلا أب ، وإنما كانت أمه آية لأنها حملت به دون أن يمسها بشر ، وإنما عبر عنهما بأنهما آية ، ولم يقل وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين لاشتراكهما فى تلك الآية فكلاهما آية واحدة دالة على قدرة الله تعالى وعظمته ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾[١] ولقد أجرى الله على يدى عيسى من المعجزات الكثير والكثير قال جل شأنه :-

﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى** ﴾[٢] إلى غير ذلك من الخوارق .

قوله تعالى ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ .

أى وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس وقال مقاتل والضحاك : هى غوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

● قوله تعالى ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

قال الحسن البصرى فى قوله ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات** ﴾ قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه .

وقال سعيد بن جبير والضحاك : كلوا من الطيبات : يعنى الحلال وقال عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه

وفى الصحيح(**وما من نبى إلا رعى الغنم**)قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال (نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[٣] .

وفى الصحيح (إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده)[٤] .

وفى الصحيحين (إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى ﴾[٥] .

---

(١) سورة الأنبياء (٩١)

(٢) سورة المائدة (١١١)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاجارة رقم/٢ ، وفى كتاب الأطعمة رقم /٥ ، وفى كتاب الأنبياء رقم/٢٩ ، ومسلم فى كتاب الايمان رقم ٣٠٢ ، وفى كتاب الأشربة رقم ١٦٥ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الاستئذان رقم / ١٨ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٢٦

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب البيوع رقم ١٥٠

(٥) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ٣١٤ ، ١٦٠ ، ٦٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، البخارى فى كتاب التهجير رقم ٧ ، وفى كتاب الأنبياء رقم ٣٧ ، ٣٨ ، ومسلم فى كتاب الصيام ١٨٩ ، ١٩٠ ، وأبو داود فى كتاب الصوم رقم ٦٦ والنسائى فى كتاب الصيام رقم ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ وابن ماجه فى ابواب الصوم رقم ٣١ ، والدارمى فى سننه فى كتاب الصوم رقم ٤٢

وعن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قالت بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك فى أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالى فشرب منه ، فلما كان الغد أتته أم عبد الله بنت شداد بن أوس ، فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبنى مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه فقال لها « بذلك أمرت الرسل الا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا »[١]

وجاء فى صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسند الأمام أحمد عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ .

وقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك ﴾[٢] .

فهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين كريمين أولهما كلوا من الطيبات وثانيهما واعملوا صالحا ويرحم الله زمانا كانت الزوجة تقول لزوجها صباحا حين يخرج مستقبلا يومه يا فلان اتق الله فينا ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

إن الحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد **ذخرا** وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب كما أن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

الأمة هنا بمعنى الملة فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول (**لا إله إلا الله**) قال تعالى : يخاطب حبيبه ومصطفاه :-

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٣] وقال صلوات ربى وسلامه عليه ﴿ **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله** ﴾[٤]

---

(١) الحديث اخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .
(الدر المنثور ٥/ ١٠ تفسير ابن كثير ٥ / ٤٧١ ط : الشعب)
الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك

(٢) الحديث رواه مسلم فى الزكاة رقم / ٦٥ ، والترمذى فى تفسير سورة البقرة ، والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ٩ ، واحمد فى مسنده ٢ /٣٢٨

(٣) سورة الانبياء (٢٥)

(٤) الحديث رواه مالك فى كتاب القرآن رقم ٣٢ وفى كتاب الحج رقم ٢٤٦ ، والترمذى فى الدعوات رقم ١٢٢ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن طلحة بن عبيد الله بن كريم ، باب فى دعاء يوم عرفه بلفظ : خير الدعاء دعاء يوم عرفه وخير ما قلت انا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ـ وقال حسن غريب (تحفه الاحوذى ١ / ٤٥ رقم ٣٦٥٥)

اللهم لك الحمد ان جعلتنا مسلمين وكلمة التوحيد عليها نحيا وعليها نموت وفى سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

وعيد وتهديد

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

تفسير المفردات

فتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا
أمرهم : أى أمر دينهم
زبرا : أى قطعا واحدها زبور .
فذرهم : أى فدعهم واتركهم فى غمرتهم أصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة
حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب
نمدهم : نعطيهم مددا لهم .

التفسير

يحدثنا المولى الكريم فى هذه الآيات عن الأمم التى تمزقت وتفرقت بعد انبيائها وهم يعلمون أن دين الله واحد هو الاسلام ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾

إن هؤلاء الذين تقطعوا وتمزقوا تفرقوا أحزابا وكلها تقوم على الضلال وتشرذموا **وكل فريق بما لديهم فرحون** بجهالتهم وضلالهم ، كل هؤلاء ﴿ **لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ الله تعالى يهدد هؤلاء ويوعدهم فيقول لرسوله ﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين** ﴾ أى **دعهم** فى ضلالتهم وجهلهم وغيهم فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى **طغيانهم** يلعبون ، وفى ريبهم يترددون ، حتى حين أى إلى أن يأتى الله بأمره ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾(١) . أيحسب هؤلاء أنما نمدهم به من المال والبنين **أنما فعلنا ذلك** اكراما لهم لا ، انهم مغرورون ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين**)(٢) . فليست كثرة المال والولد دليلا على الاكرام ، وليس الابتلاء بضيق الرزق دليلا على الاهانة .

بل إن المقياس العادل هو تقوى الله .

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾(٣) .

ثم اقرأ معى قوله جل شأنه ﴿ **فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن .وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا** ﴾(٤)

---

(١) سورة مريم (٧٥)
(٢) سورة الأعراف (١٨٢ ، ١٨٣)
(٣) سورة الحجرات (١٣)
(٤) سورة الفجر (١٥ ، ١٦ ، ١٧)

ثم اقرأ معنى قوله جل شأنه: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾(١) ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ قال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾(٢)

وقال عز من قائل: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾(٣)

المسارعون فى الخيرات

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

تفسير المفردات

الخشية : الخوف من العقاب والاشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .

والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة .

وجلة : أى خائفة .

سابقون : أى ظافرون بنيلها .

التفسير

قال الحسن البصرى : وان المؤمن جمع احسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾(٤) أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيرا فهو حق كما قال الله ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له ولا كفء له .

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

(١) سورة الحجر (٣)
(٢) سورة آل عمران (١٧٨)
(٣) سورة التوبة (٥٥)
(٤) سورة التحريم (١٢)

أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون الا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط .

● كما قال الامام احمد عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال **(لا يابنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل)**[١] .

وقال الامام أحمد عن أبى خلف مولى بنى جحح أنه دخل مع عبيد بن عمر على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحبا بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أوتلم بنا ، فقال أخشى أن أملل فقالت : ما كنت لتفعل ، قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟

قالت أية آية ؟ قال ﴿ **الذين يؤتون ما آتوا** ﴾ ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾

فقالت أيهما أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعا أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ، فقلت ﴿ **الذين يأتون ما أتوا** ﴾ فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف[٢] . والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لانه قال ﴿ **أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾

فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك الا يكون من السابقين بل من المقتصرين أو المقصرين .

قطع المعاذير

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ١٥٩ ، ٢٠٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم / ٢٠
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٦ / ٩٥

(٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣) قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

تفسير المفردات

الوسع : ما يتسع على الانسان فعله ولا يضيق عليه

الكتاب : هو صحائف الأعمال

بالحق : أى بالصدق

الغمرة : الغفلة والجهالة

من دون ذلك : أى غير ذلك

المترف : المتوسع فى النعمة

جأر الرجل : صاح ورفع صوته

لا تنصرون : أى لا يجيركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون : أى:تعرضون عن سماعها وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب (العقب مؤخر الرجل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه .
سامرا : أى:تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه والهجر (بالضم) الهذيان.
الجنة : الجنون .
الذكر : القرآن الذى هو فخرهم.
عن ذكرهم : عن فخرهم.
خرجا : أى جعلا وأجرا .
صراط مستقيم : أى طريق لا عوج فيه
لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .
لج فى الأمر : تمادى فيه .
يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال .
استكانوا : خضعوا وذلوا .
ما يتضرعون : أى يجدون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى:متحيرون آيسون من كل خير .
ذرأكم فى الأرض : أى خلقكم وبثكم فيها
اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى:يتردد عليه بالمجىء والذهاب .
الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة .
تتقون : أى تحذرون عقابه .
الملكوت : الملك والتدبير .
يجير : أى:يغيث ، من قولهم:أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ولا يجار عليه : أى:لا يعين أحد منه أحدا .
تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

التفسير

قوله تعالى **﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾**

هذا منطق العدالة الالهية المقرون بالحكم والرحمة **﴿ ولانكلف نفسا إلا وسعها ﴾** لقد اقتضت عدالة الله وهو الحكم العدل ألا يكلف عباده إلا بما يطيقون ويستطيعون ، ثم اقتضت تلك العدالة أن يسجل الأعمال فى صحائفها حتى يرى العبد ما قدمت يداه فى يوم **﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾**[1] فياله

(١) سورة الحج (٢)

من يوم ما أطوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾[١] .

وآقرأ قوله جل شأنه:﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون.وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[٢] . تباركت ربنا وتعاليت ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وملكت فقدرت ، وبطنت فخبرت وجل جلالك إذ تقول ﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » سبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[٣]» وأنت القائل :﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

لقد حرمت الظلم على نفسك ، وحرمته على خلقك ونهيتهم عنه وأوعدت الظالمين فى قولك ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[٥] .

أما هؤلاء الذين صمت آذانهم عن سماع الحق ، وعميت بصائرهم عن إدراكه فالله يقول فيهم ﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ أى فى جهالة وضلالة عن منطق الحق المبين ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ أى أعمال سيئة غير ما تقدم وهؤلاء فاعلون لتلك الأعمال السيئة وسوف يحاسبهم الله على سوء اختيارهم ويقال لهم ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٦] .

غـدا توفى النفـوس مـا كسبت ويحصـد الزارعـون مـا زرعـوا
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسهم وإن اساءوا فبئس مـا صنعـوا

قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ﴿وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾[٧]

وقال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾[٨] وقوله ﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولاوزر لزم الأمر ووجب العذاب .

فالله إذا حكم لا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه وهو سريع الحساب ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾[٩] فجددوا السفينة فإن البحر عميق ، وأكثروا من الزاد فإن السفر طويل ، وأخلصوا العمل فإن الناقد بصير وخففوا الحمل فإن العقبة كئود ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

تا لله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره

(١) سورة آل عمران (٣٠)
(٢) سورة الجاثية (٢٧ / ٢٩)
(٣) سورة النساء (٤٠)
(٤) سورة يونس (٤٤)
(٥) سورة إبراهيم (٤٢)
(٦) سورة آل عمران (١٨٢)
(٧) سورة المزمل (١١ / ١٣)
(٨) سورة ص (٣)
(٩) سورة الشورى (٤٧)

متنعما فيها بكل نفيسة متلذذا فيها بأنعم عصره
لا يعتريه الهمّ فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أى:إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾(١)

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾(٢) .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾(٣) .

إن النكوص على الأعقاب بعد ما تبين الهدى ردة عن الحق وانتكاسة عن سبيل الرشاد .

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم.ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى.قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا.قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾

وقوله ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فى تفسيره قولان

أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال

احدها :ـ أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام

الثانى :ـ أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة ، من أنه شاعر أو كاهن أوساحر أو كذاب أو مجنون ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء .

وقيل : المراد بقوله ﴿ مستكبرين به ﴾ أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى تفسير من سننه أخبرنا أحمد عن عبد الأعلى : أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فقال مستكبرين بالبيت يقولون عن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه .

---

(١) سورة غافر (١٢)
(٢) سورة الزمر (٤٥)
(٣) سورة الاسراء (٤٦)

قوله تعالى :

﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

التفسير

قال قتادة فى قوله تعالى:﴿ **أفلم يدبروا القول**) إذن والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك ، لو أنهم تدبروا القرآن وحركوا به القلوب ووقفوا عند عجائبه لحلت الهداية قلوبهم ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾[١] وقال سبحانه ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** . ﴾[٢]

لقد بلغ من تدبر الصالحين للقرآن أنهم كانوا إذا قرأوا قوله تعالى:﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[٣] . عندما يقرأون هذه الآية كانوا يظلون الليل يبكون يقول أحدهم لست أدرى من أى الفريقين أنا ؟ لذا : سميت تلك الآية « **بكاءة المؤمنين** » لقد كان الطعام يؤتى به لرسول الله فيأمرهم برفعه لمدة ثلاثة أيام وذلك بعد ما نزل عليه قوله تعالى فى حق أهل النار﴿ **إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما** ﴾[٤] كلما تذكر طعامهم عزفت نفسه عن الطعام إن هذا الكتاب من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ﴿ **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[٥] .

قوله تعالى ﴿ **أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين** ﴾ أى أم اعتقدوا أن مجىء الرسل أمر لم تسبق به السنن فاستبعدوا وقوعه لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه .

قوله تعالى ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾ أى بل أكان محمد دخيلا عليهم وغريبا عنهم ألم يعرفوه ويعاشروه لقد عرفوه بالصادق الأمين وكان ذلك لقبه بينهم فكيف ينكرونه بعد أن دعاهم إلى توحيدالله ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به. فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون**

---

(١) سورة الاسراء (٩)
(٢) سورة محمد (٢٤)
(٣) سورة الجاثية (٢١)
(٤) سورة المزمل (١٢ ، ١٣)
(٥) سورة فصلت (٤١ ، ٤٢)

فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾[1] .

إن الله تعالى قال عن رسوله ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾[2] فذكره هنا بوصف الصاحب لهم لأنه عاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاما فكيف لا يعرفونه وهو صاحبهم إن هذا لهو الضلال المبين والبهتان العظيم والاثم الجسيم .

قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم .

وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفارا لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .

قوله تعالى ﴿ **أم يقولون به جنة** ﴾ أى بل أيقولون به جنون وهم يعلمون أنه أعقل العقلاء وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾[3] وكيف يكون به جنة وهو أذكى الأذكياء ، أليس هو الذى فض النزاع يوم اختلفت القبائل على وضع الحجر الاسود . ولولا أنهم حكموه لخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب . أيكون مثل هذا به جنة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾[4]

﴿ **ن . والقلم وما يسطرون.ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون** ﴾[5]

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

يا سيد العقلاء يا خير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشرا

وبعثت بالقرآن نورا هاديا ... وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا

والله ما خلق الاله ولا برى ... بشرا يرى كمحمد بين الورى .

قوله ﴿ **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ فالتوحيد حق والأنبياء حق ، والبعث حق والملائكة حق ، والكتب حق ، وكل ما جاء به محمد ﷺ هو الحق المبين .

ولكنهم يكرهون ذلك الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الغفلة ودياجير الباطل وغياهب الانكار .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فقال الرجل إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره . فقال نبى الله ﷺ **(وإن كنت كارها)**[6] وذكر لنا أنه لقي رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك وكبر عليه . فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه

---

(١) سورة يونس (١٦ ، ١٧)

(٢) سورة النجم : ٢

(٣) سورة الطور (٢٩)

(٤) سورة الكهف (٥)

(٥) سورة القلم (من الآية ١ إلى الآية ٦)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣ / ١٠٩ ، ١٨١ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : أسلم ، قال : أجدنى كارها ، قال أسلم وإن كنت كارها .

وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟) قال نعم قال (فوالذى نفس محمد بيده إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه)[١] .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، إذا ائتمنته أدى إليك ، أهو أحب اليك ، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ؟) قال بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبى الله ﷺ (كذاكم أنتم عند ربكم) .[٢]

وقوله تعالى ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾

قال مجاهد وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن أى لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم فى قولهم ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾[٣] ثم قال ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾[٥] وقال : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾[٦] . ففى هذا كله يتبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ وقوله ﴿ **أم تسألهم خرجا** ﴾ قال الحسن أجرا وقال قتادة جعلا ﴿ **فخراج ربك**) أى أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

كما قال ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله** ﴾[٧] وقال ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾[٨] وقال ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾[٩] وقال ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا** ﴾[١٠].

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ .

---

(١) الحديث رواه أحمد والضياء المقدسى

(٢) الحديث اورده السيوطى فى جامعه الكبير ١ / ٩٧ : بلفظ أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك ، والآخر يصدقك ولا يخونك أيهما أحب إليك فكذا كم أنتم عند ربكم ـ وعزاه لأحمد والحكيم الترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان عن والد أبى الأحوص .

والحديث عن أحمد فى المسند ٤ / ١٣٧ فى حديث طويل . . أرأيت لو كان عبدان أحدهما يطيعك ولا يخونك والآخر يخونك ويكذبك ، قال قلت : (بل الذى لا يخوننى ولا يكذبنى ويصدقنى الحديث أحب إلى ، قال كذا كم أنتم عند ربكم عز وجل .

(٣) الزخرف (٣١)

(٤) الزخرف (٣٢)

(٥) الاسراء (١٠٠)

(٦) النساء (٥٣)

(٧) سورة سبأ (٤٧)

(٨) سورة ص (٨٦)

(٩) سورة الشورى (٢٣)

(١٠) سورة يس (٢٠ ، ٢١)

قال الامام أحمد : عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة ، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة ، وحياضا رواء أتتبعونى ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلت لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا بلى ، قال فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى قال : فقالت طائفة صدق والله لنتبعه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه . (١)

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إننى ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار ، وتغلبوننى تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرسل حجزكم ، وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرف بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الابل فى إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم رب العالمين أى رب قومى أى رب أمتى ، فيقال يا محمد إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك من الله شيئا قد بلغت ، ولأ عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ولأعرف أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت)

قوله تعالى ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾

يقال نكب عن الطريق إذا زاغ عنها وذلك لأنهم لما عدلوا عن اتباع الحق زاغوا ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) .

قال جل شأنه ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾(٣) .

وقال جل شأنه ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾(٤)

وقال سبحانه ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾(٥) وقال عز وجل ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾(٦) .

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٦٦٧
(٢) سورة الصف (٥)
(٣) سورة فصلت (١٧)
(٤) سورة البقرة (١٦)
(٥) سورة البقرة (١٧٥)
(٦) سورة البقرة (٨٦)

لقد أنكروا البعث وما بعده (وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) هؤلاء وأمثالهم من أصحاب المذاهب المادية يقول الله فيهم ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾(١)
قوله تعالى ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾(٢) .

وقوله جل جلاله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾(٣) .

لقد علم الله فيهم هذا فإنه سبحانه أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٤) وقال سبحانه ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾(٥) هؤلاء وضرباؤهم لو أن الله تعالى رحمهم وكشف عنهم ما نزل بهم من ضير من فقر وقحط وبلاء ومرض لتمادوا فى طغيانهم وعتوهم يعمهون ويتحيرون فذرهم فى غمرتهم حتى حين وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ومن هنا نعلم أن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدنا بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(٦) قال سبحانه ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٧) ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾(٨) ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾(٩) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

التفسير

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ .

---

(١) سورة الكهف (١٠٠ ، ١٠١)
(٢) سورة الانفال (٢٢ ، ٢٣)
(٣) سورة الانعام (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)
(٤) سورة يونس (٩٦ ، ٩٧)
(٥) سورة الحجر (١٤ ، ١٥)
(٦) سورة إبراهيم (٤٧)
(٧) سورة هود (١٠٢)
(٨) سورة المائدة (١٠٠)
(٩) سورة البقرة (٢٨١)

● وكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) .

ومعنى ﴿ فما استكانوا ﴾ أى ما صغوا ، ومعنى وما يتضرعون : أى وما يدعون الله قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[1]

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقربُ

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين عن عمر بن كيسان حدثنى وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ، فقال وهب نحن فى طرف من عذاب الله والله يقول ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثت زيادة عبادة .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى إن هؤلاء القوم والذين غرتهم الحياة الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها لو أن الله تعالى أخذهم بغتة وفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد . فإنهم حينئذ سيبلسون وييئسون حيث لا مفر ولا مرد ، إذ العذاب إذا جاء لا يؤخر ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾[2] فيا أمة الاسلام بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر . أو الساعة والساعة أدهى وأمر .

قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾[3] وقال عز من قائل ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾[4] .

ثم عدد الله تعالى عليهم نعمه فقال ﴿ وهو الذى أنشألكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[5] .

فهذه نعم لا تحصى وتلك آيات وآلاء لا تستقصى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنعام (٤٢/٤٣/٤٤/٤٥)
(٢) سورة الروم (١٢ / ١٣)
(٣) سورة الزخرف (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧)
(٤) سورة الروم (٥٥)
(٥) سورة المؤمنون (٧٨)
(٦) سورة النحل (٧٨)

﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[(١)] .

وكان الواجب أن تشكروا صاحب النعم فشكر المنعم واجب ولكن قليلا ما تشكرون ثم بين الله تعالى قدرته على خلقهم وتكثيرهم ونشرهم فى قارات الأرض فقال **﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾** والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر **﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾**[(٢)]

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ .

هذا إنكار صريح منهم لبعث الأجسام بعد الموت **﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾**[(٣)]

قال تعالى ردا عليهم **﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم .**

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون . إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم . فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ﴾[(٤)] .

وقوله **﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾**

أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدى قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الانكار فقالوا :

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله جل شأنه **﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾**[(٥)]

وقوله **﴿ أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين .وضرب لنا مثلا ونسى خلقه**

---

(١) سورة الروم (٤٠ .)
(٢) سورة الغاشية (٢٥/ ٢٦)
(٣) سورة الدخان (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦)
(٤) سورة الدخان (٣٨ الى٥٩ .)
(٥) سورة مريم (٦٦/ ٦٧)

قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[1] وقوله ﴿ قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[2].

ثم يقيم المولى الكريم الأدلة والبراهين على وحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته فيتوجه إليهم بهذه الأسئلة فيقول لحبيبه ومصطفاه : .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾ .

التفسير

فى هذه الآيات الكريمة الناطقة بالحق المبين الدالة على صدق اليقين يقرر سبحانه وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ ، أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه فى الالهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ، ولا يستبدون بشىء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[3] فقال ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات . ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿ سيقولون لله ﴾

أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له . فإذا كان ذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ؟ ﴾ أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ انه قال : « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة وفى الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة »[4] .

ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين

---

(١) سورة يس (٧٧ / ٧٨ / ٧٩)
(٢) سورة النازعات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)
(٣) سورة الزمر (٣)
(٤) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة رقم ١٨

ألف سنة . وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة .
وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشا لارتفاعه ، وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفى رواية إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال هنا . ﴿ **ورب العرش العظيم** ﴾ أى الكبير وقال فى آخر السورة ﴿ **رب العرش الكريم** ﴾ أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه ياقوتة حمراء .
ـ وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش نور وجهه وقوله ﴿ **سيقولون لله قل أفلا تتقون** ﴾ أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه ، فى عبادتكم معه غيره واشراككم به قال أبو بكر عبد الله محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب التفكير والاعتبار : حدثنا اسحق بسنده عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يحدثنا عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها **يا أمه من خلقك ؟**قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت:الله قال:فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت:الله قال:فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فانى اسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع .
﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء** ﴾ أى بيده الملك . ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ **أى متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول** ﴿ **لا والذى نفسى بيده** ﴾ وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : **"لا ومقلب القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف** .
﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون** ﴾ .
كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر فى جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه . ولهذا قال الله ﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه** ﴾ . أى هو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن :
وقال الله ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ أى لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم كما قال تعالى ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين.عما كانوا يعملون** ﴾[٢] .
وقوله ﴿ **سيقولون لله**) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ أى فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك .
﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ أى فى عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال فى آخر السورة ﴿ **ومن**

---
(١) سورة الانبياء (٢٣)
(٢) سورة الحجر ٩٢ - ٩٣ .

يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[١] فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ماهم فيه من الافك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم واسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)[٢]

قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾

التفسير

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك الواحد فى خصالك لا شريك لك ، تنزه عن الشريك ذاتك ، وتفردت عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالاحسان موصوف ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة .

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد. لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .[٣] .

تنزهت عن الولد والوالد . ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾

وتنزهت عن الشريك والصاحبة ﴿ وما كان معه من إله ﴾ إذ لو تعددت الآلهة لفسدت السموات والأرض .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٤] .

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٥] . لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ولنازل بعضهم بعضا ، ليعلو بعضهم على بعض ويغلبه ، أما وقد قام الكون على نسق رتيب ونظام بديع فدل ذلك على أن له إلها واحدا . ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾[٦] إنه الواحد عالم الغيب والشهادة أحاط علمه بما حضر وما غاب وهو يعلم الظاهر والباطن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فتعالى وتنزه عما يشركون من ولد وصاحبة وشريك .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

سبحـانـك اللهم أنت الـواحـد كل الوجود على وجودك شاهد .
يــا حى قيــوم أنت المـرتجى وإلى علاك عنى الجنين الساجد .

---

(١) سورة المؤمنون (١١٧)
(٢) سورة الزخرف (٢٢)
(٣) سورة الاخلاص (١/ ٢/ ٣/ ٤)
(٤) سورة الانبياء (٢٢)
(٥) سورة الاسراء (٤٢/ ٤٣/ ٤٤)
(٦) سورة الانعام (١٠١/ ١٠٢/ ١٠٣/ ١٠٤
(٧) سورة الحشر (٢٢/ ٢٣/ ٢٤)

توجيه وإرشاد

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

التفسير

هذا ارشاد من الله تعالى وتوجيه لنبيه ومصطفاه يأمره فيه أن يدعو الله تعالى ، أن أراه عذاب هؤلاء ، يدعو الله قائلا ﴿ **رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين** ﴾

فما أجمل هذه الدعوة حين نزول العذاب على كل جبار عنيد جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى وصححه « واذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون »

قوله تعالى ﴿ **وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون** ﴾ .

هذا إخبار مؤكد عن قوله الحق وله الملك ، يقول فيه للصادق المصدوق إنا لقادرون على ان نريك ما نعدهم من العذاب ﴿ **وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا** ﴾ سبحانه كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فاليه منقلبه .

ثم قال تعالى مرشدا له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الاحسان إلى من يسىء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون** ﴾

وهذا هو الدواء الناجح والجواب النافع لشياطين الانس ان تقابل سيئتهم بالحسنة .

أما شياطين الجن فقد بين الله الدواء والعلاج والشفاء من وساوسهم فقال ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ .

وقد جاء هذا الدواء فى سورة الأعراف مرة بشأن شياطين الانس فى قوله تعالى ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾(١) هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ ، سأل الأمين جبريل عنها قال جبريل لا ادرى حتى اسأل رب العزة ثم قال لاستاذ الانسانية الأكبر يا رسول الله ربك يقول لك معناها **ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك** اما شياطين الجن فإن الله وصف علاجهم فى هذه السورة فى قوله ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾(٢)

---

(١) سورة الاعراف (١٩٩)

(٢) سورة الاعراف (٢٠٠ - ٢٠١ .

كما جاء ذلك الدواء فى سورة فصلت ففى شياطين الانس يقول تعالى مبينا العلاج ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **وما يلقاها الا ذو حظ عظيم** ﴾ أى فى الأخرة .

يخاطبنى السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وازيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

ثم يبين الله تعالى لنا علاج شياطين الجن فيقول :
﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾
وهنا فى سورة المؤمنون يقول ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين** ﴾ وكان رسول الله ﷺ - يقول: « **أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه** » (١)
والهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به
﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ أى فى شيء من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .
ولهذا روى ابو داود ان رسول الله ﷺ كان يقول : « **اللهم انى اعوذ بك من الهرم واعوذ بك من الهدم ومن الغرق واعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت** » (٢) .
قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « **باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون** » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه (٣).

حالهم عند الموت وبعض مشاهد القيامة

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، ١٢٠ ، والترمذى فى أبواب الاقامة رقم ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٢ ، وفى أبواب الصلاة رقم ٣٣ ، وأحمد فى مسنده ١/ ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٣/ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٦/ ١٥٦

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الوتر رقم ٣٢ ، والنسائى فى سننه فى كتاب الاستعاذه رقم ٦١ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٣٥٦ ، ٣/ ٤١٧ .

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وقال حسن غريب (المسند ٢ / ١٨١ ، عون المعبود ١ / ٣٨٦ رقم ٣٨٧٥ كتاب الطب ، باب كيف الرقى ، تحفة الأحوذى ٩/ ٥٠٧ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٠) .

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

معانى المفردات

برزخ : أى حاجز بينهم وبين الرجعة .

ولا يتساءلون : أى لا يسأل بعضهم بعضا .

موازينه : إما المراد بها الموزون من الأعمال وإما المراد الميزان .

المفلحون : أى الفائزون .

خسروا أنفسهم : أى غبنوها .

تلفح : أى تحرق .

كالحون : أى عابسون متقلصو الشفاه

الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة وهى ضد السعادة

اخسئوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان

سخريا : أى هزوا .
ذكرى : أى خوف عقابى .
اللبث : الاقامة .
العادين : الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم
والعبث : ما خلا من الفائدة
الحق : أى الثابت الذى لا يبيد ولا يزول ملكه
والعرش : هو مركز تدبير العالم ووصفه بالكريم لشرفه وكل ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : ﴿ وزرع ومقام كريم ﴾ وقوله : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾
يدعو : يعبد
حسابه : أى جزاؤه

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ .
هذه حال الكافرين والمفرطين فى جنب الله عند الاحتضار يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هيهات لا وسيلة ولا حيلة قال الله تبارك وتعالى **﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين.ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾**[١] .

ونحو ذلك قوله تعالى : **﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾**[٢] .

ونحوه قوله تعالى **﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين.أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾**[٣]
ونحوه قوله تعالى :
﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾[٤] .
وقوله **﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾**[٥]
يا ابن آدم :

(١) سورة المنافقون ١٠ ـ ١١
(٢) سورة الاعراف (٥٣)
(٣) سورة الزمر (٥٦ / ٥٧ / ٥٨ / ٥٩)
(٤) سورة السجدة (١٢)
(٥) سورة الانعام (٢٧ / ٢٨ / ٢٩)

تزود من التقوى فانك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأضحى ضاحكا وقد نسجت اكفانه وهو لا يدرى
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت ارواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

فاعجب معى لغافل وليس بمغفول عنه ، واعجب معى لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، واعجب معى لضاحك ملء فيه لا يدرى الله راض عنه ام ساخط عليه .

وأعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ، ولمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، ولمن يؤمن بالرزق كيف ينصب ، ولمن رأى الدنيا وتقلبها باهله ثم اطمأن قلبه إليها .

واحزن معى لفراق الاحبة محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت ، وللوقوف بين يدى الله لا يدرى الواقف اينطلق به إلى الجنة أم إلى النار

فاحذر التسويف فإن الموت يأتى بغتة واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل واعلموا انكم غدا بين يدى الله موقوفون عن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[١] .

ان الذين يتمنون الرجعة إلى الدنيا عند مجيء الموت يقول الله لهم ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ وكلا هنا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه .

وقوله تعالى ﴿ **إنها كلمة هو قائلها** ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ويحتمل ان يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقوله لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب فى مقالته هذه كما قال تعالى ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[٢]

قال قتادة : والله ما تمنى ان يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بان تجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار .

وقال محمد بن كعب **القرظى** (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون.لعلى أعمل صالحا فيما تركت) قال فيقول الجبار ﴿ **كلا إنها كلمة هو قائلها** ﴾

وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : اذا قال الكافر ﴿ **رب أرجعون . لعلى أعمل صالحا** ﴾ يقول الله تعالى : كلا كذبت .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت** ﴾ قال كان العلاء بن زياد يقول :

---

(١) سورة الشعراء (٢٢٧)
(٢) سورة الانعام (٢٨)

(لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى)وقال قتادة : والله ما تمنى إلا ان يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا امنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله .

وعن أبي هريرة قال : إذا وضع (يعنى الكافر) فى قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون اتوب وأعمل صالحا قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمتهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود أودهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعنى أمامهم وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ﴾

وقال تعالى ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾

وقوله تعالى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث . قوله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون :)

يخبر تعالى انه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه قال تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد اثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ﴾(١)

وقال ابن مسعود : اذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : الا من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو وزوجته وان كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله قال الله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال : (فاطمة بضعة منى يغيظنى ما يغظيها وينشطنى ما ينشطها وان الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى)(٢) .

وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال (فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها)(٣) .

---

(١) سورة عبس (٣٤ / ٣٥ /٣٦)

(٢) راجع المسند للامام أحمد ٤ /٣٢٣ ، ٣٣٢

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب النكاح رقم ١٠٩ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود فى سننه فى كتاب النكاح رقم /١٢ ، والترمذى فى أبواب المناقب رقم ٦ ، وابن ماجه فى سننه فى أبواب النكاح رقم ٥٦ ، وأحمد فى مسنده ٤ / ٣٢٨ .

وقال الامام أحمد عن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر (ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم. قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى ﴾[1] .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبى القاسم البغوى عن محمد بن عياد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ (كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى ﴾

وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج إلى أحد منهم إلا كان معى فى الجنة فأعطانى ذلك ﴾

قوله تعالى ﴿ **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون** ﴾

أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة .

وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ أى ثقلت سيئاته ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة .

روى البزار بسنده عن انس بن مالك قال : ان لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[2] .

ولهذا قال تعالى ﴿ **فى جهنم خالدون** ﴾ أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون .

قوله تعالى ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ **لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم** ﴾[4] .

ـ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق لها أهلها يلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب)[5]

ـ وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فى قوله تعالى ﴿ **تلفح وجوههم النار** ﴾ قال تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم[6] .

وقوله تعالى ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ عن ابن عباس يعنى عابسون وعن عبد الله بن مسعود ﴿ **وهم فيها كالحون** ﴾ قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد عن أبى

---

(١) راجع المسند للامام أحمد ٣ /١٨ ، ٣٩
(٢) قال الحافظ ابن كثير ٥ / ٤٩٠ : ط الشعب رواه البزار ، وأسناده ضعيف ، فإن داود بن المحبر متروك .
(٣) سورة إبراهيم (٥٠)
(٤) سورة الانبياء (٣٩)
(٥) الحديث رواه ابن أبى حاتم « تفسير ابن كثير ٥/٤٩٠ ط الشعب
(٦) رواه ابن مردويه « تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٠

سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال:﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا تضرب حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته [١]

قوله تعالى ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك ، فقال تعالى:﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون** ﴾ أى قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب وازلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[٢] وقال ﴿ **وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير** ﴾ إلى قوله ﴿ **فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[٤]

ولهذا قالوا ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين** ﴾ أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا اشقى من ان ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾

أى اردنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ إلى قوله ـ ﴿ **فالحكم لله العلى الكبير** ﴾[٥]

أى لا سبيل إلى الخروج لانكم كنتم تشركون بالله اذا وحده المؤمنون قال تعالى ﴿ **قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون** ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم معه :

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : (**إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال فوالله ما نبس لقوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم قال تشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق** .[٦]

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود (**إذا أراد الله تعالى الا يخرج منهم أحدا يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يارب فيقول الله من عرف أحدا**

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٣ / ٨٨ ، والترمذى فى أبواب جهنم رقم ٥ ، وفى أبواب التفسير تفسير سورة المؤمنون ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب

(٢) سورة النساء (١٦٥)

(٣) سورة الاسراء (١٥)

(٤) سورة الملك ، الآيات : ٨ ـ ١١

(٥) سورة غافر (١١ ، ١٢)

(٦) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٢ ط الشعب

نعم يارب العزة ﴿ قالوا إن لبثتم إلا قليلا ﴾ أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[1]

لو كانوا يعلمون ان الدنيا ستطوى كما يطوى البرق ومعصرات الغمام لجعلوها مزرعة للآخرة كما فعل أولياء الله وأحباؤه

إن لله عبادا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحى سكنا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

فاغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أغرتكم الدنيا فظننتم أنما خلقناكم للهو واللعب بلا هدف ولا غاية ولا حكمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[3] .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم ﴾[4] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين.لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[5]

أيحسب الانسان أن يترك سدى هملا لا . لابد من الرجوع إلى الله فتعالى الله وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فهو الملك المتصرف فى ملكه بمشيئته وحكمته لا يظلم أحدا لأنه الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾

فيا أيها الغافلون عن ذكر الله اعلموا ان الدنيا إذا حلت أوحلت وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنى ، وكم من مريض عدنا وما عدنا وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات

قوله تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

---

(١) سورة النازعات (٤٦)
(٢) سورة المزمل (٢٠)
(٣) سورة الذاريات (٥٦/ ٥٧/ ٥٨)
(٤) سورة الحجر (٨٥ / ٨٦)
(٥) سورة الأنبياء (١٦ / ١٧ / ١٨)

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ، ومخبرا أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به** ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط فى قوله ﴿ **فإنما حسابه عند ربه** ﴾ أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر ﴿ **إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ أى لديه يوم القيامة لافلاحَ لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل « **ماتعبد** » ؟ قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله ﷺ (فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك) قال : الله عز وجل . قال « **فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟** » قال الله عز وجل قال : « **فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه** » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ « **تعلمون ولا يعلمون** » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمنى .

وقوله تعالى ﴿ **وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . عدد آياتها أربع وستون فى العراقى والشامى واثنتان فى الحجازى . كلماتها ألف وثلثمائة وست عشرة . وحروفها خمسة آلاف وستمائة وثمانون . وسميت سورة النور ، لكثرة ذكر النور فيها ﴿الله نور . . مثل نوره . . نور على نور يهدى الله لنوره . . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ .

مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه

١ - بيان فرائض مختلفة .
٢ - آداب حد الزانى والزانية
٣ - النهى عن قذف المحصنات .
٤ - حكم القذف
٥ - اللعان .
٦ - قصة إفك الصديقة .
٧ - شكاية المنافقين .
٨ - خوضهم فيه .
٩ - حكاية حال المخلصين فى حفظ اللسان .
١٠ - بيان عظمة عقوبة البهتان .
١١ - ذم إشاعة الفاحشة .
١٢ - النهى عن متابعة الشيطان .
١٣ - المنة بتزكية الأحوال على أهل الايمان .
١٤ - الشفاعة لمسطح إلى الصديق .

١٥ ـ فى ابتداء الفضل والاحسان .
١٦ ـ مدح عائشة بأنها حصان رزان .
١٧ ـ بيان أن الطيبات للطيبين .
١٨ ـ لعن الخائضين فى حديث الافك .
١٩ ـ النهى عن دخول البيوت بغير إذن وإيذان .
٢٠ ـ الأمر بحفظ الفروج .
٢١ ـ غض الأبصار .
٢٢ ـ الأمر بالتوبة لجميع أهلِ الايمان .
٢٣ ـ بيان النكاح وشرائطه .
٢٤ ـ كراهة الاكراه على الزنا .
٢٥ ـ تشبيه المعرفة بالسراج والقنديل .
٢٦ ـ شجرة الزيتون .
٢٧ ـ تمثيل أعمال الكفار وأحوالهم .
٢٨ ـ ذكر الطيور وتسبيحهم وأورادهم .
٢٩ ـ إظهار عجائب صنع الله فى إرسال المطر .
٣٠ ـ تفصيل أصناف الحيوان .
٣١ ـ الانقياد لأمر الله تعالى بالتواضع والاذعان .
٣٢ ـ خلافة الصديق وصلاته الاخوان .
٣٣ ـ بيان استئذان الصبيان والعبدان ورفع الحرج عن العميان والزمنى والعرجان .
٣٤ ـ الأمر بحرمة سيد الانس والجان وتهديد المنافقين وتحذيرهم من العصيان .
٣٥ ـ ختم السورة بأن لله الملك والملكوت بقوله ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ إلى قوله :عليم .

المتشابهات

قوله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾
محذوف الجواب ، تقديره : لفضحكم . وهو متصل ببيان حكم الزانين وحكم القاذف وحكم اللعان ـ وجواب لولا محذوفا أحسن منه ملفوظا به . وهو المكان الذى يكون الانسان فيه أفصح ما يكون (إذا سكت .) .

وقوله بعده : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾

فحذف الجواب أيضا . وتقديره : لعجل لكم العذاب . وهو متصل بقصتها رضى الله عنها ، وعن أبيها . وقيل دل عليه قوله ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

وقيل دل عليه قوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾ .

وفى خلال هذه الآيات ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ﴾ ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ﴾ وليس هو الدال على امتناع لشىء لوجود غيره ، بل هو للتحضيض ، قال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بنى حنطرى لولا الكمى المقنعا

قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات) ، وبعده ﴿ لقد أنزلنا آيات ﴾ . لأن الاتصال الأول بما قبله أشد : فإن قوله ﴿ موعظة ﴾ محمول ومعروف إلى قوله : ﴿ وليستعفف) وإلى قوله . ﴿ فكاتبوهم ﴾ ، (ولا تكرهوا ﴾ فاقتضى الواو ، ليعلم أنه عطف على الأول ، واقتضى بيانه بقوله : ﴿ إليكم ﴾ ليعلم أن المخاطبين بالآيات الثانية هم المخاطبون بالآية الأولى . وأما الثانية فاستئناف كلام ، فخص بالحذف .

قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ إنما زاد ﴿ منكم ﴾ لأنهم المهاجرون وقيل : عام ، و (من) للتبيين .

قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال ﴾ ختم الآية بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾

وقبلها وبعدها ﴿ لكم الآيات ﴾ لأن الذى قبلها والذى بعدها يشتمل على علامات يمكن الوقوف عليها . وهى فى الأولى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، وفى الأخرى ﴿ من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ الآية فعد فيها آيات كلها معلومة ، فختم الآيتين بقوله ﴿ لكم الآيات ﴾ . ومثله ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ﴾ .

يعنى حد الزانين وحد القاذفين ، فختم بالآيات . وأما بلوغ الأطفال فلم يذكر له علامات يمكن الوقوف عليها بل تفرد سبحانه بعلم ذلك ، فخصها بالاضافة إلى نفسه ، وختم كل آية بما اقتضاه أولها .

مناسبتها لما قبلها

إنه قال فى السورة السالفة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى وما يتصل بذلك من شأن القذف وقصة الافك والأمر بغض البصر الذى هو داعية الزنا ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، والنهى عن اكراه الفتيات على الزنا .

إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثا بل للامر والنهى ذكر هنا جملة من الأوامر والنواهى .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور ﴾[1] وعن حارث بن مضرب رضى الله عنه قال : (كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

تفسير المفردات

أنزلناها : أى اعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى .

الفرض : التقدير كما قال : ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾[2] وقال ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[3] والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه .

بينات : أى واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام ولعل هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، وتذكرون : تتذكرون وتتعظون .

الزانى والزانية إما أن يكونا محصنين أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

قوله تعالى ﴿ سورة أنزلناها ﴾ فى ذلك النص تنبيه بشأن هذه السورة وما اشتملت عليه من الحدود والأحكام والنظم الاجتماعية فى الاسلام .

قوله تعالى ﴿ وفرضناها ﴾

قال مجاهد وقتادة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أى مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ .

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان

(٢) سورة البقرة (٢٣٧)

(٣) سورة القصص (٨٥)

هذه الآية الكريمة فيها حكم الله فى حد من حدوده وهو الجلد مائة جلدة للزانية والزانى . ولابد قبل الحديث عن تفصيل هذا الحد من كلمة نسلط فيها الأضواء الكاشفة على الحدود فى الاسلام حتى يكون القارىء على بينة من حجة الله البالغة وحكمته السامية من تشريع الحدود .

تعريف الحدود

قال الفقهاء :

تعريفها : الحدود جمع حد والحد فى الأصل : الشىء الحاجز بين الشيئين .

ويقال : ما ميز الشىء عن غيره .

ومنه : حدود الدار وحدود الأرض .

وهو فى اللغة بمعنى المنع . وسميت عقوبات المعاصى حدودا ، لأنها فى الغالب تمنع العاصى من العود إلى تلك المعصية التى حد لأجلها . ويطلق الحد على نفس المعصية . ومنه :

﴿ وتلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ .

والحد فى الشرع عقوبة مقررة لأجل حق الله فيخرج التعزير لعدم تقديره إذ أن تقديره مفوض لرأى الحاكم ويخرج القصاص لأنه حق الآدمى .

جرائم الحدود :- وقد قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى جرائم الحدود . وهذه الجرائم هى :

(الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى) .

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا ، الجلد للبكر ، والرجم للثيب .

يقول الله سبحانه :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ (١)

والرسول ﷺ يقول :-

(خذوا عنى .. خذوا عنى .. قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة . يقول الله سبحانه :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ وعقوبة جريمة السرقة ، قطع اليد . يقول الله تعالى :

---

(١) سورة النساء (١٥)

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾[(١)] .

وعقوبة جريمة الفساد فى الأرض : القتل أو الصلب أو النفى أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، يقول سبحانه :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾[(٢)] .

وعقوبة جريمة السكر ثمانون جلدة أو أربعون .

وعقوبة الردة القتل لقول رسول الله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه)

وعقوبة جريمة البغى : القتل . لقول الله سبحانه :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[(٣)] .

ويقول الرسول ـ ﷺ ـ : (إنه ستكون بعدى هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين ـ وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)[(٤)] .

عدالة هذه العقوبات :

وهذه العقوبات ـ بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافظة للأمن العام ـ فهى عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها وعدوان على الخلق والشرف والكرامة . ومقوض لنظام الأسر والبيوت . ومروج للكثير من الشرور والمفاسد التى تقضى على مقومات الأفراد والجماعات وتذهب بكيان الأمة ومع ذلك فقد احتاط الاسلام فى إثبات هذه الجريمة ، فاشترط شروطا يكاد يكون من المستحيل توافرها .

فعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والارهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل ، وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التى تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه وتهدم أركان البيت . والبيت هو الخلية الأولى فى بنية المجتمع ، فبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد .

بتقرير جلد مقترف هذه الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه من الاتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما

---

(١) سورة المائدة (٢٨)
(٢) سورة المائدة (٢٣)
(٣) سورة الحجرات (٩)
(٤) الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى

يقذف به ، غاية فى الحكمة وفى رعاية المصلحة . كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح فى سمعته .

والسرقة ما هى إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها . والأموال أحب الأشياء إلى النفوس . فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف ويكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة فيأمن كل فرد على ماله . ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه مما يعد من مفاخر هذه الشريعة . وقد ظهر أثر الأخذ بهذا التشريع فى البلاد التى تطبقه واضحا فى استتباب الأمن وحماية الأموال وصيانتها من أيدى العابثين والخارجين على الشريعة والقانون .

وقد اضطر الاتحاد السوفيتى أخيرا إلى تشديد عقوبة السرقة بعد أن تبين له أن عقوبة السجن لم تخفف من كثرة ارتكاب هذه الجريمة ، فقرر اعدام السارق رميا بالرصاص وهى أقصى عقوبة ممكنة .

والمحاربون الساعون فى الأرض بالفساد المضرمون لنيران الفتن المزعجون للأمن المثيرون للاضرابات ، العاملون على قلب النظم القائمة ، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تفقد الشارب عقله ورشده وإذا فقد الانسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش فإذا جلد كان جلده مانعا له من المعاودة من جانب ورادعا لغيره من اقتراف مثل جريرته من جانب آخر .

وجوب اقامة الحدود :

اقامة الحدود فيها دفع للناس ، لأنها تمنع الجرائم ، وتردع العصاة ، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه وعرضه وماله ، وسمعته ، وحريته وكرامته وقد روى النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ان النبى ﷺ قال :

(حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا)[1] وكل عمل من شأنه أن يعطل إقامة الحدود فهو تعطيل لأحكام الله ومحاربة له لأن ذلك من شأنه إقرار المنكر وإشاعة الشر .

وروى أحمد وأبو داود والحاكم وصححه : أن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو مضاد الله فى أمره)[2] وقد يحدث أن يغفل المرء عن الجناية التى يرتكبها الجانى وينظر إلى

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢/٣٦٢ ، ٤٠٢ ، والنسائى فى سننه فى كتاب السارق رقم ٧ ، وابن ماجة فى سننه فى كتاب الحدود رقم ٣

(٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢/ ٧٠ ، ٨٢ ، وأبو داود فى كتاب الأقضية رقم ١٤ .

العقوبة الواقعة عليه فيرق قلبه له ويعطف عليه ، فيقرر القرآن أن ذلك مما يتنافى مع الايمان لأن الايمان يقتضى الطهر والتنزه عن الجرائم والسمو بالفرد والجماعة إلى الأدب العالى والخلق المتين . يقول الله سبحانه : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

* الشفاعة فى الحدود : ـ

يحرم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يعطل حدا من حدود الله ، لأن فى ذلك تفويتا لمصلحة محققة ، وإغراء بارتكاب الجنايات ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم ؛ لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى ، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم فلا بأس من التستر على الجانى والشفاعة عنده .

أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب »[١] .

وأخرج أحمد وأهل السنن وصححه الحاكم من حديث صفوان بن أمية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال له لما أراد أن يقطع الذى سرق رداءه فشفع فيه .

« هلا كان قبل أن تأتينى به ؟ ! »[٢] .

وعن عائشة قالت :

كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع يدها ، فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه ، فكلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم فيها ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يأسامة لا أراك تشفع فى حد من حدود الله عز وجل »

ثم قام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيبا . فقال :

« إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . . والذى نفسى بيده ؛ لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها . »[٣]

فقطع يد المخزومية

---

(١) انظر سنن أبى داود تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبع دار إحياء التراث العربى ، فى (كتاب الحدود) باب : العفو عن الحدود مالم تبلغ السلطان ج ٢ ص ١٣٣ رقم ٤٣٧٦ ، وسنن النسائى (كتاب القسامة) باب : قطع السارق ج ٢ ص ٦٣ ، والحاكم فى المستدرك (كتاب الحدود) ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل (مسند صفوان بن أمية العجمى) ج ٣ ص ٤٠١ ، وسنن النسائى ج ٨ ص ٦٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود ج ١١ ص ١٨٦ ، وسنن النسائى (كتاب قطع السارق) باب : مايكون حرزا وما لايكون ج ٨ ص ٧١ ، وسنن ابن ماجه (كتاب الحدود) باب : الشفاعة فى الحدود ج ٢ ص ٨٥١ رقم ٢٥٤٧

رواه أحمد ومسلم والنسائى .

سقوط الحدود بالشبهات :

الحد : عقوبة من العقوبات التى توقع ضررا فى جسد الجانى وسمعته ، ولا يحل استباحة حرمة أحد ، أو إيلامه إلا بالحق ، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذى لايتطرق إليه الشك ، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعا من اليقين الذى تنبنى عليه الأحكام .

ومن أجل هذا كانت التهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها ؛ لأنها مظنة الخطأ .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا »[1] .

رواه ابن ماجه .

وعن عائشة قالت :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ادرأوا الحدود عن المسلمين ماستطعتم ؛ فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ؛ فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو خير له من أن يخطىء فى العقوبة »[2]

رواه الترمذى ، وذكر أنه قد روى موقوفا وأن الوقف أصح ، قال : وقد روى عن غير واحد من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أنهم قالوا مثل ذلك .

الشبهات وأقسامها :

تحدث الأحناف والشافعية عن الشبهات ولكل منهما رأى نجمله فيما يأتى :

رأى الشافعية :

يرى الشافعية أن الشبهة تنقسم أقساما ثلاثة .

١ ـ شبهة فى المحل

أى : محل الفعل ، مثل : وطء الزوج الزوجة الحائض أو الصائمة ، أو إتيان الزوجة فى دبرها فالشبهة هنا قائمة فى محل الفعل المحرم .

إذ أن المحل مملوك للزوج ، ومن حقه أن يباشر الزوجة ـ وإذا لم يكن له أن يباشرها وهى حائض أو صائمة أو أن يأتيها فى الدبر ـ إلا أن ملك الزوج للمحل وحقه عليه يورث شبهة . . وقيام هذه الشبهة يقتضى درء الحد ، سواء اعتقد الفاعل بحل الفعل أو بحرمته ؛ لأن أساس الشبهة ليس الاعتقاد والظن ؛ وإنما أساسها محل الفعل وتسلط الفاعل شرعا عليه .

٢ ـ شبهة فى الفاعل

كمن يطأ امرأة زفت إليه على أنها زوجته ثم يتبين له أنها ليست زوجته ، وأساس الشبهة ظن الفاعل واعتقاده ، بحيث يأتى الفعل وهو يعتقد أنه لايأتى محرما ، فقيام هذا الظن عند الفاعل يورث

---

(١) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الشد على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٥ إلا أنه قال : « ماوجدتم له » بدل : « ماوجدتم لها » . فى الزوائد : فى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى ؛ ضعفه أحمد وابن معين والبخارى ، وغيرهم .

(٢) ذكر الترمذى هذا الحديث فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى درء الحدود رقم ١٤٢٤ ج ٤ ص ٣٣

شبهة يترتب عليها درء الحد .

أما إذا أتى الفاعل الفعل وهو عالم بأنه محرم فلا شبهة .

٣ - شبهة فى الجهة :

ويقصد من هذا الاشتباه فى حل الفعل وحرمته ، وأساس هذه الشبهة الاختلاف بين الفقهاء على الفعل ، فكل ما أختلفوا على حله أو جوازه كان الاختلاف فيه شبهة يدرأ بها الحد ، فمثلا يجيز أبو حنيفة الزواج بلا ولى ، ويجيزه مالك بلا شهود ، ولا يجيز جمهور الفقهاء هذا الزواج ، ونتيجة هذا الزواج أنه لاحد على الوطء فى هذا الزواج المختلف فى صحته ؛ لأن الخلاف يقوم شبهة تدرأ الحد ، ولو كان الفاعل يعتقد بحرمة الفعل لأن هذا الاعتقاد فى ذاته ليس له أثر مادام الفقهاء مختلفين على الحل والحرمة .

رأى الأحناف :

أما الأحناف فإنهم يرون أن الشبهة تنقسم قسمين :

١ - شبهة فى الفعل .

وهى شبهة فى حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه ، وتثبت هذه الشبهة فى حق من اشتبه عليه الحل والحرمة - ولم يكن ثمة دليل سمعى يفيد الحل ؛ بل ظن غير الدليل دليلا ، كمن يطأ زوجته المطلقة ثلاثا أو بائنا على مال فى عدتها ، وتعليل ذلك أن النكاح إذا كان قد زال فى حق الحل أصلا لوجود المعطل لحل المحلية وهو الطلاق فإن النكاح قد بقى فى حق الفراش ، والحرمة على الأزواج فقط ، ومثل هذا الوطء حرام ، فهو زنا يوجب الحد ، إلا إذا ادعى الواطىء الاشتباه وظن الحل ؛ لأنه بنى ظنه على نوع دليل ، وهو بقاء النكاح فى حق الفراش وحرمة الأزواج ؛ أنه بقى فى حق الحل أيضا ، وهذا وإن لم يصلح دليلا على الحقيقة لكنه لما ظنه دليلا اعتبر فى حقه درعا لما يندرىء بالشبهات ، ويشترط - لقيام الشبهة فى الفعل - ألا يكون هناك دليل على التحريم أصلا ، وأن يعتقد الجانى الحل ، فإذا كان هناك دليل على التحريم أو لم يكن الاعتقاد بالحل ثابتا ، فلا شبهة أصلا ، وإذا ثبت أن الجانى كان يعلم بحرمة الفعل وجب عليه الحد .

٢ - الشبهة فى المحل : -

ويسمونها الشبهة الحكمية أو شبهة الملك : وتقوم هذه الشبهة على الاشتباه فى حكم الشرع بحل المحل ، فيشترط فى هذه الشبهة أن تكون ناشئة عن حكم من أحكام الشريعة - وهى تتحقق بقيام دليل شرعى ينفى الحرمة ، ولا عبرة لظن الفاعل ، فيستوى أن يعتقد الفاعل الحل ، أو يعلم الحرمة ؛ لأن الشبهة ثابتة بقيام الدليل الشرعى لا بالعلم وعدمه .

من يقيم الحدود ؟ : -

اتفق الفقهاء على أن الحاكم أو من ينيبه عنه هو الذى يقيم الحدود ، وأنه ليس للأفراد أن يتولوا هذا العمل من تلقاء أنفسهم .

روى الطحاوى عن مسلم بن يسار أنه كان رجل من الصحابة يقول :

« الزكاة ، والحدود ، والفيء ، والجمعة إلى السلطان » .

قال الطماوى : لانعلم له مخالفا من الصحابة

وروى البيهقى عن خارجة بن زيد ، عن أبيه ، وأخرجه أيضا عن أبى الزناد عن أبيه عن الفقهاء الذين ينتهى إلى أقوالهم من أهل المدينة أنهم كانوا يقولون : ـ

« لاينبغى لأحد يقيم شيئا من الحدود دون السلطان »

الا أن للرجل أن يقيم حد الزنا على عبده أو أمته » .

وذهب جماعة من السلف منهم الشافعى إلى أن السيد يقيم الحد على مملوكه ، واستدلوا بما روى عن أمير المؤمنين على ـ رضى الله عنه ـ أن خادمة للنبى ﷺ أحدثت فأمرنى النبى ﷺ أن أقيم عليها الحد ، فأتيتها فوجدتها لم تجف من دمها فأتيته فأخبرته ، فقال :

(إذا جفت من دمها فأقم عليها الحد ، أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم)[1]

رواه أحمد وأبو داود ومسلم ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال أبو حنيفة :

يرفعه المولى للسلطان . . ولايقيمه هو بنفسه .

مشروعية التستر فى الحدود : ـ

قد يكون ستر العصاة علاجا ناجحا للذين تورطوا فى الجرائم واقترفوا المآثم ، وقد ينهضون بعد ارتكابها فيتوبون توبة نصوحا ، ويستأنفون حياة نظيفة .

لهذا شرع الاسلام التستر على المتورطين فى الآثام ، وعدم التعجيل بكشف أمرهم .

عن سعيد بن المسيب قال : « بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له : هزال ، وقد جاء يشكو رجلا بالزنا وذلك قبل أن ينزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾[2] :

(يا هزال لو سترته بردائك كان خيرا لك)

قال يحيى بن سعيد : فحدثت بهذا الحديث فى مجلس فيه يزيد بن نعيم بن هزال الأسلمى ، فقال يزيد : ـ

(هزال جدي . . هذا الحديث حق)

وروى ابن ماجه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال :

(من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى

---

(١) هذا الحديث أورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ١٦١ رقم ٤٤٧٣ ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٤

(٢) من الآية رقم ٤ من سورة النور ، والحديث رواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الستر على أهل الحدود ج ٤ ص ١٣٤ رقم ٤٣٧٧ إلا أنه قال : « ثبوتك » مكان « بردائك » وللحديث رواية أخرى عند ابن سعد بلفظ : « ياهزال بئس ماصنعت بيتيمك !! لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك » وانظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (كتاب الحدود) ج ٣ ص ٣٩

يفضحه فى بيته)[١]

وإذا كان الستر مندوبا ، ينبغى أن تكون الشهادة به خلاف الأولى التى مرجعها إلى كراهة التنزيه ؛ لأنها فى رتبة الندب فى جانب الفعل ، وكراهة التنزيه فى جانب الترك وهذا يجب أن يكون بالنسبة إلى من لم يعتد الزنا ولم يتهتك به .

أما إذا وصل الحال إلى إشاعته والتهتك به ؛ فيجب كون الشهادة به أولى من تركها لأن مطلوب الشارع إخلاء الأرض من المعاصى والفواحش ، وذلك يتحقق بالتوبة من الفاعلين وبالزجر لهم ، فإذا ظهر حال الشره فى الزنا وعدم المبالاة به وإشاعته ، فإخلاء الأرض المطلوب حينئذ التوبة ، احتمال يقابله ظهور عدمها ، فمن اتصف بذلك فيجب تحقيق السبب الآخر للإخلاء . وهو الحدود ، بخلاف من زنى مرة أو مرارا ، مستترا متخوفا متندما عليه ، فإنه محل استحباب ستر الشاهد .

*** ستر المسلم نفسه :ـ**

بل على المسلم أن يستر نفسه ولا يفضحها بالحديث عما يصدر عنه من إثم أو إقرار أمام الحاكم لينفذ فيه العقوبة .

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

(يأيها الناس : قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . . من أصاب شيئا من هذه القاذورة فليستتر بستر الله ؛ فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)[٢]

الحدود كفارة للآثام :

يرى أكثر العلماء أن الحدود إذا أقيمت كانت مكفرة لما اقترف من آثام ، وأنه لايعذب فى الآخرة ؛ لما رواه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى مجلس فقال :

(تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه)[٣] .

وإقامة الحد وإن كانت مكفرة للآثام فإنها مع ذلك زاجرة عن اقترافها ، فهى جوابر وزواجر معا .

حد الزنا :

وبعدما تقدم من الحديث عن الحدود وما يتعلق بها من أحكام نتحدث الآن عن حد الزنا وذلك فى رحاب تفسيرنا لقوله ـ تعالى :ـ

﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٦ وقال فى الزوائد : فى إسناده محمد بن عثمان بن صفوان الجمحى ،قال فيه أبو حاتم : منكر الحديث ، ضعيف الحديث . وقال الدارقطنى : ليس بقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات . وباقى رجال الإسناد ثقات .

(٢) انظرتنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى من اعترف على نفسه بالزنا ج ٣ ص ٤٣

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب الحدود) باب : الحدود كفارات لأهلهاج ٢ ص ٤٢٦ رقم ١١١١

بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ .

جاء الاسلام العظيم بشريعة هى للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وقد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها ، وقد سئل أعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان الفطرة : ومنطق الصدق المبين :

(لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته مانهى ، ولم ينه عن شيء وقال العقل ليته مانهى) نعم إن الاسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ● يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)[1] .

لما حرم الله - تعالى - الخبائث أحل الطيبات ، ولما حرم الربا أباح البيع وأحله ، كما أحل الشركة والمرابحة والقرض والمضاربة ، ولما حرم الزنا فإنه رغب فى الزواج ودعا إليه ، فلم يبق عذر لمعتذر فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح

﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[2]

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾[3]

﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[4] ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾[5]

﴿ مَنِ اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[6] ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾[7] .

*** طريق الله المستقيم ***

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[8]

● عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[9] رواه البخارى ومسلم .

(المعنى)

ياطائفة الشبان أصحاب القوة والفتوة ، وأصل الحركة والنشاط , قال النووى : والشاب عند

(١) الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء
(٢) من الآية ١٦٥ من سورة النساء
(٣) من الآية ١٠ من سورة الفتح
(٤) من الآية ٢٣ من سورة يونس
(٥) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٦) الآيــة ١٥ من سورة الإسراء
(٧) من الآية ٤٦ من سورة فصلت
(٨) الآية ٢١ من سورة الروم .

(٩) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقى ج ١ ص ٣٢٥ (كتاب النكاح) حديث رقم ٨٨٤

أصحابنا هو من بلغ ولم يجاوز ثلاثين سنة، اهـ.

وإنما خص الشباب لأن الغالب وجود قوة الداعى فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ .

الباءة : الجماع واستعمل لعقد النكاح ، قال الجوهرى : الباءة مثل الباعة ، ومنه سمى النكاح باءة. ويامها الرجل لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى يستمكن منها كما يتبوأ من داره .

أغض للبصر : أحفظ للنظر أن يرى محارم .

أحصن للفرج : أمنع من الزنا .

فإنه له وجاء : قاطع للشهوة ، وأصله : رض الخصيتين . قال النووى : معناه من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤونته ـ وهى مؤن النكاح ـ فليتزوج ، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنته فعليه بالصوم ليقطع شهوته ويقطع شر منيه كما يقطعه الوجاء ، وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشباب ، سميت باسم مايلازمها ، وتقديره : من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم . قالوا : والعاجز عن الجماع لايحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة فوجب .

● وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
(من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر)[1] . رواه ابن ماجه .

عن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :
(أربع من سنن المرسلين : الحناء والتعطر والسواك والنكاح)[2]

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :
(الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) رواه مسلم .[3]

● وعنه ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :
(الدنيا متاع ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة : مسكين مسكين رجل لاامرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لازوج لها) رواه رزين

● وعن أبى أسامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ . أنه كان يقول :
(مااستفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله) رواه ابن ماجه .[4]

● وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال :
(أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا على البلاء صابرا

---

(١) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : تزويج الحرائر والولود ج ١ ص ٥٩٨ رقم ١٨٦٢ قال فى الزوائد : إسناده ضعيف لضعف كثير بن سليم و (سلام) هو ابن سليمان بن سوار . قال ابن عدى : عنده مناكير . وقال العقيلى : فى حديثه مناكير .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى فى (كتاب النكاح) باب : ماجاء فى فضل التزويج والحث عليه ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ١٠٨٠ وقال : وفى الباب عن عثمان وثوبان وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وأبى نجيح وجابر وعكاف .
قال أبو عيسى : حديث أبى أيوب حديث حسن غريب .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى فى (كتاب الرضاع) باب : استحباب نكاح البكر ج ١٠ ص ٥٦

(٤) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٧

وزوجة لاتبغيه حوبا فى نفسها وماله) رواه الطبرانى .

● وعن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾

قال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه :

أنزلت فى الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه ، فقال : (أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه) رواه ابن ماجه (١)

● وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده ـ رضى الله عنهما ـ قال :

قال رسول الله ﷺ :

(من سعادة ابن آدم ثلاثة . ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح . ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء)(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبرانى والبزار والحاكم وصححه إلا أنه قال : والمسكن الضيق . وابن حبان فى صحيحه إلا إنه قال :

أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنىء . وأربع من الشقاء : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق .

● وعن محمد بن سعد ـ يعنى ابن أبى وقاص ـ عن أبيه أيضا ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق . وثلاث من الشقاء : المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا ، فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق) رواه الحاكم .(٣)

المعنى

تعجبك : تفرح بها

نفسها : تحفظ عرضها ومال زوجها .

وطيئة : ذلول سريعة السير

---

(١) ورد هذا الحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٦ ولكن لفظه : « فقال : ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة »
قال فى الزوائد : عبد الله بن عمرو بن مرة ضعفه النسائى ، ووثقه الحاكم وابن حبان .
وقال ابن معين : لابأس به ، فقال ؛ روى الترمذى فى التفسير المرفوع منه دون قول عمرو وقال : حسن

(٢) ورد الحديث فى مسند الإمام أحمد (مسند سعد بن ابى وقاص) ج ١ ص ١٦٨ . وانظر كشف الأستار عن زوائد البزار (كتاب النكاح) باب : فى المرأة الصالحة ج ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤١٢ .
وأورده الحاكم فى المستدرك (كتاب قسم الفىء) ج ٢ ص ١٤٤ من رواية سعد بن مالك .
وقد ورد فى الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (كتاب النكاح) باب : ذكر الأخبار التى هى من سعادة المرء فى الدنيا ج ٦ ص ١٣٥ رقم ٤٠٢١ من رواية سعد بن أبى وقاص ، بلفظ : « أربع من السعادة .. الخ »

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب النكاح) باب : ثلاث من السعادة إلى آخره ج ٢ ص ١٦٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد من خالد بن عبد الله الواسطى إلى رسول الله ﷺ وآله وسلم ، تفرد به محمد بن بكير عن خالد ، إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين . وقال الذهبى : قلت : محمد ، قال أبو حاتم . صدوق يغلط . وقال يعقوب بن شيبة : ثقة .

● وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الباقى) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم[1]

وفى رواية البيهقى قال رسول الله ﷺ : (إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين ، فليتق الله فى النصف الباقى)[2]

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف) رواه الترمذى[3]

● وعن أبى نجيح - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (من كان موسرا لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى) رواه الطبرانى[4].

● وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ؟

قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر ، أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدا ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم : فقال : (أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى ، فليس منى) رواه البخارى[5]

المعنى :-

الرهط : من ثلاثة إلى عشرة ، ومن رواية عبد الرزاق أن الثلاثة هم على بن أبى طالب وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعثمان بن عفان .

تقالوها : عدوها قليلة .

أصلى الليل : أتهجد

أصوم الدهر : أى بالنهار سوى أيام العيد وأيام التشريق ، ظن أولئك - رضى الله عنهم - أن

---

(١) ورد فى مجمع الزوائد عن أنس هذا الحديث بلفظ : أن النبى - ﷺ - قال :
(من تزوج فقد أستكمل نصف الإيمان فليتق الله فى النصف الباقى) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين ، وفيهما يزيد الرقاشى وجابر الجعفى ، وكلاهما ضعيف .
ورواه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب النكاح) ج ٢ ص ١٦١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٢) ورد فى شعب الإيمان للبيهقى فى (الترغيب فى النكاح) ص ٢٣١ مخطوطة بمكتبة الأزهر واللفظ : « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه)

(٣) الحديث فى الجامع الصحيح للترمذى فى (كتاب الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله لهم ج ٤ ص ١٨٤ رقم ١٦٥٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب النكاح) ج ٧ ص ٧٨

(٤) انظر فى مجمع الزوائد فى (كتاب النكاح) باب الحث على النكاح ج ٤ ص ٢٥١ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وإسناده مرسل حسن - كما قال ابن معين - وانظر سنن البيهقى ج ٧ ص ٧٨ .

(٥) هذا الحديث رواه الشيخان ، وقد ورد فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب النكاح) باب : الترغيب فى النكاح ج ٢ ص ٣٢٥ رقم ٨٨٥
وقال محمد فؤاد عبد الباقى : أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح .

العبادة اجتهاد وتفان وكثرة عمل مع مشقة ، فأفهمهم الحكيم المربى ، والقائد الماهر أن العبادة إخلاص لله وحده مع أخذ راحة الجسم وملذته فى الحلال والتمتع بالطيبات فى حدود الشرع .

وأتقاكم له : يعنى أكثر خشية وأشد تقوى ، وفى العينى : وفيه رد لما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لايحتاج إلى مزيد من العبادة ، بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه ـ مع كونه لايشدد فى العبادة غاية الشدة ـ أخشى لله وأتقى من الذين يشددون .

● وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

(تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك) رواه أحمد(١) .

المعنى : ـ

فليس منى : أى ليس متصلا بى قريبا منى . وفيه أن النكاح من سنن النبى ﷺ . وزعم المهلب أنه من الاسلام وأنه لارهبانية فيه وأنه من تركه راغبا عن سنة النبى ﷺ . فهو مذموم مبتدع ، ومن تركه من أجل أنه أرفق له ، وأعون على العبادة فلا ملامة عليه ، وعند أكثر العلماء أنه مندوب .

وقال الشافعى : النكاح معاملة فلا فضل لها على العبادة .

وقال أبو حنيفة : يجوز النكاح مع الإعسار ، ولا ينتظر به حالة الثروة .

قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾(٢)

وفى العينى : النكاح لم يفضل على التخلى للعبادة بصورته ، وإنما تميز عنه بمعناه فى تحصين النفس وبقاء الولد الصالح ، وتحقيق المنة فى النسب والصهر ، فقضاء الشهوة فى النكاح ليس مقصودا لذاته ، وإنما أكد النكاح بالأمر قولا وأكده بخلق الشهوة خلقه حتى يكون ذلك أدعى للوفاء بمصالحه والتيسير بمقاصده .

وقال ابن حجر فى الفتح والمراد من ترك طريقتى وأخذ بطريقة غيرى فليس منى ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله ـ تعالى ـ وقد عابهم بأنهم ماوفوه بما التزموه ، وطريقة النبى ﷺ . الحنيفية السمحة فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة فيه . فمعنى ليس منى : أى على طريقتى ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة ، وإن كان إعراضا وتنطعا يفضى إلى اعتقاد أرجحية عمله.فمعنى ليس منى : ليس على ملتى ؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر ، وفى الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه ، وفيه تتبع أحوال الأكابر للتأسى بأفعالهم ؛ وأنه إذا تعذرت معرفته من الرجال جاز استكشافه من النساء ، وأن من عزم على عمل بر واحتاج إلى إظهاره حيث يأمن الرياء لم يكن ذلك ممنوعا ، وفيه تقديم الحمد والثناء على الله عند إلقاء

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ ص ٨٠ ولكن لفظه :
(تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاثة : تنكح المرأة على مالها ، وتنكح المرأة على جمالها ، وتنكح المرأة على دينها ، فخذ ذات الدين والخلق تربت يمينك)

(٢) من الأية ٣٢ من سورة النور

مسائل العلم وبيان الأحكام للمكلفين وإزالة الشبهة عن المجتهدين ، وأن المباحات قد تنقلب بالقصد إلى الكراهة والاستحباب ، وقال الطبرى : فيه الرد على من منع استعمالها الحلال من الأطعمة والملابس ، وآثر غليظ الثياب وخشن المآكل .

قال - تعالى - :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(١)

والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضى إلى الترفه والبطر ولا يأمن من الوقوع فى الشبهات ، كما أن الأخذ بالتشديد فى العبادة يفضى إلى الملل القاطع لأصلها وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلا ، وترك التنفل يفضى إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة ، وخير الأمور الوسط (إني لأخشاكم لله) إشارة إلى أن العلم بالله ومعرفة مايجب من حقه أعظم قدرا من مجرد العبادة البدنية .

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

(تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه(٢)

(تربت يداك) : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هى هنا دعاء عليه بالفقر . وقيل : بكثرة المال ، واللفظ مشترك بينهما قابل لكل منهما ، والآخر هنا أظهر ، ومعناه : اظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك ، وروى الأول عن الزهرى ، وأن النبى ﷺ إنما قال له ذلك لأنه رأى الفقر خيرا له من الغنى ، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ .

المعنى : - لأربع : لأربع خصال

لمالها : لوجود مال عندها فيستفيد الزوج منه .

قال فى العينى : لأنها إذا كانت صاحبة مال لا يلتزم زوجها بما لايطيق ولا تكلفه فى الإنفاق وغيره .

وقال المهلب : هذا دال على أن للزوج الاستمتاع بمالها فإنه يقصد لذلك ، فإن طابت به نفسا فهو له حلال وإن منعته فإنما له من ذلك بقدر مابذل من الصداق .

لحسبها : هو إخبار عن عادة الناس فى ذلك ، والحسب : مايعده الناس من مفاخر الآباء ، ويقال : الحسب فى الأصل : الشرف بالآباء وبالأقارب ، ويقال : الفعال الحسنة .

جمالها : لأن الجمال مطلوب فى كل شيء ولاسيما فى المرأة التى تكون قرينته وضجيعته .

لدينها : لاستقامتها وتعلقها بعمل الشرع ، ولأن بالدين يحصل خير الدنيا والآخرة ، واللائق بأرباب الديانات وذوى المروءات أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شيء ولاسيما فيما يدوم أمره ولذلك اختاره الرسول ﷺ بآكد وجه وأبلغه فأمره بالظفر الذى هو غاية البغية .

وقال الكرمانى : فاظفر : جزاء شرط محذوف ، أى : إذا تحققت تفضيلها فاظفر أيها المسترشد بها .

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأعراف

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الرضاع) باب استحباب نكاح ذات الدين ص ٣٤٣ رقم ٩٢٨ ، وفى سنن أبى داود فى (كتاب النكاح) باب : التحريض على النكاح ج ٢ ص ٢١٩ رقم ٢٠٤٧ إلا أنه قال : (تنكح النساء) ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج الزناة ج ٦ ص ٦٨ . والحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب النكاح) باب : تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٨ .

وقال القرطبى : هذه الخصال ترغب فى النكاح ، وظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أولى ، ولايظن أن هذه الأربع تؤخذ منها الكفاءة .

وقال المهلب : الأكفاء فى الدين هم المتشاكلون ، وإن كان فى النسب تفاضل بين الناس ، وقد نسخ الله ماكانت تحكم به العرب فى الجاهلية من شرف الأنساب بشرف الصلاح فى الدين . فقال ـ تعالى ـ :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

وقال مالك : الأكفاء فى الدين دون غيره ، والمسلمون أكفاء بعضهم لبعض ، فيجوز أن يتزوج العربى والمولى القرشية ، وعزم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يزوج ابنته من سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال ﷺ :

(يابنى بياضة : أنكحوا أبا هند) فقالوا : يارسول الله أنزوج بناتنا من موالينا ؟ فنزلت :

﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ـ الآية ﴾

رواه أبو داود[١]

وقال أبو حنيفة : قريش كلهم أكفاء بعضهم لبعض ، ولايكون أحد من العرب كفؤا لقرشى ولا أحد من الموالى كفؤا للعرب ، ولا يكون كفؤا من لايجد المهر والنفقة ، وفى التلويح احتج له بما رواه نافع عن مولاه مرفوعا : (قريش بعضها لبعض أكفاء إلا حائك أو حجام)

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ له (ياعلى ثلاث لاتؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤا)[٢] رواه العسكرى فى الأمثال ، والحاكم ، والبيهقى والترمذى .

● وروى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ : (من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ومن تزوجها لمالها لم يزدها الله إلا فقرا ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه) رواه الطبرانى فى الأوسط[٣] .

المعنى : ـ يبين ﷺ للمسلمين أن يتحروا الزوجة التقية النقية الطاهرة ذات الدين ، فطالب الزوجة لعزها أذله الله وأحوجه إليها ، وكذا طالب المال افتقر لمالها واحتاج إليه ، وذهب بهاؤه وقلت هيبته ، وكذا طالب الحسب أهين وضعف واحتقر ، إنما الأفضل لطالب العيش الرغد والحياة الزوجية السعيدة أن يطلب زوجة تزيده حصانة وورعا ، وتبعده عن المحارم والميل إلى الدنايا والتبرج ، وتعينه على بر أقاربه وصلة أهله ومودة رحمه ليضع الله البركة ويزيد فى النعم ويكثر نسلها ويمد بإحسانه وإنعامه .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب : فى الأكفاء ج ٢ ص ٢٣٣ رقم ٢١٠٢

(٢) انظر المستدرك للحاكم (كتاب النكاح) باب : تزوجوا الولود الودود ج ٢ ص ١٦٢ وقال : هذا حديث غريب صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

والترمذى فى (أبواب الصلاة) باب : ماجاء فى الوقت الأول من الفضل ج ١ ص ٣٢٠ رقم ١٧١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حسن . وقال الشيخ شاكر فى تعليقه على الحديث : وهذا حديث صحيح ورواته ثقات .

(٣) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب النكاح) باب : نية الزواج ج ٤ ص ٢٥٤ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب ، وهو ضعيف .

● وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لاتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل) رواه ابن ماجه(١)

المعنى : يرديهن : يوقعهن موقع الهلكة .

تطغيهن : تزيدهن تجبرا وتكبرا وطغيانا وفسوقا .

خرماء : مقتطعة الأطراف ، من خرمت الشيء خرما : ثقبته ، وخرمته : قطعته فانخرم ، وفى النهاية : رأيت رسول الله - ﷺ - يخطب الناس على ناقة خرماء ، أصل الخرم : الثقب والشق ، والأخرم : المثقوب الأذن ، والذى قطعت وترة أنفه أو طرفه شيئا لايبلغ الجدع ، وقد انخرم ثقبه : أى انشق ، فإذا لم ينشق ، فهو أخرم والأنثى خرماء .

● وعن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يارسول الله : إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لاتلد أفأتزوجها؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة - فقال له : (تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم) رواه أبو داود والنسائى .(٢)

* الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح *

قال الله - تعالى - :

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾(٣)

وقال - تعالى - :

﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾(٤) وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .

- وقال - تعالى - فى وصف الرسل ومدحهم :

﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية)(٥) فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .

وقال - تعالى - :

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾(٦) . سبحانه مدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء ، ويقال : إن الله - تعالى - لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا : إن يحيى ﷺ قد تزوج ولم يجامع ، قيل : إنما فعل ذلك لينال الفضل ، وإقامة السنة ،

---

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب النكاح) باب تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٩ قال فى الزوائد : فى إسناده الإفريقى ، وهو عبد الله بن زياد بن أنعم : ضعيف ، والحديث رواه ابن حبان فى صحيحه بإسناد آخر .

(٢) انظر سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ج ٢ ص ٢٢٠ رقم ٢٠٥٠ ، ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج العقيم ج ٦ ص ٦٥ ، ٦٦

(٣) من الآية ٣٣ من سورة النور

(٤) من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الرعد

(٦) الآية ٧٤ من سورة الفرقان

وقيل : لغض البصر ، وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

* فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب *

أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقى الله عزبا ، وفى تلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالى :

أ ـ موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

ب ـ محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

ج ـ طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

د ـ طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1]

رابعا : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى ، وتهيئة أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفريغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا .

وقال محمد بن كعب القرظى : فى معنى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ﴾[2]

قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية لأولاده . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة) رواه الطبرانى والبيهقى[3] .

قال بشر : فضل علىَّ أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره .

وقال ﷺ (ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته) .

---

(١) الاية ٢١ من سورة الروم

(٢) من الأية ٢٠١ من سورة البقرة

(٣) الحديث أورده الطبرانى فى المعجم الكبير ج ١١ ص ٣٣٧ رقم ١١٩٣٢ ولفظه : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين عاما »

وقال محققه : ورواه فى الأوسط ٢١٧ مجمع البحرين ، قال فى المجمع ج ٥ ص ١٩٧ وفيه (أى إسناد الكبير أسعد أبو غيلان الشيبانى) ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

* احذروا أيها الأزواج *

١ ـ العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه .

٢ ـ القصور عن القيام بحقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته ، قال ﷺ :

(كفى المرء إثما أن يضيع من يعول) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والطبرانى والحاكم والبيهقى[(١)]

وقال تعالى ـ : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾[(٢)] أمرنا أن نقيهم كما نقى أنفسنا

٣ ـ أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله ـ تعالى ـ وجاذبا إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ماشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه ، فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانستهن والإمعان فى التمتع بهن .

قال ابراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ : (من تعود أفخاذ النساء لم يجىء منه شىء)

وكان رسول الله ﷺ لعلو درجته لايمنعه هذا العالم عن حضور القلب مع الله ـ تعالى ـ فكان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته .

من حديث أنس : يا أم سلمة لاتؤذينى فى عائشة .

* النهى عن قرب الزنا *

١ ـ نهى القرآن الكريم عن قرب الزنا فقال : ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾[(٣)] ولما نهى عن قربه يكون قد نهى عنه من باب أولى ، وفى تحريم القرب تحذير من دواعى الزنا .

وكما وضع الطريقة المثلى لتصريف الغريزة منع من أى تصرف فى غير الطريق المشروع ؛ وحظر إثارة الغريزة بأية وسيلة من الوسائل حتى لاتنحرف عن المنهج المرسوم .

فنهى عن الاختلاط والرقص والصورة المثيرة والغناء الفاحش والنظر المريب ، وكل مامن شأنه أن يثير الغريزة أو يدعو إلى الفحش حتى لاتتسرب عوامل الضعف فى البيت والانحلال فى الأسرة .

٢ ـ واعتبر الزنا جريمة قانونية تستحق أقصى العقوبة لأنه وخيم العاقبة ومفض إلى الكثير من الشرور والجرائم ، فالعلاقات الخليعة والاتصال الجنسى غير المشروع مما يهدد المجتمع بالفناء والانقراض ، فضلا عن كونه من الرذائل المحقرة .

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[(٤)]

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : فى صلة الرحم ج ٢ ص ١٣٢ رقم ١٦٩٢ عن ابن عمرو . وفى صحيح مسلم فى (كتاب الزكاة) باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم ج ٢ ص ٦٩٢ بلفظ : (كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته) وانظر مسند الإمام أحمد (مسند ابن عمرو) ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ وأنظر المستدرك للحاكم (كتاب الزكاة) ج ١ ص ٤١٥ وأورده البيهقى فى (كتاب النفقات) من السنن الكبرى : باب فضل النفقة على الزوجة ج ٧ ص ٤٦٧ .

(٢) من الآية ٦ من سورة التحريم

(٣) من الآية ٣٢ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الإسراء

٣ ـ لأنه سبب مباشر فى انتشار الأمراض الخطيرة التى تفتك بالأبدان ، وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء ، وأبناء الأبناء ، كالزهرى والسيلان ، والقرحة .

٤ ـ وهو أحد أسباب جريمة القتل ؛ إذ أن الغيرة طبيعية فى الإنسان ، وقلما يرضى الرجل الكريم أو المرأة العفيفة بالانحراف الجنسى ، بل إن الرجل لايجد وسيلة يغسل بها العار الذى يلحقه ويلحق أهله إلا الدم .

٥ ـ والزنا يفسد نظام البيت ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه : التشرد والانحراف والجريمة .

٦ ـ وفى الزنا ضياع النسب وتمليك الأموال لغير أربابها عند التوارث .

٧ ـ وفيه تغرير بالزوج ؛ إذ أن الزنا قد ينتج عنه الحمل فيقوم الرجل بتربية غير ابنه .

٨ ـ إن الزنا علاقة مؤقتة لاتبعة وراءها ، فهو عملية حيوانية بحتة ينأى عنها الإنسان الشريف .

وجملة القول أنه قد ثبت علميا ثبوتا لامجال للشك فيه عظم ضرر الزنا ، وأنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد وانحطاط الآداب ومورث لأقتل الأدواء ، ومروج للعزوبة واتخاذ الخليلات ، ومن ثم كان أكبر باعث على الترف والسرف والعهر والفجور .

لهذا كله وغيره جعل الاسلام عقوبة الزنا أقسى عقوبة .

وإذا كانت هذه العقوبة تبدو قاسية فإن آثار الجريمة المترتبة عليها أشد ضررا على المجتمع .

والإسلام يوازن بين الضرر الواقع على المذنب والضرر الواقع على المجتمع ، ويقضى بارتكاب أخف الضررين ، وهذه هى العدالة .

ولاشك أن ضرر عقوبة الزانى لاتوزن بالضرر الواقع على المجتمع من إفشاء الزنا ورواج المنكر وإشاعة الفحش والفجور .

إن عقوبة الزنا إذا كان يضار بها المجرم نفسه فإن فى تنفيذها حفظ النفوس ، وصيانة الأعراض ، وحماية الأسر التى هى اللبنات الأولى فى بناء المجتمع ، وبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد .

إن الأمم بأخلاقها الفاضلة وبآدابها العالية ونظافتها من الرجس والتلوث وطهارتها من التدنى والتسفل .

على أن الإسلام ـ من جانب آخر ـ كما أباح الزواج أباح التعدد حتى يكون فى الحلال مندوحة عن الحرام ولكن لايبقى عذر لمقترف هذه الجريمة .

وقد احتاط فى تنفيذ هذه العقوبة بقدر ماأخاف الزناة وأرهبهم : ـ

١ ـ فمن الاحتياط أنه درأ الحدود بالشبهات ، فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة .

٢ ـ وأنه لابد فى إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عدول من الرجال فلا تقبل فيها شهادة النساء ولا شهادة الفسقة .

٣ ـ وأن يكون الشهود جميعا رأوا عملية الزنا نفسها كالميل فى المكحلة والرشاء فى البئروهذا مما يصعب ثبوته .

٤ ـ ولو فرض أن ثلاثة منهم شهدوا بهذه الشهادة وشهد الرابع بخلاف شهادتهم أو رجع أحدهم عن شهادته أقيم عليهم حد القذف .

فهذا الاحتياط الذى وضعه الإسلام فى إثبات هذه الجريمة . مما يدفع ثبوتها قطعا .
فهذه العقوبة هى إلى الإرهاب والتخويف أقرب منها إلى التحقيق والتنفيذ ، وقد يقول القائل :
إذا كان الحد مما يندر إقامته لتعذر ثبوت الأدلة . فلماذا إذن شرعه الإسلام ؟ !!
الجواب كما قلنا :
أن الإسلام إذا لاحظ قسوة الجريمة وضراوتها فإنه يعمل لها ألف حساب وحساب قبل أن تقترف .
فهذا نوع من الزجر بالنسبة لهذه الجريمة التى تجد من الحوافز والبواعث مايدفع إليها ولاسيما وأن الغريزة الجنسية من أعنف الغرائز إن لم تكن أعنفها على الإطلاق ، ومن المناسب أن يواجه عنف الغريزة عنف العقوبة فإن ذلك من عوامل الحد من ثورتها .
من أجل ماتقدم فقد أقام الإسلام أسوارا منيعة حول هذه المنطقة المحرمة لايستطيع أن يتسلقها إلا شيطان مارد من ذئاب البشر .
ومن هنا فقد نهى عن مقدمات الزنا ودواعيه :

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم ... وتجنبوا مالا يليق بمسلم
من يزن فى بيت بألفى درهم ... فى بيته يزنى بغير الدرهم
من يزن يزن به ولو بجداره ... إن كنت ياهذا لبيبا فافهم
إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
ياهاتكا ستر الرجال وقاطعا ... سبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حرا من سلالة طاهر ... ماكنت هتاكا لحرمة مسلم

البر لايبلى ، والذنب لاينسى ، والديان لايموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان .

* التحذير من النظرة وأخواتها *

● عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ يعنى عن ربه عز وجل : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه) رواه الطبرانى[1]

● وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه) رواه أحمد والطبرانى[2] إلا أنه قال : (ينظر إلى امرأة أول رمقة) والبيهقى قال : (إنما أراد إن صلح) - والله أعلم - أن يقع بصره عليها من غير

---

(١) هذا الحديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣
قال الهيثمى : رواه الطبرانى ، وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطى : وهو ضعيف .
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى إلا أنه قال : (ينظر إلى امرأة أول وقعة) وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك .
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند أبى أمامة) ج ٥ ص ٢٦٤

قصد فيصرف بصره عنها تورعا .

● وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله ، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله) رواه الأصبهانى[١] .

● وعن معاوية بن حيدة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (ثلاثة لاترى أعينهم النار : عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله) رواه الطبرانى[٢]

● وعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم) رواه أحمد[٣] .

المعنى

اصدقوا : قولوا الصدق وتحروا الحق الموافق للواقع والخبر الصحيح ،

أوفوا : أتموا الميعاد وحافظوا عليه .

أدوا الأمانة : راعوا الودائع .

احفظوا فروجكم : لاتفعلوا الفاحشة

غضوا : لاتنظروا إلى الأجنبيات .

كفوا : امنعوا أيديكم من الأذى والسرقة والتعدى .

● وعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال له :

(ياعلى إن لك كنزا فى الجنة ، **وإنك ذو قرنيها** ، فلا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة)[٤] رواه ابن أبى شيبة وأحمد والحكيم الترمذى والحاكم وأبو نعيم فى المعرفة عن على ـ رضى الله عنه .

المعنى : ـ الآخرة : إرسال النظرة الثانية واستمرار العين تتطلع .

قوله ﷺ لعلى : **وإنك ذو قرنيها** : أى ذو قرنى هذه الأمة وذاك لأنه كان له شجتان فى قرنى رأسه إحداهما من ابن ملجم ـ لعنه الله ـ والأخرى من عمرو بن ود ، وقيل معناه : إنك ذو قرنى الجنة ؛ أى : ذو طرفيها ومليكها الممكن فيها الذى يسلك جميع نواحيها .

---

(١) ذكره الأصبهانى فى الحلية فى ترجمة (صفوان بن سليم) ج ٣ ص ١٦٣ ثم قال : غريب من حديث صفوان ، وأبو سلمة تفرد به عمر بن صهبان .

(٢) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى فى (مرويات بهز عن حكيم عن أبيه عن جده) ج ١٩ ص ٤١٦ رقم ١٠٠٣ إلا أنه قال : (غضت عن محارم الله) بدل (كفت عن محارم الله)

(٣) وقال محققه : قال فى المجمع ٥ / ٢٨٨ : وفيه أبو حبيب العنقزى ويقال : القنوى ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبادة بن الصامت) ج ٥ ص ٣٢٣

(٤) انظر نوادر الأصول للحكيم الترمذى (الأصل الحادى والأربعين والمائتين فى فضيلة غض البصر) ص ٣٠٧ . وأنظر مجمع الزوائد (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى :
رواه أحمد ، وفيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات .
وأخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب معرفة الصحابة) ج ٣ ص ١٢٣ ثم قال :
هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

● وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال :
(العينان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج يزنى) رواه أحمد[1]

● وعن جرير ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظر الفجاءة فقال : (اصرف بصرك) رواه مسلم ،[2] والطيالسى وأحمد وأبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح ، والنسائى .

● وعن عبد الله ـ يعنى ابن مسعود رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (الاثم حواز القلوب ، ومامن نظرة إلا وشيطان فيها مطمع) رواه البيهقى .[3]

حواز القلوب ـ بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو ـ : وهو مايحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب مالايحسن .

وقيل : بتخفيف الواو وتشديد الزاى : جمع حازة ، وهى الأمور التى تحز فى القلوب وتحك وتؤثر ، وتتخالج فى القلوب ، أن تكون معاصى ، وهذا أشهر .

● وروى عن أبى أمامه ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال :
(لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكفن الله وجوهكم) رواه الطبرانى[4]

المعنى : لتمنعن عيونكم أن تنظر إلى محرم ولتبتعدن عن الفاحشة وإلا يغير الله معالمكم ويطمس على قلوبكم ويمسخكم ـ أيها الفسقة ، العصاة الفجرة ـ قال تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[5]

يغضوا : يمنعوا مايكون نحو محرم (إن الله خبير) لايخفى عليه إجالة أبصارهم ، واستعمال سائر حواسهم ، وتحريك جوارحهم ، ومايقصدون بها ، فليكونوا على حذر منه فى كل حركة وسكون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) ج ١ ص ٤١٢

(٢) روى الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الأداب) باب نظر الفجأة ج ٣ ص ١٦٩٩ رقم ٢١٥٩/٤٥ حديث جرير ولكن بلفظ : قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى . وانظر مسند أحمد (ومن حديث جرير بن عبد الله البجلى) ج ٤ ص٣٦١ وانظر مسند أبى داود الطيالسى (أحاديث جرير بن عبد الله البجلى) ج ٣ ص ٩٣ رقم ٦٧٢ ولفظ حديثه هنا : (عن جرير بن عبد الله البجلى قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظرة الفجأة ، فقال : « غض بصرك » وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : مايؤمر به من غض البصر ج ٢ ص ٢٤٦ رقم ٢١٤٨ ولفظه : « اصرف بصرك » . واخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الأدب) باب : ماجاء فى نظرة المفاجأة ج ٥ ص ١٠١ رقم ٢٧٧٦ من رواية جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى . وأنظر سنن البيهقى ج ٧ ص ٩٠ (كتاب النكاح) ـ باب ماجاء فى نظر الفجاءة .

(٣) الحديث فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) باب : غض البصر ج ٣ ص ٦٢ وقال المنذرى : رواه البيهقى وغيره ، ورواته لاأعلم فيهم مجروحا ، لكن قيل : صوابه الوقوف .

(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٤٦ رقم ٧٨٤٠ إلا أنه قال : (أو لتكفن وجوهكم) قال المحقق : قال فى المجمع ٨/٦٣ : وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك : قلت : وعبيد الله بن زحر مثله .

(٥) الأيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة النور .

(يغضضن) فلاينظرن إلى مالايحل لهن النظر إليه من الرجال . (ويحفظن فروجهن) بالتستر أو التحفظ عن الزنا ، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا .
(ولايبدين زينتهن) كالحلى والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها لمن لايحل أن تبدى له (إلا ماظهر منها) عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن فى سترها حجرا ، وقيل : المراد بالزينة : مواضعها ، على حذف المواضع أو مايعم المحاسن الخلقية والتزينية ، والمستثنى هو الوجه والكفان ؛ لأنها ليست بعورة ، **والأظهر** أن هذا فى الصلاة لا فى النظر فإن كل بدن الحرة عورة لايحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة . (وليضربن بخمرهن) سترا لأعناقهن (إلا لبعولتهن) فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكره . ا هـ : البيضاوى .
ـ وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :
(مامن صباح إلا وملكان يناديان : ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال) رواه ابن ماجه[1] .
● وروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد فقال النبى : (ياأيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد ، فإن بنى اسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا فى المساجد) رواه ابن ماجه[2]
والتبختر : المشى خيلاء
● وعن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ .. قال :
(إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو؟ قال : الحمو الموت) رواه البخاري ومسلم والترمذى[3]
المعنى : قد يكون الهلاك مع أقارب الزوجة لتيسر وجودهم مع المرأة ، والقرابة تدعو إلى الاختلاط مع الطمأنينة ، ويؤتى الحذر من مكمنه : والحمو : أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن اخيه وابن عمه ونحوهم .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : فتنة النساء ج ٢ ص ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٩
قال فى الزوائد : فى إسناده خارجة بن مصعب ، وهو ضعيف .
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الفتن) باب فتنة النساء ج ٢ ص ١٣٢٦ رقم ٤٠٠١
قال فى الزوائد : فى إسناده داود بن مدرك ، قال فيه الذهبى فى كتاب الطبقات : نكرة لايعرف .. وموسى بن عبيدة ، ضعيف .
(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب السلام) باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ص ٥٦٢ رقم ١٤٠٣
وفى الترمذى فى (كتاب الأدب) باب ماجاء فى النهى عن الدخول على النساء إلا بإذن الأزواج ج ٥ ص ١٥٢ ورد حديث مولى لعمرو بن العاص فى الاستئذان من على ـ رضى الله عنه ـ فى الدخول على أسماء بنت عميس ، وقال عمرو بن العاص : إن رسول الله ـ ﷺ نهانا أن ندخل على النساء بغير إذن أزواجهن .
قال الترمذى : وفى الباب عن عقبة بن عامر ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر .
وانظر سنن البيهقى (كتاب النكاح) باب : لايخلو رجل بامرأة أجنبية ج ٧ ص ٩٠

ومعنى : (الحمو الموت) : أى : الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وقد يكون المراد أيضا بالحمو : أقارب الزوج (غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها) مثل الأخ وابن الأخ والعم وأبنائه ونحوهم .

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال :

(لايخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم) رواه البخارى ومسلم .(١)

ذو محرم : من لايحل له نكاحها من الأقارب كالأب والابن والأخ والعم ومن يجرى مجراهم .

● وعن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لاتحل له) رواه الطبرانى(٢)

(والله لأن يطعن رأس أحدكم بسلاح حاد أهون عقابا وأيسر عذابا من لمس امرأة أجنبية)

المخيط - بكسر الميم وفتح الياء - هو مايخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهما

- وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :

(إياك والخلوة بالنساء والذى نفسى بيده ماخلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ، ولأن يزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لاتحل له) رواه الطبرانى(٣)

المعنى : منكب الشخص : مجتمع رأس العضد والكتف ، لأنه يعتمد عليه ، من نكب عن الطريق : عدل ومال ، ونكب على القوم نكابة - بالكسر - فهو منكب مثل مجلس وهو عون العريف .

يطلب النبى - ﷺ - من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات خشية إفساد الشيطان وإضلاله ، ورجاء العصمة والابتعاد عن الغواية والوقوع فى المكاره ، ثم يقسم - ﷺ - بالقاهر القادر الذى بيده تصاريف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة تجعل للشيطان ميدانا واسعا يمرح فيه بالتحدث بالوقوع فى المعاصى ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة والاحتكاك بها ، لقد صدق رسول الله - ﷺ - فإن الحوادث الآن تنبىء بالقتل والانتحار من جراء مزاحمة الأجنبيات والاختلاط بهن بلا نكاح شرعى ، نسأل الله السلامة ، قال - تعالى - : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾(٤)

وقال - تعالى - : ﴿ **ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٥)

(ولا تقف) : ولا تتبع مالم يتعلق به علمك تقليدا أو رجما بالغيب ، قال البيضاوى : أى كل هذه

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الحج) باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره ص ٣١٠ رقم ٨٥٠ ولفظه : (لايخلو رجل بإمرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم) فقام رجل فقال : يارسول الله : اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، وخرجت امرأتى حاجة ، قال : (اذهب فحج مع امرأتك)

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٢٦ فى (كتاب النكاح) باب النهى عن الخلوة بغير محرم وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (كتاب النكاح) باب النهى عن الخلوة بغير محرم ج ٤ ص ٣٢٦ ثم قال : رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو ضعيف جدا وفيه توثيق .

(٤) الآية ٥٢ من سورة النور

(٥) الآية ٣٦ من سورة الإسراء

الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها ، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية . أ هـ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[1]

(نختم) : نمنعها عن الكلام (يكسبون) بظهور آثار المعاصى عليها ودلالتها على أفعالها وإنطاق الله إياها .

والآن ننتقل إلى الحديث عن جريمة الزنا كما جاء فى أقوال الفقهاء :

الزنا الموجب للحد

إن كل اتصال جنسى قائم على أساس غير شرعى يعتبر زنا تترتب عليه العقوبة المقررة من حيث إنه جريمة من الجرائم التى حددت عقوباتها .

ويتحقق الزنا الموجب للحد بتغييب الحشفة ـ أو قدرها من مقطوعها ـ فى فرج محرم مشتهى بالطبع من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال .

فإذا كان الاستمتاع بالمرأة الأجنبية فيما دون الفرج فإن ذلك لايوجب الحد المقرر لعقوبة الزنا وإن اقتضى التعزير .

فعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال :

إنى عالجت امرأة من أقصى المدينة فأصبت منها ، دون أن أمسها ، فأنا هذا ، فأقم على ماشئت .

فقال عمر :

سترك الله لو سترت على نفسك . فلم يرد عليه النبى ﷺ شيئا ، فانطلق الرجل ، فأتبعه النبى ـ ﷺ ـ رجلا فدعاه فتلا عليه :

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)

فقال له رجل من القوم : يارسول الله أله خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : (للناس عامة) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .[2]

أقسام الزناة :

الزانى إما أن يكون بكرا أو محصنا ، ولكل منهما حكم يخصه .

حد البكر :

اتفق الفقهاء على أن البكر الحر إذا زنى فإنه يجلد مائة جلدة سواء فى ذلك الرجال والنساء ،

---

(١) الآية ٦٥ من سورة يس

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : إن الحسنات يذهبن السيئات ج ٤ ص ٢١١٦ رقم ٢٧٦٣/٤٢ والآية هى رقم ١١٤ من سورة هود

وأنظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب فى الرجل يصيب من المرأة دون الجماع فيتوب قبل أن يأخذه الإمام ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٤٤٦٨

وفى جامع الترمذى فى (أبواب تفسير القرآن) باب : ومن سورة هود ج ٤ ص ٣٥٢ رقم ٥١١٣

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

لقول الله ـ سبحانه ـ فى سورة النور : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[١]

الجمع بين الجلد والتغريب :

والفقهاء وإن اتفقوا على وجوب الجلد فإنهم قد اختلفوا فى إضافة التغريب إليه :

(١) قال الشافعى وأحمد : يجمع إلى الجلد التغريب مدة عام لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وزيد بن خالد أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله أنشدك الله إلا قضيت لى بكتاب الله ، وقال الخصم الآخر ـ وهو أفقه منه ـ : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (قل) قال : إن ابنى كان عسيفا (أجيرا) على هذا فزنى بأمرأته وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ؛ فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

(والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام)

واغد ياأنيس (رجل من أسلم) إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها .

قال : فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله ـ ﷺ ـ فرجمت .[٢]

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وإقامة الحد عليه .[٣]

وأخرج مسلم عن عبادة بن الصامت أن الرسول ـ ﷺ ـ قال :

(خذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[٤] .

واختلف العلماء فى تنزيل هذا الكلام ووجه ترتيبه على الآية ، وهل هو ناسخ للآية أو مبين لها ؟

فذهب بعضهم إلى النسخ ، وهذا قول من يرى نسخ الكتاب بالسنة وقال آخرون : بل هو مبين للحكم الموعود بيانه فى الآية ، فكأنه قال : عقوبتهن الحبس إلى أن يجعل الله لهن سبيلا فوقع الأمر بحبسهن إلى غاية .

فلما انتهت مدة الحبس وحان وقت مجىء السبيل قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (خذوا عنى خذوا عنى) إلى آخره .. تفسيرا للسبيل وبيانه .

ولم يكن ذلك ابتداء حكم منه ، وإنما هو بيان أمر كان ذكر السبيل منطويا عليه فأبان المبهم منه

---

(١) الاية ٢ من سورة النور

(٢) الحديث فى صحيح البخارى طبع الشعب فى (كتاب الشهادات) باب ماجاء فى الإصلاح بين الناس ج ٣ ص ٢٤١ : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود .
وانظر صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ج ٣ ص ١٣٢٥ رقم ٢٥ / ١٦٩٧ ـ ١٦٩٨ .

(٣) أنظر صحيح البخارى طبع الشعب (كتاب الشهادات) باب : شهادة القاذف والسارق والزانى .. الخ ج ٣ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب الحدود) باب حد الزنا ج ٣ ص ١٣١٦ رقم ١٢ / ١٦٩٠ .

وفصل المجمل من لفظه ، فكان نسخ الكتاب بالكتاب لا بالسنة وهذا أصوب القولين ـ والله أعلم .

وقد أخذ بالتغريب الخلفاء الراشدون ولم ينكره أحد ، فالصديق ـ رضى الله عنه ـ غرب إلى فدك ، والفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى الشام ، وعثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى مصر ، وعلى ـ رضى الله عنه ـ إلى البصرة .

والشافعية يرون أنه لاترتيب بين الجلد والتغريب فيقدم ماشاء منهما ، واشترط فى التغريب أن يكون إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ؛ لأن المقصود به الإيحاش عن أهله ووطنه ، وما دون مسافة القصر فى حكم الحضر ، فإن رأى الحاكم تغريبه إلى أكثر من ذلك فعل .

وإذا غربت المرأة فإنها لاتغرب إلا بمحرم أو زوج ، فلو لم يخرج إلا بأجرة لزمت وتكون من مالها .

(٢) وقال مالك والأوزاعى : يجب تغريب البكر الحر الزانى دون المرأة البكر الحرة الزانية فإنها لاتغرب ؛ لأن المرأة عورة

(٣) وقال أبو حنيفة : لايضم إلى الجلد التغريب إلا أن يرى الحاكم ذلك مصلحة فيغربهما على قدر مايرى .

حد المحصن :

وأما المحصن الثيب فقد اتفق الفقهاء على وجوب رجمه إذا زنى حتى يموت ـ رجلا كان أو امرأة ـ واستدلوا بما يأتى :

(١) عن أبى هريرة قال : أتى رجل لرسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى المسجد ، فناداه فقال : يارسول الله : إنى زنيت ، فأعرض عنه ، ردد عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى ـ ﷺ ـ

فقال : (أبك جنون ؟) قال : لا , قال : (فهل أحصنت ؟) قال : نعم , فقال النبى ـ ﷺ ـ : (اذهبوا به فارجموه)

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه . متفق عليه[1] .

وهو دليل على أن الإحصان يثبت بالإقرار مرة ، وأن الجواب بنعم إقرار

(٢) وعن ابن عباس قال : خطب عمر فقال :

(إن الله ـ تعالى ـ بعث محمدا ـ ﷺ ـ بالحق .

وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ـ ﷺ ـ ورجمنا ، وإنى خشيت إن طال زمان أن يقول قائل : مانجد الرجم فى كتاب الله ـ تعالى ـ فيضلون بترك فريضة أنزلها الله ـ تعالى ـ فالرجم حق على من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ رقم ١١٠٢

وايم الله لولا أن يقول الناس : (زاد عمر فى كتاب الله - تعالى - لكتبتها)
رواه الشيخان وأبو داود والنسائى[١] .

وفى نيل الأوطار :

أما الرجم فهو مجمع عليه ، وحكى فى البحر عن الخوارج أنه غير واجب ، وكذلك حكاه عنهم أيضا ابن العربى . وحكاه أيضا عن بعض المعتزلة كالنظام وأصحابه ولا مستند لهم ، إلا أنه لم يذكر فى القرآن ، وهذا باطل .

● إنه قد ثبت بالسنة المتواترة المجمع عليها وهو أيضا ثابت بنص القرآن لحديث عمر عند الجماعة أنه قال :

كان مما أنزل على رسول الله - ﷺ - آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده .

ونسخ التلاوة لايستلزم نسخ الحكم كما أخرج أبو داود من حديث ابن عباس .

وقد أخرج أحمد والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة بن سهل عن خالته العجماء أن فيما أنزل الله من القرآن :

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة)[٢]

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بن كعب بلفظ :

(كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة وكان فيها آية (الشيخ والشيخة) الخ الحديث[٣] .

شروط الإحصان :

يشترط فى المحصن الشروط الآتية :

(١) التكليف : أى أن يكون الواطىء عاقلا بالغا ، فلو كان مجنونا أو صغيرا فإنه لايحد ولكن يعزر .

(٢) الحرية : فلو كان عبدا أو أمة فلا رجم عليهما لقول الله سبحانه - فى حد الإماء : ﴿ **فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾[٤] والرجم لايتجزأ .

(٣) الوطء فى نكاح صحيح : أى أن يكون الواطىء قد سبق له أن تزوج زواجا صحيحا ووطىء فيه ولو لم ينزل ، ولو كان فى حيض أو إحرام يكفى ، فإن كان الوطء فى نكاح فاسد فإنه لايحصل به الإحصان ، ولا يلزم بقاء الزواج لبقاء صيغة الإحصان ، فلو تزوج مرة زواجا صحيحا ودخل بزوجته ثم انتهت العلاقة الزوجية ثم زنى وهو غير متزوج فإنه يرجم ، وكذلك المرأة إذا تزوجت ثم طلقت

---

(١) ورد هذا الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الحدود) باب : رجم الثيب فى الزنا ص ٤٢٢ رقم ١١٠١

وانظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : فى الرجم ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٥ رقم ٤٤١٨

وأخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى تحقيق الرجم ج ٤ ص ٣٨ ، ٣٩ رقم ١٤٣٢

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وروى من غير وجه عن عمر - رضى الله عنه .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الحدود) باب : نزول الحدود وماكان قبل ذلك ج ٦ ص ٢٦٥ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) ترتيب ابن بلبان الفارسى فى (كتاب الحدود) باب ذكر الأمر بالرجم للمحصنين إذا زنيا .. الخ ج ٦ ص ٣٠٢ حديث رقم ٤٤١٢

(٤) من الآية ٢٥ من سورة النساء

فزنت بعد طلاقها فإنها تعتبر محصنة فترجم .

المسلم والكافر سواء :

وكما يجب الحد على المسلم إذا ثبت منه الزنا فإنه يجب على الذمى والمرتد ،

لأن الذمى قد التزم الأحكام التى تجرى على المسلمين ، وقد ثبت أن النبى - ﷺ - رجم يهوديين زنيا وكانا محصنين .

وأما المرتد فإن جريان أحكام الإسلام تشمله ، ولا يخرجه الارتداد عن تنفيذها عليه .

عن ابن عمر : (أن اليهود أتوا النبى - ﷺ - برجل وامرأة منهم قد زنيا .

فقال : ماتجدون فى كتابكم .

فقالوا : تسخم وجوههما ويخزيان .

قال : كذبتم إن فيها الرجم (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)

وجاءوا بقارىء لهم فقرأ حتى إذا أنتهى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا هى تلوح . فقال - أو قالوا - : يامحمد ، (إن فيها الرجم ، ولكننا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرجما . قال : فلقد رأيته يجنأ عليها يقيها الحجارة بنفسه)[1]

رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية أحمد : (بقار لهم أعور يقال له ابن صوريا)

وعن جابر بن عبد الله قال : رجم النبى - ﷺ - رجلا من أسلم ورجلا من اليهود . رواه أحمد ومسلم[2]

● وعن البراء بن عازب قال :

(مر على النبى - ﷺ - يهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال :

أهكذا تجدون حد الزنا فى كتابكم ؟ . . قالوا : نعم . . فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟

قال : لا . . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك بحد الرجم ، ولكن كثر فى أشرافنا ، وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيعفجعلنا التحميموالجلد ، مكان الرجم .

فقال النبى ﷺ :

(اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم ، فأنزل الله - عز وجل - :

(ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) إلى قوله .

(إن أوتيتم هذا فخذوه)[3]

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان (كتاب الحدود) باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا ص ٤٢٤ رقم ١١٠٤

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا ج ٣ ص ١٣٢٨ رقم ٢٨م/١٧٠١ وتمام الحديث : (رجم النبى - ﷺ - رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود وامرأته) وفى رواية : (وامرأة)

(٣) من الاية ٤١ من سورة المائدة .

يقولون : (ائتوا محمدا ؛ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا)

فأنزل الله - تبارك وتعالى - :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾

قال : هى فى الكفارة كلها

رواه أحمد ومسلم وأبو داود[1] .

رأى الفقهاء : حكى صاحب البحر الإجماع على أنه يجلد الحربى

وأما الرجم فذهب الشافعى وأبو يوسف والقاسمية إلى أنه يرجم المحصن من الكفار إذا كان بالغا ، عاقلا ، حرا ، وكان أصاب نكاحا فى اعتقاده .

وذهب أبو حنيفة ومحمد وزيد بن على والناصر والإمام يحيى : إلى أنه يجلد ولا يرجم ؛ لأن الإسلام شرط فى الإحصان عندهم . ورجم رسول الله - ﷺ - لليهوديين إنما كان بحكم التوراة التى يدين بها اليهود .

وقال الإمام يحيى : والذمى كالحربى فى الخلاف .

وقال مالك : لاحد عليه .

وأما الحربى المستأمن فذهبت العترة والشافعى وأبو يوسف إلى أنه يحد ، وذهب مالك وأبو حنيفة ومحمد : إلى أنه لايحد .

وقد بالغ ابن عبد البر فنقل الاتفاق على أن شرط الإحصان الموجب للرجم هو الإسلام .

وتعقب بأن الشافعى وأحمد لايشترطان ذلك .

ومن جملة من قال بأن الاسلام شرط : ربيعة - شيخ مالك - وبعض الشافعية .

الجمع بين الجلد والرجم : -

ذهب ابن حزم وإسحق بن راهويه ومن التابعين الحسن البصرى :

إلى أن المحصن يجلد مائة جلدة ، ثم يرجم حتى يموت فيجمع له بين الجلد والرجم . واستدلوا بما رواه عبادة بن الصامت أن رسول الله - ﷺ - قال : (خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) رواه مسلم وأبو داود ، والترمذى[2]

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٠
والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى رجم اليهوديين ج ٤ ص ١٥٤ رقم ٤٤٤٨
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند البراء بن عازب) ج ٤ ص ٢٨٦

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ١٨٨ ، ١٩٠ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى الرجم ج ٤ ص ١٤٤ رقم ٤٤١٥
والحديث فى الجامع الصحيح للترمذى فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى الرجم على الثيب ج ٤ ص ٤١ رقم ١٤٣٤
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه جلد شراحة يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة .
فقال : أجلدها بكتاب الله ، وأرجمها بقول رسول الله ـ ﷺ .
وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى : لايجتمع الجلد والرجم عليهما ، وإنما الواجب الرجم خاصة .
وعن أحمد . روايتان .
إحداهما : يجمع بينهما . وهى أظهر الروايتين واختارها الخزقى :
والأخرى : لايجمع بينهما ؛ لمذاهب الجمهور ـ واختارها ابن حامد .
واستدلوا بأن النبى ـ ﷺ ـ رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلد واحدا منهما .
وقال لأنيس الأسلمى : (فإن اعترفت فارجمها) ولم يأمر بالجلد وهذا آخر الأمرين .
لأن أبا هريرة قد رواه ـ وهو متأخر فى الإسلام ـ فيكون ناسخا لما سبق من الحدين ـ الجلد والرجم ـ ثم رجم الشيخان أبو بكر وعمر فى خلافتهما ولم يجمعا بين الجلد والرجم .
ويرى الشيخ الدهلوى عدم التعارض ، وأنه لاناسخ ولا منسوخ وإنما الأمر يفوض إلى الحاكم قال :
الظاهر عندى أنه يجوز للإمام (الحاكم) أن يجمع بين الجلد والرجم ، ويستحب له أن يقتصر على الرجم لاقتصار النبى ـ ﷺ ـ عليه .
والحكمة فى ذلك أن الرجم عقوبة تأتى على النفس ، فأصل الزجر المطلوب حاصل به ، والجلد زيادة عقوبة مرخص فى تركها فهذا هو وجه الاقتصار على الرجم عندى .

شروط الحد : ـ يشترط فى إقامة حد الزنا مايلى :

١ ـ العقل
٢ ـ البلوغ
٣ ـ الاختيار
٤ ـ العلم بالتحريم

فلا حد على صغير ولا على مجنون ولا مكره : لما روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل)[1]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب : طلاق المعتوه والصغير والنائم ج ١ ص ٦٥٨ رقم ٢٠٤١ وزاد : قال أبو بكر فى حديثه : « وعن المبتلى حتى يبرأ »
وانظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : فى المجنون يسرق أو يصيب حدا ج ٤ ص ٥٥٨ رقم ٤٣٩٨ وفى الباب عن ابن عباس ، وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ
وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) ج ٦ ص ١٠٠ بلفظه ، وقال : وقد قال حماد : (وعن المعتوه حتى يعقل)
وأورد الترمذى حديث على ج ٢ ص ٤٣٨ رقم ١٤٤٦ فى (أبواب الحدود) باب ماجاء فيمن لا يجب عليه الحد ، ثم قال : وفى الباب عن عائشة
وانظر المستدرك للحاكم (كتاب البيوع) ج ٢ ص ٥٩ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين وحسنه الترمذى ،

وأما العلم بالتحريم فلأن الحد يتبع اقتراف الحرام وهو غير مقترف له ، وراجع النبى - ﷺ - ماعزا ، فقال له : هل تدرى ما الزنا ؟

وروى أن جارية سوداء رفعت إلى عمر - رضى الله عنه - وقيل : إنها زنت ، فخفقها بالدرة خفقات وقال :

(أى : لكاع .. زنيت ؟ .. فقالت : من غوش بدرهمين

فقال عمر : ماترون ؟ .. وعنده على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف .

فقال على - رضى الله عنه - : أرى أن ترجمها .

وقال عبد الرحمن : أرى مثل مارأى أخوك ..

فقال عثمان : أراها تستسهل بالذى صنعت ، لاترى به بأسا ، وإنما حد الله على من علم أمر الله - عز وجل - فقال : صدقت .

بم يثبت الحد :

يثبت الحد بأحد أمرين .

الإقرار ، أو الشهود .

ثبوته بالإقرار : -

أما الإقرار فهو كما يقولون « سيد الأدلة » وقد أخذ الرسول - ﷺ - باعتراف ماعز والغامدية ولم يختلف فى ذلك أحد من الأئمة ، وإن كانوا قد اختلفوا فى عدد مرات الإقرار الذى يلزم به الحد .

فقال مالك والشافعى ، وداود ، والطبرى ، وأبو ثور : يكفى فى لزوم الحد اعترافه به مرة واحدة ، لما رواه أبو هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله - ﷺ - قال :

(اغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها)

فاعترفت ؛ فرجمها ، ولم يذكر عددا .

وعند الأحناف : أنه لابد من أقارير أربعة مرة بعد مرة فى مجالس متفرقة .

ومذهب أحمد وإسحاق مثل الأحناف ، إلا أنهم لايشترطون المجالس المتفرقة ، والمذهب الأول هو الأرجح .

الرجوع عن الإقرار يسقط الحد : -

ذهبت الشافعية ، والحنفية ، وأحمد إلى أن الرجوع عن الإقرار يسقط الحد لما رواه أبو هريرة عند أحمد والترمذى .

(أن ماعزا لما وجد مس الحجارة يشتد فرحتى مر برجل معه لحى جمل (عظم الحنك) فضربه به وضربه الناس حتى مات . فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : (هلا تركتموه !!)[1]

قال الترمذى : إنه حديث حسن .

وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة .. انتهى

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب الحدود) باب ماجاء فى درء الحد عن المعترف إذا رجع ج ٢ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ رقم ١٤٥٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن

وأخرج أبو داود والنسائى من حديث جابر نحوه ، وزاد : (إنه لما وجد مس الحجارة صرخ : ياقوم ردونى إلى رسول الله - ﷺ - فإن قومى قتلونى وغرونى من نفسى وأخبرونى أن رسول الله غير قاتلى .

فلم ننزع عنه حتى قتلناه ، فلما رجعنا إلى رسول الله - ﷺ - وأخبرناه قال : (فهلا تركتموه وجئتمونى به !! ؟)[١] .

من أقر بزنا امرأة فجحدت : -

إذا أقر الرجل بزنا امرأة معينة فجحدت فإنه يقام عليه الحد وحده ، ولا تحد هى لما رواه أحمد وأبو داود عن سهل بن سعد : أن رجلا جاء إلى النبى - ﷺ - فقال : إنه قد زنى بامرأة سماها ، فأرسل النبى - ﷺ - إلى المرأة فدعاها فسألها فأنكرت ، فحده وتركها)[٢]

وهذا الحد هو حد الزنا الذى أقربه ، لاحد قذف المرأة كما ذهب إليه مالك والشافعى .

وقال الأوزاعى وأبو حنيفة : يحد للقذف فقط لأن إنكارها شبهة واعترض على هذا الرأى بأن إنكارها لايبطل إقراره .

وذهبت الهادوية ومحمد ويروى عن الشافعى أنه يحد للزنا والقذف ؛ لما رواه أبو داود والنسائى عن ابن عباس :

أن رجلا من بكر بن ليث أتى النبى - ﷺ - فأقر أنه زنى بامرأة أربع مرات ، فجلده مائة - وكان بكرا - ثم سأله البينة على المرأة فقالت : كذب يارسول الله ؛ فجلده حد الفرية ثمانين [٣]

ثبوته بالشهود : - الاتهام بالزنا سىء الأثر فى سقوط الرجل والمرأة ، وضياع كرامتها وإلحاق العار بهما وبأسرتهما وذريتهما ، ولهذا شدد الإسلام فى إثبات هذه الجريمة حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء - جزافا أو لأدنى حزازة - بعار الدهر وفضيحة الأبد ، فاشترط فى الشهادة على الزنا الشروط الآتية :

أولا : - أن يكون الشهود أربعة - بخلاف الشهادة على سائر الحقوق - قال الله تعالى - :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾

ولقوله : -

﴿ والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾

فإن كانوا أقل من أربعة لم تقبل .

وهل يحدون إذا شهدوا : -

---

(١) وقد أورد أبو داود حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - فى (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٧٦ رقم ٤٤٢٠ ثم قال جابر لسائله : ليستثبت رسول الله - ﷺ - منه ، فأما لترك حد فلا .
قال السائل : فعرفت وجه الحديث .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (حديث أبى مالك سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه) ج ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٨٦ رقم ٤٤٣٧

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : إذا أقر الرجل بالزنا ولم تقر المرأة ج ٤ ص ٦١١ رقم ٤٤٦٧
قال المحقق : ونسبه المنذرى للنسائى ، وقال - أى : النسائى - : هذا حديث منكر

قال الأحناف ، ومالك ، والراجح من مذهب الشافعى وأحمد : نعم .. لأن عمر حد الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة . وهم : أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد .
وقيل : لايحدون حد القذف ؛ لأن قصدهم أداء الشهادة لاقذف المشهود عليه . وهو المرجوح عند الشافعية والحنفية ومذهب الظاهرية .
باللفظ الصريح لايكنى . قال : نعم .. قال : كما يغيب المرود فى المكحلة والرشا فى البئر ؟ .
قال : نعم .. »
وإنما أبيح النظر فى هذه الحالة للحاجة إلى الشهادة ، كما أبيح للطبيب والقابلة ونحوهما .
ثانيا : التصريح : وأن يكون التصريح بالإيلاج لا بالكناية
ثالثا : اتحاد المجلس : ويرى جمهور الفقهاء أن من شرط هذه الشهادة اتحاد المجلس بألا يختلف فى الزمان ولا فى المكان ، فإن جاءوا متفرقين لاتقبل شهادتهم .
ويرى الشافعية والظاهرية ، والزيدية عدم اشتراط هذا الشرط ، فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين فى مجلس واحد أو فى مجالس متفرقة ؛ فإن شهادتهم تقبل ؛ لأن الله - تعالى - ذكر الشهود ولم يذكر المجلس ، ولأن كل شهادة مقبولة تقبل إن اتفقت ، ولو تفرقت فى المجالس ، كسائر الشهادات .
رابعا : الذكورة : ويشترط فى شهود الز نى أن يكونوا جميعا من الرجال ، ولا تقبل شهادة النساء فى هذا الباب .
ويرى ابن حزم أنه يجوز أن يقبل فى الزنا شهادة امرأتين مسلمتين عدلين مكان كل رجل . فيكون الشهود ثلاثة رجال وامرأتين - أو رجلين وأربع نسوة - أو رجلا واحدا وست نسوة - أو ثمانى نسوة لارجال معهن .
: - عدم التقادم : لقول عمر - رضى الله عنه - : أيما قوم شهدوا على حد لم يشهدوا عند حضوره فإنما شهدوا عن ضغن ولا شهادة لهم .
فإذا شهد الشهود على حادث الزنا بعد أن تقادم فإن شهادتهم لاتقبل عند الأحناف ، ويحتجون لهذا بأن الشاهد إذا شهد الحادث فخير بين أداء الشهادة حسبة ، وبين التستر على الجانى ، فإذا سكت عن الحادث حتى قدم عليه العهد دل ذلك على اختيار جهة الستر ، فإذا شهد بعد ذلك فهو دليل على أن الضغينة هى التى حملته على الشهادة . ومثل هذا لاتقبل شهادته للتهمة والضغينة ، كما قال عمر ، ولم ينقل أن أحدا أنكر عليه هذا القول ، فيكون إجماعا .
وهذا مالم يكن هناك عذر يمنع الشاهد من تأخير الشهادة ، فإن كان هناك عذر ظاهر فى تأخير الشهادة كبعد المسافة عن محل التقاضى ، وكمرض الشاهد ونحو ذلك من الموانع فإن الشهادة تقبل حينئذ ولاتبطل بالتقادم .
والأحناف الذين قالوا بهذا الشرط لم يقدروا له أمدا ؛ بل فوضوا الأمر للقاضى يقدره تبعا لظروف كل حالة لتعذر التوقيت ، نظرا لاختلاف الأعذار .
وبعض الأحناف قدر التقادم بشهر ، وبعضهم قدره بستة أشهر .
أما جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والظاهرية .. والشيعة والزيدية . فإن التقادم عندهم

لايمنع من قبول الشهادة مهما كانت متأخرة .

وللحنابلة رأيان : رأى مثل أبى حنيفة ، ورأى مثل الجمهور .

هل يثبت الحد بالحبل ؛

ذهب الجمهور إلى أن مجرد الحبل لايثبت به الحد ، بل لابد من الاعتراف أو البينة . واستدلوا على هذا بالأحاديث الواردة فى درء الحدود بالشبهات .

وعن على أنه قال لامرأة حبلى :

(أستكرهت ؟؟؟ قالت : لا .. قال : فلعل رجلا أتاك فى نومك ..)

قالوا : وروى الأثبات عن عمر أنه قبل قول امرأة ادعت أنها ثقيلة النوم وأن رجلا طرقها ولم تدر من هو بعد .

وأما مالك وأصحابه فقالوا :

إذا حملت المرأة ولم يعلم لها زوج ولم يعلم أنها أكرهت فإنها تحد ،

قالوا : فإن ادعت الإكراه فلابد من الإتيان بأمارة تدل على استكراهها مثل أن تكون بكرا فتأتى وهى تدمى ، أو تفضح نفسها بأثر الاستكراه .

وكذلك إذا ادعت الزوجية فإن دعواها لاتقبل إلا أن تقيم على ذلك البينة .

واستدلوا لمذهبهم بقول عمر :ـ

الرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا كانت بينة أو الحمل أو الاعتراف .

وقال على : (يأيها الناس إن الزنا زنيان : زنا سر وزنا علانية ، فزنا السر أن يشهد الشهود . فيكون الشهود أول من يرى .

وزنا العلانية أن يظهر الحبل ، والاعتراف) .

قالوا : هذا قول الصحابة ولم يظهر لهم مخالف فى عصرهم فيكون إجماعا .

سقوط الحد بظهور مايقطع بالبراءة :ـ

إذا ظهر بالمرأة أو بالرجل مايقطع بأنه لم يقع من أحد منهما زنا ؛ كأن تكون المرأة عذراء لم تفض بكارتها ، أورتقاء مسدودة الفرج . أو يكون الرجل مجبوبا أو عنينا سقط الحد .

وقد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عليا لقتل رجل كان يدخل على إحدى النساء ، فذهب فوجده يغتسل فى ماء فأخذ بيده فأخرجه من الماء ليقتله فرآه مجبوبا فتركه ورجع إلى النبى ـ ﷺ ـ وأخبره بذلك .

الولد يأتى لستة أشهر :ـ

إذا تزوجت المرأة وجاءت بولد لستة أشهر منذ تزوجت فلا حد عليها .

قال مالك : بلغنى أن عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت فى ستة أشهر فأمر بها أن ترجم ، فقال له على بن أبى طالب : ليس ذلك عليها ، إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾

وقال :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾

فالحمل يكون بستة أشهر ، فلا رجم عليها ، فبعث عثمان فى أثرها فوجدها قد رجمت .

وقت إقامة الحد :

قال فى بداية المجتهد : -

وأما الوقت فإن الجمهور على أنه لايقام فى الحر الشديد ولا فى البرد ، ولايقام على المريض .

وقال قوم : يقام - وبه قال أحمد وإسحق - واحتجا بحديثى عمر أنه أقام الحد على قدامة وهو مريض . قال : وسبب الخلاف معارضة الظواهر للمفهوم من الحد ، وهو أنه حيث لايغلب على ظن المقيم له فوات نفس المحدود .

فمن نظر إلى الأمر بإقامة الحدود مطلقا من غير استثناء قال : يحد المريض ، ومن نظر إلى المفهوم من الحد قال : لايحد المريض حتى يبرأ ، وكذلك الأمر فى شدة الحر والبرد .

وقال الشوكانى : وقد حكى فى البحر الإجماع على أنه يمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، والمرض المرجو برؤه ، فإن كان ميئوسا ؟ فقال الهادى وأصحاب الشافعى :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله .

وقال الناصر والمؤيد بالله : لايحد فى مرضه وإن كان ميئوسا ، والظاهر الأول ، لحديث أبى أمامة ابن سهل بن حنيف الآتى .

وأما المرجو إذا كان مريضا أو نحوه فذهبت العترة والشافعية والحنفية ومالك إلى أنه لايمهل لمرض ولا لغيره ؛ إذ القصد إتلافه .

وقال المروزى :

يؤخر لشدة الحر أو البرد أو المرض ؛ سواء ثبت بإقراره أو بالبينة .

وقال الإسفراييني : يؤخر للمرض فقط ، وفى الحر والبرد أوجه : يرجم فى الحال أو حيث يثبت بالبينة لا الإقرار، أو العكس .

والحبلى لاترجم حتى تضع وترضع ولدها إن لم يوجد من يرضعه .

وعن على قال : (إن أمة لرسول الله - ﷺ - زنت ، فأمرنى أن أجلدها فإذا هى حديثة عهد بنفاس فخشيت أن أجلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبى - ﷺ - فقال : أحسنت . . اتركها حتى تماثل) .

رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وصححه[1]

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند على بن أبى طالب ، رضى الله عنه) ج ١ ص ١٥٦ فقد أورده ضمن خطبة لعلى - كرم الله وجهه .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : تأخير الحد عن النفساء ج ٣ ص ١٣٣٠ رقم ١٧٠٥/٣٤

وأورده أبو داود فى (كتاب الحدود) باب : إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٧ رقم ٤٤٧٣ مع اختلاف فى اللفظ .

ورواه الترمذى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على فى (أبواب الحدود) باب : ماجاء فى إقامة الحد على الإماء ج ٢ ص ٤٤٨ رقم ١٤٦٨

قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

الحفر للمرجوم : ـ اختلفت الأحاديث الواردة فى الحفر للمرجوم فبعضها مصرح فيه بالحفر له ، وبعضها لم يصرح به .

قال الإمام أحمد : أكثر الأحاديث على أنه لاحفر ، ولاختلاف ماورد من أحاديث ، اختلف الفقهاء .

فقال مالك وأبو حنيفة : لايحفر للمرجوم .

وقال أبو ثور : يحفر له .

وروى عن على أنه حين أمر برجم شراحة الهمدانية أخرجها فحفر لها حفرة فأدخلت فيها وأحدق الناس بها يرمونها .

وأما الشافعى فخير فى ذلك ، وروى عنه أنه يحفر للمرأة خاصة .

وذهبت العترة إلى أنه يستحب الحفر إلى سرة الرجل وثدى المرأة ويستحب جمع ثيابها عليها وشدها بحيث لاتنكشف عورتها فى تقلبها . وتكرار اضطرابها إذا لم يحفر لها .

واتفق العلماء على أنه لاترجم إلا قاعدة ، وأما الرجل فجمهورهم على أنه يرجم قائما .

وقال مالك : قاعدا ، وقال غيره : يخير الإمام بينهما .

حضور الإمام والشهود الرجم :

قال فى نيل الأوطار :

حكى صاحب البحر عن العترة والشافعى أنه لايلزم الإمام حضور الرجم وهو الحق ، لعدم دليل يدل على الوجوب ، ولما تقدم من حديث ماعز أنه ـ ﷺ ـ أمر برجم ماعز ولم يخرج معهم ، والزنى منه ثبت بإقراره وكذلك لم يحضر فى رجم الغامدية كما زعم البعض .

قال فى التلخيص : لم يقع فى طرق الحديثين أنه حضر بل فى بعض الطرق مايدل على أنه لم يحضر ، وقد جزم بذلك الشافعى فقال :

«وأما الغامدية ففى سنن أبى داود وغيره ، مايدل على ذلك ، وإذا تقرر هذا تبين عدم الوجوب على الشهود ولا على الإمام ، وأما الاستحباب فقد حكى ابن دقيق العيد أن الفقهاء استحبوا أن يبدأ الإمام بالرجم إذا ثبت الزنى بالإقرار وتبدأ الشهود به إذا ثبت بالبينة .»

شهود طائفة من المؤمنين الحد : ـ

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[1] .

استدل العلماء بهذه الآية على أنه يستحب أن يشهد إقامة الحد طائفة من المؤمنين واختلفوا فى عدد هذه الطائفة ، فقيل : أربعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : اثنان . وقيل : سبعة فأكثر .

الضرب فى حد الجلد : ـ

ذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يضرب سائر الأعضاء ماعدا الفرج والوجه وماعدا الرأس

---

(١) الآية رقم ٢ من سورة النور

كذلك عند أبى حنيفة . وقال مالك : يجرد الرجل فى ضرب الحدود كلها،وكذلك عند الشافعى ، وأبى حنيفة ماعدا القذف .

ويضرب قاعدا لا قائما .

قال النووى : قال أصحابنا : وإذا ضربه بالسوط يكون سوطا معتدلا فى الحجم ، بين القضيب والعصا . فإن ضربه بجريدة فلتكن خفيفة بين اليابسة والرطبة ، ويضربه ضربا بين ضربيه ، فلايرفع يده فوق رأسه ، ولا يكتفى بالوضع ، بل يرفع ذراعه رفعا معتدلا .

إمهال البكر : ـ تمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، وكذلك المرجو الشفاء . فإن كان ميئوسا من شفائه فقال أصحاب الشافعى :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله (العذق من أعذاق النخل)

روى أبو داود وغيره عن رجل من الأنصار : أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى (شدة الإجهاد من المرض) فعاد جلده على عظم .

فدخلت عليه جارية لبعضهم ؟ فهش لها فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك ، وقال : استفتوا لى رسول الله ﷺ فإنى قد وقعت على جارية دخلت على ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا : مارأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به ، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ماهو إلا الجلد على عظم .

فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه به ضربة واحدة .[1] .

هل للمجلود دية إذا مات ؟ : ـ

إذا مات المجلود فلا دية له .

قال النووى فى شرح مسلم :

(أجمع العلماء على أن من وجب عليه الحد فجلده الإمام أو جلاده الحد الشرعى فمات فلا دية فيه ولا كفارة ، لا على الإمام « الحاكم » ولا على جلاده ، ولا فى بيت المال).

قوله تعالى

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

ثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية :

فإن الزواج هو نواة المجتمع وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعى الذى يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التى تجعل للحياة قيمة وتقديرا وأنه هو الحنان الحقيقى والحب الصحيح ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك فى بناء الأسرة وعمار العالم .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : اقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ رقم ٤٤٧٢ .

غاية الإسلام من تحريم نكاح الزنى : ـ

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقى بين أنياب الزانية ولا للمسلمة أن تقع فى يد الزانى ، وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشتى الجراثيم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض .

والإسلام ـ فى كل أحكامه وأوامره وفى كل محرماته ونواهيه ـ لايريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .

الزناة ينبوع لأخطر الأمراض : ـ

وكيف يسعد الزناة فى دنياهم وهم ينبوع لأخطر الأمراض وأشدها فتكا بهم وأكثرها تغلغلا فى جميع أعضائهم ؟ !!

ولعل الزهرى والسيلان من الأمراض التناسلية التى تجعل ـ وحدها ـ الزناة شرا مستطيرا يجب اقتلاعه من العالم وخلعه من الأرض .

وكيف تسعد إنسانية فيها مثل هؤلاء الزناة . ينقلون أمراضهم النفسية إلى نسلهم ، وينقلون مع هذه الأمراض النفسية أمراض الزهرى الوراثى ؟

بل كيف تسعد عائلة تلد أطفالا مشوهى الخلق والخلق بسبب الالتهابات التى تصيب الأعضاء التناسلية أو العلل التى تطرأ عليها .

وجه الشبه بين الزناة والمشركين : ـ

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المتبع لسنة أفضل الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعيش مع زانية لاتفكر تفكيره ولا يستطيع أن يعاشر امرأة لاتحيا حياته المستقيمة ، ولايستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لاتشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله ـ تعالى ـ قال عن الزواج :

﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1]

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟ . . وأين نفس الزانية من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وإن المسلم الذى لايستطيع نكاح الزانية ـ كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها ـ لايمكن كذلك أن يعيش مع مشركة لاتعتقد اعتقاده ولاتؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة مايراه .

لاتحرم مايحرمه عليه دينه من الفسق والفجور .

ولا تعترف بالمبادىء الإنسانية السامية التى ينص عليها الإسلام .

لها عقيدتها الضالة واعتقاداتها الباطلة .

لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لايمت إلى عقله بصلة ، ولذلك قال الله تعالى ـ :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الروم

حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾(١)

التوبة تجب ماقبلها

فإن تاب كل من الزانى والزانية توبة نصوحا بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب واستأنف كل منهما حياة نظيفة مبرأة من الإثم ومطهرة من الدنس فإن الله يقبل توبتهما ويدخلهما برحمته فى عباده الصالحين .

﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾(٢)

سأل رجل ابن عباس فقال : إنى كنت ألم بامرأة ؛ آتى منها ماحرم الله على ، فرزق الله - عز وجل - من ذلك توبة فأردت أن أتزوجها .

فقال أناس :

إن الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة

فقال ابن عباس :

ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلىَّ .

رواه ابن أبى حاتم .

وسئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة . . أيتزوجها ؟

قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلا من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمرت الشفرة على أوداجها ، فأدركت ، فداووها حتى برأت .

ثم إن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة فقرأت القرآن ونسكت حتى كانت من أنسك نسائهم .

فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدلسها ويكره أن يغش على ابنة أخيه .

فأتى عمر فذكر ذلك له . فقال عمر :

لو أنشبت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه .

وفى رواية أن عمر قال : أتخبر بشأنها ؟ . . تعمد إلى ماستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت الا أدع أحدا أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة .

فقال له أبى بن كعب : ياأمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها ، فإن أجابت ، فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

---

(١) الآية ٢٢١ من سورة البقرة .
(٢) الآيات : ٦٨- ٧٠ من سورة الفرقان .

وقد تابع فى ذلك ماروى عن ابن عمر .

ولكن أصحابه قالوا :

لاينبغى لمسلم أن يدعو امرأة إلى **الزنى** ويطلبه منها ؛ لأن طلبه ذلك منها إنما يكون فى خلوة ، ولا تحل الخلوة بأجنبية ولو كان فى تعليمها القرآن ، فكيف يحل فى مراودتها على **الزنى** ؟

ثم لايأمن إن أجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية فلا يحل التعرض لمثل هذا ؛ لأن التوبة من سائر الذنوب وفى حق سائر الناس وبالنسبة إلى سائر الحكام على غير هذا الوجه ؛ فكذلك يكون هذا .

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ، ورجحه ابن تيمية وابن القيم إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطا آخر ، وهو انقضاء العدة فمتى تزوجها قبل التوبة أو انقضاء عدتها ، كان الزواج فاسدا ويفرق بينهما .

وهل عدتها ثلاث حيض أو حيضة ؟ .. روايتان عنه .

ومذهب الحنفية والشافعية والمالكية ؛ أنه يجوز للزانى أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزانى .

فالزنى لايمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : (وسبب اختلافهم فى مفهوم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾

هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟

وهل الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ إلى **الزنى** أو النكاح ؟

وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم لما جاء فى الحديث : أن رجلا قال للنبى ﷺ فى زوجته :

إنها لاترديد لامس

فقال له النبى ـ ﷺ ـ :

(طلقها) فقال له : إنى أحبها : فقال له : (أمسكها)[1]

قال أحمد :

هذا الحديث منكر ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وأورد أبو عبيد على هذا الحديث أنه خلاف الكتاب والسنة المشهورة ؛ لأن الله إنما أذن فى نكاح المحصنات خاصة ، ثم أنزل فى **المقذوفات** آية اللعان ، وسن رسول الله التفريق بينهما فلا يجتمعان أبدا .

فكيف يأمر بالإقامة على عاهر لاتمتنع ممن أرادها ؟ ! والحديث مرسل ، وقال ابن القيم : عورض بهذا الحديث لتشابه الأحاديث المحكمة الصريحة فى المنع من تزويج البغايا .

---

(١) الحديث فى الموضوعات لابن الجوزى فى « كتاب النكاح » باب ثبوت الرجل مع المرأة الفاجرة ـ الجزء الثانى ص ٢٧٢ . قال : وقد رواه عبيد بن عمير وحسان ابن عطية كلاهما عن رسول الله ﷺ مرسلا ، وقد حمله أبو بكر الخلال على الفجور ، ولايجوز هذا ، وإنما يحمل على تفريطها فى المال لوصح الحديث ،
قال احمد بن حنبل : هذا الحديث لايثبت عن رسول الله ﷺ ليس له أصل

ثم إن المجوزين اختلفوا فى زواجها فى عدتها :

فمنعه « مالك » احتراما لماء الزوج وصيانة لاختلاط النسب الصريح لولد الزنى، وذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يجوز العقد عليها من غير انقضاء عدة ، ثم إن الشافعى يجوز العقد وإن كانت حاملا لأنه لاحرمة لهذا الحمل .

وقال أبو يوسف ورواية عن أبى حنيفة :

لايجوز العقد عليها حتى تضع الحمل لئلا يكون الزوج قد سقى ماءه زرع غيره ،

ونهى رسول الله ﷺ (أن توطأ المسبية الحامل حتى تضع)

مع أن حملها مملوك له .

فالحامل من الزنى أولى ألا توطأ حتى تضع ؛ لأن ماء الزانى وإن لم يكن له حرمة ؛ فماء الزوج محترم ، فكيف يسوغ له أن يخلطه بماء الفجور ؟

ولأن النبى ﷺ هم بلعن الذى يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره وكانت مسبية مع انقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوكا له .

وقال أبو حنيفة فى الرواية الأخرى : يصح العقد عليها ولكن لاتوطأ حتى تضع .

أضرار الزنى

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه ماأمر بشىء وقال العقل : ليته ماأمر ، ومانهى عن شىء وقال العقل : ليته مانهى ، ومن ثم فإن الإسلام لما نهى عن هذا المرض الخطير وهو الزنى عقب على ذلك بقوله - تعالى - :

﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ ومن هذا المنطلق فإننا قد رأينا تتمة للفائدة أن نسجل هذا البحث القيم الذى جاء فى كتاب (القرآن والطب) للدكتور : محمد وصفى. طبعة ١٩٦٠

بدأ المؤلف بحثه بقوله - جل شأنه - : ﴿ ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[1] .

وسنتكلم عن أضرار الزنى من الناحية الطبية لترى ماتجره هذه الفاحشة على مرتكبيها من المصائب التى لايزال العالم يرزح تحت عبئها والتى تنخر عظام الإنسانية كما ينخر السوس فى مادة الخشب .

الزهرى

ومن هذه المصائب الزهرى ، وحين أتكلم عن الزهرى إنما أتكلم عن ثالث مرض فى العالم منوط به إزهاق النفوس وتضييع الأرواح ، وأول مرض لايريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتت الأكباد ، ويذيب الأفئدة ، ممثلا به شر تمثيل .

هذا الداء ينتشر فى العالم انتشار فاحشة الزنى، وتجد الإصابة به فى لندن وحدها حوالى ١٠ ٪ أى : أن عدد المصابين يبلغ الستمائة ألف شخص ، وفى برلين ١٢ ٪ وفى عاصمة فرنسا ١٥ ٪ ولقد وجد أنه فى جوتنبرج التى يبلغ عدد سكانها ١٣٨١٣٠ نفسا يبلغ عدد المصابين ٤٧٠٠٠ شخص ، وقال العلامة بنكش : إنه فى ألمانيا بأجمعها تجد فى كل خمسة رجال رجلين مصابين بهذا الداء ، وفى الولايات

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الإسراء

المتحدة الأمريكية ٣٠٠٠ شخص يقضى عليهم هذا الداء سنويا .

أما فى مصر فلقد وجد أنه فى سنة ١٩١٣ تردد على الأربع عشرة عيادة سرية ٢٥٠ ألف زان مريض بالزهرى ، والمعروف أن عدد المصابين فى القطر المصرى لايقل عددهم عن المليونين ، ولايغيب عن البال أن المصابين الذين لاتبلغ إصابتهم إلى الجهات المختصة لايعلم عددهم غير الله تعالى .

هذا المرض يعدى بمجرد اللمس عن طريق الزنى ، أو بمجرد تقبيل المصاب لغيره أو ملامسته ، وتسببه جرثومة خاصة تسمى (الإسبيروشيف باليدا) وتستطيع أن تلمس حقيقة هذا المرض إذا علمت أنه لايترك جزءا من أجزاء الجسم حتى يترك فيه آثاره ، ولايدع فيه جهازا حتى يعطل عمله ويفسد وظيفته ، وسوف ترى حين نتكلم عن الزهرى الوراثى أن الإصابة تنتقل إلى نسل المصابين .

وستعلم كيف يحمل الزناة إلى ذريتهم أخبث الهدايا وأشنع الأمراض .

إن ظهور القرحة التآكلية أو التقرحية فى موضع الإصابة ماهو إلا الإنذار الخطير بغزو الجراثيم لجميع أجزاء الجسم عن طريق الأوعية الدموية والليمفاوية جميعا ، ومن ثم يحمر الجلد ويأخذ الاحمرار شكل دوائر وردية لاتلبث أن تأخذ شكلا خاصا يتحول إلى مايسمى بالزهريات الحبيبية بجميع أشكالها وأنواعها ، أو تتحول إلى **حويصلات** زهرية ، فزهريات مللية ، والزهريات الحبيبية لاتلبث أن تتقيح سريعا حتى تكون الربيا الزهرية .

ويظهر كل ذلك مع تضخم لايلبث أن يعم غدد الجسم الليمفاوية التى تتقيح سريعا إذا ماوصلتها الجراثيم العنقودية والسبحية .

وتصيب جلود المرضى بالزهرى مظاهر مشوهة لهذا الداء العضال تعم جميع سطح الجسم : كالطفح الزهرى الحبيبى والثعبانى والنكسى والعقدى وكالصلع والبهق الزهريين ، وذلك بجانب إصابة الأظافر وجعلها مشوهة هشة سهلة الكسر مثقوبة القاعدة ، وكذلك الأنسجة المحيطة بها لاتنجو من الالتهاب الدامى الزهرى ، بل هنالك القروح العميقة ، والأورام الصمغية التى تتغلغل فى الجلد حتى تكشف عن العظام وأربطة العضلات ، وتنتشر فى السطح الوحشى للساقين وخلف الفخذين والاليتين وخلف الساعدين والمرفقين والسطح الوحشى للركبتين والسطح الخارجى للكتف وخلف اليدين وفى السطح الأعلى للقدمين وفى فروة الرأس ، فتتلف العضلات وتتفتت العظام وتتساقط شظاياها وتتآكل أجزاؤها ويصاب سمحاقها ونسيجها الداخلى ، وتغزو الجراثيم مفاصلها فتصيبها بالورم والاستسقاء ويلتهب غشاؤها الزلالى .

والعين يصيبها الزهرى ويهلكها بجراثيمه ، ولقد وجد فى لندن عاصمة بلاد الإنجليز أن نسبة العمى الزهرى تبلغ ٣,٥ ٪ من مجموع الإصابات بهذا الداء ، وأما عن الاصابة فى الأذن فيكفى أن تعرف أن ٢٥ ٪ من المصابين تفقد آذانهم وظائفها ويصابون بالصمم .

والزهرى يصيب أجزاء الفم إصابات بالغة ، فترى اللسان وقد ظهرت فيه القروح الزهرية واللطخ المخاطية حتى ينتهى الأمر بتضخمه وانكماشه وضمور نسيجه وتشققه وانتشار القروح الزهرية والأورام الصمغية فيه .

ولوزة الحلق تتعرض للورم الصمغى ، وكذلك البلعوم تظهر فيها التقرحات الزهرية التى قد

تعوق التنفس والبلع على وجه خاص لالتحام البلعوم بالحنك الرخو ويلتهب سمحاق الأخير ، ويصاب بالقروح الزهرية وينتهى الأمر بحدوث فجوة متسعة فى حنك المريض .

وتمتد الإصابة من الفم إلى المرىء فيتعرض للإصابة بالقروح والانسداد والشلل ، ومنه إلى المعدة فتتقرح وتنتشر فيها الصموخ الزهرية ، وتتعرض للنزف الدموى والانسداد فى إحدى فتحتيها وتصل الإصابة من المعدة إلى جميع أجزاء الأمعاء الدقيقة والغليظة والمستقيم وفتحة الشرج ، مما يعرض المريض لأشد الأخطار وأسوأ النتائج .

والجهازان البولى والتناسلى يتعرضان للتلف والدمار فيعطل عمل الكليتين بإصابتهما بالقروح والأورام الصمغية ، وكذلك المثانة وجميع أجزاء الخصيتين والمبيضين وسائر أجزاء الجهازين .

ويغزو الزهرى الجهاز التنفسى كذلك ، فتصاب الشعب الهوائية بالتقرحات المزمنة والأورام الصمغية ، التى تمتد إلى الرئتين فتعطل عملها ؛ ويتسبب عن ذلك الموت ، وتصيب جراثيم الزهرى الدورة الليمفاوية وتعطل عملها بما ينجم من التهاب قنواتها وانتفاخها وتضخم الغدد التى قد تتقيح عند وصول الجراثيم إليها ، بل إن إصابة الجهاز الدورى لمما يورد الزناة شر موارد الهلاك والدمار ؛ إذ تلتهب أهم شرايين الجسم وأوردته ، ويتصلب نسيجها ، وتتليف أجزاؤها التى قد تصاب كذلك بالأورام الصمغية ، وإنك لتجد معظم ذوى الأمراض القلبية المزمنة ، وموتى الفجاءة ضحية هذا الداء العضال .

وتصيب الجراثيم كذلك الغدد اللاقنوية بتلك الأورام الصمغية ، وهذه الغدد كالبروستاتا والمبايض والغدة النخامية والغدد التى فوق الكليتين ، والغدة الدرقية وغيرها . ويطول بنا شرح الضرر الناجم عن إصابة هذه الغدد لمالها من بعيد الأثر فى جسم الإنسان وكبير سيطرتها عليه وخطورة شأنها فى تقويم وظائفه وحفظ كيانه .

أما مايفعله الزهرى فى الجهاز العصبى ويحدثه فى سائر أجزائه ويسببه فى جميع خلاياه من تعطيل وظائفها بضمور نسيجها أو تلفه وتحلله ؛ كما يحصل فى مرض الشلل العام للمجانين فهو مما لايستطيع القيام بمثله داء كهذا فى شدة بطشه بضحاياه ، وبعيد تغلغله فى أدق زوايا وجودهم ، وعظيم أثره فى القضاء عليهم .

وحسبك أن تعلم أن الزهرى يفتك بمخ الزانى فتكا ذريعا ، فتلتهب سحاياه خاصة (الأم الحنون) وتصاب كذلك أوعيته الدموية التى تضيق حتى ينتهى الأمر بإفسادها ، ومنع الغذاء عن الأجزاء التى تغذيها بالدماء ، وحينئذ تحدث الأعراض التى ستأتى الإشارة إليها ، بل هنالك الأنزفة المخية الناشئة عن انفجار الأوعية الدموية .

والأورام الصمغية لاتترك المخ حتى تبليه وتعطل عمله ، وهو أهم مركز فى جميع أجزاء البدن على الإطلاق ، وإصابة المخ فى أبسط أشكالها تحدث الصداع الدائم ، والقىء والنوبات العصبية التى قد تتكرر مرات فى اليوم الواحد ، وشلل العضلات المحركة للعين ، والتهاب عصب الإبصار ، ويصاب الجسم بعضه أو كله كذلك بالشلل الذى يوصل الزانى إلى القبر بعد أن يذيقه أشد الآلام .

وقد تحدث الإصابة فى لسان المصاب ويصاب بالبكم ، بل هناك بجانب ماتقدم أعراض أخرى

تعتبر أبسطها جميعا رغم عظم خطرها ، كالذهول والهذيان ، وفقد الذاكرة التى تنتهى بالجنون .

وتختلف أعراض زهرى المخ باختلاف مواضع امتداد الإصابة ، فإذا أصيب عصب الشم مثلا فقدت هذه الحاسة ، وإذا أصيب عصب البصر كان فقده وذهابه وهكذا .

ويفاجىء الشلل النصفى الزهرى المصابين به على حين غرة منهم ، وهذا الشلل النصفى قد يحدث مثله فى النصف الآخر فيعم الجسم ويحل الموت .

وتلتهب سحايا النخاع فيتصلب العمود الفقرى ، وتصحب ذلك تغيرات خاصة فى وظائف أعصاب الحركة والتغذية والإحساس ، بجانب مايتعرض له المريض من الشلل العام .

وأما إذا التهب النخاع الشوكى ، فتشل الأطراف السفلى ، وتفقد إحساسها ويحدث الموت حينئذ لأسباب شتى كخراجات الظهر والتهابات الكليتين وغيرها .

وهنا لك مرض غاية فى الخطورة لاأملك إلا أن أشير إليه ويسببه الزهرى (وهو الشلل العام للمجانين) وأهم أعراضه : بلاهة المصابين به ، وتظهر متجسمة فى أعمالهم ، وتفكيرهم وتكون مصحوبة عادة بهذيان العظمة ، أو الهذيان الاضطهادى ، ويصاب المريض كذلك بالرعشة فى يديه وفى لسانه ، وتزداد حساسية انعكاس الركبتين وتختلف فتحتا حدقتى العين ويضطرب انتظامهما .

والزهرى يسبب مرضا آخر يسمى (الخراع) ويحدث آلاما روماتزمية حادة واعراضا أخرى تشبه المغص الكلوى والآلام العصبية بين الأضلاع . والتهاب العصب الوركى .

ويحدث المرض أزمات شديدة أهمها : الأزمة المعدية التى تمثل أعراض التهاب الزائدة الدودية ، وتقرح المعدة وانسداد الأمعاء .

ويصاب المريض بالأزمة الحنجرية التى تعوق التنفس وقد تشل بعض عضلات الحنجرة فيتعذر التنفس الذى قد يسبب الموت .

ويفقد المصاب بهذا الداء الحساسية التى تصل من عضلات الجسم فأربطته ومفاصله إلى المخ فتختلج حركة المريض ، ويفقد شيئا كبيرا من توازنه .

ومن أعراض هذا المرض زوال إحساس المريض من بقع جلدية خاصة فى الجسم كزوال الإحساس فى الجزء الجلدى المحيط بالضلع الثانى ، وكذلك زوال إحساس الأنف والجبهة .. إلخ

وهكذا ترى الزهرى لايترك موضعا فى الجسم إلا ويغزوه ويعطل عمله ، لذلك اعتبر ممثلا خطرا لمعظم أمراض العالم ، وإن الأعراض التى تحدثها جراثيمه مشابهة إلى حد بعيد أمراض الجسم جميعا ، فهنالك إحداثه لما يشبه خراجات الكبد لإصابتها بأورامه الصمغية وتقيحها وتعرض نسيجها للتشمع والكباد الزهرى بالبريتون والطحال وسائر محتويات الجسم وبقية أعضائه ، مما لانستطيع فى هذه المعالجة حصره وإتمام بيانه ، وذلك بجانب شتى الحميات التى يبلى بها مرضاه حتى يتركهم غير قادرين على الحركة ، فيعانون منها مايشبه إلى حد بعيد أعراض حمى الملاريا والحمى التيفودية ، وكأنى بالزانى المريض بهذا المرض الذى بينا بعض أعراضه وأشرنا إلى مقدار تغلغله فى جسمه **﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولايكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه**

عذاب غليظ ﴾(١)

* الزهرى الوراثى *

ولعل أقبح الهدايا التى يقدمها الزانى إلى ذريته التعسة ويبليهم بها هى الزهرى الوراثى ، وإن خطره على النسل ليهدد العالم بشر مما تهدده به الحروب الذرية ، وينذره بأشد مما تنذره به البراكين الملتهبة ، والزلازل المهلكة ، والنكبات العظمى التى لاتبقى ولا تذر ، وإنك لتجد ٤٠ ٪ من وفيات الأطفال فى السنة الأولى من سنى حياتهم راجعة إلى الزهرى الوراثى . وتجد ٦٠ ٪ من حالات الإجهاض المتكرر فى العائلات المصابة بهذا الداء راجعة إليه .

وتجد فى كل مائة طفل مولود بزهرى وراثى تسعين يموتون ، وتجد ٢٠ ٪ من الحوامل على وجه العموم مصابات به ، وتجد ثلاثة عشر لقيطا مصابين بالزهرى الوراثى فى كل مائة لقيط ، بل نستطيع أن نقول إن ٩٩ ٪ من أولاد المصابين تموت ـ إما أجنة أو بعد الولادة ـ وذلك مما يبين لنا إلى أى مدى بلغ هدم الزنى للأسر ، وفتكه بالذرية والنسل .

والزهرى : إما أن يلحق الجنين قبل تمام نموه فيلفظه الرحم فى أى طور من أطوار نموه فيه ، وتشاهد حينئذ فى المشيمة تغير حالها وكبر حجمها وسماك أغشيتها وصلابتها ، وترى التهاب الحبل السرى واحمراره وضخامته ، وتجد اختناق الكبد أو إستمالتها والتصاقها بالبريتون ، وترى تضاعف حجم الطحال بنسبة كبيرة ، بجانب تقرح المعدة والأمعاء وسائر أجزاء الجسم الأخرى .

هذا إذا لم يلفظ الجنين فى الأسبوع الأول أو فى العشرة الأيام الأولى مشوها ممسوخا ممزقا شر ممزق ، بصورة بشعة ومنظر قبيح .

أما إذا ولد الجنين فإنه لايرى بالحالة العادية التى يكون عليها الأصحاء ، بل تراه صغير الجسم مشوه الخلق فقير الدم ، ذاهب اللون ، هزيل الجسم مجعد الجلد ، معرضا للموت السريع بعد العذاب الأليم .

ولو خرج الطفل وعليه أمارات الصحة ، فليس معنى ذلك سلامته من العلة الفتاكة ، بل لاتمر به أسابيع قليلة حتى يلحقه الضعف والهزال ، ويتعطل نموه ويصبح معرضا لشتى الإصابات ، كارتباكات الجهاز الهضمى والتنفسى ، وتشقق الجلد وجدع الأنف ، ثم يستمر فى النحافة والذبول شيئا فشيئا .

وتتضخم كبده ويكبر طحاله ويتغير خلقه تغيرا واضحا ، وتلتهب غدده الليمفاوية وتصاب عظام جمجمته وأصابعه وذراعيه وساقيه وتلتهب مفاصله وتلين عظامه ، وتستسقى رأسه ويضيق تنفسه ، ويصاب جهازه العصبى ويتعرض للتشنجات العصبية ، والصرع ، والشلل النخاعى ، والشلل النصفى وإصابة الحواس والضمور العضلى وانعدام الفعل المنعكس والالتهاب السحاقى ، وإصابة أجزاء العينين وأعضائها والشلل العام للمجانين ، ويظهر التشوه فى الأسنان ، وتلتهب الأذن الوسطى وتتقيح ، وتصاب أجزاء الدورة الدموية وذلك بجانب الإصابات الجلدية التى تشبه مايحدث فى الزهرى

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة أبراهيم

المكتسب ويتلف البنكرياس ، وتظهر الأورام الصمغية فى الغدد الصماء ، إلى غير ذلك مما يضيق عن ذكره المقام .

وتلحق عوارض الزهرى الوراثى الذرية فى أى سن من أسنانها ، وكثيرا ماكان هذا الداء سببا فى إصابة النسل بالبله والعته والعبط والجنون ، وهو مايعد أبسط المسائل فى إصابة النسل ، ويعتبر أكثرها حدوثا .

السيلان

والسيلان من الأمراض الفتاكة التى تسببها كذلك هذه الفاحشة ، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى بالجونوككس ، ولكى تعرف مقدار انتشار هذا المرض فى الهيئة الأجتماعية ومبلغ تغلغله فى أفرادها يكفيك أن أذكر مثلا من ذلك من إحصائيات لندن أن ٦٠ ٪ من عدد أفرادها البالغين مصابون بهذا الداء ويتراوح عدد المصابين فى باريس من ٧٥ ٪ إلى ٩٠ ٪ وفى برلين من ٦٠ ٪ إلى ٧٠ ٪ وفى نيويورك تجد فى كل ماثة شخص ثمانين مصابين بالسيلان ، هذا فى أرقى البلاد حضارة وأرسخها قدما فى علم الطب ، وأكبرها ادعاء للمدنية والرقى .

وليس مرض السيلان بالعلة الهينة السهلة ، التى لاتسترعى الانتباه بل هو من أكبر المعضلات الأجتماعية الخطيرة ، التى حار فى علاجها الأطباء والساسة المشرعون ، فهو مرض فتاك ، ويترك المصاب به فى حالة من الألم والمرض مما يعطل حركته ويشل تفكيره ويجعله فى المجتمع عضوا أشل لافائدة فيه ولانفع منه ، وذلك فوق ماتبتلى به النساء فيجعلهن مستودعا خطرا للعدوى وأداة لتشويه النسل ، والقضاء على الذرية .

إصابة المرأة

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تصاب هى الأخرى لاستعدادها لقبول العدوى ، ولقابلية جهازها التناسلى لاستقبال جراثيمه المرضية ، فتفتك به وتعطل وظيفته ، إذا لم تفقدها تماما .

ويصاب مجرى بول المرأة بهذه الجراثيم فيلتهب ويحمر وتتضخم حافتاه ، ويظهر القيح السيلانى الكريه الرائحة من فتحته وكثيرا مايزمن المرض فى هذا المكان حين تختفى جراثيمه فى بقع استمالة نسيجية فى غشائه ويحدث تليف فى غدد (ليتر) فتضيق فتحة مجرى البول

وقد يمتد التليف إلى المجرى نفسه كذلك ، وتصيب جراثيم المرض قناتى (سكين) اللتين تظهر فتحتاهما على جانبى مجرى البول وكثيرا ماتكون إصابة هذه القناة سببا فى انتكاس المرض وإزمانه .

والعدوى تمتد من قناة المجرى البولى إلى المثانة فتتعطل وظيفة الجهاز البولى وتشعر المريضة بألم كبير فوق عانتها وميل إلى التبول الكثير مع الألم فى كل مرة ونزول نقط دموية إثر تلك الإصابة .

ويعدى السيلان غدد (بارثولين) وتقع كل غدة خلف النصف الخلفى للشفر الأعظم ولها قناة طويلة ملتوية على نفسها تفتح على السطح الداخلى للشفر الأصغر فتلتهب وتتضخم وتتقيح ، وقد تنسد قناتها ويتكون خراج لايلبث أن يكون ناسورا ، ويزمن المرض وتصبح الغدة سببا لمضاعفات سيلانية

أخرى كالتهاب المهبل السيلانى مثلا ، وعندما يلتهب المهبل يظهر القيح فيزيل الطبقة العليا لغشائه ويترك تقرحات مغطاة الإفرازات الالتهابية أو يصاب بالالتهاب الحبيبى أو الالتهاب الغشائى .

والرحم وهو موطن الجنين وقراره المكين يصاب كذلك بالسيلان ويلتهب عنقه إذ يتسرب الجونوكوك إلى غشائه الداخلى ، ويخترقه ويختبىء فى الغدد والقنوات التى توجد فى الطبقة تحت الغشائية والعضلية فيه ، حيث يزمن المرض وتكثر الإفرازات الالتهابية ، وتشتد الآلام فى الظهر وفى العمود الفقرى وترتبك دورة المحيض مع الألم المبرح أثناءه ، وترى العنق الرحمى وقد تضخم واشتد التهابه ، واحتقنت أنسجته ، وسالت إفرازاته ، وتسلخت خلاياه ، وانسدت غدد بابوثيان فيه .

ويلتهب الغشاء المتبطن بجسم الرحم تبعا لذلك أو بعد وصول الجراثيم إلى البوقين والمبيضين ، فتزداد الآلام فى أعلى العانة ، وفى الظهر ، ويظهر الصديد الدموى وتتضاعف الآلام المبرحة إثر نزول الطمث ، ويسيل النزيف الدموى بشكل سىء الإنذار ، وتلتهب عضلات الرحم ، وفى الحامل تصاب عينا الطفل عند الولادة بالسيلان الصديدى ، فيذهب بصره وتتلف عيناه .

وعند إصابة الرحم تختل حركة أعصابه **الموضعية** ، فتتقلص عضلاته تقلصا عكسيا ، بسبب نقل جراثيم المرض إلى فوهة البوق الرحمية التى قد تصاب كذلك بانتقال الجونوكوك مباشرة بواسطة الدورة الليمفاوية فى الجسم فتشعر المريضة بالقشعريرة وترتفع درجة حرارتها وتشتد بها الحمى وتظهر الآلام فى أسفل البطن حول الجزء المصاب ، حيث تظهر الأورام عند البوقين اللذين كثيرا ماتسد فتحتاهما البطنيتان ، فتلتصقان ببعضهما وبالأنسجة المجاورة ، ويكثر الرشح والتجمع الخلوى ، ويتضخم البوق وينسد مجراه وقد يترك فى مكان الانسداد أكياسا دموية أو مائية أو قيحية .

والمبيضان يصابان إثر إصابة البوقين وينتهى بهما الحال إلى فقد وظيفتهما وتلفهما ، وعند ذلك يحصل العقم .

وقلما يحصل الحمل عندما يكون المرض حادا ، وذلك لإهلاك الإفرازات الصديدية . وإعاقتها للحيوانات المنوية ، ويتعين عدم حصوله مطلقا عند إصابة المبيضين أو عنق الرحم إصابة لاتمكن الحيوانات المنوية من الدخول فى الرحم ، ولو حصل الحمل فى المرة الأولى عند اتصال الرجل المصاب بالمرأة وظهرت الأمراض الحادة بعد الإخصاب ، فلا تصل الجراثيم إلى الجزء الأعلى من الجهاز التناسلى ، ولكنه عند النفاس يجد الجونوكوك مرتعا خصبا فينمو ويتكاثر تكاثرا غريبا ويأخذ فى غزو جميع الجهاز التناسلى حتى يقضى عليه ، وعندئذ لايتأتى للمرأة الحمل البتة ، ولاتنال فى حياتها غير ذلك المولود الذى نالته فى ذلك اليوم المشئوم وهذه الحالة يسميها بعضهم (عقم الطفل الواحد) لعدم تمكن المرأة من الحصول على غيره بسبب الإصابة بهذا الداء العضال .

وبجانب ذلك فقد وجد أن أكثر من ٧٠ ٪ من هذه الحالات تصاب فيها عينا الطفل عند الولادة بمروره على العنق المصاب أو الأكياس المهبلية الموبوءة ، فتصاب القرنية ويذهب غشاؤها ويكثر رشحها وترى خراجات كثيرة على شكل نقط كثيفة فى سطحها ، وكثيرا مايظهر فيها رشح ينتهى بقرحة تودى بها ، إلى آخر ماتصاب به سائر أجزاء العينين .

ولا تقتصر إصابة المرأة على الجهاز التناسلى فحسب ، بل كثيرا ماتغزو الجراثيم الجزء الحوضى من

الغشاء البريتونى وتنتشر الإصابة فيه ، بل قد يلتهب الغشاء البريتونى جميعه ، وإنه يكاد يكون من المعضلات علاج المرأة المصابة بالسيلان ، أو الجزم بخلاصها من هذا المرض الذى يتغلغل هذا التغلغل الغريب فى جميع جهازها التناسلى ويكمن فى تعاريجه ، ويختفى بين طيات أجزائه وخذ مثلا من ذلك انفجار الأكياس الصديدية المبعثرة على المبيض أو فى الأجزاء المجاورة له .

ويجب ألا يغيب عن البال أن المصابة بالسيلان كثيرا مايظن أنها تخلصت من وبائه وهى فى الحقيقة حاملة لجراثيمه ، تصيب من يتصل بها ، ولو تزوجت تعدى زوجها وذلك لظهور المرض عليها ثانيا ، وبرجوع النشاط إلى الجراثيم الكامنة التى قد كان يعوق ظهورها أى سبب من الأسباب كاختبائها فى إحدى الغدد كما قدمنا ، وتسترها تحت غشاء استمالة نسيجية . . إلخ

وإنى أستطيع أن أقول : إن إصابة المرأة بالسيلان وبال عليها وعلى أولادها وعلى زوجها وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها ، والمصيبة العظمى أنه ليس من المستطاع أن يحكم أحد فينا على مصابة السيلان أنها شفيت منه ، وحسبك كذلك أن تعلم أن الطب لم يتوصل إلى الآن إلى العثور على علاج نوعى لهذا المرض .

* إصابة الرجل *

ويصيب السيلان الرجل إصابات بالغة ؛ إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشتد احمرارها ، وتصاب حوافيها بالورم ، فتنقلب على نفسها وقد تتآكل أطرافها ، ثم يمتد الورم فى عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه ، وتفتك الجراثيم بالغشاء الداخلى للمجرى البولى ويشتد تكاثر الصديد ، ثم ينتهى الأمر بضيق المجرى وتعذر البول أو امتناعه مطلقا ، وذلك لتكون ألياف خاصة نتيجة الالتهابات فى الطبقة تحت الغشائية للمجرى .

وكثيرا ماتصحب الدماء السيلان **المدمى** ، وتنسد القنوات المحاذية للمجرى البولى ، ويشعر المصاب بألم شديد ككى النار عند خروج البول وقد يمتد الألم إلى الشرج والعجان والفخذين .

والالتهاب الناشىء عن هذا المرض يسبب انتصابا مؤلما يتكرر كثيرا وقد يؤدى هذا إلى انفجار الأوعية الدموية المحتقنة فى العضو المذكور .

وتسبب جراثيم السيلان التهاب غدد (ليتر) وهى التى توجد على جانبى المجرى على سطحه الأعلى ، وتفرز إفرازا خاصا عند الانتصاب ، والجونوكوك حين يصل إلى هذه الغدد يستولى عليها استيلاء كليا حتى يصعب التغلب عليه بطرق العلاج العادية . وكذلك الحال عند عدوى جيوب رجانى بهذه الجراثيم ، وهذه الجيوب توجد على جوانب المجرى وفى سطحه الأعلى وحين إصابتها تنسد فتحاتها ويتكون فيها كيس يضم هذه الجراثيم ويحميها من تأثير العقاقير التى تستعمل للعلاج .

وتلتهب كذلك قنوات كوبر التى تظهر فتحاتها على السطح السفلى للمجرى فى الجزء الأسفل من البصيلة فيشعر المريض بثقل فى العجان تصحبه آلام لاتطاق ، وذلك بجانب تعرض هذه القنوات للانسداد وتلف باقى أجزائها .

وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها وتتكون الإفرازات الالتهابية فى جيوبها فتنسد وتكون خراجا لاسبيل إلى التخلص منه إلا بعملية جراحية ، ويكفيك أن

تعلم أنه فى حالة إزمان المرض لايرجى الشفاء ، وكثيرا مايستمر علاج هذه الحالة سنوات عديدة قبل الحصول على نتيجة طفيفة وذلك إذا لم تحصل المضاعفات السيلانية الأخرى .

وإصابة البروستاتا خطر كبير على الزانى عامة وعلى جهازه التناسلى خاصة ؛ إذ تفقد البروستاتا وظائفها التى لايستطيع الجهاز القيام بعمله دونها ، وذلك أنها تساعد الخصية على إخراج إفرازاتها الداخلية وأن عصيرها ذاته له شأن كبير فى تغذية الجسم وهى تفرز بجانب ذلك سائلا خاصا يدخل فى تركيب السائل المنوى ، وفى الوقت عينه يبطن هذا السائل الغشاء المخاطى لمجرى البول بمادة لزجة تسهل خروج المنى منه . . إلخ .

وكثيرا مايصيب السيلان (البربخ) حتى يتلفه ويحدث قيلة مائية حادة ، وينتشر فيه الورم فيمتد الألم فى الجهاز التناسلى وتتضاعف الآلام ويصاب الزانى بعد ذلك بالعقم ، وذلك بجانب انتقال العدوى إلى الزوجة والبغايا والأقرباء والمصاحبين بطريقة الملامسة واللمس وغيره من عوامل الانتقال .

ولعل إصابة الحويصلات المنوية من أشد الإصابات خطرا ، وتجديد عدوى المومسات إذ تختبىء فيهن الجراثيم وتبقى بعد ذلك مستعلاة لعدوى الزوج ، وكثيرا ماتتقيح الحويصلة المنوية حتى لايرجى لها علاج ويلزم الحال شق القناة الناقلة للمنى أو شق الحويصلة عينها أو استئصالها والتخلص منها ، برغم مايترتب على ذلك من شتى الأخطار .

وكثيرا مايسبب السيلان التهاب القلفة فتضيق فتحتها حتى لايتيسر شدها إلى أعلى الحشفة لزيادة ورمها ولايخفى مايعانيه الزانى فى هذه الحالة من عسر التبول ومايشعر به من الألم الشديد ، وتختنق القلفة كذلك فتطبق على الحشفة من أعلى حتى يتعذر إرجاعها إلى موضعها الطبيعى .

وليست الإصابة بالسيلان مقصورة على الجهاز التناسلى فحسب ، بل إن الإصابة تمتد إلى المثانة من الذكر والأنثى على السواء وخاصة عند العنق فيشعر المريض بثقل شديد عند التبول مع قلةماينزل من البول مع كثرة الميل إليه ، حتى أن المريض لايتبول إلا نقطا قليلة يشعر أثناءها بآلام شديدة فى المجرى وفوق المثانة وفى العجان وحول الصفن .

وكثيرا ماتصل الجراثيم السيلانية إلى الدورة الدموية أو الدورة الليمفاوية فتصيب حوض الكلية أو حوض الكليتين جميعا مع أغشيتها المحاطة بالحوض بل قد تصاب كذلك الكليتان بالالتهابات السيلانية فترتفع درجة حرارة الزانى وتعتريه القشعريرة ، ويعانى الآلام الظهرية الشديدة ، وكثيرا ماتمتد الإصابة إلى الحوض والكليتين فتصيبهما جميعا ، وحسبك انسداد الحالبين واحتباس البول والتسمم اليوريمى والموت بعد الألم المبرح .

والطامة الكبرى هى عند وصول الجراثيم إلى مفاصل الجسم فتتعطل حركتها ويصعب تحريك أجزائها ويمتد فيها الورم وينتشر الالتهاب حتى تصاب بالتصلب والتشوه الذى يبقى فيها مدى الحياة ، وناهيك بالآلام المبرحة التى تفوق الآلام الروماتيزمية شدة وفظاعة ، والروماتزم السيلانى يصيب المفاصل جميعا وخاصة مفاصل القدم والركبة والرسغ وأصابع اليدين والقدمين حيث تتكون السوائل الالتهابية ، بل قد تصاب المفاصل بهذا المرض دون حدوث أى أثر ظاهر فى الأجزاء المصابة مع وجود الجراثيم وتغلغلها فى جميع نواحيها .

ويسبب السيلان طفحا جلديا خاصا بالمريض يشبه إلى حد بعيد الأثر الذى تحدثه الحمى القرمزية ، بل قد تتعرض الأعصاب كذلك لجراثيم هذا الداء فيختل نظامها ، وتصيب المجموعة العصبية أعراض الالتهابات السحائية وغيرها .

ولعل من مصائب السيلان العديدة إصابته للغشاء المبطن للقلب أو إتلافه للتامور ، بل كثيرا مايصاب عضل القلب نفسه بالسيلان وكذلك صماماته خاصة اليسرى منها ، بل قد تمتد الإصابة إلى الأورطة أو غيرها مما يؤدى إلى تعرض الزانى للموت .

كل ماقدمت ماهو إلا صورة مصغرة لما يحدثه السيلان فى أجسام الزناة ويعمله من العبث بأرواحهم الدنيئة التى تنزلت إلى الوقوع فى هذه البؤرة الخبيثة وتلوثت بأوحال الفسق والفساد .

القرحة الرخوية

والزنى فوق مايسبب من الزهرى والزهرى الوراثى والسيلان يعرض الأشرار كذلك للإصابة بالقرحة الرخوة التى تسببها جراثيم خاصة تسمى (باسلات دكرى) ويكثر ظهورها فى جسم القضيب أو فى الصفن أو العانة أو عند فتحة القلفة أو عند تلاقى الحشفة بجسم القضيب أو فى الثنية تحت الحشفة .

وفى الإناث يكثر وجودها فى الشفرين والشوكة والبطين والفخذين وقرب فتحة الشرج .

والقرحة سريعة العدوى ، ويوجد منها نوعان : هما القرحة الرخوة المرتفعة ، والقرحة الرخوة الثعبانية ، وتختلف هذه القرحة عن قرحة الزهرى بكونها قابلة للتعدد فى نفس المريض بمجرد العدوى الذاتية أو الامتداد ، وحسبك أنها كثيرا ماتسبب الاختناق أو الانكماش كما يحصل فى السيلان .

وهذا بجانب تعرض المصاب للغنغرينا والخراجات والأنزفة الدموية وتقيح الغدد الليمفاوية وقنواتها وإتلافها التام للعضو المصاب بها إلى غير ذلك من مختلف الإصابات .

القرحة الأكالة

والقرحة الأكالة من الأمراض الخطرة التى يحدثها الزنى كذلك ، وتمتاز هذه القرحة كما يدل اسمها بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التى حولها مع عدم خضوعها للعلاج ، وحسبك عملها على تآكل أعضاء التناسل وإحداثها للأنزفة الدموية والغنغرينا وتسمم الدم ، وتهتك الأنسجة المختلفة كالعضل والعظم إلى غير ذلك من سائر الأجزاء .

أمراض أخرى

وهنالك أمراض أخرى لايستهان بها يصاب بها الزناة ولانرى بأسا من الإشارة إليها هنا : كجرب التناسل مثلا ، وكسنط التناسل الذى يكثر فى فتحة مجرى البول وفى فتحة القلفة وأسفل القضيب وحول فتحة المهبل وفى فتحة مجرى البول عند الأنثى .

وكهربس التناسل الذى يحدث حكة شديدة والتهابا مؤلما ، قد يؤدى إلى التقيح والتقرح فى الأعضاء التناسلية ، وكالورم الجلدى الرخو المعدى الذى يصيب جلد الخصية والقضيب والشفرين ، والذى قد يمتد فيأخذ مكانا كبيرا ، وترى الحبيبات المتقرحة مستعدة للإصابات الثانوية الأخرى ، وإن قمل العانة من الأمراض المنتشرة كذلك بين الزناة انتشارا كبيرا وقد يمتد هذا القمل من العانة إلى الإبطين وشعر الصدر ، والزنى هو العامل الأساسى فى نقل هذا المرض القذر بين الزناة الملوثين .

ولعل فيما قدمت مثلا لبعض ماعناه ـ تعالى ـ فى قوله عن الزنى :

﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .,

حد القذف

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

* تفسير المفردات *

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

التفسير

قال الفقهاء فى حد القذف : ـ

تعريفه : ـ

أصل القذف : الرمى بالحجارة وغيرها . ومنه قول الله ـ تعالى ـ لأم موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ﴾[٢]

والقذف بالزنى مأخوذ من هذا المعنى ، والمقصود به هنا المعنى الشرعى وهو الرمى بالزنى .

حرمته : ـ

يستهدف الإسلام حماية أغراض الناس والمحافظة على سمعتهم وصيانة كرامتهم وهو لهذا يقطع ألسنة السوء ويسد الباب على الذين يلتمسون للبرآء العيب ؛ فيمنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس ويلغوا فى أعراضهم ، ويحظر أشد الحظر إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا حتى تتطهر الحياة من سريان هذا الشر فيها .

فهو يحرم القذف تحريما قاطعا ويجعله كبيرة من كبائر الإثم والفواحش ، ويوجب على القاذف ثمانين جلدة ـ رجلا كان أو امرأة ـ ويمنع من قبول شهادته ويحكم عليه بالفسق واللعن والطرد من

---

(٢) من الآية ٣٩ من سورة طه

رحمة الله ، واستحقاق العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، اللهم إلا إذا أثبت صحة قوله بالأدلة التى لايتطرق إليها الشك ، وهى شهادة أربعة شهداء بأن المقذوف تورط فى الفاحشة ، يقول الله ـ سبحانه ـ :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

ويقول : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[1]

ويقول :

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴾[2]

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال :

(اجتنبوا السبع الموبقات . . قالوا : وماهن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[3] وكان هذا التحريم الذى نزلت به الآيات بسبب حادث الإفك الذى وقع لأم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(لما نزل عذرى قال النبى ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل عن المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم ، وهم : حسان ومسطح وحمنة . رواه أبو داود[4] .

* **مايشترط فى القذف : ـ**

للقذف شروط لابد من توافرها حتى يصبح جريمة تستحق عقوبة الجلد ، وهذه الشروط منها مايجب توافره فى القاذف ، ومنها مايجب توافره فى المقذوف ، ومنها مايجب توافره فى الشىء المقذوف به .

شروط القاذف : ـ

الشروط التى يجب توافرها فى القاذف هى :

١ ـ العقل

٢ ـ البلوغ

٣ ـ الاختيار

---

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور

(٢) من الآية رقم ١٩ من سورة النور

(٣) الحديث رواه البخارى فى « كتاب الوصايا » باب قول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . . الخ » ج ٤ ص ١٢
وأخرجه مسلم فى « كتاب الإيمان » باب بيان الكبائر وأكبرها ج ١ ص ٩٢ رقم ١٤٥ ـ ٨٩

(٤) الحديث رواه أبو داود فى « كتاب الحدود » باب فى حد القذف ج ٤ ص ٦١٨ رقم ٤٤٧٤
وانظر الترمذى فى تفسير سورة النور رقم ٣١٨٠ وقال الترمذى (هذا حديث حسن غريب)
وانظر ابن ماجه فى الحدود حديث ٢٥٦٧ باب حد القذف

لأن ذلك أصل التكليف ولاتكليف بدون هذه الأشياء ، فإذا قذف المجنون أو الصبى أو المكره فلا حد على واحد منهم ؛ لقول رسول الله ﷺ :
(رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق)(١)
ويقول :
(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وماستكرهوا عليه)(٢)
فإذا كان الصبى مراهقا بحيث يؤذى قذفه فإنه يعزر تعزيرا مناسبا .
*شروط المقذوف : ـ
وشروط المقذوف هى :
١ ـ العقل : ـ
لأن الحد إنما شرع للزجر عن الأذية بالضرر الواقع على المقذوف ولا مضرة على من فقد العقل فلا يحد قاذفه .
٢ ـ البلوغ :
وكذلك يشترط فى المقذوف البلوغ فلا يحد قاذف الصغير والصغيرة ، فإذا رمى حبيسة يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى ؛ فقد قال جمهور العلماء : إن هذا ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنى، إذ لاحد عليها . ويعزر القاذف .
وقال مالك : إن ذلك قذف يحد فاعله .
وقال ابن العربى :
(والمسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكا غلب عرض المقذوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزم الحد)
وقال ابن المنذر :
وقال أحمد فى الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبى إذا بلغ ضرب قاذفه
وقال إسحق :
إذا قذف غلام يطأ مثله فعليه الحد ، والجارية إذا جاوزت تسعة مثل ذلك .
وقال ابن المنذر :
لايحد من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب . ويعزر على الأذى .
٣ ـ الإسلام :
والإسلام شرط فى المقذوف ، فلو كان المقذوف من غير المسلمين لم يقم الحد على قاذفه عند جمهور

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث ص ٣٢
(٢) الحديث أورده صاحب كشف الخفاء ج ١ ص ٥٢٢ رقم ١٣٩٣ . قال فى اللآلىء لايوجد بهذا اللفظ ، وأقرب ماوجد ما رواه ابن عدى فى الكامل عن أبى بكرة بلفظ رفع الله عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ ، والنسيان ، والأمر يكرهون عليه ، .
وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس يرفعه قال إن الله وضع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وماستكرهوا عليه .
وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

العلماء ، وإذا كان العكس فقذف النصرانى أو اليهودى المسلم الحر فعليه ماعلى المسلم : ثمانون جلدة .

٤ ـ الحرية : ـ

فلا يحد الحر بقذفه العبد ؛ سواء أكان العبد ملكا للقاذف أم لغيره ؛ لأن مرتبته تختلف عن مرتبة الحر ، وإن كان قذف الحر للعبد محرما لما رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : (من قذف مملوكا بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال)[1]

قال العلماء :

وإنما كان ذلك فى الآخرة لارتفاع الملك ، واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافأ الناس فى الحدود والحرمة واقتص من كل واحد لصاحبه ، إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم . .

وإنما لم يتكافأوا فى الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين فى مكافأتهم لهم فلا تصبح لهم حرمة ولا فضل فى منزلة ، وتبطل فائدة التسخير .

ومن قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحد ، وهو اختيار ابن المنذر ، وقال الحسن البصرى : لاحد عليه .

وأما ابن حزم فإنه رأى غير مارآه جمهور الفقهاء ، فرأى أن قاذف العبد يقام عليه الحد ، وأنه لافرق بين الحر والعبد فى هذه الناحية .

قال :

(وأما قولهم : لاحرمة للعبد ولا للأمة فكلام سخيف ، والمؤمن له حرمة عظيمة) .

ورب عبد جلف خير من خليفة قرشى عند الله ـ تعالى ـ ورأى ابن حزم هذا رأى وجيه وحق ، لو لم يصطدم بالنص المتقدم .

٥ ـ العفة : وهى العفة عن الفاحشة التى رمى بها ، سواء أكان عفيفا عن غيرها أم لا ، حتى أن من زنى فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف ؛ فإنه لاحد عليه .

وإن كان هذا القذف يستوجب التعزير لأنه أشاع مايجب ستره وإخفاؤه .

* مايجب توافره فى المقذوف به : ـ

أما مايجب توافره فى المقذوف به فهو التصريح بالزنى أو التعريض الظاهر ، ويستوى فى ذلك القول والكتابة .

ومثال التصريح أن يقول موجه الخطاب إلى غيره : (يازانى)

أو يقول عبارة تجرى مجرى هذا التصريح ، كنفى نسبه عنه ، ومثال التعريض كأن يقول فى مقام التنازع : (لست بزان ولا أمى بزانية)

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : قذف العبيد ج ٨ ص ٢١٨
وأخرجه مسلم فى كتاب الأيمان باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنى ج ٣ ص ١٢٨٢ رقم ٣٧/ ١٦٦٠ .

وقد اختلف العلماء فى التعريض ، فقال مالك :

إن التعريض الظاهر ملحق بالتصريح ؛ لأن الكناية قد تقوم ـ بعرف العادة والاستعمال ـ مقام النص الصريح وإن كان اللفظ فيها مستعملا فى غير موضعه ، وقد أخذ عمر ـ رضى الله عنه ـ بهذا الرأى .

روى مالك عن عمرة بنت عبد الرحمن :

(أن رجلين استبا فى زمان عمر بن الخطاب ، فقال أحدهما للآخر :

(والله مأبى بزان ولا أمى بزانية)

فاستشار عمر فى ذلك .

فقال قائل : مدح أباه وأمه

وقال آخرون : قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا .

نرى أن تجلده الحد ، فجلده عمر الحد ثمانين .

وذهب ابن مسعود وأبو حنيفة والشافعى والثورى ، وابن أبى ليلى وابن حزم والشيعة ورواية عن أحمد : إلى أنه لاحد فى التعريض ، لأن التعريض يتضمن الاختمال والاحتمال شبهة . والحدود تدرأ بالشبهات .

إلا أن أبا حنيفة والشافعى يريان تعزير من يفعل ذلك .

قال صاحب الروضة الندية كاشفا وجه الصواب فى هذا :

التحقيق أن المراد من رمى المحصنات المذكور فى كتاب الله ـ عز وجل ـ هو أن يأتى القاذف بلفظ يدل ـ لغة أو شرعا أو عرفا ـ على الرمى بالزنى ويظهر من قرائن الأحوال أن المتكلم لم يرد إلا ذلك ، ولم يأت بتأويل مقبول يصح حمل الكلام عليه ، فهذا يوجب حد القذف بلا شك ولا شبهة .

وكذلك لو جاء بلفظ لايحتمل الزنى أو يحتمله احتمالا مرجوحا ، وأقر أنه أراد الرمى بالزنى فإنه يجب عليه الحد .

وأما إذا عرض بلفظ محتمل ولم تدل قرينة حال ولا مقال على أنه قصد الرمى بالزنى فلا شىء عليه لأنه لايسوغ إيلامه بمجرد الاحتمال .

*** بم يثبت حد القذف ؟ : ـ**

الحد يثبت بأحد أمرين : ـ

١ ـ إقرار القاذف نفسه .

٢ ـ أو بشهادة رجلين عدلين .

*** عقوبة القاذف الدنيوية : ـ**

يجب على القاذف ـ إذا لم يقم البينة على صحة ماقال ـ عقوبة مادية ، وهى ثمانون جلدة ، وعقوبة أدبية ، وهى رد شهادته وعدم قبولها أبدا ، والحكم بفسقه لأنه يصبح غير عدل عند الله وعند الناس .

وهاتان العقوبتان هما المقررتان فى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

وهذا متفق عليه بين العلماء إذا لم يتب القاذف .

بقى هنا مسألتان اختلف فيهما العلماء :

* المسألة الأولى : ـ

هل عقوبة العبد مثل عقوبة الحر ؟ أو لا ؟

* المسألة الثانية : ـ إذا تاب القاذف ؛ هل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أو لا ؟

أما المسألة الأولى

فهى أنه إذا قذف العبد الحر المحصن وجب عليه الحد ، ولكن هل حده مثل حد الحر أو على النصف منه ؟ !

لم يثبت حكم ذلك فى السنة ، ولهذا اختلفت أنظار الفقهاء فذهب أكثر أهل العلم إلى أن العبد إذا ثبتت عليه جريمة القذف فعقوبته أربعون جلدة ؛ لأنه حد ينصف بالرق مثل حد الزنى ، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾(١)

قال مالك : (قال أبو الزناد : سألت عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ذلك . فقال : أدركت عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان والخلفاء وهلم جرا ، فما رأيت أحدا جلد عبدا فى فرية أكثر من أربعين)

وروى عن ابن مسعود والزهرى وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب والأوزاعى وابن حزم ، أنه يجلد ثمانين جلدة ؛ لأنه حد وجب حقا للآدميين ، إذ أن الجناية وقعت على عرض المقذوف ، والجناية لاتختلف بالرق والحرية .

قال ابن المنذر : (والذى عليه الأمصار القول الأول ، وبه أقول)

وقال فى المثنوى : (وعليه أهل العلم) .

وقد ناقش صاحب الروضة الندية الرأى الأول ، وقال مرجحا الرأى الثانى : الآية الكريمة عامة يدخل تحتها الحر والعبد ، والغضاضة بقذف العبد للحر أشد منها بقذف الحر للحر ، وليس فى حد القذف مايدل على تنصيفه للعبد لا من الكتاب ولا من السنة .

ومعظم ماوقع التعويل عليه هو قوله ـ تعالى ـ فى حد الزنى .

﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾

ولايخفى أن ذلك فى حد آخر غير حد القذف . فإلحاق أحد الحدين بالآخر فيه إشكال ، لاسيما مع اختلاف العلة وكون أحدهما حقا لله محضا والآخر مشوبا بحق آدمى .

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة النساء

* أما المسألة الثانية :

فقد اتفق الفقهاء على أن القاذف لاتقبل شهادته مادام لم يتب ؛ لأنه ارتكب مايستوجب الفسق ، والفسق يذهب بالعدالة ، والعدالة شرط فى قبول الشهادة ، وأنه لم يتب من فسقه هذا ، والجلد وإن كان مكفرا للإثم الذى ارتكبه ومخلصا له من عذاب الآخرة ، إلا أنه لايزيل عنه وصف الفسق الموجب لرد الشهادة .

ولكن إذا تاب وحسنت توبته فهل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أم لا ؟

اختلف الفقهاء فى ذلك إلى رأيين :

الرأى الأول :

يرى قبول شهادة المحدود فى قذف إذا تاب توبة نصوحا ، وهذا هو رأى مالك والشافعى وأحمد والليث وعطاء وسفيان بن عيينة والشعبى والقاسم وسالم والزهرى ، وقال عمر لبعض من حدهم فى قذف :

إن تبت قبلت شهادتك !

أما الرأى الثانى :

فإنه يرى عدم قبولها ، وممن ذهب إلى هذا : الأحناف والأوزاعى والثورى والحسن وسعيد بن المسيب وشريح وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير .

وأصل هذا الخلاف هو الاختلاف فى تفسير قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

فهل الاستثناء فى الآية راجع إلى الأمرين معا ـ أى : عدم قبول الشهادة والحكم بالفسق ـ أو راجع إلى الأمر الأخير وهو الحكم بالفسق ؟

فمن قال إن الاستثناء راجع إلى الأمرين معا قال بجواز قبول الشهادة بعد التوبة .

ومن قال إنه راجع إلى الحكم بالفسق ، قال بعدم قبولها مهما كانت توبته .

*** كيفية التوبة : ـ**

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ :

(توبة القاذف لاتكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى لا حد فيه)

وقال للذين شهدوا على المغيرة : ـ

من أكذب نفسه أجزت شهادته فيما يستقبل ومن لم يفعل لم أجز شهادته . فأكذب الشبل بن معبد ، ونافع بن الحارث بن كلدة أنفسهما وتابا . وأبى أبو بكرة أن يفعل ، فكان لاتقبل شهادته .

وهذا مذهب الشعبى ، ومحكى عن أهل المدينة ، وقالت طائفة من العلماء :

توبته أن يصلح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك العود إليه ، وهذا مذهب مالك وابن جرير .

هل يحد بقذف فرعه ؟

قال أبو ثور وابن المنذر :
(إذا قذف القاذف ابنه فإنه يحد لظاهر القرآن الكريم ؛ فإنه لم يفرق بين قاذف وقاذف)
وقالت الحنفية والشافعية : لايحد ؛ لأنه يشترط فى القاذف الا يكون أصلا كالأب والأم ؛ لأنه إذا لم يقتل الأصل به فعدم حده بقذفه أولى ، وإن قالوا بتعزيره ؛ لأن القذف أذى .

تكرار القذف لشخص واحد :

إذا قذف القاذف شخصا واحدا أكثر من مرة ؛ فعليه حد واحد إذا لم يكن قد حد لواحد منها ؛ فإن كان قد حد لواحد منها ثم عاد إلى القذف حد مرة ثانية ، فإن عاد حد مرة ثالثة ، وهكذا يحد لكل قذف .

*** قذف الجماعة* : ـ**

إذا قذف القاذف جماعة ورماهم بالزنى ، فقد اختلفت أنظار الفقهاء فى حكمه إلى ثلاثة مذاهب : ـ

١ ـ المذهب الأول : مذهب القائلين بأنه يحد حدا واحدا . وهم أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد ، والثورى .

٢ ـ والمذهب الثانى : مذهب القائلين بأن عليه لكل واحد حدا ، وهم الشافعى والليث .

٣ ـ والمذهب الثالث : مذهب الذين فرقوا بين أن يجمعهم فى كلمة واحدة . مثل أن يقول لهم : يازناة ، أو يقول لكل واحد : يازانى ؛ ففى الصورة الأولى يحد حدا واحدا ، وفى الثانية عليه حد لكل واحد منهم .

قال ابن رشد : ـ

فعمدة من لم يوجب على قاذف الجماعة إلا حدا واحدا حديث أنس وغيره :

أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء ؛ فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فلاعن بينهما ولم يحد شريكا وذلك إجماع من أهل العلم فيمن قذف زوجته برجل .

وعمدة من رأى أن الحد لكل واحد منهم أنه حق للآدميين ، وأنه لو عفا بعضهم ولم يعف الكل لم يسقط الحد .

وأما من فرق بين من قذفهم فى كلمة واحدة أو كلمات ، أو فى مجلس واحد أو فى مجالس فلأنه رأى أنه واجب أن يتعدد الحد بتعدد القذف ؛ لأنه إذا اجتمع تعدد المقذوف وتعدد القذف ، كان أوجب أن يتعدد الحد .

هل الحد حق من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؟

ذهب أبو حنيفة إلى أن الحد حق من حقوق الله ، ويترتب على كونه حقا من حقوق الله ، أنه إذا بلغ الحاكم وجب عليه إقامته ، وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ولا يسقط بعفوه ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ ويتنصف فيه الحد بالرق مثل الزنى .

وذهب الشافعى إلى أنه حق من حقوق الآدميين ، ويترتب عليه أن الإمام لايقيمه إلا بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه ، ويورث عنه ويسقط بعفو وارثه ، ولا تنفع القاذف التوبة حتى يحلله

المقذوف .

سقوط الحد : ـ

ويسقط حد القذف بمجيء القاذف بأربعة شهداء ؛ لأن الشهداء ينفون عنه صفة القذف الموجبة للحد ، ويثبتون صدور الزنى بشهادتهم .

فيقام حد الزنى على المقذوف ؛ لأنه زان . وكذلك إذا أقر المقذوف بالزنى واعترف بما رماه به القاذف .

وإذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد ؛ إذا توافرت شروطه بخلاف ما إذا قذفها هو ولم يقم عليها البينة ؛ فإنه لايقام عليه الحد ، وإنما يتلاعنان .

* اللعان *

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

* تفسير المفردات *

يرمون أزواجهم : أى يقذفونهن بالريبة وتهمة الزنى

ولعنة الله : الطرد من رحمته

ويدرأ : أى يدفع . والعذاب : الحد ، وغضب الله : سخطه والبعد عن فضله وإحسانه .

* المناسبة وإجمالى المعنى *

بعد أن بين ـ سبحانه ـ حكم قاذف الأجنبيات بالزنى وذكر أنه لايعفى القاذف من العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء ، ذكر هنا ماهو فى حكم الاستثناء من ذلك وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة فى الآية ، لأن فى تكليف الزوج إحضار الشهود إعناتا له وإحراجا ، ولما يلحقه من الغيرة على أهله ، ثم كظم الغيظ إذ لايجد مخلصا من ضيقه .

روى عن ابن عباس أنه قال : لما نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ والذين يرمون المحصنات . . ﴾ قال عاصم بن عدى الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال : وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر ، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصما فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله - ﷺ فقال : يارسول الله ماأسرعماابتليت بهذا فى أهل بيتى ! فقال رسول الله ﷺ : وماذاك ؟ قال : أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم ، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعا ، وقال : ياعويمر اتق الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها ، وإنى ماقربتها منذ أربعة أشهر ، وإنها حبلى من غيرى ، فقال لها النبى ﷺ : اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعت ، فقالت : يارسول الله : إن عويمرا رجل غيور ، وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلى ويتحدث فحملته الغيرة على ماقال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله - ﷺ - فنودى (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال:عويمر قم وقل : أشهد بالله إن خولة لزانية وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله إنها حبلى من غيرى وإنى من الصادقين ، ثم قال :

قال : قل : أشهد بالله إنها زانية وإنى ماقربتها منذ أربعة شهور وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : لعنة الله على عويمر (يعنى نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقعد .

وقال لخولة : قومى فقامت وقالت : أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا زوجى لمن الكاذبين ، وقالت فى الثانية : أشهد بالله مارأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين . وقالت فى الثالثة : إنى حبلى منه ، وقالت فى الرابعة : أشهد بالله إنه مارآنى على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين فى قوله . ففرق رسول الله بينهما .

وفى رواية عن ابن عباس : (أنها حين كانت تؤدى الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لاأفضح قومى ، فشهدت فى الخامسة كما تقدم . فقضى رسول الله ﷺ بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها لأب وأن لامسكن لها عليه ولا مؤنة من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولاوفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما (اللعان والملاعنة)

وفى رواية : (أن رسول الله ﷺ قال : أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة (سحلية) فلا أراه إلا كاذبا ، فجاءت به على النعت المكروه)[1]

* قال الفقهاء عن اللعان *

*** تعريفه :ـ**

اللعان : مأخوذ من اللعن ؛ لأن الملاعن يقول فى الخامسة :

(أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى « كتاب الشهادات » باب : إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة .. الخ ج ٣ ص ٢٣٣

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب : اللعان ج ١ ص ٦٦٨ رقم ٢٠٦٧

وقيل : هو الابعاد

وسمى المتلاعنان بذلك ، لما يعقب اللعان من الإثم والإبعاد ، ولأن أحدهما كاذب ، فيكون ملعونا . وقيل : لأن كل واحد منهما يبعد عن صاحبه بتأييد التحريم .

وحقيقته : أن يحلف الرجل - إذا رمى امرأته بالزنى أربع مرات إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وأن تحلف المرأة عند تكذيبه أربع مرات ، إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن عليها غضب الله إن كان من الصادقين .

مشروعيته : -

إذا رمى الرجل امرأته بالزنى ولم تقر هى بذلك ولم يرجع عن رميه فقد شرع الله لهما اللعان .

روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - :

(أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء . فقال النبى ﷺ : (البينة أو حد فى ظهرك) فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول :

(البينة وإلا حد فى ظهرك)[1]

فقال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله مايبرىء ظهرى من الحد فنزل جبريل - عليه السلام - وأنزل عليه قوله - تعالى - :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ .

فانصرف النبى ﷺ إليها ، فجاء هلال فشهد والنبى - ﷺ - يقول :

(إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟)

فشهدت . فلما كانت عند الخامسة وقفوها ، وقالوا : إنها الموجبة . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فتلكأت ونكبت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت . فقال النبى ﷺ :

(أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء)

فجاءت به كذلك . فقال النبى ﷺ :

(لولا مامضى من كتاب الله كان لى ولها شأن)

قال صاحب بداية المجتهد :

وأما من طريق المعنى : فلما كان الفراش موجبا لحقوق النسب ، كان للناس ضرورة إلى طريق ينفونه به إذا تحققوا فساده . وتلك الطريق هى اللعان . فاللعان حكم ثابت بالكتاب والسنة والقياس والإجماع .

إذ لاخلاف فى ذلك عامة .

---

(١) وحديث قصة الملاعنة أورده أصحاب السنن بألفاظ مختلفة ، ورواية قصة عويمر مروية عن سهل بن سعد - رضى الله عنه -

متى يكون اللعان . . ؟

ويكون اللعان فى صورتين :

الصورة الأولى : أن يرمى الرجل امرأته بالزنى ولم يكن له أربعة شهود يشهدون عليها بما رماها به .

الصورة الثانية : أن ينفى حملها منه .

وإنما يجوز فى الصورة الأولى إذا تحقق من زناها كأن رآها تزنى أو أقرت هى ، ووقع فى نفسه صدقها .

والأولى فى هذه الحال أن يطلقها ولا يلاعنها .

فإذا لم يتحقق من زناها ؛ فإنه لايجوز له أن يرميها به .

ويكون نفى الحمل فى حالة ما إذا ادعى أنه لم يطأها أصلا من حين العقد عليها ، أو ادعى أنها أتت به لأقل من ستة أشهر بعد الوطء أو لأكثر من سنة من وقت الوطء .

* الحاكم هو الذى يقضى باللعان :ـ

ولابد من حضور الحاكم عند اللعان وينبغى له أن يذكر المرأة ويعظها ، بمثل ماجاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم :

(أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله فى شيء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه وفضحه على رءوس الأولين والآخرين)[1]

اشتراط العقل والبلوغ :ـ

وكما يشترط فى اللعان الحاكم ، يشترط العقل والبلوغ فى كل من المتلاعنين وهذا أمر مجمع عليه .

اللعان بعد إقامة الشهود :ـ

وإذا أقام الزوج الشهود على الزنى فهل له أن يلاعن ؟

قال أبو حنيفة وداود : لايلاعن ؛ لأن اللعان إنما جعل عوضا عن الشهود لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾

وقال مالك والشافعى : له أن يلاعن ؛ لأن الشهود لاتأثير لهم فى دفع الفراش .

هل اللعان يمين أم شهادة ؟ :

يرى الإمام مالك والشافعى وجمهور العلماء أن اللعان يمين وإن كان يسمى شهادة ؛ فإن أحدا لايشهد لنفسه ، لقول رسول الله ﷺ فى بعض روايات حديث ابن عباس :

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى « كتاب الطلاق » باب : التغليظ فى الإنتفاء ج ٢ ص ٦٩٥ عن أبى هريرة حديث رقم ٢٢٦٣

وانظر سنن النسائى « كتاب الطلاق » باب : التغليظ فى الانتفاء من الولد ج ٦ ص ١٧٩

وأخرجه ابن ماجه فى « كتاب الفرائض » باب : من أنكر ولده ج ٢ ص ٩١٦ رقم ٢٧٤٣

قال : فى الزوائد : هذا إسناد ضعيف فيه يحيى بن حرب ، وهو مجهول : قاله الذهبى فى الكاشف .

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه « الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان » فى باب « ذكر نفى دخول الجنة عن المرأة الداخلة على قوم بولد ليس منهم » ج ٦ ص ١٦٣ رقم ٤٠٩٦

وأخرجه الحاكم فى « كتاب الطلاق » باب : مسألة اللعان وحكاية هلال بن أمية ج ٢ ص ٢٠٣

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(لولا الأيمان لكان لى ولها شأن) .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه شهادة واستدلوا بقول الله ـ تعالى ـ :
﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ﴾ وبحديث ابن عباس المتقدم وفيه : (فجاء هلال فشهد ، ثم قامت فشهدت)

والذين رأوا أنه يمين ، قالوا : إنه يصح اللعان بين كل زوجين حرين كانا أو عبدين أو أحدهما ، أو عدلين أو فاسقين أو أحدهما .

والذين ذهبوا إلى أنه شهادة قالوا : لايصح إلا بين زوجين يكونان من أهل الشهادة وذلك بأن يكونا حرين مسلمين .

وأما العبدان أو المحدودان فى القذف ، فلا يجوز لعانهما ، وكذلك إن كان أحدهما من أهل الشهادة والآخر ليس من أهلها .

قال ابن القيم :

والصحيح أن لعانهم يجمع الوصفين : اليمين والشهادة ، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار ، ويمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار لاقتضاء الحال تأكيد الأمر ، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع .

أحدها : ذكر لفظ الشهادة .

الثانى : ذكر القسم بأحد أسماء الرب ـ سبحانه ـ وأجمعها لمعانى أسمائه الحسنى وهو اسم الله جل ذكره .

الثالث : تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه من (أن واللام) وإتيانه باسم الفاعل الذى هو صادق وكاذب ، دون الفعل الذى هو صدق وكذب .

الرابع : تكرار ذلك أربع مرات .

الخامس : دعاؤه على نفسه فى الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين

السادس : إخباره عند الخامسة أنها الموجبة لعذاب الله وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

السابع : جعل لعانه مقتضيا لحصول العذاب عليها ، وهو إما الحد أو الحبس ، وجعل لعانها دارئا للعذاب عنها .

الثامن : أن هذا اللعان يوجب العذاب على أحدهما إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

التاسع : التفريق بين المتلاعنين وخراب بيتهما وكسرهما بالفراق .

العاشر : تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما . فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن جعل يمينا مقرونا بالشهادة وشهادة مقرونة باليمين ، وجعل الملتعن ـ لقبول قوله ـ كالشاهد ، فإن نكلت المرأة مضت شهادته وحدت وأفادت شهادته ويمينه شيئين : سقوط الحد عنه ووجوبه عليها ، وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها ، أفاد لعانه بسقوط الحد عنه دون وجوبه عليها فكان شهادة ويمينا بالنسبة إليه دونها .

لأنه إن كان يمينا محضة فهى لاتحد بمجرد حلفه ، وإن كان شهادة فلا تحد بمجرد شهادته عليها

وحده ، فإذا انضم إلى ذلك نكولها قوى جانب الشهادة واليمين فى حقه بتأكده ونكولها ، فكان دليلا ظاهرا على صدقه فأسقط الحد عنه وأوجبه عليها ، وهذا أحسن مايكون من الحكم .

﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[1]

وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة ، وشهادة فيها معنى اليمين .

لعان الأعمى والأخرس :ـ

لم يختلف أحد فى جواز لعان الأعمى ، واختلفوا فى الأخرس ، فقال مالك والشافعى : يلاعن الأخرس إذا فهم عنه .

وقال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ : لايلاعن ، لأنه ليس من أهل الشهادة .

من يبدأ بالملاعنة :ـ

اتفق العلماء على أن السنة فى اللعان تقديم الرجل فيشهد قبل المرأة .

واختلفوا فى وجوب هذا التقديم .

فقال الشافعى وغيره : هو واجب ، فإذا لاعنت المرأة قبله فإن لعانها لايعتد به .

وحجتهم أن اللعان يشرع لدفع الحد عن الرجل ، فلو بدىء بالمرأة لكان دفعا لأمر لم يثبت .

وذهب أبو حنيفة ومالك : إلى أنه لو وقع الابتداء بالمرأة صح واعتد به .

وحجتهم أن الله ـ سبحانه ـ عطف فى القرآن بالواو ، والواو لاتقتضى الترتيب بل هى لمطلق الجمع .

النكول عن اللعان

النكول : الامتناع :ـ

والنكول عن اللعان إما أن يكون من الزوج أو من الزوجة ، فإن نكل الزوج فعليه حد القذف ، لقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾

فإذا لم يشهد فهو مثل الأجنبى فى القذف ، ولما تقدم من قول الرسول ﷺ : (البينة أو حد فى ظهرك)

وهذا مذهب الأئمة الثلاثة .

وقال أبو حنيفة : لاحد عليه ويحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه ، فإن كذب نفسه وجب عليه حد القذف .

فإذا نكلت الزوجة أقيم عليها حد الزنى عند مالك والشافعى .

وقال أبو حنيفة : لاتحد وحبست حتى تلاعن أو تقر بالزنى، وإن صدقته أقيم عليها الحد .

وأستدل أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ بقول الرسول ﷺ : (لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى

---

(١) من الآية ٥٠ من سورة المائدة

ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس)[١]

ولأن سفك الدماء بالنكول حكم ترده الأصول ، فإنه إذا كان كثير من الفقهاء لايوجبون غرم المال بالنكول فكان بالأحرى ألا يجب بذلك سفك الدماء .

قال ابن رشد : (وبالجملة : فقاعدة الدماء مبناها فى الشرع على أنها لاتراق إلا بالبينة العادلة أو بالاعتراف ، ومن الواجب ألا تخصص هذه القاعدة بالاسم المشترك) .

فأبو حنيفة فى هذه المسألة أدلى بالصواب - إن شاء الله - وقد اعترف أبو المعالى فى كتابه (البرهان) بقوة أبى حنيفة فى هذه المسألة وهو شافعى .

* **التفريق بين المتلاعنين : -**

إذا تلاعن الزوجان وقعت الفرقة بينهما على سبيل التأبيد ولا يرتفع التحريم بينهما بحال :

فعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال :

(المتلاعنان إذا تفرقا لايجتمعان أبدا)

وعن على وابن مسعود قالا : (مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان)[٢]

رواه الدارقطنى .

ولأنه قد وقع بينهما من التباغض والتقاطع ماأوجب القطيعة بينهما بصفة دائمة ، لأن أساس الحياة الزوجية : السكينة ، والمودة ، والرحمة ، وهؤلاء قد نقضوا هذا الأساس ، فكانت عقوبتهما الفرقة المؤبدة .

واختلف الفقهاء فيما إذا كذب الرجل نفسه ، فقال الجمهور : إنهما لايجتمعان أبدا ، وقال أبو حنيفة : إذا كذب نفسه جلد الحد ، وجاز له أن يعقد عليها من جديد ، واستدل أبو حنيفة بأنه إذا كذب نفسه فقد بطل حكم اللعان ، فكما يلحق به الولد ، كذلك ترد الزوجة عليه ، وذلك أن السبب الموجب للتحريم إنما هو الجهل بتعيين صدق أحدهما . مع القطع بأن أحدهما كاذب ، وإذا انكشف ارتفع التحريم .

متى تقع الفرقة ؟

تقع الفرقة إذا فرغ المتلاعنان من اللعان ، وهذا عند مالك ، وقال الشافعى : تقع بعد أن يكمل الزوج لعانه ، وقال أبو حنيفة وأحمد والثورى : لاتقع إلا بحكم الحاكم .

هل الفرقة طلاق أو فسخ ؟ : -

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وعائشة انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٠٢ باب : مايباح به دم المسلم ، من كتاب القسامة برقم ١٦٧٦

وانظر مجمع الزوائد (كتاب الحدود) باب : لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث ج ٦ ص ٢٥٣ .

وفى سنن ابن ماجه فى (كتاب الحدود) باب : لايحل دم امرىء مسلم إلا فى ثلاث ج ٢ ص ٨٤٧ رقم ٢٥٣٣ ، ٢٥٣٤

وأخرجه أبو داود - واللفظ له - فى (كتاب الديات) باب : الإمام يأمر بالعفو فى الدم ج ٤ ص ١٧٠ رقم ٤٥٠٢ من رواية أبى أمامة بن سهل

وأنظر نفس المصدر (كتاب الحدود) باب : الحكم فيمن ارتد ج ٤ ص ١٢٧ رقم ٤٣٥٢ ، ٤٣٥٣

وأنظر صحيح البخارى (كتاب الديات) ج ٩ ص ٦ باب : قول الله تعالى : « أن النفس بالنفس » .

(٢) روى الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الطلاق) باب اللعان ج ٥ ص ١٣ قال : وعن ابن مسعود قال:لايجتمع المتلاعنان أبدا . قال الهيثمى :رواه الطبرانى وإسناده منقطع ورجاله رجال الصحيح .

يرى جمهور العلماء أن الفرقة الحاصلة باللعان فسخ .

ويرى أبو حنيفة أنها طلاق بائن ، لأن سببها من جانب الرجل ، ولا يتصور أن تكون من جانب المرأة ؛ وكل فرقة كانت كذلك تكون طلاقا لا فسخا ، فالفرقة هنا مثل فرقة العنين إذا كانت بحكم الحاكم .

وأما الذين ذهبوا إلى الرأى الأول فدليلهم تأبيد التحريم فأشبه ذات المحرم ، وهؤلاء يرون أن الفسخ باللعان يمنع المرأة من استحقاقها النفقة فى مدة العدة وكذلك السكنى ؛ لأن النفقة والسكنى إنما يستحقان فى عدة الطلاق لا فى عدة الفسخ ، ويؤيد هذا مارواه ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قصة الملاعنة (أن النبى ﷺ قضى ألا قوت لها ولا سكنى من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها) رواه أحمد وأبو داود[1] .

* إلحاق الولد بأمه : -

إذا نفى الرجل ابنه وتم اللعان بنفيه له انتفى نسبه من أبيه ، وسقطت نفقته عنه ، وانتفى التوارث بينهما ، ولحق بأمه ، فهى ترثه وهو يرثها ؛ لما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : (قضى رسول الله ﷺ فى ولد المتلاعنين أنه يرث أمه وترثه أمه ، ومن رماها به جلد ثمانين)[2] أخرجه أحمد ويؤيد هذا الحديث الأدلة الدالة على أن الولد للفراش ، ولافراش هنا ؛ لنفى الزوج إياه .

وأما من رماها به اعتبر قاذفا ، وجلد ثمانين جلدة ؛

لأن الملاعنة داخلة فى المحصنات ولم يثبت عليها مايخالف ذلك ، فيجب على من رماها بابنها حد القذف ، ومن قذف ولدها يجب حده كمن قذف أمه سواء بسواء .

وهذا بالنسبة للأحكام التى تلزمه .

أما بالنسبة للأحكام التى شرعها الله للكافة فإنه يعامل كأنه ابنه من باب الاحتياط فلا يعطيه زكاة ماله ، ولو قتله لاقصاص عليه ، وتثبت الحرمة بينه وبين أولاده ، ولاتجوز شهادة كل منهما للآخر ، ولايعد مجهول النسب ، فلايصح أن يدعيه غيره ، وإذا كذب نفسه ثبت نسب الولد منه ، ويزول كل أثر للعان بالنسبة للولد .

« حديث الإفك »

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ

---

(١) انظر قصة المتلاعنين فى كتب السنة

(٢) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد فى « كتاب الفرائض » باب ميراث ابن الملاعنة قال : عن ابن مسعود قال ميراث ابن الملاعنة كله لأمه . رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة لم يدرك ابن مسعود . وعن على وابن مسعود قالا:عصبة ابن الملاعنة عصبة أمه . رواه الطبرانى وفيه من لم يسم ج ٤ ص ٢٣٠ .

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ
شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ
أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا
تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

تفسير المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء .
العصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبى بن سلول وقد تولى كبره وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب ـ رضى الله عنها ـ وزوج طلحة بن عبيد الله ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت .
كبره (بكسر الكاف وضمها وسكون الباء) أى : معظمه ؛ فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .
لولا : كلمة بمعنى (هلا) تفيد الحث على فعل مابعدها .
مبين : أى ظاهر مكشوف .
أفضتم : أى خضتم فى حديث الإفك .
تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه ، ومنه ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾[1]
سبحانك : تعجب ممن تفوه به .
بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته .
يعظكم : أى ينصحكم .
تشيع : أى تنتشر
الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنى .
خطوات : واحدها خطوة (بالضم) مابين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه .
المنكر : ماتنكره النفوس فتنفر منه .
زكا : أى طهر من دنس الذنوب .
ولايأتل : أى لايحلف
الفضل : الزيادة فى الدين .
السعة : الغنى
المحصنات : العفيفات
الغافلات : أى من الفواحش وهن النقيات القلوب اللاتى لايفكرن فى فعلها
لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا فى الدنيا بالحد .
دينهم : أى جزاءهم ومنه « كما تدين تدان »
الحق : أى الثابت الذى يحق لهم لامحالة
أن الله : أى وعده ووعيده
الحق : أى العدل الذى لاجور فيه .

---
(١) من الآية ٣٧ من سورة البقرة .

« المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات ، وحكم من قذف الزوجات ، ذكر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله ﷺ ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى (نصيبى) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ، ثم نودى بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج ، وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد أن استمر الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ، ويعودون فى طلبى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى ، فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يديها فقمت إليها فركبتها ، وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نحر الظهيرة وافتقدنى الناس حين نزلوا ، وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت مع أم مسطح قبل (المناصع) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هنتاه أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى منزلى ودخل على رسول الله ﷺ ثم قال كيف تيكم ؟ قلت أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قال : نعم ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجئت أبوى فقلت لأمى : أى أماه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت : قلت سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله ﷺ قالت : نعم ، قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ! ثم أصبحت فدخل على أبو بكر وأنا أبكى فقال لأمى : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها فأكب يبكى فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يا بنية . فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ،

وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى فى نفسه من الود فقال : يارسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما على فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير و إن تسأل الجارية (يعنى بريرة) تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكبر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى فقال وهو على المنبر يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى - رضى الله عنه فقال : أنا أعذرك يارسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال أى : سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ثم أتانى رسول الله ﷺ وأنا فى بيت أبوى فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمعة قلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم ، حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيبرئنى ببراءتى ، ولكنى والله ماكنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت : والله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى ياعائشة ، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى ،

فأنزل الله : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة - الى قوله - غفور رحيم ﴾ سورة النور الآية (٢٢) .

فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت فقالت : يارسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا ، قالت عائشة وهى التى كانت تساميني فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك (١) .

وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء .

وبعد ان ذكر قصص أم المؤمنين عائشة ، وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد عذابه يوم القيامة ، وأسهب فى هذا أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو : أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة ، بالخنا والفجور فهو مطرود من رحمة الله ، بعيد عن دار نعمه ، معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا . .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أى : الكذب والبهت والافتراء (عصبة) أى : جماعة منكم (لا تحسبوه شرا لكم) أى : ياآل أبى بكر (بل هو خير لكم) أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ، ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله - تعالى - لعائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس - رضى الله عنه وعنها - وهى فى سياق الموت قال لها : أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزلت براءتك من السماء .

وقال ابن جرير فى تفسيره : تفاخرت عائشة وزينب - رضى الله عنهما - فقالت زينب : أنا التى أنزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب : ياعائشة ، ما قلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت : قلت كلمة المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾

أى : نصيب من العذاب والخزى العظيم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب « تعديل النساء بعضهم بعضا » : ٢٢٧/٣ - ٢٣١ وتفسير سورة يوسف ، ٩٥/٦ - ٩٦ ، وتفسير سورة النور : ١٢٧/٦ - ١٣٢ وكتاب الايمان ، باب « اليمين فيما لا يملك وفى المعصية وفى الغضب : ١٧٢/٨ وكتاب التوحيد : ١٧٦/٩ ، ١٧٧ ، ومسلم كتاب التوبة ، باب « فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف » : ١١٢/٨ - ١١٨ (انظر ابن كثير المجلد السادس ط/ الشعب) . .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾.

يأيها العاقل :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل ياعين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

ما أجمل قول الله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ سورة الأعراف الآيتان : ١٩٩ ـ ٢٠٠

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ● وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ سورة فصلت الآيتان : ٣٤ ، ٣٥

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾. سورة فصلت الآية ٣٦
قال الحكيم :

يخاطبنى السفيه بكل قبح وأأبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الاحراق طيبا

وقال آخر :

وإذا أتتك مسبتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الانسان لا يلدغنك إنه ثعبان

فاللهم أدبنا بأدب القرآن الذى قلت فيه :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ سورة الفرقان آية : ٦٣

وقلت فيه :

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ سورة الفرقان آية: ٧٢.

وقلت فيه :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى

الجاهلين ﴾ سورة القصص آية : ٥٥ .

وقوله تعالى : ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ المقصود بالذىُ تولى كبره أى : الذى ابتدأ الكلام فيه ، وعمل على أن يشيع وينتشر ، وهو عبْد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين .

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

ماذا يجب على المؤمن من أدب يلتزم به عندما يسمع هذه الأكاذيب وتلك الأباطيل وهاتيك الترهات ؟ فى هذا المقام يعلمنا القرآن الأدب الرفيع فيقول : ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أى هلا إذ سمعتم هذا الكلام ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . كان عمر ـ رضى الله عنه ـ صلبا فى الحق لما سأله النبى ﷺ عن عائشة قال الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل : يارسول الله ، من الذى زوجكها ، قال رسول الله ﷺ : الله ياعمر ، قال عمر بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أترى أن الله ـ تعالى ـ دلس عليك فى زواجها (١) .

هذا موقف المؤمن الحازم الحاسم الجازم .

إن الإفك الذى يتردد على مرضى القلوب إنما هو رجس من عمل الشيطان ، وإفراز سيء لقلوب أهل الفسق والنفاق هلا جاءوا على ما قالوا بأربعة شهداء لا والله .﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

وما قالوه إنما هو محض افتراء ، وقد شهد الله ـ تعالى ـ عليهم بالكذب وعائشة ـ رضى الله عنها ـ بريئة من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

إنها الصديقة بنت الصديق أطهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

ان الناس جميعا لو تحولوا الى كناسين ليثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرنى أبى ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : لما ذكر من شأنى الذى ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ فى خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أشيروا على فى اناس أبنوا اهلى وايم الله ما علمت على أهلى إلا خيرا وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يارسول الله أئذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال : كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت ان تضرب اعناقهم حتى كاد أن يكون بين

(١) انظر المرجع السابق .

الأوس والخزرج شرفى المسجد وما علمت ، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح فعثرت فقالت : تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث ، فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، والله فرجعت الى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أم رومان : ماجاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى ، فقالت : يابنية خففى عليك الشأن ، فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ﷺ قالت : نعم ورسول الله ﷺ فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه ـ رضى الله عنه ـ فقال : أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتى فسأل عن خادمتى ، فقالت : يارسول الله ، لا والله ما علمت عليها عيبا إلا كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر وبلغ الأمر ذلك الرجل الذى قيل له ، فقال : سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة ـ رضى الله عنها : فقتل شهيدا فى سبيل الله ، قالت : وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ياعائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبى الى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » قالت . وقد جاءت امرأة من الأنصار فهى جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئا فوعظ رسول الله ﷺ فالتفت إلى أبى فقلت له : أجب رسول الله ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمى فقلت أجيبى رسول الله ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إنى لم أفعل والله ـ عز وجل ـ يشهد انى لصادقة ماذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إنى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا ـ والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ سورة يوسف من الآية : ١٨ وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشرى ياعائشة ، فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضبا : فقال لى أبواى : قومى إليه فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك » الحديث (١) .

(١) انظر المرجع السابق .

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ .

ولولا فضل الله عليكم أيها الخائضون فى شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الإفك . ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن

عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح ، وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين فى هذه الآية لأنه ليس عندهم من الايمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقا مشروطا بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير أى يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان ، وقال فلان : كذا وذكر بعضهم كذا ، ولذا أدب الله ـ تعالى ـ الجماعة المسلمة عندما تثور الشائعات وتكثر الأقاويل أدبهم بقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ سورة الحجرات آية : ٦

قوله تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ﴾ .

أى تهرفون بما لا تعرفون وتلوك ألسنتكم هذا الكلام وتنبس شفاهكم به وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

وسبحان الله إذ يقول : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

فمن الخطأ أن يقول الانسان مالا يعلم ، وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم وإذا أثم لا يندم .

إن الرجل يتكلم الكلمة من غضب الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار سبعين خريفا .

وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم . ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ـ ٧١ .

إن الكلمة مسئولية وأمانة فرحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

وجدت سكوتى متجرا فلزمته اذا لم يفد ربحا فلست بخاسر

قال حكيم :

إن كان الكلام من فضة فالسكوت مَن ذهب .

ما إن ندمت على سكوتى مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

فلا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، وإن القلب القاسى بعيد عن الله ـ عز وجل ـ ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عباد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

قوله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

قال ﷺ : (ان الله ـ تعالى ـ تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل) أخرجاه فى الصحيحين [١] .

وهذا أدب آخر بعد الأدب الأول الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

وفى هذا الأدب الثانى يقول تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه) أى : هلا وهى حرف تحضيض يفيد الحث والازعاج ، أى : هلا قلتم وقت سماعكم هذا الكلام البذىء هلا قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، وهلا نزهتم ألسنتكم وأفواهكم من هذا الدنس وقلتم : سبحانك هذا بهتان عظيم . عندما ترمى أم المؤمنين بهذا الخبث ولكنه درس من دروس الحياة حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والحسن من السىء ، والدنىء من الرفيع .

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ سورة النور الآيتان : ٥١، ٥٢ .

﴿ يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون * يأأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ سورة الأنفال الآيات : ٢٠ ـ ٢٥ . وسبحانك ربى من قائل :

﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ سورة الانفال الآية : ٢٧

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ سورة الأحزاب الآيتان : ٥٧ ـ ٥٨ .

وسبحانك من قائل : ﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ سورة الأحزاب الآية : ٦٩ . . وجل جلال الله إذ يقول مرشدا ومعلما : ﴿ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ سورة النور الآية : ١٨

---

(١) البخارى : كتاب الايمان ، باب « إذا جئت ناسيا » : ١٦٨/٨ ، ومسلم ، كتاب الايمان باب « تجاوز الله عن حديث النفس والخاطر » : ٨١/١ .

ان فى حادثة الافك دروسا لا تحصى وعبرا لا تستقصى .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

وقال حكيم :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

فسبحانك من عليم علمت ماكان ، وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

وسبحانك من حكيم تنزهت عن العبث فقولك الحق ، وحكمك العدل ، ولا راد لقضائك ، ولا معقب لحكمك وأنت سريع الحساب .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قال الامام أحمد بسنده ، عن محمد بن عباد المخزومى ، عن ثوبان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » (١) .

إن فى هذه الآية الكريمة وعيدا شديدا وتهديدا مريعا لكل من يحب أن تنتشر الفاحشة وقالة السوء فى المجتمع الإسلامى وعيد بالعذاب الأليم فى الدنيا وذلك بإقامة الحد وما يتبع ذلك من خزى عظيم ، ووعيد بالعذاب الأليم فى الآخرة وما أدراك ما عذاب الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . يوم يقال فيه للمظلوم تقدم ويقال فيه للظالم لا تتكلم هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

وأعجب معى كيف كان هذا الوعيد لمن يحب أن يشيع الفاحشة فما بالك بالذى يشيعها ويعمل على نشرها ، أو الذى يتولى كبرها ويزرع بذور التشكيك والظن السىء فى الجماعة المسلمة .

إن الاسلام أدبنا بأن نرد هذه الشائعات على أعقابها . ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين﴾﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

هذا هو مجتمع النظافة فى أرحب مبانيها وأوسع معانيها وأسمى مراميها ، فاحذر أيها المسلم العاقل أن يكبك لسانك على وجهك فى النار ، « واتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة ، تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

● عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجة الوداع : « إن دماءكم

(١) مسند الامام أحمد : ٢٧٩/٥ .

وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت » .
رواه البخارى ومسلم . (١) .

المعنى : حجة الوداع : آخر حجة حجها ﷺ .
بلغت : اللهم قد أديت الرسالة وحفظت الأمانة وقلت ما أحببت .

* * *

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » رواه مسلم والترمذى . (٢) .

المعنى : دمه : إهراق دمه وإراقته والتعرض لأذاه .
عرضه : إباحة عرضه وتعرضه لأى إهانة أو قبيحة أو ارتكاب فاحشة .
ماله : غصب ما يملك أو نهبه أو سرقته أو تعرضه للتلف .

● وعن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . (٣)

المعنى : أدناها : أقلها جرما عقاب ناكح أمه ووقوع الزنا بها .
أربى الربا : أكثر الذنوب انتقاما وعذابا : التحدث بما يكره الانسان وغيبته وتعداد عيوبه .

* * *

● وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فذكر أمر الربا وعظم شأنه ، وقال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الغيبة . (٤) .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « إن الربا نيف وسبعون بابا أهونهن بابا من الربا مثل من أتى أمه فى الاسلام ، ودرهم من الربا أشد من خمس وثلاثين زنية . وأشد الربا وأربى الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمته » . رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى . (٥) .

المعنى :
نيف : من واحد إلى ثلاث ، والبضع من أربع إلى تسع ، ولا يقال نيف إلا بعد عقد نحو عشرة ونيف ، ومائة ونيف ، وألف ونيف .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الحج « باب حجة النبى ﷺ ج٢ ص٨٨٩ ط/ الشعب .
(٢) صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب تحريم ظلم المسلم » الخ ج٤ ص١٩٨٦ رقم ٣٢ .
سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ج٣ ص٢١٨ رقم ١٩٩٢ .
وانظر "الترغيب والترهيب باب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٢٨ ط/ الشعب .
(٣) مجمع الزوائد ج٤ ص١١٧ باب ما جاء فى الربا .
وانظر الترغيب والترهيب ج٣ ص١٢ عن البراء بن عازب ط/ الشعب .
(٤) انظر الترغيب والترهيب باب الترهيب من الربا ج٣ ص١١ رقم ١٥ عن أنس بن مالك ط/ الشعب .
(٥) انظر الترغيب والترهيب .. باب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٥٩ ط/ الشعب .

أهونهن : أيسرهن فى العذاب .

عرض المسلم : التحدث فى موضع ذمه والاستطالة بالسوء والقدح ، وفى النهاية وفى حديث ابن عباس « إن قوما قتلوا فأكثروا وزنوا وانتهكوا » .

أى بالغوا فى خرق محارم الشرع وإتيانها ، وفى حديث أبى هريرة « تنتهك ذمة الله وذمة رسوله » يريد نقض العهد والغدر بالمعاهد .

انتهاك حرمته : أى انتهاك ما حفظ الله من رعاية جانبه واحترامه ، وفى النهاية كل مسلم عن مسلم محرم ، ويقال مسلم محرم وهو الذى لم يحل من نفسه شيئا يوقع به يريد أن المسلم معتصم بالإسلام ممتنع بحرمته ممن أراده أو أراد ماله ، ففيه الترغيب فى حفظ سيرة المسلم وعدم ذكره بسوء .

* * *

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أربى الربا استطالة المرء فى عرض أخيه » . رواه البزار بإسنادين . (١) .

● وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ثم قرأ رسول الله ﷺ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) . رواه أبو يعلى (٢)

● وعن سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق » . رواه أبو داود (٣) .

المعنى :

بغير حق : أما ذكره لولى أمره ليردعه من معصية يريد أن يفعلها أو يخبر الحاكم عن عقد العزيمة على مؤامرة أو سرقة أو ارتكاب عمل فيخبر من يمنع هذا أو يصده أو يهديه أو يرشده فكأنه ذكر هذا للنصيحة وللحذر . قال تعالى : ﴿ خذوا حذركم ﴾ سورة النساء من الآية : ٧١ .

وقال ﷺ : : « الدين النصيحة » فلا مانع أن يعلم الإنسان شيئا مخيفا فيذهب لمن يتدارك هذا قبل وقوعه ويخبره على سبيل النجدة والغوث والزجر والهداية ، لا على سبيل التشهير والذم .

* * *

● وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت للنبى ﷺ « حسبك من صفية كذا وكذا ، قال بعض الرواة : تعنى قصيرة فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته قالت : وحكيت له إنسانا فقال : ماأحب أن حكيت لى إنسانا . وإن لى كذا وكذا . » رواه أبو داود والترمذى والبيهقى (٤)

(١) انظر مجمع الزوائد ج٤ ص١١٧ باب ما جاء فى الربا ، وانظر الترغيب والترهيب ج٣ ص١٢ عن البراء بن عازب . وانظر الترغيب والترهيب أبواب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٦٠ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٠ ط/ الشعب .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .

المعنى :

حسبك : كافيك منها كذا .

لمزجته : أى خلطته وكدرته ، لأنها على سبيل الذم فارتكبت بذكرها ذنبا،والله تعالى حرم الغيبة .

وكذا : وإن لى كذا وكذا .

* * *

● وعن عائشة ـ أيضا رضى الله عنها ـ أنه اعتل بعير لصفية بنت حيى وعند زينب فضل ظهر ، فقال النبى ﷺ لزينب : « أعطيها بعيرا ، فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ، فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة ، والمحرم وبعض صفر » رواه أبو داود . (١) .

المعنى :

اعتل : مرض وسقم .

فهجرها : تركها ﷺ أكثر من شهرين على هذه اللفظة ؛ تأديبا لها وزجرا وردعا ، وتعليما لأمته أن تتجنب ألفاظ السب وتترك الهجاء وتحذر الذم .

* * *

● وروى عنها ـ رضى الله عنها ـ قالت : قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى ﷺ : إن هذه لطويلة الذيل فقال : « الفظى ، فلفظت بضعة من لحم » . رواه ابن أبى الدنيا . (٢) .

* * *

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند النبى ﷺ فقام رجل فقالوا : يارسول الله ، ما أعجز فلانا ! أو قالوا : ما أضعف فلانا ، فقال النبى ﷺ « اغتبتم صاحبكم وأكلتم لحمه » . (٣) . رواه أبو يعلى والطبرانى .

المعنى :

ما أضعف : أى عجزه أو ضعفه ما أكثره ، فأخبرهم ﷺ أنهم اغتابوه وذكروا ما يكره فكأنهم طعموا قطعة من لحمه .

* * *

● وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلا فقالوا : لا يأكل حتى يطعم ، ولا يرحل حتى يرحل له ، فقال النبى ﷺ : اغتبتموه ، فقالوا : يارسول الله ! إنما حدثنا بما فيه . قال : « حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه ».. رواه الأصبهانى (٤) . بإسناد حسن .

المعنى :

يطعم : معناه أنه ضعيف إلى درجة احتياجه إلى مساعد يطعمه وخادم يوكله وساق يسقيه ولا يسافر إلا إذا حمله آخر أو ركب على دابة .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ ط/ الشعب .
(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ ط/ الشعب .
(٤) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ ـ ٧٦٣ ط/ الشعب .

حسبك : كافيك بتعداد أوصاف ثابتة فيه : ولكن يكره ذكرها ويجب سترها ففيه الترهيب عن ذكر أخيك بما يكره مطلقا .

* * *

● وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند النبى ﷺ فقام رجل فوقع فيه رجل من بعده ، فقال النبى ﷺ تحلل ، فقال : ومم أتحلل ؟ ما أكلت لحما ، قال : إنك أكلت لحم أخيك[١] .

المعنى :

وقع فيه : ذكر عيوبه .

تحلل : أى افعل الحلال واطلب التوبة من هذه الغيبة .

وممَّ أتحلل : ومن أى شىء أطلب الحل وأترك الحرام .

* * *

● وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : أمر النبى ﷺ الناس بصوم يوم ، وقال : لا يفطرن أحد منكم حتى آذن له ، فصام الناس حتى إذا أمسوا ، فجعل الرجل يجىء ، فيقول : يارسول الله ، إنى ظللت صائما فائذن لى فأفطر فيأذن له ، الرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك فأذن لهما فليفطرا فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، فقال : إنهما لم يصوما وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس ، اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين فليستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة علقة من دم ، فرجع الى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار » . (٢) . رواه أبو داود الطيالسى .

المعنى :

فأعرض عنه : تركه ولم يجبه .

عاوده : طلب مرة ثانية .

لم يصوما : لم يقبل الله صومهما لأنهما اغتابتا بذكر ما يكره .

فليستقيئا : فليخرجا ما فى معدتهما ، ينهى ﷺ عن الغيبة خشية استحلال أكل لحم المغتاب فيجر الى عذاب النار . وبئس القرار .

* * *

● وعن شفى بن ماتع الأصبحى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون ما بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : مابال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل مغلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحا ودما ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت : مابال الأبعد قد

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٣ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٣ ـ ٧٦٤ ـ ٧٦٥ ط/ الشعب .

آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد قد مات وفى عنقه أموال الناس ، ثم يقال للذى يجر أمعاءه : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان لا يبالى أين أصاب البول منه ثم يقال للذى يسيل فوه قيحا ودما : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كلمة فيستلذها كما يستلذ الرفث ، ثم يقال للذى يأكل لحمه : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشى بالنميمة . رواه ابن ابى الدنيا (١) .

المعنى :

الجحيم : النار .

الويل : الهلاك والدمار .

جمر : مغلق عليه تابوت من جمر .

يجر أمعاءه : حوايا معدته .

التابوت : الصندوق .

أصاب البول منه : معناه لا يتحرز من النجاسة ولا يحفظ ثيابه عن التبول ولا يتطهر ولا ينظف جسمه منها .

الرفث : الفحش وقبح القول والجماع والخنا والسوء . يخبرنا ﷺ عن أربعة يعذبون بأنواع العذاب وينادون بالدمار والهلاك لشدة آلامهم :

أ - فى صندوق متقدة ناره يصلى نارا حامية ذات لهب ، لأنه ضيع حقوق الناس فى حياته ، وأكل أموالهم ظلما وعدوانا .

ب - تخرج أحشاؤه فضيحة وقذارة ويمر على الناس يستقذرون منه فى الآخرة ، لأنه كان لا يحترز من بوله فى دنياه .

ج - يخرج من فيه السوائل القذرة من صديد وقيح ودم ، لأن كلامه ردىء وخشن بطال قبيح .

د - يأكل لحم جسمه على مرأى من الناس لأنه اغتاب الناس فى دنياه ونهش أعراضهم وذمهم بما يكرهون .

* * *

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ (من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ويكلح ويضج) . رواه أبو يعلى(٢) .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه مر على بغل ميت فقال لبعض أصحابه لأن يأكل الرجل من هذا حتى يملأ بطنه خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم . رواه أبو الشيخ (٣) .

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء الأسلمى إلى رسول الله ﷺ فشهد على نفسه بالزنى أربع

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٥ - ٧٦٦ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٦ - ٧٦٧ ط/ الشعب .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٧ ط/ الشعب .

شهادات يقول : أتيت امرأة حراما وفى كل ذلك يعرض عنه رسول الله ﷺ فذكر الحديث الى أن قال : فما تريد بهذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم ، فرجم ، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه : أنظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رُجْم الكلب قال : فسكت رسول الله ﷺ ، ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار شائل برجله ، فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالوا : نحن ذا يارسول الله ، فقال لهما كلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا يارسول الله : غفر الله لك ، من يأكل من هذا ؟ فقال رسول الله ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفا أشد من أكل هذه الجيفة ، فوالذى نفسى بيده إنه الآن فى أنهار الجنة ينغمس فيها » (١) . رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى :

تطهرنى : تنقذنى من الذنب بالحد وإقامة العقاب فى الدنيا لأسلم من عذاب الله فى الآخرة .

لم يدع نفسه : لم يترك نفسه حتى أقيم عليه الحد .

برجله : شائل برجله .

فلان وفلان : فى أى مكان اللذان اغتابا ذلك الرجل النقى الطاهر ؟

آنفا : سابقا .

* * *

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ليلة أسرى بنبى الله ﷺ ونظر فى النار ، فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جدا ، فقال : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ، رواه أحمد (٢) .

المعنى :

الجيفة : جثة الميت إذا أنتن ، يقال جافت الميتة وجيفت واجتافت .

لحوم الناس : تغتابون .

أزرق جدا : أزرق جلدا : أى لونه شديد الزرقة .

عاقر : ناحرها وذابحها ، يشير ﷺ الى عذاب من نحر ناقة سيدنا صالح - عليه السلام - الذى طلب من قبيلة ثمود بالشام عبادة الله وحده واستغفاره والتوبة إليه ، قال تعالى : **﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾** . سورة هود الآيات : ٦٤ - ٦٨ .

● وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم (٣) ، رواه أبو داود .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٨ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٨ - ٧٦٩ ط/ الشعب .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٩ ط/ الشعب .

المعنى :

يخمشون : يخدشون ويقطعون .

لحوم الناس : كانوا يغتابون الناس فجعل الله - تعالى - عقابهم من جنس عملهم بالتسلط على نهش أجسامهم وتقطع أطرافها كما كانوا ينهشون أعراض الناس ويذمون البرآء .

* * *

● وعن راشد بن سعد المقرانى قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مررت برجال تقرض جلودهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : الذين يتزينون للزينة . قال : ثم مررت بجب منتن الريح فسمعت فيه أصواتا شديدة ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : نساءٌكُنَّ يتزين للزينة ويفعلن مالا يحل لهن ، ثم مررت على نساء ورجال معلقين بثديهن ، فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال : هؤلاء اللمازون والهمازون ، وذلك قول الله عز وجل ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ (١) . سورة الهمزة آية : ١

المعنى :

تقرض : تقطع .

للزينة : كجلسة بكسر الجيم : الذين يقيمون الشراك للوقوع فى الفاحشة القبيحة ويمثلون فعلتها .

بجب : بئر ووعاء قذر كريه الرائحة شديدها .

يتزين للزينة : اللاتى يظهرن التبرج ويتعطرن ويتحلين لصيد الرجال فى شرك الغواية بتبيين هيئة القدوم على الرذيلة .

* * *

● وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما -: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح منتنة ، فقال رسول الله ﷺ أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين (٢) . رواه أحمد وابن ابى الدنيا .

المعنى : منتنة : رائحة قذرة .

أتدرون : أتعلمون .

يغتابون المؤمنين : يذكرونهم بسوء .

● وعن جابر بن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى -رضى الله عنهما- قالا قال رسول الله ﷺ : الغيبة أشد من الزنا . قيل : وكيف ؟ قال : الرجل يزنى ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه . (٣) . رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى:

لايغفر له : لاتمحى سيئاته .

حتى يغفر له صاحبه : حتى يعفو له .

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٦٩ - ٧٧٠ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٠ ط/ الشعب .
(٣) المرجع السابق ح٣ ص٧٧٠ ط/ الشعب .

● وعن أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ قال : بينا أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدى ورجل على يساره فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول الله ﷺ : إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وبلى فأيكم يأتيني بجريدة فاستبقنافسبقته فأتيته بجريدة فكسرها نصفين ، فألقى على ذا القبر قطعة وعلى ذا القبر قطعة ، قال : إنه يهون عليهما ما كانتا رطبتين ، وما يعذبان إلا فى الغيبة والبول .» (١) . رواه احمد .

المعنى :

كبير : نقل الأبى عن المازرى : أى شاق تركه ، لأن المنهى عنه منه : ما يشق تركه كالمستلذات ومنه ما ينفر الطبع كالمسمومات ومنه مالا يشق تركه كهذا . قال عياض : وقيل المعنى فى كبير عندكم ، وهو عند الله كبير أى أن هذا العمل كان يعدانه صغيرا لا يأبهان به فى حياتهما معتقدين أن الله يسمح ويصفح ويعفو ولكن الله ـ تعالى ـ جعل من شروط صحة الصلاة الطهارة والنقاء من النجاسة .

بلى : أى نعم إنه كبير يعاقب الله عليه وقد عاقبهما سبحانه فى القبر بعد موتهما .

رطبتين : لما لم تيبسا : أى مدة وجود خضرتهما ، قال الأبى . وأخذت منه تلاوة القرآن على القبر لأنه إذا رجى التخفيف لتسبيح الشجر فالقرآن أولى ، وأوصى بريدة السلمى أن يجعل على قبره جريدتان فلعله أوصى تيمنا بهذا الحديث وفعله ﷺ ولتسمية الله تعالى لها شجرة طيبة وتشبيهها بالمؤمن . قال والأظهر أنه من سر الغيب الذى أطلعه الله عليه . (شنقيطى فى زاد المسلم) .

وهذا الحديث يشدد النكر ويعلن الحرب على كل من يتساهل فى تمام الاستبراء ووجه كونه كبيرة تساهله فى النقاء والتطهير ، قال تعالى ﴿ وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾ سورة المدثر الآيات : ٤ ـ ٧ .

أى : تباعد من النجاسات ما أمكن الاحتراز منه ، فإن التطهر واجب فى الصلوات محبوب فى غيرها ، والرجز القبائح والمعاصى والشرك بالله ، ولا تعط مستكثرا واصبر على مشاق التكاليف .

● وعن يعلى بن سيابه ـ رضى الله عنه ـ انه عهد النبى ﷺ وأتى على قبر يعذب صاحبه ، فقال : إن هذا كان يأكل لحوم الناس ثم دعا بجريدة رطبة ، فوضعها على قبره ، وقال : لعله أن يخفف عنه مادامت هذه رطبة . رواه أحمد والطبرانى (٢)

● وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رسول الله ﷺ بقيع الغرقد فوقف على قبرين ثريين فقال : أدفنتم فلانا وفلانة ، أو قال : فلانا وفلانا ؟

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٠ ـ ٧٧١ ط الشعب .

(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧١ ط/ الشعب .

قالوا : نعم يارسول الله قال : قد أقعد فلان الآن ، فضرب ، ثم قال : والذى نفسى بيده لقد ضرب ضربة ما بقى منه عضو إلا انقطع ، ولقد تطاير قبره نارا ، ولقد صرخ صرخة سمعها الخلائق إلا الثقلين : الانس والجن ،ولولا تمريج قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع ، ثم قالوا : يارسول الله وما ذنبهما ؟ قال : أما فلان ، فإنه كان لا يستبرىء من البول وأما فلان أو فلانة فإنه كان يأكل لحوم الناس (١) . رواه ابن جرير الطبرى .

المعنى :

ثريين : غنيين يقال ثرى القوم يثرون وأثروا : إذا أكثروا وكثرت أموالهم .

فضرب : المعنى يرمى بمطرقة من نار .

تطاير : تناثر منه شرر ولهب .

صرخ : ارتفع صوته .

تمريج قلوبكم : أى فساد وخلط وفيه كيف أنتم إذا مرج الدين : أى فسد وقلقت أسبابه ، ومرجت عهودهم ؛ أى اختلطت .

ما أسمع : لقد أعطى الله تعالى للنبى ﷺ قوة السمع خاصة به ليدرك مالم يدركه الانس والجن فسمع صوت عذابهما ونوعه .

لا يستبرىء : لا يتطهر وفى المصباح استبرأ من البول ، الأصل استبرأ ذكره من بقية بوله بالنتر والتحريك حتى يعلم أنه لم يبق فيه شىء ، واستبرأت من البول : تنزهت عنه .

لحوم الناس : قد جعل الله من يتعاطى الغيبة ويذكر إنسانا بما يكره ولو كان فيه سواء أكان فى بدنه كالقصر والحول والسواد أم فى نسبه كابن حجام وابن مزين وابن كذا مثلا ، أم فى خلقه كالشره والطمع أم فى دينه كالتهاون بالصلاة أو يشير بالرأس استهزاء أو بأى عضو تحقيرا كمن يأكل لحم أخيه الميت ولا شك أن أكل لحم الانسان أمر تعافه النفوس السليمة وتأباه الطباع الكريمة فضلا عن كونه ميتا وكونه لحم أخ ولذا قال تعالى ﴿ فكرهتموه ﴾ من سورة الحجرات : أى فكرهتم أكل لحم الأخ الميت ، وإذا كان ذلك كذلك فوجب عليكم أن تكرهوا الغيبة المشابهة له .

* * *

● وعن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغيبة والنميمة يحتان الايمان كما يعضد الراعى الشجرة » (٢) . رواه الأصبهانى .

المعنى :

يحتان : أى ذكر الإنسان بما يكره والسعى بالفساد يزيلان الإيمان فيتساقط أوراق شجره المورقة ، يقال حت الرجل الورق وغيره .

حتا : أزاله من باب قتل .

يعضد : يقطع البستانى ، يقال عضد الشجرة أعضد عضدا من باب ضرب .

* * *

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٢ ـ ٧٧٣ ط/ الشعب .
(٢) أنظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٣ ط/ الشعب .

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار . (١) . رواه مسلم والترمذى وغيرهما .

المعنى :

لا درهم : لا نقود .

ولا متاع : لا ضيعة ولا أثاث .

المفلس : الفقير المجرد من ملك شىء الذى يكثر العبادة فى حياته ولكن أرخى العنان للسانه فأرغى وأزبد وكال التهم وردح وذم واغتاب وشتم فأحصى الله سيئاته حتى جاء يوم الحساب فاقتص منه وأخذت حسناته كلها جزاء سبه ، قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . سورة ق الآيات : ١٦ ـ ١٨ .

فنيت حسناته : انتهت .

قبل أن يقضى : قبل أن يؤدى ما عليه من عقاب السب والغيبة فيتحمل أوزار من اغتابهم ويرمى فى النار من جراء لسانه .

وامش الهوينى مظهرا عفة وابغ رضا الأعين عن هيئتك
وانطق بحيث العى مستقبح واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولج على رزقك من بابه واقصد له ما عشت فى بكرتك
ووف كلا حقه ولتكن تكسر عند الفخر من حدتك
ولتجعل العقل محكما وخذ كلا بما يظهر فى نقدتك
ولا تضيع زمنا ممكنا تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشر مهما استطعت لا تأته فإنه حور على مهجتك

● وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرجل ليؤتى كتابه منشورا فيقول : يارب فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست فى صحيفتى ؟ فيقول : محيت باغتيابك الناس . (٢) . رواه الأصبهانى .

المعنى :

منشورا : ظاهرة صفحاته متقدمة أمامه يراها .

حسنات : غير مقيدة .

باغتيابك الناس : زالت بكثرة ذكرك الناس بسوء .

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٣ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .

● وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته (١) ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

المعنى : بهته : ادعيت عليه ظلما ، وفى المصباح قذفته بالباطل وافتريت عليه بالكذب ، والاثم والبهتان ، ومن الغريب ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ سورة الممتحنة من الآية : ١٢

قيل بل ذلك لكل فعل شنيع يتعاطينه باليد والرجل من تناول ما يجوز والمشى إلى ما يقبح (فبهت الذى كفر) أى دهش وتحير ، وقد بهته ، قال عز وجل : ﴿ هذا بهتان عظيم ﴾ : أى كذب بهت سامعه لفظاعته .

* * *

● وعن أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : من ذكر امرأ بشىء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتى بنفاد ما قال فيه . (٢) . رواه الطبرانى بإسناد جيد .

المعنى :

ليعيبه : لينقصه .

بنفاد ما قال فيه : يستمر عذابه حتى يحقق قوله الذى صدر منه كذبا وزورا .

* * *

● وفى رواية له : أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاد ما قال .

المعنى :

أشاع : أظهر وأباح القول .

برىء : بعيد عن وصفها .

يشينه بها : يذمه ويعيبه وينقصه .

يذيبه : يصهره حتى يتحقق قوله ، ولن يحصل ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ سورة النور الآيات : ١٩ ـ ٢١ .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال فى مؤمن ماليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال : حتى يخرج مما قال (٣) . رواه أبو داود والطبرانى .

---

(١) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .
(٢) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .
(٣) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٥ ط/ الشعب .

المعنى :

ردغة الخبال : عقاب الذى يتكلم فى أعراض الناس أن يسقى عصارة النار الآتية من انصهار أجسام الفجار ، وفى النهاية والخبال فى الأصل الفساد ، ويكون من الأفعال والابدان والعقول ، وبين يدى الساعة الخبل : أى الفتن المفسدة .

* * *

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير الحق ، وبهت المؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق . «١» . رواه أحمد .

المعنى :

كفارة : أى لا يمكن للإنسان أن يخفف عقابها بدفع شىء من ماله أو تحليلها أو فرار من عقابها الأليم .

الشرك بالله : أن يجعل الإنسان لله تعالى الواحد القهار شريكا فى أفعاله أو صفاته أو فى ذاته .

بغير حق : إزهاق نفس بريئة لم تفعل جناية تستحق الإعدام .

بهت مؤمن : تكذيب الموحد بالله ـ تعالى ـ والمصدق بوجوده المتحلى بحلل الايمان والمقيم دعائم الاسلام والافتراء عليه بالأقوال الملفقة المطلية بطلاء الهزء والسخرية والنفاق والازدراء .

الفرار من الزحف : الهروب من صفوف المجاهدين فى سبيل الله ـ تعالى ـ والجبن عند ملاقاة الأعداء والتنصل من الدفاع والالتجاء الى الاختفاء وقت الهجوم والكفاح .

ويمين صابرة : القسم بالله تعالى أو بصفاته باطلا لضياع حق وفى النهاية « من حلف على يمين صبر » : أى لزم بها وحبس عليها ، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم وقيل لها مصبورة وان كان صاحبها فى الحقيقة هو المصبور لأنه إنما صبر من أجلها : أى حبس فوصفت بالصبر وأضيفت إليه مجازا . قال تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ . سورة البقرة الآية : ٢٢٤ .

● وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار . «٢» . رواه أحمد

المعنى :

ذب : دفع كلام السوء عن أخيه المسلم أبعده الله من جهنم ، ففيه الحث على عدم سماع الغيبة والدفاع عن الغائب بالكلام الحسن الطيب ليكافئه الله بنعيم الجنة فى الآخرة ويقيه عذاب النار ، قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ سورة الحج من الآية : ٤٠ .

● وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة «٣» . رواه الترمذى .

---

(١) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٥ ـ ٧٧٦ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٦ ط/ الشعب .

(٣) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٦ ـ ٧٧٧ ط/ الشعب .

المعنى :

رد : نهر القائل وردعه وزجره وأسكته عن باطله .

عن وجهه : صد ومنع ووقاه عذاب جهنم جزاء دفاعه عن أخيه ابتغاء وجه الله الكريم .

● وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : من حمى مؤمنا من منافق أراه قال : بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلما يريد به شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .. (١) . رواه أبو داود وابن أبى الدنيا .

المعنى :

حمى : حفظه وسلم سيرته من لسان البذىء .

بعث الله : أرسل .

شينه : عيبه ونقصه وفضيحته .

* * *

● وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : من حمى عرض أخيه فى الدنيا بعث الله ـ عز وجل ـ ملكا يوم القيامة يحميه من النار . (٢) . رواه ابن أبى الدنيا .

● وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه إثمه فى الدنيا والآخرة ، (٣) . رواه أبو الشيخ .

المعنى :

أدركه إثمه : أصابته ذنوب الغيبة ، وحوسب على سماعه وعدم إزالة هذا الباطل .

نصره : الدفاع عنه ما استطاع أو عدم المكث فى مجلس الغيبة ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون * وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ سورة الأنعام الآيات : ٦٨ ـ ٧٠

أمر سبحانه وتعالى ألا نجالس الذين يطعنون فى القرآن بالتكذيب والاستهزاء وكذا مجالس الغيبة تترك كى لا يلزم المتقين قبائح أعمال الفساق المغتابين . ﴿ **ولكن ذكرى** ﴾ أى يذكرونهم بالمنع عن الخوض رجاء اجتناب ذلك حياء أو كراهة .

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٧ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٧ ط/ الشعب .
(٣) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .

قال تعالى : ﴿ أبسلوا بما كسبوا ﴾ أى سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ، وقد أخبر ﷺ أن يشرب المغتاب ردغة الخبال وعبر عنها الله جل جلاله بقوله : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ .

● وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : من نصر أخاه المسلم بالغيب نصره الله فى الدنيا والآخرة . [(١)] رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن جابر بن أبى طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (مامن امرىء مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته وما من امرىء مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته)[(٢)] .. رواه أبو داود .

نتائج ما تجره الغيبة على صاحبها
كما قال صلى الله عليه وسلم

أولا : يرتكب حراما .
ثانيا : فعل أكثر عقابا من الربا .
ثالثا : استطعم لحم أخيه وأساغه .
رابعا : لم ينفع صومه .
خامسا : كأنه أكل ما هو أنتن من الجيفة .
سادسا : يعذب فى النار بأكل النتنة القذر : ذى الرائحة الكريهة .
سابعا : لا يغفر الله له حتى يعفو عنه المغتاب .
ثامنا : ينال عقاب الله فى قبره .
تاسعا : تذهب أنوار إيمانه ويذهب إسلامه .
عاشرا : يقابل الله بلا حسنة ومحمل بالخطايا (المفلس) .
الحادى عشر : يستمر عذابه فى النار حتى يغير .
الثانى عشر : يذوب جسمه حتى يحقق غيبته .
الثالث عشر : يشرب شراب عرق أهل جهنم .
الرابع عشر : لا يجد لفعله فدية : أى كفارة .
الخامس عشر : حبس على قنطرة جهنم مدة طويلة .
السادس عشر : لا ينصره الله ولا يساعده دنيا وأخرى .

وفى الغريب : الغيبة أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير احتياج إلى ذكره ، قال تعالى :

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .

﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ سورة الحجرات من الآية : ١٢

وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول .

وقال مالك بن دينار : مر عيسى - عليه السلام - ومعه الحواريون بجيفة كلب ، فقال الحواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال - عليه الصلاة والسلام - ما أشد بياض أسنانه كأنه ﷺ نبههم عن غيبة الكلب ونبههم على مدحه . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس ، فإنه داء ، نسأل الله حسن التوفيق والطاعة .

معنى الغيبة وحدودها عند الامام الغزالى رحمه الله

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته . أما البدن فكذلك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان .

وأما النسب فبأن تقول : أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو إسكافى أو زبال أو شىء مما يكرهه كيفما كان .

وأما الخلق فبأن تقول : هو سىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه .

وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس .

وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نؤوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك : إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة فى الدين ، لأنه ذم ماذمه الله - تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : هى فى النار : رواه ابن حبان .

ذكر الغير ثلاثة : الغيبة والبهتان والإفك ، وكل فى كتاب الله عز وجل - فالغيبة : أن تقول ما فيه .

والبهتان : أن تقول ماليس فيه .

والإفك : أن تقول ما بلغك . وقال فى بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز واللمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام .

وفى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة :

١ - أن يشفى الغيظ .

٢ - موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام .

٣ - أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أويقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة .

٤ - أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله .

٥ - إرادة التصنع والمباهاة .

٦ - الحسد فيريد زوال نعمة من هو أحسن منه .

٧ - اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

٨ - السخرية والاستهزاء استحقارا له .

* الأعذار المرخصة فى الغيبة *

أولا : التظلم فللمظلوم أن يتظلم الى السلطان وينسب القاضى الى الظلم إذا تعدى فى حكمه وجانب الصواب .

ثانيا : الاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصى الى منهج الصلاح .

ثالثا : الاستفتاء كما يقول للمفتى : ظلمنى فلان وقد روى عن هند بنت عتبه أنها قالت للنبى ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح فقال ﷺ : خذى ما يكفيك .

رابعا : تحذير المسلم من الشر كالنصح إلى من يذهب إلى مبتدع أو فاسق .

خامسا : أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول .

سادسا : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس بحيث لا يستنكف أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به وذكر الغزالى فى بيان كفارة الغيبة : اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه وتعالى - ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته .

* * *

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ .

هذا من فضل الله - تعالى - على عباده أن اقتضى فضله ورأفته ورحمته أن يتوب على من تاب وأن يقيم الحد على من وقع فى هذا الإثم ولولا ذلك لكان هناك أمر آخر ولكنه - سبحانه - قد عاملنا بفضله وفضله واسع كما عاملنا برحمته ورحمته وسعت كل شيء .

فسبحانه قطرة من فيض جوده تملأ الأرض ريا .

ونظرة بعين رضاه تجعل الكافر وليا .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات .

وسبحانك ربى أنت القائل : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ . سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .

ثم خاطبهم المولى الكريم ناهيا إياهم عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ، محذرا من الوقوع فى شباكه وشراكه ، ومبينا أن عاقبة ذلك وبال وخسران مبين .

قال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : **خطوات الشيطان** : عمله وقال عكرمة : نزغاته .
وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعاما وسماه فقال : هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل .

وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشا .

ثم بين الله تعالى مصير اتباع تلك الخطوات فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ .

وهل بعد الفحشاء والمنكر من ذنب جسيم ، وخطر يؤدى بصاحبه إلى سوء العاقبة ، سبحانك من قائل : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ . وجل جلاله إذ يقول : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون * قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وسبحانك من قائل :

﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

وسبحانك من قائل : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

ومن ثم فان من يتبع خطوات الشيطان فانه أى الشيطان يأمر أتباعه بالفحشاء والمنكر كما أن أتباعه يأمرون بالفحشاء والمنكر ، ثم يبين الله ـ تعالى ـ لنا عظيم فضله علينا وجليل رحمته بنا فيقول :
﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ .

والتزكية تطهير للنفس ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أى بالتوبة والطاعة ، ومن فضله تعالى انه يزكى

النفوس الطيبة ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ . فهو الذى يزكى من يشاء بمقتضى علمه تعالى وحكمته ﴿ والله سميع عليم ﴾ . سميع بالأقوال يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . ﴿ عليم ﴾ أحاط علمه بكل ما كان ، وما يكون ، وما لا يكون .

يامن يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل

فسبحانك ربى من قائل : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١)

ويرحم الله صاحب البردة إذ يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

يانفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم

ويرحم الله الحسن البصرى فقد روى ابن ابى الدنيا أنه ـ رضى الله عنه ـ كتب إلى عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه : فقال :

« أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ،إنما أنزل اليها آدم ـ عليه السلام ـ عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها وتفقر من جمعها ، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الخيالة التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها وختلت بآمالها ، وتشوفت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه ، فعظمت عليها ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت ، وألمه ، وحسرات الفوت . وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغصته ، وذهب بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فكن اسر ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها

(١) من الآية : ٣٢ من سورة النجم

بالبلاء ، وجعل البقاء فيها الى فناء ، سرورها مشوب بالحزن ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر ؟ فمالها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله ـ عز وجل ـ برسوله حين شد الحجر على بطنه » .

وقال الحسن أيضا : « إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها » .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان : « وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم فى طلبها ، ولما كانت هى أكبرهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده فى طلبها ، وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها ، فتأمل حال عاشق فان فى حب معشوقه ، وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفى له ، ويهجره ويصل عدوه ، فهو مع معشوقه فى أنكد عيش ، يختار الموت دونه ، فمعشوقه قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة ، كثير التلون ، لا يأمن عاشقه ليس معه على نفسه ولا على ماله ، مع أنه لا صبر له عنه ، ولا يجد عنه سبيلا الى سلوة تريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن بهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفر به ، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها ، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به التى شغلته عن سعيه فى طلب زاده ومصالح معاده ؟

أنت القتيل بكل من أحببته .. فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى فإذا كان يوم المعاد ، ولى الحكم العدل ـ سبحانه ـ كل محب ما كان يحبه فى الدنيا فكان معه : إما منعما وإما معذبا ولهذا « يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه (يعنى شدقيه) يقول : (أنا مالك أنا كنزك ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره) رواه البخارى .

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله ـ تعالى ـ جمع الله بينهما فى النار وعذب كل منهما بصاحبه .

قال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ وأخبر سبحانه أن الذين توادوا فى الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين .

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق : « **أليس عدلا منى أن اولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار الدنيا** » وقال ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه احمد والبخارى ومسلم وقال الله تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾

ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون ﴾ .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم .

وقال تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ فقرن كل شكل الى شكله وجعل معه قرينا وزوجا : البر مع البر والفاجر مع الفاجر .

والمقصود : أن من أحب شيئا سوى الله ـ عز وجل ـ فالضرر حاصل له بمحبوبه ، ان وجد : وان فقد فإنه ان فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به ، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله ، ومن النكد فى حال حصوله ، ومن الحسرة عليه بعد فوته : أضعاف أضعاف ما فى حصوله له من اللذة .

فما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تـراه بـاكيـا فى كـل حـال مخـافـة فـرقـة أو لاشتيـاق
فيبكى إن نـأوا شـوقـا اليهم ويبكى ان دنوا حـذر الفـراق
فتسخن عينـه عنـد التـلاقى وتسخن عينـه عنـد الفـراق

ولهذا قال النبى ﷺ ـ فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه فذكره : جميع أنواع طاعته فكل من كان فى طاعته فهو ذاكر له وإن لم يتحرك لسانه بالذكر ، وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وهى نائلة كل ما عداه .

قوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

هذه الآية نزلت فى الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال كما تقدم فى الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه ـ فإنه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق ـ رضى الله عنه ـ معروفا ـ بالمعروف له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ . الآية . فإن الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا ياربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبدا فى مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدا . فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن نبيه .

ومعنى (ولا يأتل) أى ولا يحلف وهكذا من حلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه

وليتبع التى هى خير .

﴿ أولوا الفضل والسعة ﴾ أى أهل الطول والصدقة والاحسان والجدة .

إذا كان يوم القيامة قال الله أين أهل الفضل فيقومون وهم قليل فيقال لهم : ادخلوا الجنة بغير حساب ، فيقول لهم أهل الموقف : « ماذا كنتم تعملون فى الدنيا » فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ .

إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله ـ من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا وأصلح اقرأوا إن شئتم : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ .

روى ابن جرير ، عن أحمد بن عبدة الضبى ، عن أبى عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فبينا رسول الله ـ ﷺ جالس عندى إذ أوحى إليه قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال « ياعائشة أبشرى » قالت فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ حتى بلغ ﴿ **أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ .[1]

وإذا كان هذا الحديث يفيد أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ هى سبب النزول لهذه الآية إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم فى هذه الآية عام فى كل محصنة فمن رمى المحصنات العفيفات الغافلات المؤمنات فإن الحكم يشمله فهو ملعون فى الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم . إذ ان قذف المحصنات الغافلات المؤمنات من السبع الموبقات : الاشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده عن حذيفة عن النبى ﷺ ـ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » [2]

قوله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ .

هذا حديث عن أهوال الساعة وما يجرى على بعض العباد من شهادة أعضائهم قال تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم**

(١) انظر ابن كثير ج٦ ص٣٢ ط/ الشعب .

(٢) انظر ابن كثير ج٦ ص٣٣ ط/ الشعب .

وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنهم يعنى المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن أبى سعيد عن النبى - ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أنس بن مالك قال كنا عند النبى - ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال : « من مجادلة العبد ربه يقول : يارب ، ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز على شاهدا إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » .

قال قتادة : ابن آدم : والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله فى سرك وعلانيتك فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله .

قوله تعالى : **﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾** . قال ابن عباس المقصود يوفيهم حسابهم ، قال تعالى : **﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾** .

وقال جل شأنه :

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾ .

وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وجل جلاله إذ يقول : **﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم**

لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ﴾ .
وما أعظم قوله ـ جل شأنه :
﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

إلهى استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لاأسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يامن له علم الغيوب ووصفه ستر العيوب
وكل ذاك سماح أخفيت ذنب العبد عن كل الورى
كرما فليس عليه ثم جناح منك التفضل والتكرم والرضا
أنت الإله المنعم الفتاح

قوله : **﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾** .
أى : هو المنزه عن كل باطل المتصف بصفات الكمال والجلال والجمال **﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾** . **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾** .
قوله تعالى : **﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾** .
فى هذه الآية الكريمة أقوال للمفسرين نذكر أشهرها فيما يلى :
قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول ـ قال ـ ونزلت فى عائشة وأهل الافك .
وهكذا روى عن مجاهد بسنده عن الضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق الى عائشة من كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى : **﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾**[1]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضا يرجع إلى ماقاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا

(١) انظر اثر ابن عباس فى تفسير الطبرى : ١٨/٨٤ ، ٨٥ وتوجيه ابن جرير فى ١٨/٨٦ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ . أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان . ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ أى عند الله فى جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

قال ابن أبى حاتم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسيد بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبنى فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يقلها فيضمها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده يقلها فيضمها إليها ثم قرأ عبد الله ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الامام أحمد فى المسند مرفوعا : « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لى شاة فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » (١) . وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها » (٢)

آداب الاستئذان

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

تفسير المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم الدخول .

تذكرون : أى تتعظون .

أزكى : أى أطهر .

---

(١) مسند الامام احمد عن أبى هريرة : ٣٥٣/٢ ، ٤٠٥ ، ٥٠٨ .
سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب « الحكمة » ج٣ /١٣٩٦ ، ١٣٩٧ رقم ٥١٧٢

(٢) تحفة الاحوذى أبواب العلم باب « فى فضل الفقه على العبادة » ج٧ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ الحديث رقم ٢٨٢٧ . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » .
وانظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد ، باب « الحكمة » ج٢ /١٣٩٥ الحديث رقم ٤١٦٩ .

جناح : أى حرج .
متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوانيت التجارة والفنادق ونحوها .

المناسبة وإجمال المعنى

جاء فى سبب نزول هذه الآيات . ما رواه عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار : « أن امرأة قالت : يارسول الله ، إنى أكون فى بيتى على الحال التى لا أحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل على فكيف أصنع ؟ فنزلت الآيات .

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبيات وحكم قذف الزوجات ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط . وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره وبين أنه لايدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة إلا أن الانسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها .

* التفسير *

هذا أدب إسلامى رفيع بين الله فيه للمؤمنين ألا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا وبعدالإذن تسليم على أهل هذا البيت وينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات فإن أذن له وإلا انصرف .

كما ثبت فى الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر لتأتنى على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق(١) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس وغيره : أن النبى ـ ﷺ ـ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى ـ ﷺ ـ حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى ـ ﷺ ـ فأتبعه سعد فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل نبى الله فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون » (٢) .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب « التسليم والاستئذان ثلاثا ج٨ ص٦٨ وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « الاستئذان ج٦ ص١٧٧ ـ ١٨٠ .

(٢) مسند الامام أحمد ج٣ ص ١٣٨ ط دار الفكر العربى .

وقد روى أبو داود بسنده عن سعد بن عبادة قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا قال : قيس ، فقلت : ألا تأذن لرسول الله - ﷺ : فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله ﷺ السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله ﷺ واتبعه سعد فقال : يارسول الله ، إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام ، قال فانصرف معه رسول الله - ﷺ - وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله - ﷺ - يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » قال ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارا قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله - ﷺ - فقال سعد : ياقيس ، اصحب رسول الله ﷺ قال قيس : فقال رسول الله - ﷺ - « اركب » فأبيت فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف قال : فانصرفت [1] . وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوى .

ثم ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود :

حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى فى آخرين قالوا : حدثنا بقية ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » [2] .

وروى أبو داود أيضا ، عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبى ﷺ « هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر » [3]

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » [4] .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال أتيت النبى - ﷺ - فى دين كان على أبى فدققت الباب فقال « من ذا ؟» فقلت أنا قال : « أنا أنا » كأنه كرهه [5] وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذى هو الاستئناس المأمور به .

---

(١) سنن أبى داود كتاب الأدب باب « كم مرة يسلم الرجل فى الاستئذان » الحديث رقم ٥١٨٥ ج٤ ص٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ج٤/ ٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٦ .

(٣) المرجع السابق كتاب الأدب باب فى الاستئذان ج٤ ص٣٤٤ الحديث رقم ٥١٧٤

(٤) صحيح البخارى كتاب الديات باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية ج٩ /١٣ .
وصحيح مسلم كتاب الآداب « باب تحريم النظر فى بيت غيره » ج٦ ص١٨١ .

(٥) صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب « اذا قال : من ذا ؟ قال : أنا : ج٨ /٦٨
وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « كراهة قول المستأذن « أنا » إذا قيل من هذا ج٦/ ١٨٠ ، وسنن أبى داود كتاب الأدب باب الرجل يستأذن بالدق » ج٤ /٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٧ .
ومسند الامام احمد : ج٣ /٣٦٣ .

وروى أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربعي قال : أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه لا أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقال له : قل السلام عليكم أأدخل ؟» فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبي ﷺ فدخل »(١) .

وقال الترمذي : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عتبة بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ؛ « السلام قبل الكلام »(٢) .

وقال هيثم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام ، فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال : قولي ادخل ، قالت : ادخل فدخل (٣) .

ولابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثني خالد بن إياس ، حدثتني جدتي أم إياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن ، فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا ثم قالت : (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)(٤) .

وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار : عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم .

وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : ثلاث آيات جحدهن الناس . قال الله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(٥) قال ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا قال : والأدب كله قد جحده الناس قال : قلت أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد ؟ قال : نعم فرددت عليه ليرخص لي فأبى فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا ، قال : فاستأذن قال : فراجعته ـ أيضا ـ فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت نعم قال : فاستأذن .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن طاوس ، عن أبيه قال : مامن امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد في ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهري : سمعت هذيل بن شرحبيل الأودي الأعمى انه سمع ابن مسعود يقول : عليكم بالإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ، قال : لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال ان تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

---

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب « كيفية الاستئذان : ج٤ /٣٤٥ الحديث رقم ٥١٧٧

(٢) تحفة الأحوذي أبواب الاستئذان باب « السلام قبل الكلام » ج٧ /٤٧٨ ٤٧٩ الحديث رقم ٢٨٤٢ .

(٣) تفسير الطبري : ج١٨ ص٨٧

(٤) تفسير الطبري : ج١٨ ص٨٧ ، ٨٨ .

(٥) سورة الحجرات من الآية : ١٣

وقال أبو جعفر بن جرير ، عن عمرو بن مرة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخي زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب - رضي الله عنها - قالت : كان عبد الله اذا جاء من حاجة انتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هبيرة قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته .

وجاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا - وفي رواية - ليلا يتخونهم . (١)

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو بكر بن شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو ثورة ابن أخي أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت يارسول الله ، هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » (٢) .

وقال قتادة في قوله : (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ (٣) .

وهذا الذي قاله مقاتل حسن ولهذا قال تعالى : ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم** ﴾ .

أي فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الاذن ، بأن كان فيها عبد أو صبي فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

---

(١) صحيح البخاري أبواب العمرة باب « لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة » ج٣ ص٩
وصحيح مسلم كتاب الامارة باب « كراهة الطروق - وهو الدخول ليلا - لمن ورد من سفر » ج٦ ص٥٥ .
وتحفة الأحوذي ابواب الاستئذان باب « في كراهية طروق الرجل أهله ليلا » ج٧ / ٤٩٣
الحديث رقم ٣٨٥٥ وقال الترمذي « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الطبراني : ج٥ ص٣٨

(٣) الدر المنثور عن أبي حاتم : ج٥ /٤٠

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أطهر لكم فى دينكم ودنياكم

لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ولما فى ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس وربما ظن بأهل البيت سوءا من وقوف الأجانب على أبوابهم .

﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ . أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ .

أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدة لسكنى قوم معينين بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان كالفنادق والحوانيت ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال : « يارسول الله ، إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإنا لنختلف فى تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن فنزلت الآية » .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

أحكام تتعلق بالنظر وإبداء الزينة

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

تفسير المفردات

غض بصره : خفض منه .
الخمر : واحدها خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها .
الجيوب : واحدها جيب وهو فتحة أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد .
البعولة : الأزواج واحدهم بعل .
الإربة : الحاجة إلى النساء .
الطفل : يطلق على الواحد والجمع .
لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعا للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم ـ أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى عنها الدين .

« مبحث قيم »

وقبل ان نشرع فى تفسير هاتين الآيتين الكريمتين نذكر فى هذا المقام هذا المبحث القيم للعلامة ابن القيم لما فيه من الفوائد العظيمة والإصلاح الاجتماعى الكبير قال رحمه الله ـ تعالى :

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفى ذلك خراب العالم كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ورسوله ﷺ فى سنته .

وقال الامام احمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنى وقد أكد سبحانه حرمته بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار فى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجوب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوانات .

كما ذكر البخارى فى صحيحه : عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنى بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا ، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فإنه سبيل هلكة وبوار واحتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الآخرة ، وخزى ونكال .

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال : (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) .

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه فقال : ﴿ **قد أفلح المؤمنون ● الذين هم فى صلاتهم خاشعون ●** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ففاته الفلاح ، واستحق منهم العدوان ، ووقع فى اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ولنظير هذا أنه ذم الإنسان وأنه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه .

﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ . وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليهم . ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من النظر ، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات فينبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلازم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ، ويتبر ماعلوا تتبيرا ثم يقول العلامة ابن القيم :

وأكثر ما تدخل المعاصى على العبد من هذه الأبواب الأربعة فذكر فى كل واحد منها فصلا يليق به .

فاما اللحظات فهى رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك .

وقد قال النبى ﷺ : ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية .

وفى المسند عنه ﷺ ـ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد الله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة هذا معنى الحديث .

وقال : غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم .

وقال : إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله مجالسنا مالنا بد منها .

قال : فإن كنتم لابد فاعلين فأعطوا الطريق حقه .

قالوا : وما حقه ؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام . والنظر أصل عامة الحوادث التى تصيب الإنسان فإن النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة فيقع الفعل ولابد مالم يمنع منه مانع .

وفى هذا قيل. الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على آلم ما بعده .

ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت فى قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبد مادام ذا طرف يقلبه فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيرى العبد ماليس قادرا عليه ولا صابرا عنه ، وهذا من أعظم العذاب أن ترى مالا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه .

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكانا من قلب الناظر .

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا انت القتيل بما ترمى فلا تصب
باعث الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك ان النظرة تجرح القلب فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من تكرارها .

مازلت تتبع نظرة فى اثر كل مليحة ومليح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى التحقيق تجريح على تجريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب ، ومن استهان بالخطرات قادته قهرا الى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأخس الناس همة وأوضعهم نفسا من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ومتاجر الباطلين ، وهى قوة النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر :

أمانى من سعد رواء على الظما سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وهى أضر شىء على الإنسان وتتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والإضاعة والحسرة والندامة والمتمنى لما فاته مباشرة الحقيقة يحسبه تحت صورتها فى قلبه وعانقها وضمها إليه فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئا ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها ، وانما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا ترضى أن يخطرها بباله ، ويأنف لنفسه منها ، ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته ، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة فإذا انحصرت له فيها ما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره وإذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته وأخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته ، بقى قسمان آخران : أحدهما مهم لا يفوت ، والثانى غير مهم ولكنه يفوت ، ففى كل منهما يدعو إلى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فإن قدم الأهم خشى فوات ما دونه ، وان قدم ما دونه فإنه الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل احدهما إلا بتفويت الآخر ، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن هنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ولا تجد أحدا يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى يكون عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها يرجع الخلق والأمر وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما . وإن فاتت المصلحة التى هى دونها ، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها فتفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منهـا ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها ، فخطرات العاقل وفكره لا تتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع :

(**الأول**) الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا .

(**الثانى**) الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده .

وقد حث الله ـ سبحانه ـ عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

(**الثالث**) الفكرة فى آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة .

(**الرابع**) الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها وفى عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع . وهذا باب لكل خير . وتأثيرها فى كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت

وصار الحكم لها ضحى القلب ودارت كلمته فى مملكته وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .

(الخامس) الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدا .

قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ صحبت الصوفية : فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم : الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك . وذكر الكلمة الأخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا اشغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك فى العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبا من حياته وان عاش فيه عيش البهائم ، فاذا قطع وقته فى الغفلة والشهوة والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل فيها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله .

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فإما وساوس شيطانية ، وإما أمانى باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق .

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسى بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلامى

واعلم ان ورود الخاطر لا يضر وانما يضر استدعاؤه ومحادثته فالخاطر كالمار على الطريق فإن لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك وإن استدعيته تحرك بحديثه وخدعه وغروره وهو أخف شىء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شىء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة ، وقد ركب الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان نفسين : نفسا أمّارة ونفسا مطمئنة ، وهما متعاديتان فكل ما خف على هذه ثقل على هذه وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها . وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعى الهوى وليس عليها شىء أضر منه ، والملك مع هذه عن يمين القلب ، والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا ان تستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان . والأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العافية فى الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكما لا يبدل أبدا أن العاقبة للتقوى ، والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور ، وخدع وامانى باطلة ، وسراب لا حقيقة له ، فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ، وإذا أراد ان ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر والا يمكنوا خاطرا يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شىء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل فى قوالب وهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها .

وعوضهم بها عن الخواطر التى هى مادة العلم والهدى ، وإذا خلا القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هى المستولية على قلبه وهى إرادة مراد الله الدينى الأمرى الذى يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه فى الخلق والتطرق إلى ذلك والتوصل اليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها وأوهمهم أن كما لهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيهات هيهات إنما الكمال فى إجلاء القلب والسر من الخواطر والأرادات والفكر فى تحصيل مراد الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر فى طرق ذلك التوصيل إليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لذلك كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضاة الرب تعالى فربما استعملها فى صلاته فكان يجهز جيشه وهو فى صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لا يدخل منه إلا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالى الهمة بحيث يدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأما اللفظات فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا ، فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هى أربح منها فلا يضيعها بهذه .

وإذا أردت أن تستدل على ما فى القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فإنه يطلعك على ما فى القلب شاء صاحبه أم أبى قال يحيى بن معاذ : القلب كالقدور تغلى بما فيها وألسنتها مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك به مما فى قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما فى قلب الرجل من لسانه فتذوق ما فى قلبه من لسانه كما تذوق ما فى القدر بلسانك وفى حديث أنس المرفوع : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وسئل النبى ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الفم والفرج [1] .

---

(١) الترغيب والترهيب « الترغيب فى حسن الخلق وفضله » الخ : ج٣ ص٦٤٣ ـ ٦٤٤ .

وقد سأل معاذ النبى ﷺ عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار فأخبره - ﷺ - برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله قال : بلى يارسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : كف عليك هذا فقال وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال : ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١)

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يرى الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرى فى أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى ما يقول ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ : قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان فقال الله - عز وجل - من ذا الذى يتألى على إنى لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك فهذا العابد الذى قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله » وفى حديث أبى هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى - ﷺ « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى نار جهنم » (٢) . وعند مسلم إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق ، والمغرب » (٣) .

وعند الترمذى عن النبى - ﷺ - من حديث بلال بن الحارث المزنى « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث (٤) .

وفى جامع الترمذى . . أيضا - من حديث أنس قال : « توفى رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله - ﷺ : أو لا تدرى لعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه » (٥) .

---

(١) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت باب « وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ج٣ ص٧٨٦ - ٧٨٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب « ما جاء فى الرقاق » الخ ج٣ ص١٢٥ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوى بها فى النار ج٤ ص٢٢٩٠ حديث رقم ٥٠ .

(٤) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت إلا عن خير باب « ان الرجل ليتكلم بالكلمة يهوى بها سبعين خريفا ج٣ ص٧٩٧ حديث رقم ٤٥

وسنن الترمذى ابواب الزهد باب ما جاء فى قلة الكلام ج٣ ص٣٨٣ رقم ٢٤٢١ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب ٨ ج٣ ص٣٨٢ الحديث رقم ٢٤١٨ .

وفى لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت : هنيئا لك يابنى الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضر »

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » وفى لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت » (١) .

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » (٢)

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يارسول الله ، قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت : يارسول الله ، ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا » حديث صحيح (٣) .

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكر الله ـ عز وجل » (٤) .

وعن النبى ﷺ : « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فإنما نحن بك فإذا استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » (٥) .

وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد ، ولقد رئى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها قلت : ما أحوج الناس إلى غيث فقيل وما يدريك أنا أعلم بمصلحة عبادى .

وقال بعض الصحابة لخادمه يوما : هات لى السفرة فعبث بها ثم قال استغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح -ركة اللسان وهى أضرها على العبد واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط على قولين أظهرهما الأول ، وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه .

وكان الصديق ـ رضى الله عنه ـ يمسك بلسانه ويقول هذا أوردنى الموارد ، والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أسيره ، والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وفى اللسان آفتان عظيمتان ان خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى : آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى فى وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف فى

---

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان باب « الحث على اكرام الجار والضيف ولزوم الصمت » ج١ ص٦٨ الحديث رقم ٧٤ .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب « ما جاء من تكلم بالكلمة .. الخ » ج٣ ص٣٨٢ رقم ٢٤١٩ قال الترمذى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه .

(٣) انظر صحيح مسلم بتحقيق عبد الباقى كتاب الايمان باب جامع أوصاف الاسلام ج١ ص٦٥ حديث رقم ٣٨/٦٢ إلا أنه قال : آمنت بالله فاستقم .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت باب « كثرة الكلام .. الخ » ج٣ ص٧٩٨ ، ٧٩٩ حديث رقم ٤٩ .

(٥) سنن الترمذى أبواب الزهد باب ما جاء فى حفظ اللسان ج٤ ص٣١ الحديث رقم ٢٥١٨ .

كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين ، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة ، فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره فى آخرته ، وان العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات امثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ـ عز وجل ـ وما اتصل به .

وأما الخطوات فحفظها بالا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن فى خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو اليه قربة يتقرب بها وينويها لله فيقع خطاه قربة وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان ، جاءت إحداهما قرينة الأخرى فى قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾(١) فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات فى قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾(٢).

وفى الصحيحين عن النبى ـ ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٣) .

وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان ونظير حديث ابن مسعود : بدأ رسول الله ـ ﷺ بالأكثر وقوعا ، ثم بالذى يليه ، فالزنى أكثر وقوعا من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها ، وأيضا فإنه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رءوسهم بين الناس ، وإن حملت من الزنى فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله جنينا ليس منهم فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم ، وانتسب اليهم وليس منهم الى غير ذلك من مفاسد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضا وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ، ففى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين . وإن عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة فكم فى الزنى من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ، ومن خاصيته ـ أيضا ـ أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٣ .
(٢) سورة غافر الآية : ١٩ .
(٣) صحيح مسلم كتاب القسامة باب « ما يباح به دم المسلم ج٣ ص١٣٠٢ ، ١٣٠٣ . الحديث رقم ١٦٧٦ .
وسنن أبى داود كتاب الحدود باب الحكم فيمن ارتد ج٤ ص٥٢٢ رقم الحديث ٤٣٥٢ .

وقال سعيد بن عبادة ـ رضى الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » متفق عليه .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ : « إن الله يغار وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه » (١) .

وفى الصحيحين عنه ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه » (٢) .

وفى الصحيحين فى خطبته ﷺ فى صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد ، والله انه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ثم رفع يديه فقال : اللهم هل بلغت » (٣) .

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنى من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك انه قال : « لأحدثكم حديثا لا يحدثكموه أحد بعدى سمعته من النبي ـ ﷺ ـ يقول : من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله ـ سبحانه ـ فى خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه فى الأرض عقوبة قال عبد الله بن مسعود : ما ظهر الربا والزنا فى قرية إلا أذن الله بإهلاكها .

ورأى بعض أحبار بنى اسرائيل ابنا له يغامز امرأة فقال : مهلا يابنى فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له هكذا غضبك لى لا يكون فى جنسك خير أبدا .

وخص سبحانه جد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص : أحدها القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة الثانى : انه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة فى دينه بحيث تمنعهم من اقامة الحد عليهم فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا وإن كان عاما فى سائر الحدود ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره فإن الناس لا يجدون فى قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله ـ تعالى ـ وتحريم الفواحش » ج٤ ص٢١١٤ حديث رقم ٣٦ .
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله ـ تعالى ـ وتحريم الفواحش ج٤ ص٢١١٤ . حديث رقم ٣٤ .
(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف ج٢ ص٦١٨ حديث رقم ٩٠١ .

أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله - عز وجل - وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفى النفوس أقوى الدواعى إليه والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصى العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضا فان هذا ذنب غالبا ما يقع مع التراضى من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقا لربه سبحانه فى أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون فى خلوة حيث لا يراهما أحد وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد الزانى المحصن مشتق من عقوبة الله - تعالى - لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش ، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فإنه يفسد فسادا لا يرجى له بعده صلاح أبدا ، ويذهب خيره كله وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحى بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه ، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم فى البدن ، وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين ، سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يحكيهما ، والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور : منها أن النبى - ﷺ - قال : لا يدخل الجنة ولد زنى ، فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له فى ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير الا يجىء منه خير أبدا لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ، قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى ، وأخبث ، وأوسخ ، وهو جدير الا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيرا قيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعمل صالح ، ولا لعلم نافع ، ولا توبة نصوح ، والتحقيق فى هذه المسألة أن يقال : ان تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحا وكان فى كبره خيرا منه فى صغره ، وبدل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره ، وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله فى معاملته فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة فإن الله يغفر الذنوب جميعا ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلا وفضلا إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقد ضمن الله سبحانه - لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبدل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا فى حق التائبين خاصة ، وأما مفعول به كان فى كبره شرا مما كان فى صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا بعمل صالح ولا استدرك ما فات ولا أحيا ما مات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى ، فتضاعف الحسنات ، وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على اعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي - رحمه الله :

واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابا ، ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها ، والإعراض عن الأخرى والإقدام والجرأة على معاصى الله - عز وجل - وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجرأة والإقدام ، فملك قلبه وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين له المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعى وأعاد ما قال . ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل : لا إله إلا الله ، فقال الناصر : مولاى ، فأعاد عليه القول فقال : مثل ذلك ، ثم أصابته غشية فلما أفاق قال : الناصر مولاى ، وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا آله إلا الله قال الناصر مولاى ، ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك .

قال عبد الحق - رحمه الله : وقيل لآخر ممن أعرفه قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول الدار الفلانية - أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلانى افعلوا فيه كذا ، قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلمى أن أحدث به عنه : أن رجلا نزل به الموت فقيل له : قل لا آله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية [ده يازده] تفسيره : عشرة باحدى عشر ، وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول أين الطريق إلى حمام منجاب قال : وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفا بإزاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ، فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها فى داره ، وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه ، وقالت خدعة منها له ، وتحيلا لتتخلص مما أوقعها فيه ، وخوفا من فعل الفاحشة ، يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا ، وتقربه عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه فى شىء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول :

يارب قائلة يوما وقد تعبت ... أين الطريق الى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجارية أجابته من طاق قرنان

- هل لا جعلت سريعا إذ ظفرت بها ... حرزا على الدار أو قفلا على الباب .

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

قال : ويروى أن رجلا عشق شخصا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده ان يعوده فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه وجعل ينتظر للميعاد الذى ضربه له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما فقال : انه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع فرغبت إليه وكلمته فقال : إنه ذكرنى وبرح بى ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسى لمواقع التهم فعاودته فأبى وانصرف. فلما سمع البائس ذلك أسقط فى يده وعاد إلى أشد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول فى تلك الحال .

اسلم ياراحة الغليل ويا شفاء المدنف النحيل
رضاك أشهى الى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يافلان ، اتق الله .

قال : قد كان ، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت فعياذا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح فلما أصبح قيل له : أكل ذلك خوفا من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال : الذنوب أهون من هذه وإنما أبكى خوفا من الخاتمة ، وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ . فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابا بينهم وبين الخاتمة الحسنى قال :

واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ، ولا علم به ، ولله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد فى العقيدة أو إصرار على الكبيرة وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه ، حتى نزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه ، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة ، فرقى يوما المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصرانى فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد ؟

قال : أريدك ؟ قالت : لماذا ؟

قال : قد سلبت لبى وأخذت بمجامع قلبى

قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبدا .

قال : أتزوجك .

قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك .
قال : أتنصر .
قالت : ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها . وأقام معهم فى الدار فلما كان أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه .

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ؛ وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنا أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ، على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وخالد بن زيد ، وعبد الله بن معمر ، والزهرى ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومالك ، واسحق بن راهويه ، والامام أحمد ، فى أصح الروايتين عنه ، والشافعى فى أحد قوليه ، إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال محصنا كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبى رَباح ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، وابراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى فى ظاهر مذهبه ، والإمام أحمد فى الرواية الثانية عنه ، وأبو يوسف ، ومحمد إلى أن عقوبته وعقوبة الزانى سواء .

وذهب الحاكم ، والإمام أبو حنيفة ، إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير ، وقالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسوله - ﷺ - فيه حدا مقدرا فكان فيه التعزير كأكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا : ولأنه وطء فى محل لا تشتهيه الطبائع بل ركبها الله - تعالى - على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره ، قالوا : ولأنه لا يسمى زانيا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، فلا يدخل فى النصوص من الدلالة على حد الزانين ، قالوا : ولأنا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبيعيا اكتفى بذلك الوازع عن الحد ، واذا كان فى الطبائع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد فى الزنى ، والسرقة ، وشرب المسكر ، دون أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا وطرد هذا أنه لا حد فى وطء البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله - تعالى - الطبائع على النفرة من وطء الرجل الرجل أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى فإن الداعى فيه من الجانبين قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة ليس فى المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهى تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه - إن شاء الله تعالى .

قالوا ولم يبتل الله - تعالى - بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم ، وجعل عذابهم مستمرا ، فنكل نكالا لم ينكله بأمة

سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها اذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض إلى ربها - تبارك وتعالى - وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فإنه إذا وطأه الرجل قتله قتلا لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به فى آخرته .

قالوا : والدليل على هذا ان الله - سبحانه وتعالى - جعل حد القاتل الى خيرة الولى إن شاء قتل وإن شاء عفا وحتم قتل اللوطى حدا كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد فى بعض نواحى العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فاستشار أبو بكر الصحابة - رضى الله عنهم - فكان على بن أبى طالب أشدهم قولا فيه فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار .

فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه .

وقال عبدالله بن العباس : أن ينظر أعلى ما فى القرية فيرمى اللوطى منها منكسا ، ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد عقوبة الله للوطية قوم لوط .

وابن عباس هو الذى روى عن النبى ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره .

واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث وإسناده على شرط البخارى قالوا : وثبت عنه - ﷺ - أنه قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » ولم تجىء عنه لعنة الزانى ثلاث مرات فى حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله : فظن بعض الناس ان ذلك اختلاف منهم فى قتله . فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهى بينهم مسألة نزاع قالوا : ومن تأمل قول - سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

وقوله فى اللواط :

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . تبين له تفاوت ما بينهما فإنه سبحانه نكر الفاحشة فى الزنا أى : هو فاحشة من الفواحش وعرفها فى اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ونعم الرجل زيد .

أى : تأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها .

وهذا نظير قول فرعون لموسى :

﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل واحد .
ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم .
فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه أشد النفور وهو إتيان الرجل رجلا مثله بنكحه كما ينكح الأنثى .
فقال : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب وقيام الرجال على النساء وحصول المودة والرحمة وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وخروج أحب الخلق إلى الله من جماع النساء ، كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة النبى - ﷺ - الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح .
والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله إلا الله - عز وجل - ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله - سبحانه - عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا فى العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريبا منه فى الزنا وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ وسماهم مفسدين فى قول نبيهم : ﴿ قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ . وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لابراهيم عليه السلام . ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات .
ولما جادل فيهم خليله ابراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم فقيل له : ﴿ ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .
وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه ضيوف هم من أحسن البشر صورا فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رآهم قال لهم ﴿ ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ يزوجهم بهن خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ﴾ .
فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد :
﴿ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .
فنفث نبى الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب .
فقال : ﴿ .. لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .
فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك فقالوا : ﴿ .. يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما

جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب .

فقالوا : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

فوالله ما كان بين اهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر .

وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذى لا يرد من عند الرب الجليل على يدى عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم كما أخبر به فى محكم التنزيل فقال عز من قائل :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

أخذهم على غرة وهم نائمون وهم فى سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

ذهبت اللذات وأعقبت الحسرات وانقضت الشهوات واورثت الشقوات

تمتعوا قليلا وعذبوا طويلا

رتعوا مرتعا وخيما فأعقبتهم عذابا أليما

أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها الا فى ديار المعذبين وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين . فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم .

فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم . وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ويقال لهم وهم على وجوههم يسبحون ذوقوا ما كنتم تكسبون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون .

ولقد قرب الله سبحانه وتعالى مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين اخوانهم فى العمل .

فقال مخوفا لهم باعظم الوعيد وماهى من الظالمين ببعيد .

وفى الأجوبة عما احتج به لمن جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا أما قولهم : إنها معصية لم يجعل الله فيها حدا معينا فجوابه من وجوه :

أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتما وما شرعه رسوله ﷺ فإنما شرعه عن الله فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

الثانى : أن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة ، فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقى حكمه قلنا : فينتقض عليكم بحد شارب الخمر .

الثالث : أن نفى دليل معين لا يلزم نفى مطلق الدليل ولا نفى المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير مشتق وأما قولكم إنه وطء لاتشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله - ﷺ - وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .

الثانى : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو يسبى ذلك عقل عاشق أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس فى القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت فإن النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود فى أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو قول إسحاق ابن راهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى أبو داود من حديث البراء بن عازب قال : « لقيت عمى ومعه الراية فقلت له : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله » (١) . قال الترمذى : هذا حديث حسن قال الجوز جانى : عم البراء اسمه الحارث بن عمرو فى سنن أبى داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » (٢) ورفع الى الحجاج رجلا اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله - ﷺ - فسألوا عبد الله بن مطرق فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل فى المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال حد واطئه القتل دليله من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال فى وطء ذوات المحارم من وطء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطى والتحقيق أن يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد اتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وانما اختلفوا فى صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزنى على قولين فذهب الشافعى ومالك وأحمد فى إحدى روايتيه إلى أن حده حد الزانى وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالما بالتحريم أنه يحد الا أبا حنيفة وحده فانه رأى ذلك شبهة مسقطة للحد والمنازعون يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظا وشدة فإنه ارتكب محظورين عظيمين محظور العقد ومحظور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محظور العقد الى محظور الزنا وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما فى مذهب احمد وغيره أحدهما انه يجب به الحد وهو قول الأوزاعى فإن فعله أعظم جرما وأكثر ذنبا لأنه انضم الى هتك فاحشة حرمة الميتة .

---

(١) سنن ابى داود كتاب الحدود باب فى والرجل يزنى بحريمه» ج٤ ص٦٠٢ - ٦٠٤ حديث رقم ٤٤٥٧ وأخرجه الترمذى فى كتاب الاحكام باب فيمن تزوج امرأة ابيه ج٢ ص٤٠٧ - ٤٠٨ رقم ١٣٧٣ وقال الترمذى حديث البراء حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) جـ ٢ صـ ٨٥٦ رقم ٢٥٦٤ .

أقوال الفقهاء فى وطء البهيمة

للفقهاء فى هذا الفعل ثلاثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولا حد عليه وهذا قول مالك وأبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه وهو قول إسحق والقول الثانى أن حكمه حكم الزانى يجلد إن كان بكرا ويرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطى نص عليه أحمد ويخرج على الروايتين فى حده هل هو القتل حتما أو هو كالزانى والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبى - ﷺ - من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه قالوا ولأنه وطء لا يباح بحال فكان فيه القتل حدا للوطء ومن لم يروا عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسماعيل بن سعيد الشاليخى : سألت أحمد عن الذى يأتى البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبى عمرو فى ذلك ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط وليس الأمران فى طباع الناس سواء فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس .

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء بعض الأحاديث المرفوعة (إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان)[1] ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الإيلاج وإن أطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والفم وإذا ثبت هذا فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾[2] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل وضرب عنقه وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الإثم والحكم .

* * *

فوائد غض البصر

فإن قيل : مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما الاحتيال لدفع هذا الخبال وهل من طريق قاصد إلى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويداه فإن لامه لائم اتقد تعلقه لذكره لمحبوبه وإن عذله عاذل أغراه عذله وساربه فى طريق مطلوبة ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس بى ... متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ... مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فعدت أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمنى اللوم

---

(١) أبو داود ج٤ ص٦٠٩ رقم ٤٤٦٤
البيهقى فى السنن الكبرى - كتاب الحدود - باب حد اللوطى ٨/٢٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٦

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء والداء الذى طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام فى دواء هذا الداء من طريقين :

أحدهما حسم مادته قبل حصولها والثانى قلعها بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فإن أزمة الأمور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران : أحدهما غض البصر كما تقدم فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفى غض البصر عدة منافع .

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه ـ تبارك وتعالى ـ وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانى : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى لعل فيه هلاكه الى قلبه .

الثالث : أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعه على الله فإن اطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شىء أضر من إطلاق البصر فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع : أنه يقوى القلب ويفرحه كما أن اطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس : أنه يكسب القلب نورا كما أن اطلاقه يكسبه ظلمة ـ ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر فقال : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾[1] ثم قال إثر ذلك ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[2] أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه واذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب فاذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه ابن شجاع الكرمانى يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاعا هذا لا تخطى له فراسة والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى انما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[3] **فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل والعمه الذى هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل :**

---

(١) سورة النور آية ٣٠

(٢) سورة النور آية ٣٥

(٣) سورة الحجر آية ٧٢

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من بـه سكـران

وقال الآخر :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعـظم مما بـالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

السابع : انه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة كما فى الأثر الذى يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا تجده فى المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين فإن المعصية لا تفارق رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) والايمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾(٣) أى من كان يريد العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفى دعاء القنوت إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى فى المكان الخالى فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقى عليه حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيصير القلب فى اللهب فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات فإن القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى الحديث المتفق على صحته .

التاسع : أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتنفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾(٤) . واطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذا أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وان يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك فى جانب الصلاح فإذا ضربت العين وفسدت ضرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه أضداد ذلك فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماوراءها .

(١) سورة المنافقون آية ٨
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩
(٣) سورة فاطر آية ١٠
(٤) سورة الكهف آية ٢٨

والثانى : اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بدا من عشق الصور، وشرح هذا أن النفس لا تترك محبوبا الا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين إن فقدا أو واحد منهما لم ينتفع بنفسه . أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين ليتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثانى قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير ما يعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأتى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الا من أهل الصبر واليقين فقال تعالى وبقوله يهتدى المهتدون ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] وهذا هو الذى ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره من الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره فالأول يمشى فى نوره ويمشى الناس فى نوره والثانى قد طفى نوره فهو يمشى فى الظلمات ومن تبعه والثالث يمشى فى نوره وحده .

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لا يجتمعان بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه وان أحبه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة له إلى محبته أو قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب وان لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار ان يشرك فى محبته غيره ويمقته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذبا فى دعوى محبته مع أنه ليس أهلا لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغى المحبة إلا له وحده وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبته الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره فيعذب بها فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة إما يعذبه بمحبة الصلبان أو لمحبة النيران أو لمحبته المردان أو لمحبته النسوان أو لمحبته الأثمان أو بمحبة العشراء والخلان أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان فالإنسان عبد محبوبه كائنا ما كان كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى :

---

(١) سورة السجدة آية ٢٤

﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ [١] .

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئا وخضع له فقد تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له **التتيم** أيضا فإن أول مراتبه العلاقة .

وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبوب قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهى ذات تمائم ولم يبد للأتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالبغام الأبيض

ثم بعدها الصبابة وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبوب قال الشاعر :

يشكو **المحبون** الصبابة ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه ومنه سمى الغريم غريما لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى : ﴿ **إن عذابها كان غراما** ﴾[٢] وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب وقل أن تجده فى أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق فى حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحث السفر وقد جاء إطلاقها فى حق الرب تعالى كما فى مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر إنه صلى صلاة فأوجز فيها فقيل له فى ذلك فقال أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى ﷺ يدعو بهن اللهم إنى أسألك لعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى إذا كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الرضاء والغضب وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العين بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسألك الشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفى أثر آخر : طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقا وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله : ﴿ **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه** ﴾ وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾[٣] لما علم الله سبحانه شدة

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣
(٢) سورة الفرقان آية ٦٥
(٣) سورة العنكبوت آية ٥

شوق أوليائه الى لقائه وأن قلوبهم لا تهدى دون لقائه ضرب لهم أجلا موعدا للقائه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين فحياتهم هى الحياة الطيبة فى الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهى الحياة الطيبة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾(١) وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده وأى حياة طيبة من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هى واحدة فى مرضاة الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الأعلى وحبه والشوق الى لقائه والأنس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فيه يسمع وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث كما فى صحيح البخارى عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: « ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه »(٢) فتضمن هذا الحديث الشريف الالهى الذى حرم على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته فى أمرين أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداءالفرائض أحب ماتقرب، إليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا من الله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه وان أبصر أبصر به وان بطش بطش به وان مشى مشى به فهو فى قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه فالباء هنا باء المصاحبة وهى مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألة خيالية لا علمية محضة وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين.

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثـواك فى قلبى فـأين تغيب

وقال آخر:

وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى
ومـن عجـب أنى أحن الـيهـم ... فاسأل عنهم من لقيت وهم معى

(١) سورة النحل آية ٩٧
(٢) صحيح البخارى (كتاب الدعوات) ٨/ ١٣١.

وهذا ألطف من قول الآخر :

ان قلت غبت فقلبى لا يصدقنى إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب فقد يحدث بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير فى المحبة أدنى إليه من نفسه بحيث ينسى نفسه ولا ينساه كما قيل :

أريد لأنسى ذكره فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال الآخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص فى الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الإدراك وآلات العقل والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهية ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل فإذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظا فى آلات إدراكه فكان محفوظا فى حبه وبغضه محفوظا فى بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه إذا كان إدراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة وكذلك حركة اليد والرجل التى لابد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التى لا تقع إلا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها وأيضا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فإنه ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذى يبصر به وبطشه ومشيه بقوله (كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) تحقيقا لكونه مع عبده وكون عبده فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولم يقل فلى يسمع ولى يبصر ولى يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم وإن الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه كقوله فى الحديث الآخر (أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه)[1] وهذه المعية الخاصة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إن الله معنا ﴾ وقول النبى - ﷺ - (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[2] وقوله تعالى ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾[3] وقوله ﴿ إن الله

(١) ابن ماجة - كتاب الادب - باب فضل الذكر ١٢٤٦/٢ رقم ٣٧٩٢
(٢) البخارى ٤/٥ ومسلم - كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤/٤ رقم ٢٣٨١ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩

مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(١) وقوله ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾(٢) وقوله ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾(٣) وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾(٤) فهذه الباء مفيدة معنى هذه المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعية فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف فى حقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود اليه ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابة حصلت موافقة ـ الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه أى كما وافقنى فى مرادى بامتثال أوامرى والتقرب الى جنابى فانا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألنى أن أفعل به ويستعيذنى أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكره عبده ويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى أنه لا يميته ولكن مصلحته فى إماتته فإنه ما أماته إلا ليحييه وما أمرضه إلا ليصحه وما أفقره إلا ليغنيه وما منعه إلا ليعطيه ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن الأحوال ولم يقل لأبيه أخرج منها إلا ليعيده إليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه بل لو كان فى كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

التتيم

ثم التتيم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله أى عبد الله وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم طريق معبد أى مذلل قد ذللته الأقدام فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته فى العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته وهى مقام الدعوة اليه ومقام التحدى بالنبوة ومقام الأسرى فقال سبحانه ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾(٥) وقال ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾(٦) وقال ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾(٧) وفى حديث الشفاعة إذ هبوا الى محمد ﷺ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذا هو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . الآية ﴾(٨) ولهذا كان

---

(١) سورة النحل آية ١٢٨
(٢) سورة الانفال آية ٤٦
(٣) سورة الشعراء آية ٦٢
(٤) سورة طه آية ٤٦
(٥) سورة الجن آية ١٩
(٦) سورة البقرة الآية ٢٣
(٧) سورة الاسراء آية ١
(٨) سورة البقرة آية ١٣٠

أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله فى المحبة كما قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[١] وأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه يحبهم كحب الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وقيل بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليا أو شفيعا غاية الإنكار وجمع ذلك تارة وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالإنكار فقال تعالى ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾[٤] وقال فى الافراد ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا ﴾[٥] وقال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾[٦] فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له وليا من شفعاء وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله بخلاف من اتخذ مخلوقا أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التى انما تنال بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الاشراك بالله فى المحبة بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها فإن محبة الرسول - ﷺ - بل تقديمه فى الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء لا يتم الإيمان إلا بها إذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب فى الله ولله كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان وفى لفظ فى الصحيح لا يجد عبد طعم الايمان إلا من كان فى قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار وفى الحديث الذى فى السنن (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان)[٧] وفى حديث آخر (ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه) فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٥
(٢) سورة يونس آية ٣
(٣) سورة السجدة آية ٤
(٤) سورة الانعام آية ٥١
(٥) سورة الزمر آية ٤٣، ٤٤
(٦) سورة الجاثية آية ١٠
(٧) البخارى كتاب الايمان ج١ ص١٣ ومسلم - كتاب الايمان ٦٦/١ رقم ٤٣
سنن أبى داود - كتاب السنة ج٥ ص٦٠ رقم ٤٦٨١
ابن حبان - كتاب البر والاحسان - باب البيان بان من كان احب لأخيه المسلم كان افضل ٣٨٨/١ رقم ٥٦٧
والحاكم - كتاب البر والصلة ١٧١/٤ وقال صحيح الاسناد ..

وهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها وإنما ضل من ضل بغدم التمييز بينها : أحدها محبة الله ولا تكفى وحدها فى النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله : الثانى محبة ما يحب الله وهذه هى التى تدخله فى الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها : الثالث الحب لله وفيه وهى من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله : الرابع المحبة مع الله وهى المحبة الشركية وكل من أحب شيئا مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذه ندا من دون الله وهذه محبة المشركين : وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه وهى المحبة الطبيعية وهى ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة **العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم إلا ان ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته** .كما قال تعالى :﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾(٢) .

ثم الخلة وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى فى القلب لمحبة سعة لغير محبوبه وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما ابراهيم ومحمد كما قال ﷺ : (إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا)(٣) .

وفى الصحيح عنه ﷺ (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله)(٤) وفى حديث آخر فانى أبرأ الى كل خليل من خلته ولما سأل ابراهيم ـ عليه السلام ـ الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمر بذبحه وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمورية اعظم ابتلاء وامتحانا ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فإن الرب تعالى ما أمر بشىء ثم أبطله رأسا بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال لا يبدل القول لدى خمس فى الفعل وخمسون فى الأجر . .

وأما ما يظنه بعض الظانين أن المحبة أكمل من الخلة وأن ابراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله فإن المحبة عامة والخلة خاصة الخلة نهاية المحبة وقد أخبر النبى ﷺ أن الله اتخذ ابراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضا فإن الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام ـ والشاب التائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة

---

(١) سورة المنافقون آية ٩
(٢) سورة النور آية ٣٧
(٣) ابن ماجه ج١ ص٥٠ رقم ١٤١
(٤) مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٥/٤ رقم ٢٣٨٣

كما أنه يفعل ما يكره لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما وأيسر المكروهين على أقواهما وتقدم أن هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بأمرين قوة الإدراك وشجاعة القلب فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما بضعف الإدراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف فى النفس وعجز فى القلب لا يطاوعه الإيثار إلا صلح له مع علمه بأنه الأصلح فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وافق لأسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله وتسميه الاطباء عديم المروءة فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه وهاتان القوتان فى القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود العقل الاختيارى لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الأمر والنهى وهو يسمى الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك هل هو أمر وجودى أو عدمى والتحقيق أنه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضى عدمى والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودى .

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فإنما يؤثر الحى لما فيه من الحصول والمنفعة التى يلتذ بحصولها أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال :

هى الشفاء لداء لو ظفرت بها .. وليس منها شفاء الداء مبذول .

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتى الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه اكثر الناس غلطا قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر فى العواقب فأعقل الناس من آثر لذة نفسه وراحته فى الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفة الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت فى سعى العقلاء فرأيت سعيهم كلهم فى مطلوب واحد وان اختلفت طرقهم فى تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا فى الاكل والشرب وهذا فى التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل اكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أر فى جميع هذه الطرق طريقا موصلا اليه بل لعل اكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شىء فإن سلك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه وان حصل للعبد حصل

له كل شيء وان فاته فاته كل شيء وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعادته . .

والمحبوب قسمان محبوب لنفسه ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبته سبحانه وهى من لوازم محبته فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتى لا تنفع بل قد تضر واعلم انه لا يحبه لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابة كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشىء أحب الى الرب كان أحب اليه وآثر عنده وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك فى نفسك وفى غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحبوب لغيره قسمان أيضا أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثانى ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه الى المحبوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع انه خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه والنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شر لها لإفضائه الى فوات هذا المحبوب فالعاقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فإن ذلك قد يكون شرا له بل قد يجلب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وان كانت منقطعة فالأمور أربعة مكروه يوصل إلى مكروه ومكروه يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى مكروه فالمحبوب الموصل الى المحبوب قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعى الترك من وجهين بقى القسمان الأخيران تتجاوز بهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جوارا منها وهو العاجل والعقل والايمان يؤثر ان أنفعهما وأبقاهما والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعى العقل والايمان ينادى كل وقت حى على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السرى وفى الممات يحمد العبد التقى فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول :

يانفس اصبرى فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ويذهب هذا كله ويزول

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فاصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة وشبهه

---

(١) الآية : ٢١٦ من سورة البقرة .

منع كمال التصديق فى معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له فإن قويت حتى عارضت أصلى الحب والتصديق كانت كفرا أو شركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت فى كماله وأثرت فيه ضعفا وفتورا فى العزيمة والطلب وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكى الراغب فلا تصلح الموالاة الا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾(١) .

فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(٣) . اى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمته باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة لا إله إلا الله وهى التى ورثها امام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهى محض حق الله على جميع العباد وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهى المنشور الذى لا تدخل الجنة إلا به والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه وهى كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس إلى شقى وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهى العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة فلا يحب سواه بل كل ما كان يحب غيره فإنما هو تبعا لمحبته وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا اليه ولا يطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان فى الشدائد إلا به ولا يلتجى إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه يجتمع ذلك فى حرف واحد وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة ان لا إله إلا الله ولهذا حرم الله على النار من شهد ان لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق تحقيقه هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى :

﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾(٤) .

فيكون قائما بشهادته فى باطنه وظاهره وفى قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٧٧ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

(٤) سورة المعارج آية ٣٣

تكون نائمة اذا نبهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون إلى القيام أقرب وهى فى القلب بمنزلة الروح فى البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ : (إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا[1] فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو فى الجنة ينقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب فى جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[2] فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا عنه وبه مأوى روحه فى هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا والأبرار فى نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار فى جحيم وان اتسعت عليهم الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾[3] وطيب الحياة جنة الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا** ﴾[4] وأى نعيم أطيب من شرح الصدر وأى عذاب أضيق من ضيق الصدر .

وقال تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[5] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبى ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر)[6] ومن هذا قوله ﷺ (ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)[7] ومن هذا قوله وقد سألوه عن وصاله فى الصوم فقال : (إنى لست كهيئتكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى)[8] فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى وإن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل :

لها احاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضىء به ومن حديثك فى أعقابها حادى
اذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء فتحيا عند ميعادى

وكلما كان وجود الشىء أنفع للعبد وهو اليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ،وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شىء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لمرضاته بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه آلم شىء له وأشد عذابا عليه

---

(١) ابن ماجة ـ كتاب الأدب ـ باب فضل لاإله إلا الله ١٢٤٧/٢ رقم ٣٧٩٥ مسند أحمد ٢٨/١ .
(٢) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١
(٣) سورة النحل آية ٩٧
(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥
(٥) سورة يونس الآيات : ٦٢ ـ ٦٤
(٦) البخارى ٢٨/٣ ومسلم ـ كتاب الحج ١٠١٠/٢ رقم ١٣٩٠
(٧) البخارى باب حرم المدينة ٣٢٣/١ ط/ دار إحياء الكتب العربية
(٨) البخارى ، باب الوصال فى الصوم ٤٨/٣

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها فى ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هى فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق فى سكره الذى احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه فى السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وأنتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك فإن المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبته فى الدنيا بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له فكيف بمن مصيبته بمالا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرا به وإن الموت لا يعود اكبر امنيته واكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الالمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسى فاعرض على نفسك الان أعظم محبوب لك فى الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت اليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفى الأثر الإلهى ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدت كل شيء وان فتك فاتك كل شيء وانا أحب اليك من كل شيء .

ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة فى القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها فى حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح إلا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده وكذا الانابة وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى :

﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[2] وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التى سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذى اتخذه من دون الله وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم احد مدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها .

والنهى عن المحبة الاخرى ولوازمها وضرب الامثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص ولوازمها للنوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما واخباره عن فعل النوعين وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقرآن باقى شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم انما هو عبادة الله وحده لا شريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٢) البقرة ١٦٥ .

والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت فى الصحيحين من حديث انس عن النبى ﷺ انه قال : (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين)[١] وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله : (والله لأنت أحب الى من كل شىء إلا من نفسى فقال لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال والذى بعثك بالحق لأنت أحب الى من نفسى فقال الآن ياعمر)[٢] فإذا كان هذا شأن محبة النفس ووالده وولده والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه .

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التى بين جنبيه فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله والشىء قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شىء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الألوهية إلا له ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع .

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة فهى علتها الفاعلة والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع حركة اختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى فهو يتحرك للعود إليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسرة وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود إلى مركزه وكلتا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الاختيارية الإرادية هى أصل الحركتين الأخريين وهى تابعة للإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة والدليل على انحصار الحركات فى هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الإرادية وإن لم يكن له شعور بها فإما أن يكون على وفق طبيعته الأولى فالأولى هى الطبيعية والثانية هى القسرية إذا فهمت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمرا والمقسمات أمرا كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة فى غير موضع والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وشماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسألته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه الى المحشر اذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه الى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر فليس لهم من الأمر شىء بل الأمر كله لله وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بإذن الله وأمره . قال

---

(١) البخارى (كتاب الإيمان) جـ ١ صـ ١٠ ومسلم جـ ١ صـ ٩٧ رقم ٤٤ والنسائى ٨/ ١١٤ وابن ماجه ١/ ٢٦ رقم ٦٧ وأحمد ٣/ ١٧٧ .

(٢) البخارى (كتاب الايمان والنذور) ٨/ ١٦١ .

تعالى اخبارا عنهم : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾(٢) وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره فى الخليقة كما قال تعالى ﴿ والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ﴾(٣) وقال : ﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ﴾(٥) .

فجميع تلك المحبات والحركات والارادات والافعال هى عباداتهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها فلولا الحب مادارت الأفلاك ولا تحركت الكواكب النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة فى بطون الأمهات ولا انصدع عن الحب انواع النبات ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الأرض والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (٦) .

إذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة ولاصلاح للموجودات إلا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها إلا بابداعه وحده ولهذا قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾(٧) .

ولم يقل سبحانه لما وجدتا ولكانتا معدومتين ولا قال لعدمتا - إذ هو سبحانه قادر على ان يبقيهما على وجه الفساد لكن لا يمكن ان تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الأخر والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية إذ الشرك نقص فى كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه ان يكون إلها ناقصا فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهور ليس باله وان لم يقهر احدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب ان يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر .

وفى ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول اذا كان فيه فحلان وأصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع اعداء الاسلام فيهم فى زمن من الأزمنة إلا فى زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض فصلاح

(١) سورة مريم آية ٦٤
(٢) سورة النجم آية ٢٦
(٣) سورة الصافات الآيات : ١ - ٣ .
(٤) سورة المرسلات الآيات : ١ - ٦ .
(٥) سورة النازعات الآيات : ١ - ٥ .
(٦) سورة الاسراء آية ٤٤
(٧) سورة الأنبياء آية ٢٢

السموات والأرض واستقامتها وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الادلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا** ﴾[3] قيل المعنى لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله فى الآية الاخرى : ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾[4] المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدا له قال ويدل على ذلك وجوه منهاقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾[5] أى هؤلاء الذين يعبدونهم من دونى هم عبادى كما انتم عبادى ويرجون رحمتى ويخافون عذابى فلماذا تعبدونهم من دونى الثانى انه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا قال لابتغوا اليه سبيلا وهذا اللفظ انما يستعمل فى القرب كقوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾[6] وأما فى المغالبة فإنه يستعمل بعلى كقوله : ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** ﴾[7] الثالث انهم لم يقولوا ان آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون** ﴾[8] وهم إنما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغى التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه .

قال تعالى : لو كان الأمركما يقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له فلماذا تعبدون عبيده من دونه .

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجدوالذوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من احكامها ولوازمها والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة التى تجلب لصاحبها ما ينفعه فى دنياه وآخرته وهذه المحبة هى عنوان السعادة وضدها هى التى تجلب لصاحبها ما يضره فى دنياه وآخرته وهى عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الإنسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما فى محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما فى محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تتركب محبتها من أمرين من اعتقاد فاسد وهوى مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الانفس

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٢١ ـ ٢٣ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٢
(٤) سورة المؤمنون آية ٩١
(٥) سورة الاسراء آية ٥٧
(٦) سورة المائدة آية ٣٥
(٧) سورة النساء آية ٣٤
(٨) سورة الاسراء آية ٤٢

فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضه فتنفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لاقواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من انواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التى هى عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فإن بكى نفعه وان حزن نفعه وان فرح نفعه وان انبسط نفعه وان انقبض نفعه فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة والمحبة المضرة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى : **﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾**(١) .

أخبر سبحانه فى الآية الاولى ان المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح واخبر فى الثانية ان أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها والفرق بينهما ان الأول ليس من فعلهم وانما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثانى نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حاصلا

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل فهى أصل كل دين سواء كان حقا أم باطلا فإن الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التى صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين فى قوله تعالى : **﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾**(٢) .

قال الامام احمد عن ابن عيينة قال ابن عباس لعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن خلق النبى ﷺ فقالت كان خلقه القرآن(٣) ، والدين فيه معنى الإذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الأعلى الى الأسفل كما يقال دنته فدان أى قهرته فذل .

ويكون من الأدنى الى الأعلى كما يقال : دنت الله ودنت لله وفلان لا يدين الله دينا ولا يدين الله بدين فدان الله أى أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أى خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لابد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذلك فى الظاهر وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذى يدين الناس فيه بأعمالهم ان خيرا

(١) سورة التوبة الأيتان : ١٢٠ ، ١٢١

(٢) تفسير ابن كثير سورة ن آية ٤

مسند احمد ٦/٢١٦

فخير وان شرا فشر وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى : ﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾[1] أى هلا تردون الروح الى مكانها ان كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سيقت للاحتجاج عليهم فى انكارهم البعث والحساب ولابد ان يكون الدليل مستلزما لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليلا على لازمه ولا يجب العكس ووجه الاستدلال انهم اذا انكروا البعث والجزاء فقد كفروا ربهم وانكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما ان يقروا بان لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم يميتهم اذا شاء ويحييهم اذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم واما ان يقروا برب هذا شأنه فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامرى والجزائى وان انكروا كفروا به فقد زعموا انهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها اذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته أى فهلا يردون الروح الى مكانها ان كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضى عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم اذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه فى عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعى أمرى ودين حسابى جزائى وكلاهما لله وحده فالدين كله أمرا أو جزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه ودين العبد لله به انما يقبل إذا كان محبة ورضا كما قال النبى ﷺ :

(**ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا**)[2] .

وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجلها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء باساءته وكل من الأمرين محبوب للرب فانهما عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو سبحانه على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخبارا عن نبيه هود عليه السلام انه قال لقومه انى أشهد الله ﴿ **واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم** ﴾[3] ولما علم نبى الله ان ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل ووضع الثواب فى مواضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقه به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان اذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ **إنى أشهد الله واشهدوا أنى**

---

(١) سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) مسلم - كتاب الايمان ٦٢/١ رقم ٣٤

(٣) سورة هود الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

برىء مما تشركون من دونه ﴾[١] . الاية .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شىء لعظمته فقال : مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو فى قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الأمر الا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم فى كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه فلا أخاف مادونه فإن ناصيته بيده ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض فى عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لا يخرج فى تصرفه فى عباده عن العدل والفضل إن أعطى واكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعدله وبحكمته وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا وفى الحديث الصحيح (ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وحزنى وذهاب همى وغمى إلا اذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه)[٢] وهذا يتناول حكم الرب الكونى والأمرى والقضاء الذى يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض فى عبده وكلا القضاءين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما اقرب نسب .

ونختتم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر فإنه يفسد القلب بالذات وإذا فسد فسدت الارادات والأقوال والأعمال وفسد ثغر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضا إن شاء الله تعالى والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع ان الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام حتى أن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد كما فى كتاب الزهد للإمام احمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى ﷺ (حبب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن)[٣] الثانى : ان يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : انه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة ، الرابع : انه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يأتى لغيره فى وطنه وأهله ومعارفه الخامس : ان المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث ان كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس : انها غير أبية ولا ممتنعة فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الاباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر :

(١) سورة هود آية ٥٤

(٢) مسند احمد تحقيق الشيخ شاكر ٢٦٦/٥ رقم ٣٧١٢ وقال : اسناده صحيح ورواه الحاكم ٥٠٩/١ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم

(٣) سنن النسائى ٦١/٧ ومسند احمد ٢٨٥/٣

وزادنى كلفا فى الحب ان منعت أحب شيء الى الانسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إبائها وإمتناعها وأخبرنى بعض الناس ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإبائها بحيث لا يعاودها .

ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل ما منع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره واللذة بادراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها ، السابع : انها طلبت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها بل كانت هى الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه ، الثامن : انه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى ان لم يطاوعها من اذاها له فاجتمع داعى الرغبة والرهبة . التاسع : انه لا يخشى ان تنمى عليه هى ولا أحد من جهتها فانها هى الطالبة والراغبة وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء ، العاشر : أنه كان مملوكا لها فى الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقا على الطلب وهو من أقوى الدواعى كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب ما حملك على الزنا قالت قرب الوساد وطول السواد تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى وطول السواد بيننا .

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿ **وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾[1] .

الثانى عشر : أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار ان الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف اعرض عن هذا وللمرأة استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه وحمله حبه لله على ان اختار السجن على الزنا فقال ﴿ **رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه** ﴾[2] . وعلم انه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى ان لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الف فائدة .

والطائفة الثانية : الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[3] فهذا عشق حكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يبال بما فى عشقه من الضرر وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القاتل الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى

---

(١) سورة يوسف آية ٣٣

(٢) سورة يوسف آية ٣٣

(٣) سورة الحجر الآيات : ٦٧ - ٧٢ .

إستنقاذه من إساره ولا اشتعلت نار فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفرا لمن إتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه فهذا عشق لا يغفر لصاحبه فإنه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلامة هذا العشق الشركى الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه إذا تعارض عنده حق معشوقه وحقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه إذا بذل أردى ما عنده واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه وجعل لربه إن اطاعه الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم فى كفة وتوحيدهم فى كفة وإيمانهم فى كفة ثم زن وزنا يرضى الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث :

يترشفن من فمى رشفات هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بأن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر :

وصلك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يفرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبدا مخلصا من كل وجه لمعشوقه فقد رضى هذا من عبودية الخالق - جل جلاله - بعبودية المخلوق مثله فإن العبودية أى كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله .

ودواء هذا الداء القتال آن يعرف أن ما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولا ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجوء والتضرع إلى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه وأن يرجع قلبه إليه وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾[1] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه فإن القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما تمكن من قلب فارغ كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(١) سورة يوسف آية ٢٤

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمى وأمر عملى فالعلمى طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له ومن المعلوم انه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما ويكون السلطان والغلبة له ، الثانى : عذاب قلبه بمعشوقه فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ولابد كما قيل :

فما فى الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقا اليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب ، الثالث : إن العاشق قلبه أسير فى قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن العاشق لا يشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة فى كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق ويعيش الخلى عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل :

طليق برأى العين هو أسير عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى فى صورة الحى غاديا وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شىء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور أما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب واقباله على الله . وعاشق الصور أعظم شيئا تشعيثا وتشتيتا له وأما مصالح الدنيا فهى تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه مصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار فى يابس الحطب وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور وإذا بعد القلب عن الله طرقته الآفات من كل ناحية فإن الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عيبه وفساده وبعده من وليه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ، السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها بل بعضها يشاهد

بالعيان وأشرف ما فى الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فإذا عدم عقله التحق بالبهائم بل وربما كان حال الحيوان أصلح من حاله وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو نقصها إما فسادا معنويا أو صوريا أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان فيرى القبيح حسنا منه ومن معشوقه كما فى المسند مرفوعا حبك الشيء يعمى ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه فلا تسمع الأذن ذلك والرغبات تستر العيوب فإن الراغب فى شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل :

هويتك إذ عينى عليها غشاوة فلما انجلت نفسى رجعت ألومها

والداخل فى الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبا إلا من دخل فيه ثم خرج منه ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا فى الإسلام قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إنما ينتقص عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساده للحواس ظاهرا فإنه يمرض البدن وينهكه وربما أدى إلى تلفه كما هو المعروف فى أخبار من قتله العشق وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدا على عظم **فكان** ما شأنه كما تقدم هو الافراط فى المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوى فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر فتغير أفعاله ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل :

الحب أول ما يكون لحاجة يأتى بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل إن لم تتداركه عناية من الله كما قيل :

وعش خاليا فالحب أوله عنا وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

والذنب له فهو الجانى على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أو كيا وفوك نفخ .

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء : فأما مقام ابتدائه فالوا جب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصل إلى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاء فعليه كتمانه ذلك والا يفشيه إلى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فإن الظلم فى هذا الباب من أعظم انواع الظلم وربما اعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه فى ماله فإنه يعرض المعشوق بهتكه فى عشقه الى وقوع الناس فيه وإنقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق فى هذا الباب بأدنى شبهة وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائه وتسعة وتسعون وخبر العاشق للهتك عن المتهتك عند الناس فى هذا الباب يفيد القطع اليقين بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزما لا يحتمل النقيض بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم فى هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والأوهام والأخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل الإفك فى الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله - ﷺ - المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة مجىء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرا آخر ، والمقصود : أن فى اظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه واذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فإن استعان عليه ممن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة بين الراشى والمرتشى وصار ذلك الواسطة ظالما وإذا كان النبى - ﷺ - قد لعن الرائش وهو الواسطة ديوثا ظالما بين الراشى أو المرتشى لإيصال الرشوة فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق فى الوصلة المحرمة فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه فى نفس ومال أو عرض فإن كثيرا ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه وكم قتيل أريق دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خببت امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما وقد لعن رسول الله - ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر الكبائر وإذا كان النبى - ﷺ - قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وأن يستام على سومه فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما وعشاق الصور ومساعدوهم من الديثه لا يرون ذلك ذنبا فان فى طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ففى ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يرب عليها ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة فإن من ظلم الوالد بإفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه وظلم الزوج بإفساد

حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه بأخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه فياله من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة فإن كان ذلك حقا لغاز فى سبيل الله وقف له الجانى الفاعل يوم القيامة وقيل له خذ من حسناته ما شئت كما أخبر بذلك النبى ـ ﷺ ثم قال ﷺ فما ظنكم أى فما تظنون تبقى له من حسناته فان انضاف الى ذلك ان يكون المظلوم جارا أو ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم وأذى الجار ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن اما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضى به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود ان التعاون فى هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فامره لا يخفى فإنه إذا حصل له مقصوده بين المعشوق فللمعشوق أمور اخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغى حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله فى تحصيل مال من غير حله وفى استطالته على غيره فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالما كان أو مظلوما هذا إلى ما ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانه أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك وربما أدى ذلك الى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ عن عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد تنصر جماعة ممن نشأ فى الاسلام بسبب العشق كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هى نصرانية فإن دخلت فى دينى تزوجت بك ففعل فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له واذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها حتى اذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها فهنالك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾[1] . وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير واعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه بأن **يطمعه** فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ولا سيما اذا جاد بالوصال لغيره وكم للعشق من قتيل من الجانبين وكم

(١) سورة ابراهيم آية ٢٧

قد زال من نعمة وافقر من غنى وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهل للرجل وولد فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هى معشوقا لنفسها فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤدى به ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفاسد واكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرر بها فإذا هلكت فهو الذى أهلكها فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه فى وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فإن لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الاياس من ذلك كم يحدث له العشق فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فان اطاع مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ماهو اكبر عنده من لذة وصاله اما خوف دينى كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الأوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فإن فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوى كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق اندفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك انجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التى من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : ان ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذى صيره الى الطبع الآدمى .

وقال بعضهم العشق حنان الجبان ويصفى الذهن الغبى ويسخى كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الأخلاق وهو أنيس من لا أنيس له وجليس من لا جليس له .

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ويهذب الأخلاق إظهاره طبعى وإضماره تكلفى .

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال مر أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بجارية وهى تقول :

وهـويته من قبـل قطع تمـائمى متمـايـلا مثـل القضيب النـاعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فقال : تهوين فتلكأت فأقسم عليها فقالت .

وأنـا التى لعب الهوى بفؤادهـا قـتـلت بـحـب محمدبـن الـقـاسـم

فاشتراها من مولاها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب فقال هؤلاء والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم ، وجاءت جارية عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ تستعدى على رجل من الأنصار قال لها عثمان : ما قصتك ؟ قالت : كلفت ياأمير المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان اما ان تهبها الى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى فقال أشهدك

يأمير المؤمنين أنها له ونحن لا ننكر فساد العشق الذى يتعلق به فعل الفاحشة بالمعشوق والكلام فى العشق العفيف من الرجل الظريف الذى يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام .

فهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من امرأته ويحرص على ان تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلا فى حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت : يأمير المؤمنين إنك كنت معجبا بجاريتى فلانة فسألتنيها أن أهبها لك فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسى لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه وقال عجلى بها على فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبا وقال لها القى ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك اخبرينى لمن كنت ومن اين صرت لفاطمة فقالت أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا وكنت فى رقيق ذلك قالت فأخذنى وبعث بى الى عبد الملك فوهبنى لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك رلدا قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدى عليك ثيابك واذهبى الى مكانك ثم كتب الى عامله على العراق ان ابعث الى فلان ابن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك فلم يرفع إليه شيئا إلا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفعت اليه ثم قال له اياك فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هى لك يأمير المؤمنين قال لا حاجة لى بها قال فابتعها منى قال لست إذن ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك بى يأمير المؤمنين ؟ قال على حاله ولقد زادنى ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات ـ رحمه الله .

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يأمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها فقال ذلك مالا يملك فالجواب وبالله التوفيق ان الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم ان انفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تألهه وبها قامت الأرض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهى سر شهادة ان لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لا تصح إلا له وحده والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعا لمحبته وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ وفطرته التى فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل آية ٥٣

وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا ومادلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيان الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والاجمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواه قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾(٢) .

والولاية أصلها الحب فلا موالاة إلا بحب كما أن العداوة أصلها البغض والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد انكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر عمن سوى بينه وبين الأنداد فى المحبة أنهم يقولون فى النار لمعبوديهم ﴿ تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ﴾(٣) .

وبهذا التوحيد فى المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار فيجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبى ـ ﷺ ـ انه (لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من والده وولده والناس اجمعين)(٤) . فكيف بمحبة الرب جل جلاله .

وقال لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه : لا . . حتى أكون أحب اليك من نفسك أى لا يؤمن حتى تصل محبتك لى إلى هذه الغاية

فإذا كان النبى ـ ﷺ ـ أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولو ازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل ما منه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة ما يحب لعبد ويكره فعطاؤه ومنعه ومعافاته، وابتلاؤه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وإماتته واحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب الى تألهه ومحبته بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له وهو يقضى وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعى الى محبته فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شىء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته فخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يتحبب اليه بنعمه وهو غنى عنه والعبد يتبغض اليه بالمعاصى وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يبعده عن معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع احسان ربه عنه فالأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من

(١) سورة آل عمران آية ٣١
(٢) سورة المائدة آية ٥٤
(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨
(٤) البخارى ١٢/١ ومسلم ـ كتاب الايمان ٦٧/١ رقم ٤٤

هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب ـ سبحانه وتعالى ـ يريدك لك كما فى الأثر الإلهى عبدى كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لا يستحى العبد ان يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ما سواه وأيضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يربح عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه اعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة امثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهى أسرع شىء محوا وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شىء خلق لك فى الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته وأيضا فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الأجودين واكرم الأكرمين ويعطى عبده قبل ان يسأله فوق ما يؤمله يشكر على القليل من العمل وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ﴿ **يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن** ﴾[1] . لا يشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين بل يحب الملحين فى الدعاء ويحب ان يسأل ويغضب اذا لم يسأل فيستحى من عباده حيث لا يستحى العبد منه ويستره حيث لا يستر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ورعاه بنعمته واحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ فى طلبه وبعث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له أدعوك للوصل فتأبى أبعث رسلى فى الطلب أنزل اليك بنفسى ألقاك فى النوم وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو ولا يجيب الدعوات ويقبل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد وأنصر من ابتغى وأرأف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطى وأرحم من استرحم واكرم من قصد وأعز من التجىء اليه واكفى من توكل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ند له كل شىء هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ولن يعصى إلا بعلمه يطاع فيشكر وبتوفيقه ونعمته أطيع ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفى بالعهد وأعدل قائم بالقسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصى وكتب الآثار ونسخ الآجال فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية والعلانية والعيوب لديه مكشوفة وكل أحد اليه ملهوف وعنت الوجوه لنور وجهه وعجزت القلوب عن ادراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على امتناع مثله وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسموات وصلحت عليه جميع المخلوقات لا ينام ولا ينبغى له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود باسره

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو ان كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩

وابتهاج الروح تابع لامرين أحدهما كمال المحبوب فى نفسه وجماله وانه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه والأمر الثانى كمال محبته واستفراغ الوسع فى حبه وايثار قربه والوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم ان اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكلما كانت المحبة اقوى كانت لذة المحبة اكمل فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فإذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه بل هو مقصود كل حى وعاقل وإذا كانت اللذة مطلوبة فى نفسها فهى تذم اذا أعقبت الما أعظم منها أو منعت لذة خيرا منها وأجل فكيف اذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى :

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾(١) قال السحرة لفرعون لما آمنوا **﴿ اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾**(٢) الآية .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليبتليهم من أطاعه فله هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفو ابدا ولا تدوم بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبدا فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعني الذى قصده الناصح لقومه بقوله **﴿ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾**(٣) فأخبرهم ان الدنيا متاع ليستمتع بها إلى غيرها وان الآخرة هى المستقر واذا عرفت ان لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة اذا عرف فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية (فوالله ما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر إليه)(٤)

وفى حديث آخر (أنه اذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم) .

وفى النسائى ومسند الامام احمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى دعائه (وأسألك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك) وفى كتاب السنة لعبد الله بن الامام احمد مرفوعا (كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك) فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهى لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالى ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة فى بحر فإن الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فأطيب ما فى الدنيا معرفته سبحانه ومحبته

---

(١) سورة الاعلى الأيتان :١٦ ، ١٧
(٢) سورة طه آية ٧٢
(٣) سورة غافر الايتان : ٣٨ ، ٣٩
(٤) مسلم ـ كتاب الايمان ١٦٣/١ رقم ٢٩٧ والترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى ٦٨٧/٤ رقم ٢٥٥٢ .
(٥) النسائى كتاب الدعاء ٥٥/٣ ، وأحمد ٢٦٤/٤

وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته بمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها أما اللذة القاطعة عن ذلك فتنقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الا بالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول ان كان اهل الجنة فى نعيم مثل هذا انهم لفى عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف واذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب يقول فى حاله :

ومالناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول آخر :

أف لـلدنيـا مـتى مـالم يكـن صـاحب الدنيا محبا أو حبيبـا

ويقول آخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها وأنت وحيـد مفرد غيـر عاشق

ويقول آخر :

أسكن الى سكن تـلذ بحبـه وتهب الـزمـان وانت مـنفـرد

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها وإذا افتقدها القلب كان المه اعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والأنف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب اذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى منه الروح وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة وما لجرح بميت إيلام والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هى السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فأعظمها وأكملها ما أوصل الى لذة الآخرة ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم الثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدو الله وعدوه فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه إلى لقائه وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم ، النوع الثانى : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم فى الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون فى الآخرة اذا لقوا ربهم ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** ﴾[1] الآية .

إلى قوله ﴿ **يكسبون** ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٨

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى :

﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[١] قال بعض السلف فى تفسيرها كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ، ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾[٢] الاية .

وقال تعالى لاصحاب هذه اللذة ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٣] وقال فى حقهم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾[٤] الآية .

وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل :

يارب كائنة فى الحياة لأهلها عذبا فصارت فى المعاد عذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا آلما يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كما لها وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولابد ان يشتغل عما هو خير وانفع منها وهذا القسم هو الذى عناه النبى - ﷺ - بقوله : (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق)[٥] فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق وما لم يعن عليها فهو باطل .

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله ﷺ وإنما نعنى ما بالمحبة الخاصة وهى التى تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه والا فكل مسلم فى قلبه محبة الله ورسوله - ﷺ - ولا يدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتا لا يحصيه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما فهذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف وتسخى البخيل وتشجع الجبان وتصفى الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة الصور المحرمة واذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢) سورة الانعام آية ٤٤
(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٥٦ ، ٥٧
(٤) سورة التوبة آية ٥٥
(٥) قال الزين العراقى فى تخريج احاديث الإحياء ٢٨٥/٢ أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيى القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله وإذا أردت ان تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ اصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم .

فإنه من المعلوم ان من أحب حبيبا كان كلامه وحديثه أحب شيء اليه كما قيل :

ان كنت تزعم حبى فلم هجرت كتابى　　أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوب وقال النبى ﷺ يوما لعبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ إقرأ على فقال أقرأ عليك وعليك انزل فقال إنى أحب ان أسمعه من غيرى فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى اذا بلغ قوله ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾[1] . قال حسبك الآن فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء وكان الصحابة اذا اجتمعوا ومنهم ابو موسى يقولون ياأبا موسى إقرأ علينا فيقرأ وهم يستمعون فلمحبى القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبى السماع الشيطانى فإذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه سماعه الأبيات دون سماع الآيات .. فى سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل :

نقرأ عليك الختمة وانت جامد كالحجر　　وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد أنه على شيء ففى محبة الله وكلامه ورسوله ـ ﷺ ـ أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسق، المحب إليه .

وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب منها بل هى من كماله وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال :
﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[2] الآية .
فجعل المرأة سكنا للرجل يسكن إليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن .
﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم** ﴾الى قوله

(١) سورة النساء آية ٤١
(٢) سورة الروم آية ٢١

﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾[1] .

وذكر سفيان الثورى فى تفسيره عن ابن طاوس عن ابيه كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفى الصحيح من حديث جابر عن النبى ﷺ (انه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان فاذا رأى احدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد ما فى نفسه)[2] ففى هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلى عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الأمر **بمداواة** الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين الى النكاح .

كما فى سنن ابن ماجة مرفوعا لم ير للمتحابين مثل النكاح ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله داءه شرعا وقدرا وبه تداوى نبى الله داود ﷺ ولم يرتكب نبى الله محرما وانما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله ﷺ فى فراقها وهو يأمره بامساكها فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولابد ، فأخفى فى نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس أن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبنى زيدا قبل النبوة والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها **يخطبها** لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت فى صدره كما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب يازينب إن رسول الله ﷺ يخطبك فقالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى وقامت الى محرابها فصلت فتولى الله ـ عز وجل ـ نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحى بذلك (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبى ﷺ بذلك وتقول : أنتن زوجكن أهليكن وزوجنى الله عز وجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب ولا ريب ان النبى ﷺ حبب اليه النساء كما فى الصحيح من حديث انس ورواه النسائى فى سننه عن النبى ﷺ قال : (حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة)[3] هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم حبب الى من دنياكم ثلاث زاد الامام احمد فى كتاب الزهد فى هذا الحديث (أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن) .

وقد حسده اعداء الله ـ اليهود على ذلك وقالوا **ماهمه** إلا النكاح فرد الله سبحانه عن رسول الله ـ ﷺ ـ ونافح عنه فقال ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾[4] الآية .

وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها ، وهذا داود ـ عليه السلام ـ كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه ـ عليه السلام ـ كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة وقد سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن

(١) سورة النساء آية ٢٨

(٢) مسلم ـ كتاب النكاح ـ باب من رأى امرأة فوقعت فى نفسه ١٠٢١/٢ رقم ١٤٠٣
وابو داود ـ كتاب النكاح ـ باب ما يؤمر به من غض البصر ١٦١١/٢ رقم ٢١٥١
والترمذى ـ كتاب النكاح ـ باب الرجل يرى المرأة تعجبه ٣١٣/٢ رقم ١١٦٨
ابن ماجة ـ كتاب النكاح ـ باب فضل النكاح ٥٩٣/١ رقم ١٨٤٧ .

(٣) مسند النسائى ٦١/٧ ومسند احمد ٢٨٥/٣

(٤) سورة النساء آية ٥٤

أحب الناس اليه فقال عائشة - رضى الله عنها - وقال عن خديجة إنى رزقت حبها فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس خير هذه الامة أكثرهم النساء وقد ذكر الإمام احمد ان عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم حلولا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها ان قبلتها والناس ينظرون الى وبهذا احتج الامام احمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الأمة المشتركة والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك فى المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعا بأمة غيره وقد شفع النبى - ﷺ - لعاشق ان يواصله معشوقه بان يتزوج - فأبت وذلك فى قصة مغيث وبربرة فانه رآه يمشى خلفها بعد فراقها ودموعه تجرى على خديه فقال لها رسول الله - ﷺ - لو راجعتيه فقالت أتأمرنى قال لا إنما أشفع فقالت لا حاجة لى به فقال لعمه ياعباس ألا تعجب من حب مغيث بربرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وإن كانت قد بانت منه فإن هذا مالا يملكه .

وكان النبى - ﷺ - يساوى بين نسائه بالقسم ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك)[1] يعنى فى الحب وقد قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[2] . يعنى فى الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدون الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الجائز وصلهن .

قال جامع بن مرجية سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة هل على من حب درهما من وزر فقال سعيد إنما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ما سألنى أحد عن هذا ولو سألنى ما كنت أجيب إلا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قربة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته وهذا العشق نافع فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير اهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشق هو مقت عند الله وبعد من رحمته وهو أضر شىء على العبد فى دينه ودنياه وهو عشق المردان فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعد قلبه عنه وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف اذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المرد ان وهذه المحبة هى التى جلبت على قوم لوط فأجلبت وما أوتوا من هذا العشق .

قال تعالى ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾[3] .

ودواء هذا الداء الردى الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجوء اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالألم الذى يعقبه هذا العشق واللذة التى تفوته به فيترتب عليه فوات أعظم محبوب فليكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به ، والقسم الثالث من العشق : العشق المباح الذى لا يملك كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد وأورثته ذلك عشقا لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا ان يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعة هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده .

وأما حديث من عشق وعف فهذا مما يرويه سويد بن سعيد وقد انكره حفاظ الاسلام عليه قال ابن

(١) ابن ماجه ٦٣٤/١ رقم ١٩٧١ والنسائى ٦٤/٧
(٢) سورة النساء آية ١٢٩
(٣) سورة الحجر آية ٧٢

عدى فى كامله هذا الحديث أحد ما انكر على سويد وكذلك ذكره البيهقى وابن طاهر فى الزخيرة والتذكرة وابو الفرج بن الجوزى وعده من الموضوعات .

وانكره ابو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس - رضى الله عنهما - موقوفا عليه فغلط سويد فى رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الأزرق عن سويد فعاتبته على ذلك فأسقط ذكر النبى - ﷺ - وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن الزهرى حدثنا المعافى عن سويد عن هشام ابن عروة عن ابيه عن عائشة مرفوعا فمن أين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن ابيه عن عائشة مثل هذا عنه من شم ادنى رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله ان عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله - ﷺ - قط واما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن ابى حازم عن ابن ابى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على ابن الماجشون فإنه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين ويا سبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقبح الله الواضعين وقد ذكره ابو الفرج بن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن مجاهد مرفوعا وهذا غلط قبيح فإن محمد بن جعفر هذا هو الخزائطى ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة فمحال ان يدرك شيخه يعقوب بن ابى نجيح لاسيما وقد رواه فى كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن ابى نجيح والخرائطى هذا مشهور بالضعف ذكره ابو الفرج فى كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الاسلام فى انكار هذا الحديث هو الميزان واليهم يرجع فى هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول فى علم الحديث عليه ويرجع فى الصحيح اليه ولا من عادته التسامح والتساهل فإنه لم يصف نفسه له ويكفى ان ابن طاهر الذى يتساهل فى أحاديث النصوص ويروى منها الغث والثمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر ابو محمد بن حزم عنه انه سئل عن الميت عشقا فقال قتيل الهوى لا عقل له ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ما شأنه فقال العشق فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك ان النبى ﷺ عد الشهداء فى الصحيح فذكر المقتول فى الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتيل العشق ان يصح له هذا الأثر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - على انه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله وهذا لا يكون إلا مع قدرته على معشوقه وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[1] .

وتحت قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[2] .

---

(١) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) سورة الرحمن آية ٤٦

فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم ان يجعلنا ممن آثر وابتغى حبه ورضاه على هواه بذلك قربه وحبه ورضاه آمين .

أما بعد .

فها نحن هؤلاء نسير الهوينا لنعيش فى رحاب التفسير فى قوله تبارك اسمه ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾(١) .

هذا أدب قرآنى رفيع أدب الله به الجماعة المؤمنة ، فأمر نبيه - ﷺ - أن يقول لهم غضوا من أبصاركم أى عما حرم الله تعالى فإذا وقعت النظرة على سبيل الفجأة فليصرف المؤمن نظره .

روى الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : (سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى)(٢) وفى رواية لبعضهم فقال (أطرق بصرك) يعنى انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم .

وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلى (ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة)(٣) .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (إياكم والجلوس على الطرقات) قالوا يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ (إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه) قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال (غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)(٤) .

وقال أبو القاسم البغوى بسنده حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يخن ، واذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم)(٥) .

وفى صحيح البخارى (من يكفل لى ما بين لحييه وما بين رجليه أكفل له الجنة)(٦) .

ولما كان النظر سهما مسموما مصوبا إلى القلب ، فقد أمر الله بالغض منه وقرن ذلك بالمحافظة على الفروج إذ هو مدعاة إلى الوقوع فى ذلك المستنقع اللعين ، فقال سبحانه : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم** ﴾ أى ذلك الغض من الأبصار وحفظ الفروج وكلاهما ينطوى تحت الأمر (قل) فذلك الامتثال للأمر أهدى سبيلا وأقوم قيلا ، وأهدأ بالا واحسن منالا ، ان الذى أمر بذلك الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)(٧) ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات إن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق**

---

(١) سورة النور آية ٣٠

(٢) مسلم - كتاب الآداب باب نظر الفجأة ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥

(٣) مسند أبى داود كتاب النكاح - باب ما يؤمر به من غض البصر ٦١٠/٢ رقم ٢١٤٩

(٤) البخارى كتاب المظالم - باب أفنية الدور والجلوس فيها ١٦٤/٣ طبعة صبيح
مسلم - كتاب اللباس والزينة باب النهى عن الجلوس فى الطرقات ١٦٧٥/٣ رقم ٢١٢١

(٥) اخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٣١٤/٨ رقم ٨٠١٨

(٦) البخارى - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ١٢٥/٨ ولفظ البخارى (من يضمن لى)

(٧) سورة الملك آية ١٤

الانسان ضعيفا ﴾[١].

وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون** ﴾[٢]. الآية ، وتارة يكون بحفظه من النظر اليه كما جاء فى الحديث فى مسند الامام أحمد والسنن (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[٣]. ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أى أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته ، ونورا فى قلبه .

وروى الامام احمد بسنده عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال (مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض ببصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها)[٤].

وفى الطبرانى بسنده عن أبى أمامة مرفوعا (لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم)[٥].

وعنده أيضا عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه)[٦].

وقوله تعالى ﴿ **إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[٧] . فقد علم سبحانه أن النظرة سهم يفسد القلوب فنهى عن ذلك حتى يحفظ للأعين مهابتها وللقلوب طهارتها فالله ـ جل شأنه ـ جعل القلوب بين أصبعين من أصابعه كقلب واحد يصرفها كيف يشاء فالعاقل من عمل لما بعد الموت .

وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك وحرمه طائفة من العلماء لما فيه من الافتتان وشدد اخرون فى ذلك كثيرا جدا .

وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله)[٨] عز جل . وليعلم المغرض أنه مأمور بحفظ أعضائه ولن يكون الأمر مقصورا على غض البصر وحفظ الفرج بل كل عضو يؤدى إلى ما يؤديه البصر والفرج أنت مأمور بحفظه قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تتمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[٩] رواه البخارى .

---

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) سورة المؤمنون آية : ٥
(٣) مسند احمد ٣/٥ وسنن أبى داود ـ كتاب الحمام ـ باب ما جاء فى التعرى الحديث ٤٠١٧ وتحفة الأحوذى ـ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء فى حفظ العورة ٧٧/٨ رقم ٢٩٤٦
وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وسنن ابن ماجه ـ كتاب النكاح ـ باب التستر عند الجماع ٦٧٨/١ رقم ١٩٢٠ .
(٤) مسند أحمد ٢٦٤/٥ .
(٥) الطبرانى فى الكبير ٢٤٦/٨ رقم ٧٨٤٠ .
(٦) الطبرانى فى الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢
(٧) آية ١٩ من سورة غافر .
(٨) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى الدنيا والديلمى ٤١/٥ .
(٩) مسلم (كتاب القدر) ٢٠٤٧/٤ رقم ٢٦٥٧ .

ولما كان النظر مفسدة من الطرفين فقد أمر الله المؤمنات بما أمر به المؤمنين فقال جل شأنه .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن** ﴾ جاء فى سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث ان أسماء بنت مرثد كانت فى محل لها فى بنى حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ الآية .

ولما كانت النظرة المريضة بريدا إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى من الفواحش فقد رأينا ان نذكر تفصيل ما قاله الفقهاء بهذا الشأن حتى تصير الأمور واضحة الدلالة ، جلية لا ريب فيها ولا لبس ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم .

آداب النظر

ومن القضايا الهامة التى يجب ان يركز المربى عليها ، ويهتم لها أن يعود الولد فى سن تمييزه آداب النظر حتى يعلم الولد ما يحل من النظر إليه وما يحرم .. وفى ذلك صلاح أمره ، واستقامة أخلاقه إذا شارف على البلوغ ، وبلغ سن التكليف ..

وهذه الآداب من النظر التى يجب أن يلقنها ويعود عليها مرتبة كما يلى :

١ ـ أدب النظر إلى المحارم :

كل امرأة تحرم على الرجل حرمة مؤبدة فهى من ذوات محارمه .

وكل رجل حرم على المرأة الزواج منه حرمة مؤبدة فهو من ذوى محارمها وعلى هذا يدخل فى المحارم .

المحرمات بسبب النسب : وهن سبع نسوة ذكرهن الله تعالى بقوله :

﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت** ﴾ (النساء : ٢٣)

والمحرمات بسبب المصاهرة : وهن أربع من النسوة :

١ ـ زوجة الأب لقوله تعالى ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ (النساء : ٢٢) .

٢ ـ زوجة الابن الذى من صلبه ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ (النساء : ٢٣) .

٣ ـ أم الزوجة لقوله تعالى : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ (النساء : ٢٣)

٤ ـ بنت الزوجة لقوله تعالى : ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ (النساء : ٢٣) .

والمحرمات بسبب الرضاع لقوله تعالى : ﴿ **وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ (النساء : ٢٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : فيما رواه مسلم وأصحاب السنن (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) [١] .

فما حرم عن طريق النسب من أم وبنت وأخت وعمة وخالة وبنت الأخ وبنت الأخت حرم نظيره عن

(١) مسلم حديث رقم ١٤٤٤ ، أبوداود (٥٤٥/٢ رقم ٢٠٥٥ ، والترمذى ٤٤٣/٣ رقم ١١٤٦ ، والنسائى ٩٩/٦ ، وابن ماجه رقم ١٩٣٧ .

طريق الرضاع كالأم من الرضاع والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع .. وهلم جرا .

فالمحرم الذكر يحل له أن يرى من محارمه النساء الصدر وما فوق ، وما تحت الركبتين الى أسفل إن أمن شهوته وشهوتها.. وإن لم يأمن الشهوة فلا يحل له النظر سدا للذرائع .

وبناء على هذا يباح للذكر المحرم النظر من ذوات محارمه إلى مواضع زينتها الظاهرة والباطنة وهى : الرأس ، والشعر ، والعنق ، والصدر دون الجيب ، والأذن ، والعضد ، والساعد ، والكف ، والساق الذى تحت الركبة إلى القدم ، والوجه . أما ماعدا ذلك من البطن والظهر والفخذ .. فلا يحل له النظر اليه أبدا .

والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن** ﴾

فيحرم على المحرم الذكر ولا سيما إذا بلغ سن المراهقة أن يرى أحد محارمه من النساء وقد ارتدت الثياب القصيرة التى ارتفعت إلى ما فوق الركبتين ، وكشفت عن الفخذين .. أو ارتدت ثوبا يصف أو يشف ما تحته وبدت العورة التى يحرم النظر إليها . كما يحرم على البنت أو المرأة ان ترى ذلك -مابين السرة والركبة - من أحد محارمها ولو كان ابنها ، أو أخاها ، أو أباها .. وان أمنت الفتنة ولم تخف الشهوة ولو من أجل التغسيل والتدليك فى الحمام .. (**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**) .

(ب) أدب النظر إلى المخطوبة :

الشريعة الإسلامية أجازت للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته . كما أجازت للمخطوبة أن تنظر إلى خاطبها ليكون كل من الاثنين على بينة من الأمر فى اختيار شريك الحياة . والأصل فى ذلك قول النبى - ﷺ - فيما رواه الترمذى والنسائى .. للمغيرة بن شعبه : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[١] أى : هذا النظر أدعى لدوام المحبة والألفة .

وروى مسلم والنسائى ان رجلا جاء إلى النبى - ﷺ - فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، فقال رسول الله - ﷺ -: نظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : (انظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا)[٢] .(يعنى الصغر) ولكن لهذا النظر آداب فعلى الخاطب أن يراعيها .

١ - لا يجوز ان ينظر الخاطب إلا إلى الوجه والكفين بعد أن يعزم على الزواج منها .

٢ - يجوز تكرار النظر إذا دعت الحاجة حتى تنطبع الصورة الحسية فى الذهن .

٣ - يجوز أن تحدثه ، ويجوز أن يحدثها فى جلسة الخطوبة والنظر .

٤ - لا يجوز مصافحة المخطوبة بحال لكونها أجنبية قبل اجراء العقد ، والأجنبية يحرم مصافحتها لما روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - ما مست يد رسول الله - ﷺ - يد امرأة فى المبايعة قط ، وإنما مبايعتها كانت كلاما .[٣]

---

(١) الترمذى (كتاب النكاح) . باب النظر إلى المخطوبة ٣/٣٨٨ رقم ١٠٨٧ . نسائى ٦/٧٠ .
(٢) مسلم ٢/١٠٤٠ رقم ١٤٢٤ . نسائى ٦/٧٧ .

(٣) البخارى- أحكام- ٩/٩٩- مسلم ٣/١٤٨٩ رقم ٨٨ .

٥ ـ لا يجوز أن يجتمعا إلا بوجود أحد محارم المخطوبة لأن الاسلام يحرم الخلوة بالأجنبية ، لما روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام ـ (لا يخلو رجل بامرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم) .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ما انتشر فى بعض الأوساط المتحللة من أن الخاطب يختلط بخطيبته بلا حدود ولا قيود بدعوى التعرف على أخلاقه وأخلاقها . . ان هذه الدعوى يرفضها الإسلام ، بل يحاربها . . لكونها تتنافى مع أبسط مبادىء الفضيلة والأخلاق . . لأن هذه الخلطة تسىء إلى سمعة المخطوبة أكثر من أن تسىء إلى سمعة الخاطب . فقد لا يتم الزواج فتصبح الفتاة عرضة للتهمة ، ومثارا للشبهة . . مما يجعل الكثير من الناس فى إعراض تام عن الزواج منها . . ومعنى هذا أنها أصبحت عانسا فى سوق الكساد ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الخلطة الآثمة لن تحقق أهدافها للتكلف الظاهر الذى يبديه كل واحد منهما إلى الآخر ، وكم سمعنا عن رجال ونساء بقوا فى الخطوبة سنين ، فلم تمض فترة زمنية على الزواج من بعضهم بعضا ، وإذ تحدث الفرقة ، ويقع الطلاق !! فأين التعرف على الأخلاق بخلطة الخطوبة ؟ ألا فليتذكر أولو الألباب . .

(ج) أدب النظر إلى الزوجة :

فيجوز للزوج أن يرى من زوجته كل شىء بشهوة أو بغير شهوة . . لأنه لما جاز المس والجماع فلأن يجوز ما دونهما وهو النظر إلى جميع بدنها من باب أولى ، وإن كان الأفضل ألا ينظر أحدهما إلى عورة صاحبه لحديث عائشة رضى الله عنها (قبض رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يرمنى ولم أرمنه) والأصل فى جواز الرؤية لكل شىء ما رواه أبو داود والترمذى عن معاوية بن حيدة قال : قلت يارسول الله : عوراتنا ما نأتى بها وما نذر ؟ قال (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[٢] .

قال تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾[٣] .

(د)أدب النظر إلى المرأة الأجنبية :

لا يجوز للرجل البالغ أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت غير مشتهاة ولكن ما هى المرأة الأجنبية وما هو الرجل الأجنبى ؟

ـ الرجل الأجنبى : هو من يحل للمرأة الزواج منه كابن عمها ـ وابن عمتها ، وابن خالها ، وابن خالتها ، وزوج أختها ، وزوج خالتها .

ـ والمرأة الأجنبية : هى من يحل للرجل الزواج منها كابنة عمه ، وابنة عمته ، وابنة خاله ، وابنة خالته ، وزوجة أخيه ، وزوجة عمه ، وزوجة خاله ، وأخت زوجته ، وعمتها وخالتها.

ويليق بالرجل الصبى ان كان مراهقا أو مميزا يفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يجوز لأحدهما النظر إلى المرأة الأجنبية . .

---

(١) البخارى ـ جهاد ـ ٧٢/٤ ط الشعب ، مسلم جج ـ ٩٧٨/٢ رقم ١٣٤١ .

(٢) سنن أبى داود ٣٠٤/٤ رقم ٤٠١٧ . الترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ . ابن ماجه ٦١٨/١ رقم ١٩٢٠ . أحمد ٣/٥

(٣) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة المؤمنون .

أما الأحاديث :

فقد روى الطبرانى عن عبد الله بن مسعود والحاكم ، وقال الحاكم صحيح الإسناد عن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل (النظرة سهم من سهام إبليس ، من تركها مخافة أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه)[١].

وروى أحمد الطبرانى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه)[٢].

وروى أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم عن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ ان النبى ﷺ قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة . اصدقوا اذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم)[٣].

وروى الشيخان ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)[٤].

وروى مسلم والترمذى . . عن جرير ـ رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظر الفجاءة فقال : (اصرف بصرك)[٥].

وروى أبو داود والترمذى عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كنت عند رسول الله ـ ﷺ ـ وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب . فقال النبى ﷺ (احتجبا منه) فقلنا : يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال النبى ﷺ (أفعمياوان أنتما ألستما تبصران)[٦].

فهذه النصوص تؤكد تأكيدا تاما بمالا يقبل الجدل أن نظر الرجل الى المرأة الأجنبية حرام ، وان نظر المرأة الى الرجل الأجنبى حرام أيضا اذا كانا فى مجلس واحد وترتب من النظر فتنة .

ولا شك أن الغاية التى يهدف اليها الاسلام من غض البصر ـ كما يقول صاحب الظلال ـ هو إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، ولا تستثار فيه الغرائز فى كل حين .

فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى بالإنسان إلى سعار شهوانى لا ينطفىء ولا يرتوى ، والنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة ، والجسم العارى . . كلها لا تصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار الشهوانى المجنون واحدى وسائل الاسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة وإبقاء

---

(١) الطبرانى الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢ . حاكم ٣١٤/٤ .
(٢) أحمد ٢٦٤/٥ . طبرانى الكبير ٢٤٧/٨ رقم ٧٨٤٢ .
(٣) أحمد ٣٢٣/٥ ، ابن حبان ٢٤٥/١ ، الحاكم ٣٥٩/٤ .
(٤) البخارى ـ استئذان ـ ٦٧/٨ ، قدر ـ ١٥٦/٨ ، مسلم ـ قدر ـ ٢٠٤٦/٤ رقم ٢٦٥٧ .
(٥) مسلم ـ آداب ـ ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥٩ ـ ترمذى ١٠١/٥ رقم ٢٧٧٦ .
(٦) سنن أبى داود ـ لباس ـ ٣٦١/٤ رقم ٤١١٢ ، ترمذى ـ استئذان ـ ١٠٢/٥ رقم ٢٧٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليما وبقوة الطبيعة دون استثارة مصطنعة .

لقد شاع فى وقت من الأوقات أن النظرة البريئة ، والحديث الطلق ، والاختلاط الميسور . والدعابة المرحة بين الجنسين ، والإطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة . . شاع ان هذا تنفيس وترويح وإطلاق للرغبات الحبيسة .

ووقاية من الكبت ومن العقد النفسية . وتخفيف من حدة الضغط الجنسى وما وراءه من اندفاع غير مأمون . . ولكن نسي هؤلاء الذين يتمسكون بمثل هذه النظريات والأفكار أن الميل الفطرى بين الرجل والمرأة ميل عميق فى التكوين الحيوى ، لأن الله ـ سبحانه ـ قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ، وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها ، فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود ، وإثارته فى كل حين تزيد من عرامته ، وتدفع إلى الافضاء المادى للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة .

فالنظرة تثير ، والحركة تثير ، والضحكة تثير ، والدعابة تثير ، والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير . . (والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل فى حدوده الطبيعية ثم يلبى تلبية طبيعية عن طريق الزواج المشروع ، وهذا هو المنهاج الذى اختاره الإسلام وارتضاه للجنس البشرى ليتم له هدوؤ ه النفسى . واستقراره الفكرى . وراحته العصبية ، ورباطه السليم الذى يربط بين سائر أبناء الانسان . .) .

وما أحسن ما قال بعضهم فى استثارة النظر :

كل الحوادث مبدؤها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها	فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمـرء مـادام ذا عين يقلبهـا	فى أعين الغيد موقوف على خطر
يسر مقلتـه مـا ضر مهجتـه	لا مرحبا بسـرور عاد بـالضرر

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ القائل : فيما رواه الطبرانى (ثلاثة لا ترى أعينهم النار . عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله)[١]

(هـ) أدب نظر الرجل الى الرجل :

لا يجوز ان ينظر الرجل إلى الرجل فيما بين سرته إلى ركبته سواء أكان الرجل المنظور إليه قريبا أم بعيدا وسواء أكان مسلما أو كافرا . .؟

أما ماعدا ذلك كالبطن والظهر والصدر . . فإنه يجوز إذا أمن الناظر الشهوة . .

والأصل فى حرمة هذا ما رواه مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة) .[٢]

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٤١٦/١٩ رقم ١٠٠٣ .

(٢) مسلم ـ حيض ـ ٢٦٦/١ رقم ٣٣٨ .

وما رواه أحمد وأصحاب السنن .. (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[1].

وأخرج الحاكم عنه - عليه الصلاة والسلام - (ما بين السرة والركبة عورة)[2].

وروى الحاكم ان النبى - ﷺ - رأى رجلا مكشوف الفخذ ، فقال له موجها ومرشدا (غط فخذك فإن الفخذ عورة) وفى رواية الترمذى (الفخذ عورة)[3].

فمن هذه النصوص يتبين :

أنه لا يجوز للرجل أن يكشف جزءا من سرته إلى ركبته لا فى رياضة ، ولا فى سباحة ، ولا فى تدريب ، ولا فى حمام .. وان أمن الشهوة - واذا أمره أحد فى كشف جزء من عورته فعليه ألا يطيعيه للحديث : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

أما ما نسب إلى المالكية بأن العورة هى السوأتان فقط ، وماعدا السوأتان يجوز كشفه .. فهذا الادعاء غير صحيح بل هو من الجهل والتضليل .

ان العورة عند المالكية تقسم إلى قسمين :

١ - عورة بالنسبة للصلاة .

٢ - وعورة بالنسبة للنظر .

أما العورة بالنسبة للصلاة فتنقسم إلى قسمين :

عورة مغلظة : وهى السوأتان (القبل والدبر)

عورة مخففة : وهى ما بين السرة الى الركبة .

فالعورة المغلظة إذا كشفت فى الصلاة تعاد مطلقا سواء أخرج وقتها أم لم يخرج ..؟

والعورة المخففة إذا كشفت فى الصلاة تعاد فى الوقت فقط ، أما إذا خرج وقتها فلا تعاد .

أما العورة بالنسبة للنظر : فيحرم كشفها سواء أكانت مغلظة أم كانت مخففة .

فعورة الرجل مع رجل آخر ما بين سرته الى ركبته .

وعورة المرأة مع المرأة إذا كانتا مسلمتين ما بين السرة والركبة .

وعورة المرأة المسلمة مع المرأة الكافرة ، كلها عورة ماعدا الوجه والكفين فى قول ، وجميع بدنها فى قول آخر .

وعورة المرأة مع محارمها هى غير الوجه وغير اليدين وغير الرأس وغير العنق وغير ظهر القدمين .. أما ماعدا ذلك فهو عورة لا تحل النظر إليه .

فيتبين من هذا النص الفقهى المالكى ان الأئمة الأربعة - رضى الله عنهم - متفقون على أن عورة الرجل مع الرجل هى ما بين السرة والركبة ، وبناء على هذا يحرم النظر فيما بينهما ، ويحل النظر فيما عدا ذلك .

---

(١) أحمد ٣/٥ - ترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ .

(٢) الحاكم ٥٦٨/٣ .

(٣) الحاكم - معرفة الصحابة ٦٣٧/٣ ، ترمذى ١١١/٥ رقم ٢٧٩٧ .

(و) أدب نظر المرأة إلى المرأة :

لايجوز أن تنظر المرأة من المرأة إلى مابين سرتها إلى ركبتها سواء أكانت المرأة المنظور إليها قريبة أم بعيدة ، وسواء أكانت مسلمة أم كافرة .

والأصل فى ذلك الحديث الذى سبق ذكره : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة) والحديث الذى رواه الحاكم (ما بين السرة والركبة عورة) وحديث (الفخذ عورة) فمن هذه النصوص تبين :

يحرم على المرأة أن تنظر إلى فخذ ابنتها أو أختها أو أمها أو جارتها أو صديقتها . . لا فى حمام ولا فى غيره . .

والحكمة فى هذا التحريم لتكون المرأة مصونة من هياج الغريزة وتوقدها حين ترى منظرا مثيرا . أو مشهدا فيه فتنة . . وقد تؤدى هذه الاستثارة الجنسية بالمرأة إلى (السحاق) الذى هو اتصال المرأة بالمرأة اطفاء لثورة الغريزة فيها . واخمادا لعرامتها . .

ومن علامات الساعة . . كما صح فى الأحاديث . . (اكتفاء الرجال بالرجال (أى اللواط) ، واكتفاء النساء بالنساء (أى السحاق) فعلى المسلمات الغيورات أن يتجنبن النظر إلى عورات نساء مثلهن سواء أكان بذلك أثناء خلع الثياب للاستحمام ، أو التدليك فى الحمام ، أو فى حفلات الأعراس حيث العرى السافل والتكشف الممقوت الذى يندى له جبين الحياء !!

وعلى الرجال الغيورين الا ياذنوا لزوجاتهم ولا لبناتهم فى دخول الحمامات العامة لاشتمالها على التكشف والعرى والمفاسد كما هو شائع فى أوساطنا الاجتماعية اليوم .

والرسول - عليه الصلاة والسلام - نهى عن ذلك :

روى النسائى والترمذى وحسنه والحاكم عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل خليلته ، (زوجته) الحمام) .

وروى الترمذى وأبو داود وابن ماجه ان نساء حمص أو الشام دخلن على عائشة - رضى الله عنها - فقالت : انتن اللاتى تدخلن نساءكن الحمامات ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول (مامن امرأة تضع ثيابها فى غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها) .

وروى ابن ماجه وأبو داود عن رسول الله - ﷺ - انه قال : (ستفتح عليكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وأمنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء) .

(ز) أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة :

يحرم على المرأة المسلمة أن تكشف شيئا من مفاتنها أمام امرأة كافرة إلا ما يبدو عند المهنة - أى الخدمة - كاليدين والوجه والرجلين لعموم قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن . . أو

نسائهن ﴾ فمن قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يفهم أن المرأة المسلمة لا يجوز أن تبدى زينتها إلّا إذا كان بحضرتها نساء مسلمات صالحات أما إذا كان فى المجلس نساء غير مسلمات أو نساء مسلمات فاجرات فلا يجوز لها إبداء الزينة .

والحكمة فى هذا التحريم هو ما جاء فى حاشية الدسوقى : (فعورة الحرة المسلمة مع الحرة الكافرة ما عدا الوجه واليدين على المعتمد ، (والحكمة) : لئلا تصفها لزوجها الكافر ، فالتحريم كعارض لا لكونها عورة) .

ويحرم كذلك على المرأة المسلمة ان تكشف شيئا من مفاتن جسمها أمام امرأة مسلمة فاجرة أيضا حتى لا تصف محاسنها عند الرجال . . جاء فى الهدية العلائية ما يلى : (ولا ينبغى للمرأة الصالحة أن تنظر إليها الفاجرة لأنها تصفها عند الرجال فلا تضع (أى المرأة الصالحة) جلبابها ولا خمارها . .

وللشيخ الوقور العلامة ابى الأعلى المودودى فهم خاص فى قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ نذكره كما ورد فى كتابه (تفسير سورة النور) .

إن المراد بقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن) النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة الأجنبيات اللاتى لا يعرف شىء عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن ، أو تكون أحوالهن مشتبهة لا يوثق بها .

فليست العبرة فى هذا الشأن بالاختلاف الدينى بل هى بالاختلاف الخلقى . فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تحرج للنساء الكريمات المنتميات الى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات .

وأما الفاسقات اللاتى لا حياء عندهن ولا يعتمد على أخلاقهن وآدابهن فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة مؤمنة صالحة ولو كن مسلمات لان صحبتهن لا تقل عن صحبة الرجال حذرا على اخلاقها) . .

ولكن أين هؤلاء النساء الكريمات غير المسلمات ذوات الأخلاق والفضل فى هذا العصر ؟ فى تقديرى أن هذا لا يوجد إلا فى بيئات محدودة فعلى المرأة المسلمة أن تحتاط لدينها وسمعتها مخافة التأثر بأخلاق غير دينها . أو بأخلاق مسلمات مستهترات لا يرعين شرفا ولا حرمة !! . .

(ح) أدب النظر إلى الأمرد :

الأمرد هو الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد ، وهو الذى يتراوح عمره ما بين (١٠ ـ ١٥ سنة) .

والنظر الى الأمرد جائز إذا كان لضرورة كالبيع والشراء والأخذ والعطاء والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة .

أما إذا كان النظر من أجل الالتذاذ بالجمال فهو حرام لكونه يجر إلى الشهوة ويؤدى إلى الفتنة .

ودليل الحرمة قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . ﴾ .

ولقد بالغ السلف الصالح فى الأعراض عن المرد الحسان والنظر إليهم ومجالستهم : قال الحسن بن ذكوان : (لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورا كصور العذارى هم أشد فتنة من النساء) .

ودخل سفيان الثورى الحمام فدخل عليه صبى حسن الوجه فقال : (أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا، ومع كل أمرد سبعة عشر شيطانا) .

وجاء رجل إلى الامام أحمد ومعه صبى حسن الوجه فقال له :

من هٰذا منك ؟

قال : ابن أختى .

قال : (لا تجىء به إلينا مرة أخرى ، ولا تمش معه بطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه سوءا) .

وقال سعيد بن المسيب : (إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه) .

والحكمة فى تحريم النظر إلى الأمرد من غير ما ضرورة هى مخافة الوقوع فى الفاحشة سدا للذرائع وحسما للفساد .

والمسلم التقى الورع هو الذى يحتاط دائما لدينه وخلقه وسمعته ويتقى بحذر مواطن التهم .

(ط) أدب نظر المرأة إلى الأجنبى :

يجوز للمرأة المسلمة أن تنظر إلى الرجال وهم يمشون فى الطرقات أو هم يلعبون ألعابا غير محرمة ، أو هم يتعاطون البيع والشراء أو غير ذلك . والدليل على هذا ما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى حرابهم فى المسجد يوم العيد وعائشة ـ رضى الله عنها ـ تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت وذلك سنة سبع هجرية .

وأما حديث (احتجبا منه) . . (أفعميا وان أنتما ألستما تبصرانه ؟ فمحمول على اجتماع أم سلمة وميمونة مع ابن أم مكتوم فى مجلس واحد وتحديق بصرهن إليه مقابلة ومواجهة !!

يقول العلامة أبو الأعلى المودودى فى كتابه (الحجاب) : (إن هناك فرقا دقيقا بين نظرة المرأة إلى الرجال) ونظر الرجال إلى النساء من حيث الخصائص النفسية للصنفين ، وذلك أن فى طبيعة الرجل الإقدام فهو إذا أحب شيئا يسعى فى إحرازه والوصول إليه ولكن فى طبيعة المرأة التمنع والفرار ؛ لحيائها) وهى مادامت على فطرتها ولم تنسلخ منها ، لا يمكن أن يكون فيها من الجرأة والوقاحة والإقدام ما تتقدم به بنفسها الى شىء تحبه وتعجب به ، وقد راعى الشارع عليه الصلاة والسلام هذا الفرق بين طبعى الصنفين فلم يشدد فى النهى عن نظر المرأة إلى الأجنبى تشديده فى النهى عن نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية وقد اشتهر حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أراها لعب الحبشة بحرابهم فى المسجد مما يفيد أنه ليس فى نظر النساء إلى الرجال بمحظور على الاطلاق وإنما المكروه اجتماع النساء والرجال فى مجلس واحد وتحديق بعضهم الى بعض كأمر أم سلمة وميمونة أن يحتجبا من ابن أم مكتوم ـ وأيضا لا يجوز من النظر ما يخاف منه الفتنة) .

ويقول العلامة ابن حجر فى شرح البخارى : (واستدل بهذا الحديث ـ أى حديث نظر عائشة إلى الحبشة ـ على جواز رؤية المرأة الأجنبية للرجل الأجنبى دون العكس ، ويدل له استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منقبات لئلا يراهن الرجال ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء ، فدل على اختلاف الحكم بين الفريقين .

وبهذا احتج الامام الغزالى للجواز فقال : لسنا نقول إن وجه الرجل فى حق المرأة عورة كوجه المرأة فى حق الرجل ، فيحرم نظر المرأة الى الرجل عند خوف الفتنة وإن لم تكن فتنة فلا ، إذ لم تزل الرجال على

مر الزمان مكشوفى الوجوه ، والنساء يخرجن متنقبات . . فلو استووا لأمر الرجال بالتنقب أو منعوا من الخروج .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم أن نظر المرأة إلى الأجنبى جائز بشرطين :

الأول : الا يترتب على النظر ما يخشى منه الفتنة .

الثانى : الا يكون التحديق فى مجلس واحد مواجهة ومقابلة .

(ى) حالات ضرورية يباح فيها النظر :

سبق أن ذكرنا أنه لا للرجل أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت دميمة غير مشتهاة . . سواء أكان النظر بشهوة أو بغير شهوة ؟

لعموم قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾ ولشمول قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (اصرف بصرك)[١] .

ولكن يستثنى من هذا النظر حالات ضرورية وأمور طارئة . . نذكرها على الترتيب التالى :

١ ـ **النظر بقصد الخطبة** : سبق الكلام عليه بشكل مفصل فى بحث (أدب النظر إلى المخطوبة) .

٢ ـ **النظر بقصد التعليم** : يجوز النظر إلى وجه المرأة الأجنبية من غير زينة بقصد التعليم بشرط :

ـ أن يكون العلم الذى تتعلمه معتبرا شرعا فيه صلاح الدين أو الدنيا .

ـ أن يكون فى حدود إختصاصها كتعليمها أصول التمريض وفن الولادة .

ـ والا يخشى من النظر إلى وجهها فتنة .

ـ والا يترتب على التعليم خلوة .

ـ والا يوجد نساء يقمن بالتعليم مقام الرجال .

ولاشك أن الاسلام حين وضع هذه القيود . . أراد تكوين مجتمع نظيف طاهر . . لا تحوم حوله الشبه ، ولا توجه اليه التهم . . حتى تبقى الفتاة حصينة طاهرة ، لا تمتد إليها يد بإثم ، ولا تنظر إليها عين بخيانة .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾[٢] .

٣ ـ **النظر بقصد المداواة** : يجوز أن ينظر الطبيب من الأجنبية إلى المواضع التى يقوم على علاجها ، لما روى مسلم عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الحجامة فأمر النبى ﷺ ـ أبا طيبة أن يحجمها[٣] .

ومعالجة الطبيب للمرأة الأجنبية لا تجوز إلا بشروط :

١ ـ أن يكون الطبيب تقيا أمينا عدلا ذا اختصاص وعلم .

٢ ـ الا يكشف من أعضاء المرأة إلا قدر الحاجة إذا تعين النظر .

٣ ـ الا تكون هناك امرأة مختصة تقوم مقام الطبيب فى علمه واختصاصه .

٤ ـ أن تكون المعالجة بوجود محرم ، أو زوج أو امرأة ثقة كأمها أو أختها أو جارتها .

---

(١) مسلم الاستئذان حديث رقم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذى ٢٧٧٧ وأحمد ٤/٣٥٨ ، ٣٦١ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٣) مسلم ـ كتاب السلام ٤/١٧٣٠ رقم ٢٢٠٦

٥ ـ الا يكون الطبيب كافرا مع وجود مسلم .

فإذا توافرت هذه الشروط فيجوز للطبيب أن ينظر أو يلمس موضع العورة بالنسبة للمرأة لأن الاسلام دين يدفع عن الناس الحرج . ويجلب لهم المصلحة والتيسير .

فمبدؤه فى ذلك .. ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [١] .

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[٢] .

٤ ـ النظر بقصد المحاكمة والشهادة : يجوز للقاضى والشاهد أن ينظر من المرأة إلى الوجه والكفين وإن خافا الفتنة .. لما يترتب على النظر من إحقاق حق ودفع ظلم .. وإنما جاز النظر لكون المتنقبة غير معروفة لدى القاضى ولدى الشاهد .. فتكشف عن وجهها فى هذه اللحظات لتعرف أنها هى المعنية حتى لا تلتبس الأمور وتضيع فى المجتمع الحقوق .

وما ذاك إلا أن الإسلام دين الواقع والحياة ، يحقق للناس مصالحهم ويحفظ لهم حقوقهم ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

وفى هذا المقام أسوق هذه القصة التاريخية الخالدة ليعرف أهل الحمية والغيرة من الرجال والنساء كيف كان السلف الصالح يتحرجون فى أن تكشف المرأة وجهها أمام الرجال ولو كان الكشف جائزا شرعا ؟

جلس موسى بن إسحق قاضى الرى والأهواز فى القرن الثالث الهجرى ينظر فى قضايا الناس وكان بين المتقاضين امرأة ادعت على زوجها أن عليه خمسمائة دينار مهرا لها ، فأنكر الزوج أن لها فى ذمته شيئا .

فقال له القاضى : هات شهودك .

فقال : قد أحضرتهم .

فاستدعى القاضى أحدهم وقال له : أنظر إلى زوجته لتشير إليها فى شهادتك فقام الشاهد وقال للزوجة : قومى .

فقال الزوج : ماذا تريدون منها ؟

فقيل له : لابد أن ينظر الشاهد إلى امرأتك وهى مسفرة لتصح عنده معرفته بها .

فكره الرجل أن تضطر زوجته إلى الكشف عن وجهها للشهود أمام الناس .

فصاح : إنى أشهد القاضى على أن لزوجتى فى ذمتى هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها ..

فلما سمعت الزوجة ذلك أكبرت فى رجلها أنه يضن بوجهها على رؤية الشهود ، وأنه يصونها من أعين الناس !!

فصاحت تقول للقاضى : إنى أشهدك على أنى قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة .

فقال القاضى لمن حوله : (أكتبوا هذا فى مكارم الأخلاق) .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بآداب الاسلام فى النظر سواء ما يتعلق بأدب النظر الى المحارم أو فى

---

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة آية ٥٠ .

أدب النظر إلى المخطوبة أو فى أدب نظر الزوج إلى زوجته أو فى أدب نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية أو فى أدب نظر الرجل إلى الرجل أو فى أدب نظر المرأة إلى المرأة وفى أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة أو فى أدب نظر الرجل إلى الأمرد أو فى نظر المرأة إلى الأجنبى أو فى أدب النظر بقصد التعليم أو فى أدب النظر بقصد المداواة . أو فى أدب النظر بقصد المحاكمة أو الشهادة أو فى أدب النظر إلى عورة الصغير .

(ك) أدب النظر إلى عورة الصغير :

قال الفقهاء : الصغير سواء أكان ذكرا أو أنثى لا عورة له إذا كان ابن أربع سنين فما دونها ، ثم زاد على الأربع فعورته القبل والدبر وما حولهما . . حتى إذا بلغ حد الشهوة صارت عورته كعورة البالغ على التفصيل الذى سبق ذكره وكلما عودناه الستر وهو صغير كان أفضل .

كل هذه الآداب من النظر يجب على الآباء والأمهات والمربين جميعا أن يعطوا لأبنائهم القدوة العملية فيها ثم يلقنوها أبناءهم تلقينا وتوعية . . إن أرادوا لهم الخلق الفاضل ، والشخصية الاسلامية المتميزة والسلوك الاجتماعى الخير ، والتربية الاسلامية السامية . . والله سبحانه لن يترهم أعمالهم ولن ينقصهم أجورهم وثوابهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون !!

(من كتاب تربية الأولاد فى الاسلام ـ الجزء الثانى ـ للاستاذ عبد الله ناصح علوان) .

قوله تعالى : **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾** .

والمراد بغض البصر هاهنا أى عما حرم الله كما سبق فى أمر المؤمنين بذلك والمراد بحفظ الفروج أى عن كل ما حرم الله تعالى حتى تكون العفة هى الخلق الذى يتحلى به المؤمنون والمؤمنات والاسلام هو دين النظافة فى كل شىء نظافة العقيدة ونظافة النفس والعقل والمال والعرض والسلوك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والنظافة فيه تسرى سريان الماء فى العود الأخضر .

الله أكبر ان دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾** .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

أى لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه : قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعنى على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التى تحلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن مسعود ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾** قال وجهها وكفاها والخاتم .

وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعى

وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل أن يكون تفسيرا للزينة التى نهين عن ابدائها كما قال أبو إسحق السبيعى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال فى قوله ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة .

وفى رواية عنه بهذا الاسناد قال : الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهى الظاهر من الثياب وقال الزهرى لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهرى ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكى ومؤمل بن الفضل الحرانى قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : (ياأسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا) وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازى هو مرسل

قوله تعالى : ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ يعنى المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شىء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئتهن وأحوالهن كما قال تعالى : ﴿ **ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ .

وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أى يغطى به الرأس وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير ﴿ **وليضربن** ﴾ وليشددن ﴿ **بخمرهن على جيوبهن** ﴾ يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شىء وقال البخارى حدثنا أحمد بن شبيب بسنده عن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها . وقال أيضا عن صفية بنت شيبة أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت تقول : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها ، وقال ابن أبى حاتم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت : ذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن لنساء قريش فضلا وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن**) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ .

معتجزات كأن على رءوسهن الغربان . وقال ابن جرير حدثنا يونس عن عروة عن عائشة قالت يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكتف مروطهن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب .

قوله تعالى : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[1] أى أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخواتهن ﴾ أى أزواجهن كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر ، حدثنا موسى يعنى : ابن هارون ، حدثنا أبو بكر يعنى : ابن أبى شيبة حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود عن الشعبى وعكرمة فى هذه الآية : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الخال ، لأنهما ينقيان لأبنائهما ، ولاتضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له بما لايكون بحضرة غيره . وقوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعنى : تظهر بزينتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ، لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك - وإن كان محذورا فى جميع النساء - إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشد ، فإنهن لايمنعهن من ذلك مانع ، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ :
(لاتباشر المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) أخرجاه فى الصحيحين[2] عن ابن مسعود . وروى سعيد بن منصور عن أبيه ، عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة : أما

بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى مشركة ، وروى عبد الله فى تفسيره عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : هن المسلمات ، لاتبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، ومالايحل أن يراه إلا محرم .

وروى سعيد : عن ليث عن مجاهد قال : لاتضع المسلمة خمارها عند مشركة ، لأن الله تعالى : يقول ﴿ أو نسائهن ﴾ فليست من نسائهن . وعن مكحول وعبادة بن نسى : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما مارواه ابن أبى حاتم بسنده عن ضمرة قال : قال ابن عطاء : عن أبيه ، قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات - فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد ، والله أعلم .

---

(١) الآية : ٣١ من سورة النور .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه : فى (كتاب النكاح) باب : لاتباشر المرأة المرأة ج ٧ ص ٤٩
وأخرجه أبو داود فى سننه : فى (كتاب النكاح) باب : ماتؤمر به من غض البصر ج ٢ ص ٦١٠ رقم ٢١٥٠ .
وأخرجه الترمذى : فى (كتاب الأدب) باب : كراهية مباشرة الرجال الرجال والمرأة المرأة ج ٥ ص ١٠٩ رقم ٢٧٩٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الإمام أحمد ص ٣٦٠٩

وقوله تعالى : ﴿ أو ماملكت أيمانهن ﴾[١] قال ابن جريج : يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود : حدثنا محمد ابن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ماتلقى قال : (إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك)[٢]

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة خديج الحمصى - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة وأنه ، قد كان النبى ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على على بن أبى طالب - رضى الله عنه .

وروى الإمام احمد بسنده عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : (إذا كان لإحداكن مكاتب ، وكان له مايؤدى ، فلتحتجب منه)[٣] ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به .

وقوله تعالى : ﴿ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾ يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وله وخوت ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهوهن .

قال ابن عباس : هو المغفل الذى لاشهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله . وقال عكرمة : هو المخنث الذى لايقوم ذكره .

وكذلك قال : غير واحد من السلف . وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى ﷺ وهو ينعت إمرأة ، يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان : فقال رسول الله ﷺ (ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكن) فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم[٤] .

وروى الإمام احمد بسنده : عن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبى أمية يعنى : أخاها والمخنث يقول : ياعبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : (لايدخلن هذا عليك) أخرجاه فى الصحيحين[٥] .

---

(١)من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب اللباس) باب : العبد ينظر الى شعر مولاته ج ٤ ص ٣٥٩ رقم ٤١٠٦

(٣) أخرجه الإمام احمد فى مسنده من حديث أم سلمه ج ٦ ص ٢٨٩ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب العتق : باب : فى المكاتب يؤدى بعض كتابته فيعجز أو يموت ج ٤ ص ٢٤٤ رقم ٣٩٢٨ .

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب اللباس) باب : فى قوله : (غير أولى الإربة) ج ٦/ ٦٣ رقم ٤١٠٩ .

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٦/ ٢٩٠

(٥) وأخرجه البخارى فى (كتاب اللباس) باب : إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ٧/ ٢٠٥ . وأخرجه الإمام مسلم فى (كتاب السلام) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ، ج ٧/ ١٠ ، ١١ .

قال الامام احمد بسنده : عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ مخنث ، وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة ، فدخل النبى ﷺ وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت إمرأة ، فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : (ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكم هذا ، فحجبوه)(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾(٢) يعنى : لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لايفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما أن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلايمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إياكم والدخول على النساء) قال : يارسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال : (الحمو الموت)(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ﴾(٤) الآية : كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت لايعلم صوته ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا ، فتحركت بحركة لتظهر ماهو خفى ، دخل فى هذا النهى لقوله تعالى : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهى كذا وكذا) ـ يعنى زانية . . وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حسن صحيح(٥)

وقال أبو داود بسنده : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال ياأمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إنى سمعت حبى أبا القاسم ﷺ يقول : (لايقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة)(٦).

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن سفيان بن عيينة به .

وروى الترمذى أيضا من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٦/ ١٥٢ ، ومسلم فى (كتاب السلام) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب : ٨/ ١١ ، وسنن أبى داود فى (كتاب اللباس) باب : فى قوله :(غير أولى الإربة : ٤/ ٦٣ رقم ٤١٠٨

(٢) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٣) أخرجه البخارى فى : (كتاب النكاح : باب : لايخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، والدخول على المغيبة ، : ٧/ ٤٨ . ومسلم ، فى (كتاب السلام) باب : تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها : ٧/ ٧

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٥) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، أبواب الاستئذان ، باب : ماجاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة ، ٨/ ٧٠ ـ ٧١ رقم ٢٩٣٧ .

(٦) سنن أبى داود (كتاب الترجل) باب : ماجاء فى المرأة تتطيب للخروج حديث رقم ٤١٧٤ ج ٤ ص ٧٩ . وفى سنن ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : فتنة النساء حديث رقم ٤٠٠٢ ج ٢ ص ١٣٢٦ .

رسول الله ﷺ قال : (الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لانور لها)[١] .

ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من القدح .

قال أبو داود حدثنا القعنبى ، حدثنا عبد العزيز ، يعنى : ابن محمد عن أبى اليمان ، عن شداد بن أبى عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى ، عن أبيه ، أنه سمع النبى ﷺ وهو خارج المسجد .

وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق ، فقال رسول الله ﷺ للنساء (استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق ، عليكن بحافات الطريق)[٢]. فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به ، وقوله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٣] أى : افعلوا ماآمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ماكان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ماأمر الله به ورسوله ، وترك مانهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان !

(مبحث فقهى فى رحاب الآية)

رأينا من باب تتمة الفائدة فى رحاب تفسيرنا للآيتين الكريمتين السابقتين أن نذكر هذا المبحث الفقهى الذى جاء فى كتاب

(الأعلام بنقد كتاب الحلال والحرام) لمؤلفه :

صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

فقد كتب تحت عنوان : ـ

* حكم كشف المرأة لوجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب *

قال مانصه :

فى صفحة (١١٢) قال المؤلف : (وعورة المرأة بالنسبة للرجل الأجنبى عنها جميع بدنها ماعدا وجهها وكفيها) ـ وفى الصفحة (١١٣) لما ذكر نظر المرأة إلى الرجل ، قال : (ومثل هذا نظر الرجل إلى ماليس بعورة من المرأة ـ أى إلى وجهها وكفيها فهو مباح ، مالم تصحبه شهوة أو تخف منه فتنة) وفى صفحة (١١٥) بعد أن ذكر قوله تعالى : ﴿ **ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن** ﴾[٤] قال : وهذا التوجيه يتضمن نهى النساء المؤمنات عن كشف الزينة الخفية ، كزينة الأذن ، والشعر ، والعنق ،

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : (أبواب الرضاع) باب : ماجاء فى كراهية خروج النساء فى الزينة رقم ١١٧٧ ج ٧ ص ٣٢٩
وقال الترمذى : هذا حديث لانعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه ، وهو صدوق .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود (فى كتاب الأدب) باب : فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق رقم ٥٢٧٢ ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور

والصدر ، والساق ، أمام الرجال الأجانب الذين رخص لها أمامهم فى إبداء الوجه ، والكفين ، (ماظهر منها) .

وفى صفحة (١١٣) استدل المؤلف : على جواز نظر الرجل الأجنبى إلى وجه المرأة ، وكفيها ، بحديث عائشة : أن أختها أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ فى لباس رقيق يشف عن جسمها ، فأعرض النبى ﷺ عنها وقال : ياأسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)[١] . قال : وفى الحديث ضعف ، ولكن تقويه أحاديث صحاح فى إباحة رؤية الوجه والكفين وكشفهما .

ثم قال : وقد روى أن النبى ﷺ حين وجد الفضل ابن عمه العباس ، ينظر إلى امرأة أجنبية حسناء ، ويطيل الالتفات إليها ، وكان رديف النبى ﷺ فجعل ﷺ يصرف وجهه إلى الشق الآخر ، وقال :

(رأيت شابا وشابة ، فلم آمن عليهما الفتنة[٢] أ هـ حاصل كلامه . وأقول : ان ماذكره المؤلف فى هذا المبحث يشتمل على أخطاء كثيرة هى :

أولا : تجويزه للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب ، وتجويزه للرجل الأجنبى أن ينظر إليهما باعتبارهما غير عورة ، وهذا قول باطل وخطأ واضح ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على أن وجه المرأة وكفيها وجميع بدنها عورة يجب سترها عن الرجال الأجانب ، وإليك ذكر بعض هذه الأدلة :

قال الله تعالى : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾[٤] .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : ـ رحمه الله ـ فى الكلام على الايتين مانصه :

(والسلف قد تنازعوا فى الزينة الظاهرة على قولين : فقال ابن مسعود ومن وافقه : هى الثياب ، وقال ابن عباس ومن وافقه هى مافى الوجه واليدين مثل الكحل والخاتم ـ إلى أن قال جامعا بين القولين : وحقيقة الأمر ، أن الله جعل الزينة زينتين ـ زينة ظاهرة وزينة غير ظاهرة ، وجوز لها ابداء زينتها الظاهرة لغير الزوج ، وذوى المحارم ، وأما الباطنة فلا تبديها إلا للزوج وذوى المحارم ، وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب يرى الرجل وجهها ويديها ، وكان آنذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين ، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره ثم لما أنزل الله ـ عز وجل ـ آية الحجاب بقوله : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾[٥] .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب اللباس) باب : فيما تبدى المرأة من زينتها ، رقم ٤١٠٤ ج ٤ ص ٦٢ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند على بن أبى طالب ج ١ ص ٧٦ بلفظ : « رأيت شابا وشابة ، فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور

(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب

(٥) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب

حجب النساء عن الرجال ، وكان ذلك لما تزوج النبى ﷺ زينب بنت جحش فأرخى النبى ﷺ الستر ومنع النساء أن ينظرن ، ولما اصطفى صفية بنت حيى بعد ذلك ، عام خيبر قالوا : إن حجبها فهى من أمهات المؤمنين ، وإلا فهى مما ملكت يمينه فحجبها ، فلما أمر الله ألا يسألن إلا من وراء حجاب ، وأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن .

والجلباب هو الملاءة ، وهو الذى يسميه ابن مسعود وغيره الرداء وتسميه العامة الإزاروهو الإزار الكبير الذى يغطى رأسها وسائر بدنها ، وقد حكى عبيدة وغيره أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينها ، ومن جنسه النقاب ، فكان النساء ينتقبن ، وفى الصحيح (إن المحرمة لاتنتقب ، ولا تلبس القفازين)[١] ، فإذا كن مأمورات بالجلباب لئلا يعرفن وهو ستر الوجه أو ستر اليدين بالنقاب ، وكان الوجه واليدان من الزينة التى أمرت ألا تظهرها للأجانب ، فما بقى يحل للأجانب النظر إلا إلى الثياب الظاهرة ، فابن مسعود ، ذكر آخر الأمرين وابن عباس ذكر أول الأمرين أنتهى .

وقال ابن كثير - رحمه الله - :

يقول تعالى : آمرا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات خاصة ، وأزواجه وبناته لشرفهن بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ؛ ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الاماء .

والجلباب هو الرداء فوق الخمار قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهرى : الجلباب الملحفة . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين :

سألت عبيدة السلمانى عن قول الله - عز وجل - : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى : فى أضواء البيان (٦ - ١٩٧ - ٢٠٠) لما ذكر النقول عن السلف فى تفسير الزينة بقسميها مانصه :

(وقد رأيت فى هذه النقول عن السلف : أقوال أهل العلم فى الزينة الظاهرة ، والزينة الباطنة ، وأن جميع ذلك راجع فى الجملة إلى ثلاثة أقوال :

الأول : أن المراد بالزينة ماتتزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها ، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شىء من بدنها كقول ابن مسعود ومن وافقه : أنها ظاهر الثياب لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهى ظاهرة بحكم الاضطرار ، كما ترى - وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها ، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة .

القول الثانى : أن المراد بالزينة ماتتزين به ، وليس من أصل خلقتها أيضا ؛ لكن النظر إلى تلك الزينة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : فى (كتاب الحج) باب : ماينهى من الطيب للمحرم والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء حديث : أوله لاتلبسوا القميص إلى ولاتنتقب المرأة المحرمة ، ولاتلبس القفازين .

يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة ، وذلك كالخضاب والكحل ونحو ذلك ، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع اللابس من البدن ، كما لايخفى .

القول الثالث :

أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذى هو من أصل خلقتها ، لقول من قال : إن المراد بما ظهر منها : الوجه والكفان . وماتقدم ذكره عن بعض أهل العلم .

وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول . وقدمنا أيضا فى ترجمته : أن أنواع البيان التى تضمنها أن يكون الغالب فى القرآن ارادة معنى معين فى اللفظ مع تكرار ذلك اللفظ فى القرآن ، فكون ذلك المعنى : هو المراد من اللفظ فى الغالب . يدل على أنه هو المراد فى محل النزاع لدلالة عليه إرادته فى القرآن بذلك اللفظ وذكرنا بعض الأمثلة فى الترجمة .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان اللذين ذكرناهما فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود فى هذه الآية التى نحن بصددها .

أما الأول منهما : فبيانه أن قول من قال فى معنى :

﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها ﴾

أن المراد بالزينة الوجه والكفان مثلا . توجد فى الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول ، وهى أن الزينة فى لغة العرب هى ماتتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها ، كالحلى والحلل ، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر ، ولايجوز الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه وبه تعلم أن قول من قال :

الزينة الظاهرة الوجه والكفان ، خلاف ظاهر معنى لفظ الآية ، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول ، فلايجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه ، وأما نوع البيان الثانى المذكور ، فإيضاحه أن لفظ الزينة يكثر تكرره فى القرآن العظيم مرادا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها ، ولايراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين به كقوله تعالى :

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ﴾(٢)

وقوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ﴾(٣)

وقوله تعالى :

﴿ وماأوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾(٤)

---

(١) من الاية : ٣١ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف .
(٣) من الآية : ٧ من سورة الكهف .
(٤) من الآية ٦٠ من سورة القصص .

وقوله تعالى :

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾(٢)

وقوله تعالى :

﴿ فخرج على قومه فى زينته ﴾(٣)

وقوله تعالى :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾(٤)

وقوله تعالى :

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ﴾(٥)

وقوله تعالى :

﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾(٦)

وقوله تعالى : عن قوم موسى

﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾(٧)

وقوله تعالى :

﴿ ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾(٨)

فلفظ الزينة فى هذه الآيات كلها يراد به مايزين به الشىء ، وهو ليس من أصل خلقته كما ترى . وكون هذا المعنى : هو الغالب فى لفظ الزينة فى القرآن ، يدل على أن لفظ الزينة فى محل النزاع يراد به هذا المعنى الذى غلبت إرادته فى القرآن العظيم ، وهو المعروف فى كلام العرب كقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ماترى ... وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة فى الآية : بالوجه والكفين فيه نظر .

وإذا علمت أن المراد بالزينة فى القرآن : مايتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة ، وأن من فسروها من العلماء بهذا : اختلفوا على قولين :

فقال بعضهم : هى زينة لايستلزم النظر إليها رؤية شىء من بدن المرأة ، كظاهر الثياب . وقال بعضهم :

هى زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة ، كالكحل والخضاب ، ونحو ذلك .

قال مقيد : عفا الله عنه ، وغفر له .

أظهر القولين . المذكورين عندى ، قول ابن مسعود : ـ رضى الله عنه ـ أن الزينة الظاهرة ، هى

---

(١) الآية : ٦ من سورة الصافات .
(٢) الآية : ٨ من سورة النحل
(٣) من الآية : ٧٩ من سورة القصص .
(٤) من الآية : ٤٦ من سورة الكهف .
(٥) من الآية : ٢٠ من سورة الحديد .
(٦) من الآية : ٥٩ من سورة طه .
(٧) من الآية : ٨٧ من سورة طه
(٨) من الآية ٣١ من سورة النور .

مايستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية ، وإنما قلنا : أن هذا القول هو الأظهر لأنه هو أحوط الأقوال ، وأبعدها ، عن أسباب الفتنة وأطهرها لقلوب الرجال والنساء ، ولايخفى أن وجه المرأة ، هو أصل جمالها ، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها ، كما هو معلوم .

والجارى على قواعد الشرع الكريم : هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لاينبغى .

وقال أيضا : فى صفحة (٥٨٤ - ٥٨٦) من الكتاب المذكور على قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾(١)

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول .

وذكرنا أمثلة فى الترجمة ، ومن أمثلته التى ذكرنا فى الترجمة . . هذه الآية الكريمة ، فقد قلنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومن أمثلته قول كثير من الناس : أن آية الحجاب أعنى . قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾(٢)

خاصة بأزواج النبى ﷺ فإن تعليله تعالى : لهذا الحكم الذى هو ايجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة ، فى قوله تعالى :

﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ قرينة واضحة على ارادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين أن غير أزواج النبى ﷺ لاحاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة ، فهن وقد تقرر فى الأصول أن العلة قد تعمم معلولها ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

وقد تخصص وقد تعمم . . لأصلها لكنها لاتحرم .

أنتهى محل الغرض من كلامنا فى الترجمة ، وبما ذكرنا تعلم أن فى هذه الآية الكريمة ، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لاخاص بأزواجه ، ﷺ وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن لأن عموم علته : دليل على عموم الحكم فيه ، - إلى أن قال :

ومن الأدلة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها ؛ جميع بدنها ، حتى وجهها قوله تعالى :

﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾(٣)

فقد قال غير واحد من أهل العلم : إن معنى :

﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾

أنهن يسترن بها جميع وجوههن ، ولايظهر منهن شيء ، إلا عين واحدة تبصر بها ، وممن قال به ابن مسعود ، وابن عباس ، وعبيدة السلمانى وغيرهم : ، ا هـ .

وقال فى صفحة (٥٩٢) أيضا مانصه :

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام ، وأن ماذكرنا معها من الآيات فيه : الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب علمت أن القرآن دل على الحجاب .

ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ فلاشك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين فى الآداب الكريمة المتضمنة للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة .

---

(١) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب .

فمن يحاول منع نساء المسلمين ـ كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم ـ من الاقتداء بهن فى هذا الأدب السماوى الكريم ، المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأمة محمد ـ ﷺ أنتهى المقصود منه .

وقال الشيخ أبو الأعلى المودودى : فى كتاب الحجاب له بعد أن ذكر جملة من أقوال المفسرين على آية الأحزاب : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ﴾ الآية مانصه : (ويتضح من هذه الأقوال جميعها أنه من لدن عصر الصحابة الميمون إلى القرن الثامن للهجرة حمل جميع أهل العلم هذه الآية على مفهوم واحد ، هو الذى قد فهمناه من كلماتها .

وإذا راجعنا بعد ذلك الأحاديث النبوية والآثار علمنا منها أيضا أن النساء قد شرعن يلبسن النقاب على العموم بعد نزول هذه الآية على العهد النبوى ، وكن لايخرجن سافرات ، فقط جاء فى سنن أبى داود والترمذى والموطأ للإمام مالك وغيره من كتب الأحاديث أن النبى ﷺ قد أمر المحرمة لاتنتقب ولاتلبس القفازين ونهى النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب وهذا صريح الدلالة على أن النساء فى عهد النبوة قد تعودن النقاب ولبس القفازين عامة ، فنهين عنه فى الإحرام ولم يكن المقصود بهذا الحكم أن تعرض الوجوه فى موسم الحج عرضا ، بل كان المقصود فى الحقيقة الا يكون القناع جزءا من هيئة الاحرام المتواضعة ، كما يكون جزءا من لباسهن عادة . فقد ورد فى الأحاديث الأخرى تصريح بأن أزواج النبى ﷺ وعامة المسلمات كن يخفين وجوههن عن الأجانب فى حالة إحرامهن أيضا ، ففى سنن أبى داود عن عائشة قالت :

(كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزنا كشفناه)[1] إلى أن قال : وكل من تأمل كلمات الآية ، ومافسرها به أهل التفسير فى جميع الأزمان بالاتفاق ، وماتعامل عليه الناس على عهد النبى ﷺ ولم ير فى الأمر مجالا للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامى بستر وجهها عن الأجانب ، ومازال العمل جاريا عليه منذ عهد النبى ﷺ إلى هذا اليوم .

وقال الشيخ محمد على الصابونى فى روائع البيان : (٢ ـ ٣٨٤) ومن درس حياة السلف الصالح ، وماكان عليه النساء الفضليات ـ نساء الصحابة والتابعين ـ ، وماكان عليه المجتمع الإسلامى فى عصره الذهبى من التستر والتحفظ والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون أن الوجه لايجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة لأجل أن يتخلصوا من الأثم ـ بزعمهم ـ فى كتم العلم ، ومادروا أنها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التبرج بالمرأة المسلمة إلى التخلص من الحجاب الشرعى الذى عمل له الأعداء زمنا طويلا . وإنا لله وإنا إليه راجعون ا هـ .

ومما تقدم تعلم أنه لامستمسك للمؤلف بقوله تعالى : ﴿ إلا ماظهر منها ﴾ وأن الآية حجة لنا لا له .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه : فى (كتاب المناسك والحج) فى باب : المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب الحج) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ أخرجه البخارى فى صحيحه فى : (كتاب الحج) باب : ماينهى من الطيب للمحرم والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء من حديث طويل . أوله : لاتلبسوا القميص إلى ولاتنتقب المرأة المحرمة ولاتلبس القفازين .

وأما أدلة السنة على وجوب الحجاب : فهناك أحاديث كثيرة تدل على وجوب الحجاب منها : حديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : (أن النبى ﷺ قال : لاتنتقب المرأة المحرمة ولاتلبس القفازين)[1] رواه الامام أحمد والبخارى وأهل السنن إلا ابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال شيخ الاسلام ابن تيميه : - رحمه الله - وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين فى النساء اللاتى لم يحرمن ، وذلك يقتضى ستر وجوههن وأيديهن ، - وقال : ووجه المرأة فى الاحرام فيه قولان :

فى مذهب الإمام أحمد وغيره - قيل : إنه كرأس الرجل فلا يغطى وقيل كبدنه ، فلا يغطى بالنقاب والبرقع ، ونحو ذلك مما صنع على قدره ، وهذا هو الصحيح ، فإن النبى ﷺ لم ينه إلا عن القفازين والنقاب ، وكان النساء يدنين على وجوههن مايسترها من الرجال من غير مايجافيها عن الوجه ، فعلم أن وجهها كبدن الرجل ، وذلك أن المرأة كلها عورة كما تقدم ، فلها أن تغطى وجهها ؛ لكن بغير اللباس المصنوع بقدر العضو أ هـ .

ومنها حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذونا ، أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه[2] .

رواه الإمام أحمد وابو داود وابن ماجه - قال الشوكانى : فى نيل الأوطار واستدل بهذا الحديث على أنه يجوز للمرأة إذا احتاجت إلى ستر وجهها (يريد حال الإحرام) لمرور الرجال قريبا منها فإنها تسدل الثوب من فوق رأسها على وجهها ، لأن المرأة تحتاج إلى ستر وجهها فلم يحرم عليها ستره مطلقا ، كالعورة أ هـ .

ومعناه أنه لايحرم عليها ستر وجهها حالة إحرامها بحضرة أجانب أو غيرهم ، وهذا صريح من الإمام الشوكانى أنه يرى وجوب ستر المرأة لوجهها إذ أن الوجه هو موضع الزينة ، ومحل الافتتان بها ، ونساء الصحابة يكشفن وجوههن حالة الإحرام ، فإذا مر بهن الرجال الأجانب سترن وجوههن عنهم . مما يدل على أن المعتاد عندهم هو ستر الوجه .

هذه بعض أدلة الكتاب والسنة على وجوب ستر الوجه واليدين من المرأة عن الرجال الأجانب ، وطرف من كلام أهل العلم عليها ، ولو تتبعنا كل ماورد وكل ماقيل فى هذا الموضوع لاحتجنا إلى مجلدات ، لكن نكتفى من ذلك بما تحصل به الإشارة .

---

(١) وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) وهو جزء من الحديث ج ٢ ص ١١٩ وأخرجه الترمذى فى (أبواب الحج) باب : ماجاء فى مالايجوز للمحرم لبسه ج ٢ ص ١٦٤ رقم ٨٣٤ وهو جزء من حديث طويل وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحج) باب : مايلبس المحرم ج ٢ ص ٤١١ رقم ١٨٢٥ وفى ص ٤١٢ وقال الخطابى : أخرجه البخارى فى (كتاب الحج) والترمذى والنسائى .
أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها - ج ٦ ص ٣٠

(٢) وأخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب المناسك والحج) باب : فى المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ رقم ١٨٣٣ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب الحج) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ .
قال المنذرى : وقد أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث مجاهد عن عائشة .
والحديث فى سنن أبى داود (كتاب المناسك) باب : فى المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ١٦٧ لأقم ١٨٣٣

الجواب عما استدل به المؤلف

١ ـ أما استدلال المؤلف على جواز كشف الوجه واليدين من المرأة بحضرة الرجال بحديث عائشة : فى قصة دخول أسماء على النبى ﷺ وقوله لها : (إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)[(١)]. فمن العجيب استدلاله بهذا الحديث مع اعترافه هو بضعفه ، فكيف يعارض به الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على تحريم نظر الرجل إلى وجه المرأة الأجنبية ، ووجوب ستره ـ وأما قوله : (لكن تقويه أحاديث صحاح كما نطالبه أيضا ببيان الحد الذى تؤمن عنده الفتنة ، حين النظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، وهل هناك أحد يأمن على نفسه الفتنة فى هذا النظر؟ أليس النظر وسيلة إلى الافتتان ؟ .

والمؤلف نفسه فى أول كتابه قد قرر هذه القاعدة فقال : (ماأدى إلى الحرام فهو حرام) فلماذا يتناسى ذلك هنا؟ . وقد قال أيضا فى كتابه : فى صفحة (١١٠) والنظر رسول الفتنة وبريد الزنا وقديما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر .

وحديثا قال آخر :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء .

فما باله الأن يتساهل فى النظر ؟!

قال الشيخ الصابونى : فى هذا الموضوع فى كتابه روائع البيان (٢ ـ ١٧٣) والاسلام قد حرم على المرأة أن تكشف شيئا من عورتها أمام الأجانب خشية الفتنة ، فهل يعقل أن يأمرها الإسلام أن تستر شعرها وقدميها ، وأن يسمح لها أن تكشف وجهها ويديها ، وأيهما تكون الفتنة أكبر ـ الوجه أم القدم ـ ياهؤلاء كونوا عقلاء ، ولاتلبسوا على الناس أمر الدين ، فإذا كان الإسلام لايبيح للمرأة أن تدق برجلها الأرض ؛ لئلا يسمع صوت الخلخال وتتحرك قلوب الرجال ، أو يبدو شىء من زينتها ، فهل يسمح لها أن تكشف عن الوجه الذى هو أصل الجمال ، ومنبع الفتنة ، ومكمن الخطر ـ أ هـ .

وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ ـ ٦٠٢) مانصه : (وبالجملة فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء فى الكشف عن الوجه أمام الأجانب مع أن الوجه هو أصل الجمال ، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية ، وداع إلى الفتنة ، والوقوع فيما لاينبغى ألم تسمع بعضهم يقول :

قلت اسمحوا لى أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك ولقد صدق من قال :

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجيب

انتهى . وإضافة إلى ذلك نقول إن الفتنة متوقعة من كل رجل ينظر إلى وجه امرأة أجنبية ، ولاسيما الشابة الجميلة ، فإن الفتنة بالنظر اليها أعظم . فيتعين الحجاب منعا لهذه الفتنة على جميع النساء .

---

(١) الحديث فى سنن ابى داود (كتاب اللباس) باب فيما تبدى المرأة من زينتها الحديث رقم ٤١٠٤ ج ٤ صـ ٦٢ .

ونعود إلى بيان درجة الحديث الذى إستدل به المؤلف وبيان ماقاله العلماء فيه ، قال ابن كثير : قال أبو داود وأبو حاتم الرازى هو مرسل = خالد بن دريك لم يدرك عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال المنذرى فى مختصر سنن ابى داود : قال أبو داود هذا مرسل ـ خالد بن دريك لم يدرك عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

وفى اسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصرى نزيل دمشق مولى بنى نصر وقد تكلم فيه غير واحد . وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجانى هذا الحديث وقال : لاأعلم من رواه غير سعيد بن بشير . وقال مرة : فيه عن خالد بن دريك عن أم سلمة بدل عائشة ـ أ هـ . وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ ـ ٥٩٧) : وهذا الحديث يجاب عنه بأنه ضعيف من جهتين :

الأولى : كونه مرسلا لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة ، كما قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : كما قدمناه فى سورة النور .

الجهة الثانية : أن فى إسناده سعيد بن بشير الأزدى مولاهم قال فيه فى التقريب : ضعيف ـ مع أنه مردود بما ذكرنا من الأدلة على عموم الحجاب . ومع أنه لو قدر ثبوته قد يحمل على أنه كان قبل الأمر بالحجاب ـ أ هـ . قلت : وحديث هذه درجته لايصلح الاستدلال به ، لاسيما فى هذه المسألة الخطيرة .

٢ ـ وأما استدلال المؤلف على جواز نظر الرجل الأجنبى إلى وجه المرأة بحديث الفضل بن العباس ، ونظره إلى الخثعمية ، وصرف النبى ـ ﷺ ـ وجه الفضل عنها ـ فهذا من غرائب الاستدلال لأن الحديث يدل على خلاف مايقول : وذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يقر الفضل على ذلك ، بل صرف وجهه وكيف يمنعه من شىء مباح ـ قال النووى : ـ رحمه الله ـ عند ذكره لفوائد هذا الحديث : ومنها تحريم النظر إلى الأجنبية .

ومنها إزالة المنكر باليد لمن أمكنه . وقال العلامة ابن القيم فى روضة المحبين صفحة (١٠٢) : وهذا منع وإنكار بالفعل فلو كان النظر جائزا لأقره عليه أ هـ .

وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ ـ ٦٠٠ ـ ٦٠١) مجيبا عن هذا الاستدلال مانصه : (وأجيب عن ذلك أيضا من وجهين :

الأول : الجواب بأنه ليس فى شىء من روايات الحديث التصريح بأنها كانت كاشفة عن وجهها ، وأن النبى ـ ﷺ ـ رآها كاشفة عنه ، وأقرها على ذلك ، بل غاية مافى الحديث أنها كانت وضيئة ، وفى بعض اوايات الحديث أنها حسناء ، ومعروفة كونها وضيئة أو حسناء لايستلزم أنها كاشفة عن وجهها ، وأنه ـ ﷺ ـ أقرها على ذلك ، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد فيراها بعض الرجال من غير قصد كشفها عن وجهها ، كما أوضحناه فى رؤية جابر سفعاء الخدين .

ويحتمل أن يكون يعرف حسنها . قبل ذلك الوقت ، لجواز أن يكون قد رآها قبل ذلك وعرفها . ومما يوضح هذا أن عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الذى روى عنه هذا الحديث ، لم يكن حاضرا وقت نظر أخيه إلى المرأة ونظرها إليه لما قدمنا من أن النبى ـ ﷺ ـ قدمه بالليل من مزدلفة إلى منى فى ضعفة أهله ، ومعلوم أنه إنما روى الحديث المذكور من طريق أخيه الفضل وهو لم يقل إنها كانت كاشفة عن وجهها ، وإطلاع الفضل على أنها وضيئة حسناء ، لايستلزم السفور قصدا ، لاحتمال أن يكون رأى وجهها ، وعرف حسنه من أجل انكشاف خمارها من غير قصد منها ، واحتمال أنه رآها قبل ذلك

وعرف حسنها . إلى أن قال : ومع أن جمال المرأة قد يعرف وينظر إليها لجمالها وهى مختمرة ، وذلك لحسن قدها وقوامها ، وقد تعرف وضاءتها وحسنها من رؤية بناتها فقط كما هو معلوم ، ولذلك فسر ابن مسعود ﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها ﴾ بالملاءة فوق الثياب كما تقدم . ومما يوضح أن الحسن يعرف من تحت الثياب .

قول الشاعر :

طافت أمامه بالركبان آونة باحسنها من قوام ما ومنتقبا

فقد بالغ فى حسن قوامها مع أن العادة كونه مستورا بالثياب لامنكشفا .

الوجه الثانى : أن المرأة محرمة ، وإحرام المرأة فى وجهها وكفيها فعليها كشف وجهها إن لم يكن هناك رجال أجانب ينظرون إليها ، وعليها ستره من الرجال فى الإحرام كما هو معروف من أزواج النبى - ﷺ - وغيرهن . ولم يقل أحد أن هذه المرأة الخثعمية نظر إليها أحد غير الفضل بن عباس - رضى الله عنهما - والفضل منعه النبى - ﷺ - من النظر إليها ، وبذلك يعلم أنها محرمة لم ينظر إليها أحد ، فكشفها عن وجهها إذن لإحرامها لا الجواز السفور - إلى أن قال :

ويفهم من صرف النبى - ﷺ - بصر الفضل عنها أنه لاسبيل إلى ترك الأجانب ينظرون إلى الشابة كما ترى ، وقد دلت الأدلة المتقدمة على أنها يلزمها حجب جميع بدنها أنتهى .

الزواج والعفة

قال تعالى :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

تفسير المفردات

الأيامى : واحدها أيم وهو كما قال النضر بن شميل : كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لاذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال : آمت المرأة ، وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا ماتت امرأته ، وفى المرأة إذا مات زوجها .

والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة . واسع : أى غنى . وليستعفف : أى وليجتهد فى العفة ، لايجدون : أى لايتمكنون من وسائله وهى المال والكتاب والمكاتبة يراد بها شرعا : إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى : فى موعدين أو أكثر فيقول له : كاتبتك على كذا درهما ، ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة : العبد والأمة ، والبغاء : الزنا والتحصن : العفة ، لتبتغوا : أى لتطلبوا ، عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبينات : أى مفصلات ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب . مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ونحوها ، مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ؛ لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع ، وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد ، وحسن تربيتهم ، ودوام الألفة بينهم ، ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبه الأرقاء ، ليصبروا أحرارا فى أنفسهم ، وفى أموالهم يتزوجون كما يشاءون وبعدئذ أردف ذلك النهى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا .

ثم ختم هذا ببيان أنه أنزل عليكم فى هذه السورة ، وفى غيرها آيات مبينات لكل ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من أحكام ، وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة ، وقصص عجيبة عن الماضين ، وأمثال مضروبة ، لتكون عبرة وذكرى لكم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ [(١)] هذا أمر بتزويج هؤلاء استدل منه بعض العلماء على الوجوب حيث لم يصرف الأمر صارف إلى غيره ، وليست هناك قرينة مانعة من إرادة ذلك ، ومما يرجح ذلك ماجاء فى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ (يامعشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود .[(٢)]

---

(١) من الاية : ٣٢ من سورة النور .

(٢) البخارى (كتاب الصوم) باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ج ٣ ص ٣٤ ومسلم أول (كتاب النكاح) ج ٤/ ١٢٨ .

وقد جاء فى السنن من غير وجه : أن رسول الله ﷺ قال : (تزوجوا الولود تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة)[١] والأيامى : جمع أيم . ويقال : ذلك للمرأة التى لازوج لها ، وللرجل الذى لازوجة له ، وسواء كان قد تزوج ، ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهرى من أهل اللغة ، يقال : رجل أيم ، وامرأة أيم .

قوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ هذا وعد منه سبحانه ـ وتعالى ـ ووعد الله لايتخلف إن الله لايخلف الميعاد .

فلكل شىء مفتاح ، ومفتاح الرزق النكاح ، إن الزواج عبادة قال ﷺ (وفى بضع أحدكم صدقة) وجزاء هذه العبادة سعة فى الرزق ، وسكنى بدنية ونفسية ومودة ورحمة . قال ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى . فقال سبحانه : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[٢]

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد زخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وعن ابن مسعود قال : (التمسوا الغنى فى النكاح) يقول الله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . رواه ابن جرير .[٣]

وعن الليث عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله[٤] . رواه الإمام أحمد وقد زوج النبى ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها مامعه من القرآن .

قوله تعالى : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أى واسع الغنى والرحمة والمغفرة قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[٥] ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾[٦] عليم بأحوالكم ، لطيف بكم ، هو القائل ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .[٧] .

---

(١) سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء الحديث رقم ٢٠٠٥ : ٢/ ٢٢٠ ، والنسائى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج العقيم ٦/ ٦٥

(٢) أنظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ج ٦ ص ٥٤

(٣) تفسير الطبرى ١٨/ ٩٨

(٤) أحمد/٢/٢٥١ ، ٤٣٧ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : (أبواب فضائل الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم حديث رقم ١٧٠٦ ج ٥ ص ٢٩٦ قال الترمذى : هذا حديث حسن وأخرجه النسائى فى (كتاب النكاح) باب : الناكح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٦١ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب العتق) باب : المكاتب حديث ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

(٥) من الآية : ١٥٦ من سورة الأعراف

(٦) من الآية : ٧ من سورة غافر .

(٧) الآيات : ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات .

لم يكن الغنى هو الذى يفضل بعض الناس على بعض ، إنما ميزان الناس فى التقدير الإسلامى هو التقوى ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[١] لم يقل أغناكم ولا أقواكم ولا أحسبكم ولا أنسبكم ولكن لما انتكست تلك الموازين ، واهتزت هاتيكم القيم .

رأيت الناس قد مالوا	إلى من عنده مال
ومن لاعنده مال	فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا	إلى من عنده ذهب
ومن لاعنده ذهب	فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة	إلى من عنده فضة
ومن لاعنده فضة	فعنه الناس منفضة

قوله تعالى ﴿ وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله . . ﴾[٢] جاء فى الحديث الشريف (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٣]

فليجتهد فى العفة وصون النفس من لايتمكن من المال الذى به يتم النكاح ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ، حتى يصل إلى بغيته من النكاح .

قوله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾[٤] أى والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين بنحو ما ، ليصيروا بعد أدائها أحرارا ويكونون قادرين على الكسب ، وأداء ماكاتبوا عليه من الأمانة والصدق ، فكاتبوهم بعد انتهاء الأجل ، وأداء ماأوجبوه على أنفسهم أحرارا فى رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال : ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾[٥] أى وآتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم ، وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموالكم ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التى جعلها الله لهم فى بيت المال فى مصارف الزكاة بقوله ﴿ وفى الرقاب ﴾[٦] أى وفى تحرير الأرقاء .

وفى هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله)[٧] .

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) من الآية : ٣٢ من سورة النور .
(٣) البخارى (كتاب الصوم) باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة : ٣/ ٣٤ ومسلم أول كتاب النكاح ٤/ ١٢٨ .
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة النور .
(٥) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٦) من الآية : ٦٠ من سورة التوبة .
(٧) رواه أحمد فى مسند ـ مسنده أبى هريرة ـ ج ٢ ص ٢٥١ ، ٤٣٧ بتقديم وتأخير فى ألفاظه .
وأخرجه ابن ماجه (فى كتاب العتق) باب : المكاتب رقم ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ مع تقديم وتأخير فى ألفاظه أيضا .
وفى الترمذى فى (أبواب الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ج ٣ ص ١٠٣ رقم ١٧٠٦ أيضا بتقديم وتأخير فى ألفاظه وقال : وهو حديث حسن .
وأخرجه الإمام النسائى بنصه : فى (كتاب النكاح) باب : معونة الله الناكح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٥٠ ط الحلبى .

فالحمد لله الذى حرر العبيد بفضل مابعث به نبيه ومصطفاه لقد كانت أول رشفة لبن نزلت فى جوفه الشريف من أمة هى ثويبة جارية عمه أبى لهب ولما بشرته بمولد ابن أخيه قال لها : إذهبى فأنت حرة فكان مولده الشريف إيذانا بتحرير العبيد ، وصارت الحرية حقا لمن يعيش على وجه البسيطة ، صارت كالماء والهواء والضياء ، لقد جعل الاسلام من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

لو أن انسانا تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا	هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء
البر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنوتة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى سخا الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء

- ومن أراد المزيد عن تحرير العبيد فليرجع إلى رحاب تفسيرنا لقوله تعالى :
﴿ **إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم** ﴾[1] فى صدر سورة المؤمنون

ثم نهى المؤمنين عن السعى فى جمع المال بسبل الحرام فقال سبحانه :
﴿ **ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** ﴾[2] أى لاتكرهوا إماءكم على الزنا إن كن يردن التعفف والتحصن التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفى قوله : ﴿ **إن أردن تحصنا** ﴾ زيادة فى تقبيح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لايرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه فضلا عن أمرهن بذلك وإكراههن عليه ، ولاسيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر - رضى الله عنه - أن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها : (مسيكة) وأخرى يقال لها : (أميمة) كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية[3] .

ثم أبان أنهن إن أكرهن فالوزر على من أكرههن لاعليهن فقال :
﴿ **ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾[4] أى : ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن والذنب على المكره لهن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله لهن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبينها امتن على عباده بذلك فقال تعالى : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾[5]

---

(١) من الآية : ٦ من سورة المؤمنون .
(٢) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٣) الحديث أورده القرطبى (فى تفسير سورة النور) ج ١٢ ص ٢٥٤ فى صحيح مسلم عن جابر
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٥) الآية : ٣٤ من سورة النور .

وفى هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى : أنه أنزل إلينا فى كتابه آيات مبينات للأحكام ، كما أنزل مثلا من الأمم السابقة ، فإذا كان أهل الإفك قد رموا أم المؤمنين عائشة مما هى منه بريئة . فإن اليهود قد رموا مريم قال تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **فأتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا** ﴾[2] وقد برأ الله مريم كما برأ عائشة . ﴿ **وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾[3]

وهذا القرآن فيه موعظة للمتقين ، فاقرأوه وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

فو الله لو أكرمنا كتاب الله ماأهاننا أحد ، ولو طبقنا حدوده لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، فيا أخا الاسلام قم سلسل الدموع حزنا على هذا الفساد الشائع ، ومزق الضلوع كمدا على هذا الضمير الضائع ، بين قسوة العاطفة ، وغفوة الضمير ، نامت النفوس على هدهدة الشهوات ، وضعف وازع الدين فى النفوس ، وكما قال المصلح الإسلامى جمال الدين الأفغانى :
(إن المسلمين ماتت عزائمهم ومات فيهم كل شىء إلا شهواتهم)
أيها المصلحون :

ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما

عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت فى يد الناس كالـ ياقوت حتى نوى الفقير الصياما
أصلحوا نفسا أضر بها الفقر وأحيا بموتها الآثاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
وتخال الرغيف فى البعد بدرا وتظن اللحوم صيدا حراما

النور

قال تعالى :

* ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

(١) الآية : ١٥٦ من سورة النساء .
(٢) الآية : ٢٧ من سورة مريم .
(٣) الآية : ٤٢ من سورة آل عمران .

زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

تفسير المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هاد أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله والمشكاة : لفظ حبشى معرب يراد به الكوة غير النافذة ، الزجاجة : القنديل من الزجاج ، والدرى : المضىء المتلألىء منسوب إلى الدر ، لاشرقية ولا غربية ، أى : ضاحية للشمس لايظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شىء من الشروق إلى الغروب . يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر ، أن ترفع : أى : أن تعظم وتطهر عن الأنجاس ، وعن اللغو من الأقوال ، يسبح : أى : ينزه ويقدس الغدو والغداة : أول النهار ، والأصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى : آخر النهار ، تلهيهم : أى : تشغلهم وتصرفهم ، وتجارة أى : نوع من هذه الصناعة ، ولابيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر ؛ لأنه أدخل فى الالهاء ، وإقامة الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ، وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين ، واليوم : يوم القيامة ، وتتقلب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع . السراب : مايرى

فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء والقيعة والقاع : المنبسط من الأرض ، والظمآن : شديد العطش لجى : أى ذى لج واللج بالضم معظم الماء ، والمراد بحر عميق الماء كثيره ، يغشاه : أى يغطيه ، لم يكد يراها : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .. يسبح : أى ينزه ويقدس صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل فى هذه السورة آيات مبينات لكل مايحتاج إليه الناس فى صلاح أحوالهم فى معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق ، بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التى أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته ، وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة ، ثم بين حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور ، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية ثم أردف ذلك ببيان حال أجدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون فى الآخرة فى أشد الخسران والبوار ، وفى الدنيا فى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلتا الحالتين مثلا يوضحهما أتم الإيضاح والبيان . ثم أعقب ذلك بذكر الأدلة التى تثبت فى جلاء ووضوح أنه الواحد الخالق البارىء المصور وأن تلك الكائنات طوع إرادته ، كل قد علم صلاته وتسبيحه وأن المصير إليه لا إلى غيره ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾[1] فهو المالك الملك المتصرف فى ملكه المدبر لشئون مملكته لاينقصه نائل ، ولايشغله سائل ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره .

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[2]

التفسير

قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس . والله بكل شىء عليم ﴾[3] قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه الله فى قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس . وأصله فى قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم يبصره من هو من جنسهم ، وإن كان سائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا .

(١) الأيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(٢) من الآية : ٢٥ من سورة الروم .
(٣) الآية : ٣٥ من سورة النور .

منهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفيء مرة أخرى ، إذ كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله ـ عز وجل ـ لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه وهى القلب . وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ، وهى الصفاء والرقة والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله ـ تعالى ـ ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، ولاتبطل صفة منه صفة أخرى ، ولاتعارضها بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[3]

وفى أثر القلوب آنية الله ـ تعالى ـ فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها » .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان على طرفى نقيض .

أحدهما : قلب حجرى قاس ، لارحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل جبار جاهل ، لاعلم له بالحق ولا رحمة فيه للخلق .

وبإزائه قلب ضعيف مائى لاقوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره . . وكل ماخالطه أثر فيه من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار فهذه مادة نور المصباح ، وكذلك مادة نور المصباح فى قلب المؤمن هى من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شيء .

فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه . حتى كاد أن يضيء بنفسه ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار فيه كان ذلك نورا على نور وهكذا المؤمن . قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لامادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله ـ تعالى ـ عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة . نور على نور . فيكاد ينطق بالحق ، وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت

---

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح

(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٧٣ سورة التوبة

به فطرته ، فيكون نورا على نور .

فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى وعن شهادة الفطرة ـ فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة فقد ذكر سبحانه وتعالى : نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلب عباده المؤمنين : النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمى ولا غيره ؛ لأن الحيوان إنما يكون حيث يكون النور ومواضع الظلمة التى لايشرق عليها نور لايعيش فيها حيوان ولا يكون البتة .

فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ميتة ولابد قلب فقدمنه هذا النور ميت ولابد لاحياة له البتة كما لاحياة للحيوان فى مكان لانور فيه .

قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾(١)

وقد فسر قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ بكونه منور السموات والأرض وهادى أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض ، وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين : إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول كقوله ـ عز وجل ـ ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾(٢) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبى ﷺ فى الدعاء المشهور (أعوذ بنور وجهك الكريم : أن تضلنى ، لاإله إلا أنت) وفى الأثر الآخر (اعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات)(٣) .

فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله كما أخبر تعالى : أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره وفى معجم الطبرانى والسنة له وكتاب عثمان بن سعيد الدارمى وغيرها : عن ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : (ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه)

وهذا الذى قاله ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض .

وأما من فسرها : بأنه منور السموات والأرض فلا تنافى بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها .

---

(١) الآية : ٣٥ من سورة النور .
(٢) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .
(٣) الحديث رواه محمد بن إسحاق فى السيرة : عن رسول الله ﷺ أنه قاله : فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف . هكذا أورده الحافظ ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ـ فى تفسير (سورة النور) ج ٦ ص ٦١

وفى صحيح مسلم وغيره من حديث ابى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : (قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : (إن الله لاينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماأنتهى إليه بصره من خلقه)[1] .

وفى صحيح مسلم عن ابى ذر - رضى الله عنه - قال : (سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : (نور أنى أراه ؟)[2] سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : معناه : كان ثم نور ، أو حال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه : ان فى بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك ؟ فقال : (رأيت نورا) .

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحصه بعضهم فقال : (نورانى أراه) على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة وهذا خطأ لفظا ومعنى .

وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ : أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه وكان قوله (أنى أراه) كالإنكار للرؤية حاروا فى الحديث ورده بعضهم بإضطراب لفظه .

وكل هذا عدول عن موجب الدليل .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى فى كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك :

وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف فى الحقيقة قال ابن عباس : لم يقل رآه بعينى رأسه ، وعليه اعتمد احمد فى إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رأى ربه - عز وجل - ولم يقل بعينى رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس - رضى الله عنه - .

ويدل على صحته : ماقال شيخنا فى معنى حديث ابى ذر - رضى الله عنه - قوله ﷺ فى الحديث الآخر (حجابه النور) فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور فى حديث أبى ذر - رضى الله عنه - (رأيت نورا)

قوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾[3] هذا مثل لنوره فى قلب عبده المؤمن كما قال ابى ابن كعب وغيره .

وقد اختلف فى مفسر الضمير فى (نوره) فقيل : هو النبى ﷺ أى : مثل نور محمد ﷺ وقيل : مفسره المؤمن أى : مثل نور المؤمن .

والصحيح : أنه يعود على الله - سبحانه وتعالى - والمعنى : مثل نور الله - سبحانه وتعالى - فى قلب عبده وأعظم عباده نصيبا من هذا النور : رسوله ﷺ فهذا مع ماتضمنه عود الضمير المذكور ، وهو وجه الكلام يتضمن التقارير الثلاثة ، وهو أتم لفظا ومعنى .

---

(١) الحديث اخرجه الإمام مسلم فى صحيحه : فى (كتاب الإيمان) باب : إن الله لاينام الخ ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ١٧٩ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم : فى (كتاب الإيمان) باب : فى قوله (عليه السلام) نور أنى أراه ، وفى قوله : رأيت نورا ، ج ١ ص ١٦١ رقم ١٧٨ .

(٣) من الآية : ٣٥ من سورة النور .

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد إذا هو محله وقابله فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة .

وقد تضمنت الآية : ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل فالفاعل : هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادى لنوره من يشاء .

والقابل : العبد المؤمن .

والمحل : قلبه والحامل : همته وعزيمته وإرادته .

والمادة : قوله وعمله .

وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعانى ، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره . ماتقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان :

إحداهما : طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذا وأسلم من التكلف ، وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به ، وعلى هذا عامة أمثال القرآن .

فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها ، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودا من زيت شجرة فى وسط القراح لاشرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس فى احد طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها ، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضىء من غير أن تمسه نار بهذا المجموع المركب ، هو مثل نور الله - تعالى - الذى وصفه فى قلب عبده المؤمن وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل فقيل : المشكاة صدر المؤمن .

والزجاجة : قلبه شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها ، وكذلك قلب المؤمن ، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه ، تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ماهى عليه ، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب مافيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد فى أمر الله ويتصلب فى ذات الله - تعالى - ويغلظ على أعداء الله - تعالى - ويقوم بالحق لله - تعالى - .

وقد جعل الله - تعالى - القلوب كالآنية كما قال بعض السلف :

(القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها) والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه ، والشجرة المباركة : هى شجرة الوحى المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهى مادة المصباح التى يتقد منها ، والنور على النور ، نور الفطرة الصحيحة . والإدراك الصحيح ونور الوحى والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورا على نور ، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع مافيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع فى قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحى ، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذى جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق لايتعارض عنده العقل والنقل بل يتصادقان ويتوافقان ، فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت فى قلبه أمواج الشبه الباطلة ،

والخيالات الفاسدة ، من الظنون والجهليات التى يسميها أهلها القواطع العقليات ، فهى فى صدره كما قال الله ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾[١] .

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق انتظمت طوائف بنى آدم أتم انتظام ، وأشتملت عليها أكمل اشتمال ، فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه ، وأن كل ماعارضه فشبهات يشتبه أمرها على من قل نصيبه من العقل والسمع ، فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به وهى :

﴿ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾[٢] .

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، وأصحاب العلم النافع والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول ﷺ فى أخباره ، ولم يعارضوه بالشبهات . وأطاعوه فى أوامره ، ولم يضيعوها بالشهوات . فلا هم فى عملهم من أهل الخوض الخراصين ﴿ **الذين هم فى غمرة ساهون** ﴾[٣] ولا هم فى عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون .

أضاء لهم نور الوحى المبين ، فرأوا فى نوره أهل الظلمات فى ظلمات آرائهم يعمهون وفى ضلالتهم يتهوكون ، وفى ريبهم يترددون مغترين بظاهر السراب منحلين مجدبين مما بعث الله به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب ، إن عندهم إلا نحاته الأفكار وزبالة الأذهان التى قد رضوا بها واطمأنوا إليها وقدموها على السنة والقرآن ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه** ﴾[٤] أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون فى آيات الله بغير سلطان .

القسم الثانى : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به رسول الله ﷺ والظلم لأنفسهم باتباع أهوائهم الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[٥] .

وهؤلاء قسمان :

أحدهما : الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال .

فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله ، ﴿ ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾[٦] .

فهم لاعتقادهم الشىء على خلاف ماهو عليه ، بمنزلة رائى السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذى يخون صاحبه أحوج ماهو إليه ، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء بل أنضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى ـ فحسب له ماعنده من العلم

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة النور

(٢) الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور

(٣) سورة الذاريات : الآية : ١١١

(٤) سورة غافر : من الآية : ٥٦

(٥) الآية : ٢٣ من سورة النجم .

(٦) سورة المجادلة : آية ١٨

والعمل ، فوفاه إياه عثاقيل الذر ، وقدم إلى ماعمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورا .
اذ لم يكن خالصا لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ وصارت تلك الشبهات الباطلة التى كان يظنها علوما نافعة كذلك هباء منثورا ، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه و (السراب) مايرى فى الفلاة المنبسطة ، من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى .

و (القيعة) والقاع : هو المنبسط من الأرض الذى لاجبل فيه ولا واد .

فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحى وأعماله : بسراب يراه المسافر فى شدة الحر فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارا تتلظى .

فهذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء ، وإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فنقلوهم إلى نار الجحيم . ﴿ **فسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم** ﴾[١]

وذلك الماء الذى سقوه هو تلك العلوم التى لاتنفع ؛ والأعمال التى كانت لغير الله ـ تعالى ـ صيرها الله تعالى حميا وسقاهم إياه ، كما أن طعامهم ﴿ **من ضريع لايسمن ولا يغنى من جوع** ﴾[٢] .

وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التى كانت فى الدنيا ، كذلك لاتسمن ولا تغنى من جوع .

وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[٣].

وهم الذين عنى الله بقوله : ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾

وهم الذين عنى بقوله تعالى ﴿ **كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار** ﴾ .

القسم الثانى من هذا الصنف : أصحاب الظلمات .

وهم المنغمسون فى الجهل بحيث قد أحاطت بهم جاهليتهم من كل وجه ، وهم لذلك بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا فهؤلاء أعمالهم التى يعملونها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور الله تعالى .

(فظلمات) جمع ظلمة : وهى ظلمة الجهل ، وظلمة الكفر ، وظلمة ظلم النفس بالتقليد وأتباع الهوى ، وظلمة الشك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق ، الذى بعث الله ـ تعالى ـ به رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ والنور الذى أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور .

فالمعرض عما بعث الله به عبده ورسوله محمدا ﷺ من الهدى ودين الحق . يتقلب فى خمس ظلمات : قوله ظلمة . وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى ظلمة ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم وإذا قابلت بصيرته الخفاشية مابعث الله به محمدا ﷺ من النور جد فى الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التى هى

---

(١) سورة محمد جزء الآية : ١٥
(٢) الآية : ٧ من سورة الغاشية .
(٣) الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

به أنسب كما قيل : -

خفافيش أغشاها النهار بضوئه ووافقتها قطع من الليل مظلم .

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونحاتة الأذهان جال وصال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع فإذا طلع نور الوحى وشمس الرسالة انجحر فى جحرة الحشرات .

قوله (فى بحر لجى) (اللجى) العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه .

قوله تعالى : ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ﴾[١]

تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه .

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل فى صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق بعض .

والضمير الأول فى قوله : ﴿ يغشاه ﴾ راجع إلى البحر والضمير الثانى فى قوله : ﴿ من فوقه ﴾ عائد إلى الموج .

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب .

فهناك ظلمات : ظلمة البحر اللجى ، وظلمة الموج الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله إذا أخرج من فى هذا البحر يده لم يكد يراها .

واختلف فى معنى ذلك .

فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها وهو أبلغ من نفيه الرؤية ، وأنه قد ينفى وقوع الشىء ولا ينفى مقاربته .

فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه

قال هؤلاء : (كاد) من أفعال المقاربة لها حكم سائر الأفعال فى النفى والإثبات ، فإذا قيل : كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل ، فإذا قيل : لم يكد يفعل فهو نفى لمقاربة الفعل .

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد ، وفى ذلك إثبات رؤيتها بعد أن عظم العسر لأجل تلك الظلمات .

قالوا : لأن (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال فإنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قلت :

ماكدت أصل إليك فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت : كاد زيد يقوم فهى نفى لقيامه . كما قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾[٢] ومنه قوله تعالى :

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾[٣] .

وأنشد بعضهم فى ذلك لغزا

أنحوى هذا العصر : ماهى لفظة جرت فى لسان جرهم وثمود

وإذا استعملت فى صورة النفى أثبتت فإن أثبتت قامت مقام جحود ؟

---

(١) من الآية : ٤٠ من سورة النور .

(٢) الآية : ١٩ من سورة الجن .

(٣) من الآية : ٥١ من سورة القلم .

وقالت فرقة ثالثة منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره :

إن استعمالها مثبتة ، يقتضى نفى خبرها كقولك :

كاد زيد يقوم ، واستعمالها منفية ، يقتضى نفيه بطريق الأولى ، فهى عنده تنفى الخبر سواء كانت منفية أو مثبتة فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده فى النفى من لم يقم ، واحتج بأنها إذا نفيت وهى من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل وهو أبلغ من نفيه وإذا استعملت مثبتة فهى تقتضى مقاربة اسمها لخبرها ، وذلك يدل على عدم وقوعه واعتذر عن مثل قوله تعالى : ﴿ فذبحوها وماكادوا يفعلون ﴾(١) وعن مثل قوله : وصلت إليك وماكدت أصل ، وسلمت وماكدت أسلم : بأن هذا وارد على كلامين متباينين أى : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقاربا له .

فالأول يقتضى وجود الفعل ، والثانى يقتضى أنه لم يكن مقاربا له ، بل كان آيسا منه ، فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة : إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها فإذا كانت فى الإثبات فهى لمقارنة الفعل سواء كانت بصفة الماضى أو المستقبل ، وإن كانت فى طرف النفى فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفى الفعل ، ومقاربته نحو قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ وان كانت بصيغة الماضى :

فهى تقتضى الإثبات نحو قوله : ﴿ فذبحوها وماكادوا يفعلون ﴾

فهذه أربعة طرق للنحاة فى هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضى المقاربة ، ولها حكم سائر الأفعال ونفى الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه ، وإنما أستفيد من لوازم معناها فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعا فيكون منفيا باللزوم .

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت فى كلام واحد فهى لنفى المقاربة .

كما إذا قلت : لايكاد البطال يفلح ، ولايكاد البخيل يسود ، ولايكاد الجبان يفرح ، ونحو ذلك .

وإن كانت فى كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد إن لم يكن مقاربا كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق فى أمرها .

والمقصود أن قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر ، فإذا كان لايقارب رؤيتها فكيف يراها ؟

قال ذو الرمة :

إذ غر النأى المحبين لم يكـد ... رسيس الهوى من حب فيه يبرح

أى : لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول ؟

فشبه سبحانه أعمالهم أولا : فى فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد ، فإذا جاءه وجد غيره عكس ماأمله ورجاه .

وشبهها ثانيا : فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة فى لجج البحر المتلاطم الأمواج الذى قد غشيه السحاب من فوقه .

---

(١) من الآية : ٧١ من سورة البقرة .

فياله تشبيها ماأبدعه وأشد مطابقتهلحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سبحانه ـ وتعالى ـ على خلاف مابعث به رسوله ﷺ وترك به كتابه وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولقلوبهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم ، فهى سراب لاحاصل لها ، وظلمات لانور فيها .

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التى تلقاها من مشكاة الكوة فإنها مثل الغيث الذى به حياة البلاد والعباد .

ومثل النور الذى به انتفاع أهل الدنيا والآخرة .

ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين فى القرآن فى غير موضع لأوليائه وأعدائه .

ذكر سبحانه للكافرين مثلين : مثلا بالسراب ، ومثلا بالظلمات المتراكمة ، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان :

أحدهما : من يظن أنه على شىء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ماكان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل ، وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين أنهم لم يكونوا على شىء ، وأن عقائدهم وأعمالهم التى ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى فى عين الناظر ماء ولاحقيقة له ، وهكذا الأعمال التى لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له ، وليست كذلك وهذه الأعمال التى قال ـ عز وجل ـ فيها : ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾[1] .

وتأمل جعل الله ـ سبحانه ـ السراب بالقيعة وهى الأرض القفراء الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم ، فجعل السراب أرض قفر لاشىء بها ، والسراب لاحقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التى أقفرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ماتحت قوله : ﴿ **يحسبه الظمآن ماء** ﴾ والظمآن : الذى قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ماكان إليه ، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ﷺ ولغير الله جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظمأ ماكانوا ، وأحوج ماكانوا إليها فلم يجدوا شيئا ، ووجدوا الله سبحانه ، فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم .

وفى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى حديث التجلى يوم القيامة (ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود : ماكنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم . ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم اشربوا فيتساقطون) وذكر الحديث .[2] .

وهذه حال كل صاحب باطل ، فإنه يخونه باطله أحوج ماكان إليه فإن الباطل لاحقيقة له ، وهو كاسمه باطل .

---

(١) الآية : ٢٣ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم : فى (كتاب الإيمان) باب : معرفة طريق الرؤيا

وأخرجه البخارى : فى (كتاب التوحيد) باب : فى قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولاحق ، كان متعلقه باطلا ، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله . أو على أمره بطل العمل ببطلان غايته ، وتضرر عامله من بطلانه ، وبحصول ضد ماكان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لاله ، ولا عليه ، بل صار معذبا بفوات نفعه ، وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى :

﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١)

فلهذا مثل الضال الذى يحسب أنه على هدى .

النوع الثانى :

أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي والهوى ، فحالهم كحال من كان فى بحر لجى لا ساحل له ، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم ، فهو فى ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ماهو فيه من الظلمات التى لم يخرجه الله منها إلى نور الايمان .

وهذان المثلان بالسراب الذى ظنه مادة الحياة وهو الماء ، والظلمات المضادة للنور . نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين ، وهما المثل المائى ، والمثل النارى ، وجعل حظ المؤمنين منهما : الحياة والإشراق ، وحظ المنافقين منهما : الظلمة المضادة للنور ، والموت المضاد للحياة .

فكذلك الكفار فى هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذى يغر الناظر ولا حقيقة له ، وحظهم الظلمات المتراكمة ، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار ، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحى ، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد ، ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار ، وأن أصحاب المثل الأول : هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة ، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف ، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأصحاب المثل الثانى : هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى ، وآثروا الباطل على الحق ، وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه ، بعد أن عرفوه ، فهذا حال المغضوب عليهم ، والأول حال الضالين ، وحال الطائفتين : مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين فى قوله تعالى : **﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - إلى قوله : - ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾**

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل النور ، والضالين وهم أصحاب السراب ، والمغضوب عليهم ، وهم أهل الظلمات المتراكمة : والله أعلم .

والمثل الثانى لأصحاب العلم الذى لاينفع ، والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ، ولهذا مثل حال الفريق الثانى فى تلاطم أمواج الشكوك والشبهات ، والعلوم الفاسدة فى قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وإنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم ، وهكذا أمواج الشكوك والشبهات فى قلوبهم المظلمة التى قد تراكمت عليها سحب الغى والهوى ، والباطل .

(١) من آية : ٣٩ من سورة النور .

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين ، وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك : أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم على الظلمة التى خلقوا فيها ، فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وفى المسند من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : (إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله)[١]

فالله سبحانه خلق الخلق فى ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحيى به قلبه وروحه كما يحيى بدنه بالروح التى ينفخها فيه .

فهما حياتان : حياة البدن بالروح ، وحياة الروح والقلب بالنور ، ولهذا سمى سبحانه الوحى روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، كما قال تعالى : **﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾**[٢] وقال : **﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾**[٣] وقال تعالى : **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾**[٤] .

فجعل وحيه روحا ونورا ، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ، ومن لم يجعل له نورا منه فهو فى الظلمات ، وماله من نور .

جزى الله العلامة ابن القيم عن الاسلام خيرا ، وعن القرآن خيرا ، وعن المسلمين خيرا ، والآن إلى قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ، ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾[٥] .

تفسير المفردات

يسبح : أى ينزه ويقدس . صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء . المصير : المرجع .

التفسير

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ﴾[٦]

أى : ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا ، فآنا ، فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع مافى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ، إذ كل المخلوقات فى وجودها وبقائها دالة

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـ مسند عبد الله بن عمرو ج ٢ ص ١٧٦

(٢) من الآية : ٢ من سورة النحل

(٣) سورة غافر : آية ١٥

(٤) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

(٥) الآيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة النور .

(٦) من الاية : ٤١ من سورة النور

على وجود خالق لها ، متصف بصفات الكمال . منزه عن صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة مافيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه ، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه .

ونسبوا له إتخاذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة مافى الأرض من قبل أنها غير مستقرة فيها ، ولاستقلالها ببديع الصنع وإنبائها عن كمال قدرة خالقها ، ولطف تدبير مبدعها ، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط ، والتحريك يمينا وشمالا ، حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وحكمة المبدى المعيد

﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ﴾(١) .

أى : كل مصل منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه لايخفى عليه شىء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها ، وعلمه محيط بها ومجازيهم عليها .

وقد يكون المعنى :

إن كل مصل ومسبح ، يعلم مايجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما ، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها .

أنظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها السداسية الأشكال التى لايتمكن من بنائها فطاحل المهندسين ، الا بدقيق الآلات ، وإلى العنكبوت كيف تفعل الجبل اللطيف لاصطياد الذباب ، وإلى الدب يستلقى فى ممر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ، ولايزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه ، ثم يفترسه .

﴿ ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾(٢) أى أن لله تعالى : ملك السموات والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، وإليه وحده مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته واجتهدوا فى طاعته ، وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال .

من آيات الله فى الكون

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(١) من الآية : ٤١ من سورة النور
(٢) الآية : ٤٢ من سورة النور

لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

تفسير المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة

يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه .

ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض .

الودق : المطر

من خلاله : أى من فتوقه التى حدثت بالتراكم واحدها خلل كجبال وجبل من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال .

السنا : الضوء

يذهب بالأبصار : أى يخطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾[1] .

يقلب الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر ذاك ، حتى يعتدلا ويغير أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار .

أى لأهل العقول والبصائر .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ﴾

للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نذكر منها ماذكره الشيخ المراغى فى تفسيره حيث قال : أنظر أيها الرسول الكريم إلى السحاب يسوقه الله بقدرته أولماينشئه ، ثم يجمع بين ماتفرق من أجزائه ، ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينا ينزل منه قطع كبيرة من البرد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فيناله الخير والنفع العميم ، أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، ويصرفه عمن يشاء أن يصرفه ، وإلى مافى السحاب من برق يضىء بشدة وسرعة حتى ليكاد يخطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة إذ فيه توليد الضد من الضد ففيه توليد النار من الماء .

---

(١) من الآية : ٢٠ من سورة البقرة .

« كلمة العلم »

جاء فى كتاب « الاسلام فى عصر العلم » لمؤلفه الأستاذ/ محمد أحمد الغمراوى مانصه : « من أعجب الآيات الكونية فى القرآن آية فى سورة النور جاء فيها لفظ الجبال ، لا على التعريف ، كما فيما عداها من الآيات التى ذكرت فيها الجبال بلفظها ، ولكن على التنكير تعجيبا منها وتنبيها إلى دلالتها تلك هى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾[1] .

وأكثر المفسرين ـ فيما ذكر أبو حيان فى « البحر » ـ قد فهموا من قوله تعالى : ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد** ﴾ أى فى السماء جبال من برد ، كما فى الأرض جبال من حجر ، وإلى هذا ذهب أبو حيان أيضا كما يدل عليه قوله : عند تفسير الآية والظاهر أن فى السماء جبالا من برد وأن المراد بالسماء الجسم الأزرق المخصوص ، وهو المتبادر للذهن .

حتى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ أجاز هذا التفسير إذ يقول : فى تفسيره الكبير (روح المعانى) (وعن مجاهد والكلبى وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة ، وبالجبال حقيقتها ـ قالوا : إن الله تعالى : خلق فى السماء جبالا من برد كما خلق فى الأرض جبالا من حجر . . وليس فى العقل ماينفيه من قاطع .

فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل : مع أنه رحمه الله كان قبل ذلك قد قال فى تفسيره (من جبال) : أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم على التشبيه البليغ ، وفسر السماء بالسحاب ، وجاء بنكتة فى هذه التسمية إذ عللها بالإيماء إلى « أن للسمو والارتفاع ـ مدخلا » فيما ينزل أى : فى تكوين البرد وتنزيله ، وهو تعليل صحيح وتفسير أقرب كثيرا إلى الصحة من ذلك التفسير الذى نقله هو وأبو حيان عن مجاهد ، وأكثر المفسرين ، والذى يحول دون صحته ماثبت فى العلم الحديث من أن السماء الزرقاء شىء ، وسماء الكواكب شىء آخر .

فالسماء الزرقاء معنا فى جو أرضنا إذ لولا غلاف الأرض الهوائى لبدت السماء سوداء ، كما بدت بالفعل لرجال الفضاء حين علت بهم سفنهم فوق الغلاف بغباره ، وبخار مائه ، ودخلت بهم الطبقة الشديدة التخلخل من هوائه ، وهم لم يبلغوا فى أقصى ارتفاع لهم فى جو الأرض ، إلا بضع مئات من الكيلومترات ، فى حين أن متوسط ارتفاع القمر ـ وهو أقرب كوكب سماوى إلى الأرض ـ أكبر من ذلك نحو ألف مرة ، ومتوسط ارتفاع أقرب سيارة إلى الأرض وهو الزهرة أكبر من ارتفاع القمر أكثر من مائة مرة

أما إرتفاع أقرب نجم ، المسمى بالأقرب القنطورى ، فهو أكبر من أن يقاس بملايين الكيلومترات ولذا قاسوه بسرعة الضوء البالغة ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ، فوجدوه على بعد يقطعه الضوء فى نحو أربع سنين .

فشتان ثم شتان بين السماء الزرقاء والسماء ذات الكواكب والنجوم ، وشتان أيضا بين أقصى

---

(٢) الآية : ٤٣ من سورة النور .

ارتفاع يبلغه سحاب وأقصى ارتفاع لطبقات الهواء ، فهذا قدر ذاك على الأقل عشر مرات .

أما وقد تبين فى ضوء حقائق العلم الحديث أن السماء المعروفة ، سواء أكانت الزرقاء أم ذات الكواكب ، لايمكن أن تكون من معانى السماء فى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[1] . فلنحاول أن نتبين المعانى التى يمكن أن تتحملها الآية الكريمة فى حدود ماعليه اللغة من ناحية وماتمليه حقائق العلم من ناحية أخرى .

إن السماء فى اللغة من معانيها : السحاب والمطر أو المطرة الجيدة ، كما ذكر (القاموس) ، والحرف (من) يكون لابتداء الغاية ، أو للتبعيض ، أو للبيان . والجبال من أظهر صفاتها العظم والرسوخ ، لكن السحاب مهما تراكم ليس شىء منه براسخ ولا باق ، والبرد مهما تجمع قبل نزوله أقل بقاء من السحاب وإذن فلفظ (جبال) فى الآية لايحتمل إلا معنى العظم على وجه التشبيه البليغ للسحاب الركام ، أو البرد المستجمع فى السحاب قبل النزول ، أو كليهما فإذا كانت السماء فى الآية الكريمة معناها : المطر أو المطرة الجيدة وكلاهما صالح واقع حسب الظروف ، كانت (من) الأولى للتبعيض و(من) الثانية لابتداء الغاية . . ويكون معنى (من جبال) من سحاب كالجبال فى العظم ويكون (فيها من برد) وصفا للسحاب . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أنه سبحانه ينزل نوعا أو أنواعا من المطر من سحاب فيه السحابة كالجبل فى العظم ، فيها نوع أو أنواع من البرد . والتنوع دل عليه التنكير .

هذا الوجه من تفسير الآية الكريمة لم يتناوله أحد من المفسرين ظنا منهم فيما يبدو أن المطر قد سبق ذكره فى قوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ لكن هناك فرق بين المطرين فالودق من خلال السحاب الركام : ماء لا برد معه ، يكون فى ظروف لاتسمح بتكوين البرد ، فهى من حيث درجة البرودة أخف ومن حيث عظم السحاب الركام أقل من أن يشبه سحابها بالجبال ذلك التشبيه البليغ الذى شبه به سحاب المطر الذى يكون معه البرد إلى فروق أخرى لابد منها حتى يكون البرد فى ذلك السحاب والبرد الذى يكون مع المطر يعرف فى علم الأرصاد الجوية بالبرد المبتل ، أى بالبرد بله ماء المطر تمييزا له من البرد الجاف الذى ينزل لامطر معه فى الأقطار الباردة على الأخص .

هذا البرد الجاف هو الذى تدل عليه الآية إذا كانت (السماء) فيها بمعنى السحاب المرتفع كما نبه الألوسى وإذن تكون (من) الأولى لابتداء الغاية و (من) الثانية للبيان بيان عظم السحاب - على البدل والتشبيه البليغ ويكون (فيها من برد) وصفا لجبال ويكون مفعول (وينزل) محذوفا ، دل عليه (من برد) ليذهب الفكر فى تصوره كل مذهب فيكون فى الآية على هذا إيجاز بالحذف ويكون معناها أن الله سبحانه ينزل من السحاب البالغ العظم حتى كأنه جبال ، والذى فيه من البرد أنواع ، بردا متنوعا فى الشكل والوزن والتركيب .

لكن إذا أخذت (من) فى قوله تعالى : ﴿ من جبال ﴾ على التبعيض كان الضمير فى (فيها) راجعا إلى السماء بمعنى السحاب المرتفع وكانت (من) فى (من برد) للبيان وكان مفعول (وينزل) هو (من جبال) أى : وينزل بعض جبال من برد ، فالمشبه بالجبال فى العظم هو مجموع البرد وما يتخلله فى

---

(١) من الآية : ٤٣ من سورة النور

السحاب قبل نزوله وكون النازل من البرد إلى الأرض بعض ذلك المجموع المشبه بالجبال يدل من ناحية على عظم مقدار البرد النازل ، ومن ناحية أخرى على عظم مقدار مايتبقى منه فى السحاب لأن حياته لم تبلغ إحداها فى النمو الحد الذى تكون معه أثقل من أن تحمله التيارات الهوائية أو القوى الكهربائية ، أو كلتاهما فى السحاب ، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[1] أنه سبحانه ينزل من السحاب مقادير عظيمة من برد متنوع فى شكله وثقله وتركيبه - ينزلها من مقادير أعظم منها تبلغ جملتها فى العظم مبلغ الجبال فكيف بالسحاب التى يحتويها ؟

هذه كلها معان كل منها آية من آيات القدرة الإلهية وظاهرة من ظواهر الفطرة المتعلقة بالبرد فى السحاب ، جمعها الله لعباده فى ثمانى كلمات من آية واحدة من كتابه العزيز إذا تأملها المتأمل بقدر من الدقة ، فى حدود معانى كلمتين منها فى اللغة هما (السماء) و (من) ودلالة التنكير فى كلمتين أخريين هما (جبال) و (برد) وماأظننا استنفدنا كل مايمكن أن يستنبط من الكلمات الثمانى من حقائق كشف عنها العلم الحديث ، والكلمات الثمانى تقع قريبا فى وسط الآية ٤٣ من سورة النور .

وفى طرفى الآية الكريمة تنبيه إلى مزيد من عجيب الحقائق التى كشف عنها العلم فى العصر الحديث ، لكننا قبل أن ننتقل إلى الطرفين نتأملهما نرى توكيداً للمعانى السابقة أن نورد بعض أمثلة توضيحا لها . ولن يتسع المجال إلا لأقلها .

إن البرد آية فى تركيبه وتنوع حياته وطريقة تكوينه فجثته طبقات تتكون حول نواة جمدية أو ثلجية . (الجمد هو الماء المتجمد كتلا المسمى عند الناس ثلجا ، والثلج بخار متجمد متجمع والجليد الماء الرقيق المتجمد على سطح الأرض) .

والطبقات تتوالى بين جليدية وثلجية وتختلف فى سمكها حسب الظروف حين تتقاذفها التيارات الهوائية والقوى الكهربائية والجاذبية الأرضية من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، ومن جنب إلى جنب ، حتى إذا نمت وكبرت إلى الثقل الكافى لتغليب قوى الجاذبية الأرضية تساقط الحب بردا ، يكون فى الغالب نقمة ، تختلف فى المقدار والمدى باختلاف حب البرد فى الحجم والوزن وأتساع منطقة السقوط .

وقد أورد العالم الروسى (ن . كوليوف) فى فصل البرد من كتابه الممتع (محيطنا الجوى) ثلاث عشرة صورة لمقاطع ثلاث عشرة حبة بردية كلها مختلفة فى الشكل والسعة والتركيب الطبقى ، وقد ذكر أن الحبة فى العاصفة البردية فى الأيام الحارة من العام قد تبلغ حجم بيضة الحمامة أو بيضة الدجاجة ، أو قبضة اليد ، بل كان من بين برد عاصف أصابت الهند فى مايو سنة ١٩٢٩ حبات وزن الواحدة كيلو جرام ، وقطرها ثلاثة عشر سنتيمترا ، وهى أكبر ماعرف فى علم الإرصاد الجوية . وذكر أن سرعة التيار الهوائى العمودى يجب أن تكون عشرة أمتار فى الثانية - أى ٣٦ كيلو مترا فى الساعة - كى يحمل التيار البرد الذى ثخانته سنتيمتر ، وثلاثة أمثال هذه السرعة كى يحمل ما ثخانته عشرة سنتيمترات وأن التيار لايثبت طبعا على سرعة واحدة بل تتعاور سرعته الزيادة والنقصان فاذا زادت صعد التيار بالبرد ، و إذا نقصت نزل الثقل بالبرد فإذا زادت صعد وهكذا دواليك وفى كل مرة يتكاثف على البرد ما يتكاثف حتى

---
(١) من الآية : ٤٣ من سورة النور .

يبلغ من الحجم والثقل مايبلغ .

وذكر أيضا أن سحب البرد دائما ثقال جدا ، وأن الرصد قد سجل حتى فى المناطق المعتدلة سحابة برد بلغ سمكها عشرة كيلو مترات ، وأن منطقة البرد فى سحابته محدودة فإذا حملت الريح السحابة ونزل البرد فإن منطقة نزوله قل أن تزيد سعتها عن خمسة عشر كيلو مترا ، وإن عرف منها ما بلغ فى الطول ٤٠٠ كيلو متر أو يزيد .

وقد ذكر أيضا أن تاريخ الأرصاد قد سجل عاصفة بردية أصابت فرنسا فى ١٨ يوليو سنة ١٧٨٨ مرت عليها بسرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة وكان ممرها منقسما إلى ثلاث مناطق متوازية ، الوسطى منها لم يصبها البرد ولكن أصابها مطر شديد وكان عرضها نحو عشرين كيلو مترا . أما الأخريان اللتان مطرتا بردا فأولاهما كان طولها ٧٣٠ كيلو مترا ومتوسط عرضها خمسة عشر كيلو مترا ، وأخراهما كان طولها ٨٤٠ كيلو مترا وعرضها نحو ثمانية كيلو مترات .

وقد قدر البرد الذى نزل تقديرا تقريبيا بما يشغل أربعة ملايين مترا مكعبا . وقدرت الخسائر الناجمة عنه بعشرات الملايين من الفرنكات . وهذاالوصف يوضح قوله تعالى : ﴿ **فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء** ﴾ كما يوضح أيضا ذلك القدر الهائل للبرد الذى نزل ، وحجم تلك السحابة البردية التى سجلها الرصد قبل ـ وكان ارتفاعها عشرة كيلو مترات ـ يوضح هذان معنى الجبلية فى قوله تعالى : ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد** ﴾ . ويزيد المعنى توضيحا وعلى الأخص مغزى الجمع فى قوله تعالى : ﴿ **من جبال** ﴾ قول العالم الروسي فى وصف السحابة البردية « إنها تتميز بلون قاعدتها الرمادى وانقسامها إلى رقاع ، وأن قمتها تبدو كجبل له نتوءات كالتلال صفراء ، غير منتظمة ـ وجبال السحابة ـ تعد كلمة (جبال) هنا ترجمة حرفية ـ هذه الجبال تبدو إذا أشرف عليها من أعلى كأنها مغطاة بملاءات من سحب متشعبة ككتل الصوف »

أما بعد فعلى كل عاقل أن يسأل نفسه من الذى أبدع تلك الكائنات ، ومن الذى دبر أمر هذا الملك . الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم . ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماءماء فأنبتنا فيها من كلزوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** . ﴾[٢] وتلك آية أخرى ناطقة بلسان الحال والمقال تصيح أن للكون إلها . ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[٣] .

---

(١) الأيتان : ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .
(٢) الآية : ٤٤ من سورة النور .
(٣) الآيات : من ٧١ ـ ٧٣ من سورة القصص .

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا — فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
يامن يحار الفهم فى قدرتك — وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا طلعتك — وكل مافى الكون من صنعتك

أنظر أخى بعين عقلك إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ؛ إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لايشبهه شىء .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ **يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار** ﴾ أخرجه البخارى ومسلم .[1]

* القرآن والعلم والكون *

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك أنا مخلوق للواحد الديان .

الشمس والبدر من أنوار حكمته — والبرد والبحر فيض من عطاياه
الوحش مجده والطير سبحه — والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه — والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم — والعبد ينسى وربى ليس ينساه

﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[2] وجل جلاله الله إذ يقول :

﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾[3] .

انظر إلى الشمس التى — جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها — حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها — فى الجو مثل الشررة

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : فى كتاب التفسير (سورة الجاثية) ج ٦ ص ١٦٦
وأخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها) باب : النهى عن سب الدهر ج ٤ ص ١٧٨٢ مع نقص بعض ألفاظه (وهى بيدى الأمر)
(٢) الآية : ٢٧ من سورة فصلت .
(٣) الآيات : ٣٧ - ٤٠ من سورة يس .

ذاك هـو الله الـذى أنـعـمـه مـنـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة وقـدرة مـقـتـدرة
انـظـر إلى الـلـيـل فـمـن أوجـد فـيـه قـمـره
وزانـه بـأنـجـم كـالـدرر المـنـتـشـرة
ذاك هـو الـذى أنـعـمـه مـنـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة وقـدرة مـقـتـدرة

قال صاحب كتاب (الاسلام فى عصر العلم) : -
لننظر فى الآية ٣٨ من سورة يس ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾فالفعل (تجرى) ينطبق فى أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب . وهو فى حرفيته يعبر عن حركة حقيقية أثبتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه مخصوص فى فضاء الله هو الجهة التى فيها النجم المسمى (فيجا) فى الأفرنجية و (النسر الواقع) فى العربية . والفعل يدل ، ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ، ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة إذ الجرى طبعا أدل على السرعة من المشى أو السير . ولو كانت الشمس غير ذات حركة فى الواقع وكان الفعل (تجرى) معبرا فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لانفتح للملحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول إن جملة (والشمس تجرى) هى من عند إنسان يصف مايرى ، أما وقد ثبت للشمس جرى حقيقى فى الفضاء متعين المقدار والاتجاه بعد نحو اثنى عشر قرنا من عصر القرآن ، فالجملة القرآنية هى من عند خالق الشمس آية للناس على أن القرآن من عند الله .

أما الشطر الثانى من الآية الكريمة وهو (لمستقر لها) فمن الواضح أن هذا المستقر الذى ينتهى إليه جرى الشمس أمر من أمور الغيب التى لايعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ينتهى إلى غايته فى الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيما يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة ، إن لم يكن هو وقت قيامها .

وتنكير المستقر فى قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ يشير إلى عظم شأنه وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير فى قوله تعالى :﴿ وأمطرنا عليهم مطرا ﴾ فى قصص قوم لوط . والقرينة على هذه الدلالة فى إحدى الآيتين تختلف عنها فى الأخرى لاختلاف المقام فى كل ، كما يدل عليه السياق . فالمقام فى آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل فكانت القرينة قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وقوله : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[١] .

أما المقام فى آية (يس) فهو مقام تحذير إجمالى من تكذيب الرسل وتنبيه تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته ، وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة اللغوية قوله تعالى : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ والاشارة فى (ذلك) هى طبعا لكون

---

(١) الآية : ١٧٣ من سورة الشعراء .

الشمس تجرى لمستقر ، أى للجرى وغايته معا ، لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن (الفخر الرازى) شمول التقدير للأمرين جميعا إذ جعل اسم الاشارة راجعا إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال كما تراه فى موضعه من تفسيره .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيقى فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى مايتفق وجرى الشمس الظاهرى ، وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وترددها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لاتتعداهما بحال . فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر ، فى الشتاء مرة وفى الصيف مرة أخرى ، هذا هو خير ماقاله الأكثرون ؛ ولولا تنكير (مستقر) ماأستقام لهم هذا ، لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين ، تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر . وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال : إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجىء يوم القيامة ، فتبطل حركتها وتستقر .

وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس والراجع اختلاف المشارق والمغارب فيها إلى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ودورانها حول الشمس مرة فى العام ، فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة التى أثبتها العلم للشمس وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا أن القرآن من عند الله حقا وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولاتكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة بالصورة التى رئيت هنا ، قد بينت صنوفا من الإعجاز فى آية سورة (يس) لايكاد الإنسان يقضى حقها عجبا : آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين (والشمس تجرى) معجزة كبرى علمية وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ، ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس ؛ حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف ـ من عرف هذا السر أهتدى به ، وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف اهتدى بموافقة الآية للحركة التى ترى . .

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس ، ماموقف القرآن منهما ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟ . . إن هذا التساؤل ليس فيه افتئات كما قد يظن بعض من يخشى أن تحمل أى القرآن ما لاتحتمل ، بل هو تساؤل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبأ بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن آية أخرى للناس تهدى إلى الله وتشهد للقرآن مرة أخرى ، أنه حقا من عند الله . فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم

قرونا بعد نزول القرآن وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لاحراك بها إذ ليس للأرض حركة محسوسة فى الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب التى فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذى خطأه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفى الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فعلا فى القرآن ، ففيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة لا صريح العبارة ، مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها ، وعدم إحساس الناس بها .

فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ، ومن الإعجاز البلاغى فى الأسلوب أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته سبحانه فى حركة الأرض حول محورها ، وفى حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين منا عليهم بها ، وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس عن آياته فيها ، لما تعودوا وألفوا منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ، ومواطن الحكمة ، ومواضع العبرة ، فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله فى كتابه العزيز بالليل وبالصبح وبالضحى وبالنهار أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ، ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة الأرض فى كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون فى ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة : على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذى أودع فى المقسم به . فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة ﴿ **والليل إذ أدبر** ﴾ ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله : ﴿ **والليل إذا عسعس** ﴾[1] لأن الفعل معناه أقبل ظلامه أو أدبر ووصفه بالسرى فى سورة الفجر ﴿ **والليل إذا يسر** ﴾[2] وكلها أوصاف تقتضى الحركة وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لاتفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل (أى المدابر) للشمس وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء القريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن أنهما لم يوصفا بإقبال ولا إدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد . إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشىء عن سلوك الضوء ضوء الشمس فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض وولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف ، إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص ، وبالانكسار أيضا حتى يعم النهار .

ولولا الغلاف الهوائى ماكان هناك فجر ولا صبح ، ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ،

---

(١) الآية : ١٧ من سورة التكوير
(٢) الآية : ٤ من سورة الفجر .

ولاشفق فى آخر النهار بعد غروبها ، فليس شىء من ذلك بكائن على القمر مثلا بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشىء عن صغر كتلته مع سرعة حركة الجزئيات فى أى غاز . من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر فى سورة المدثر . بعد القسم ﴿ **بالليل إذ أدبر** ﴾ وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس فى ﴿ **والنهار إذا جلاها** ﴾[1] وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة فى نهاره الطويل طول نصف شهر عندنا كما هو الحال فى نهارنا أيضا إذا علونا بالغلاف الجوى ، بهوائه وسحبه ، كما استنتجه العلماء من أن الضوء لايرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء حين دارت بهم القميرات الصناعية حول الارض أعلى من غلافها الجوى .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وتجاوزنا غلافها الهوائى هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل ، قد دل عليها القرآن المجيد صراحة فى كلمتين هما : (وأغطش ليلها) فى قوله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾[2] .

فالضمير فى (ليلها) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لا ليل الأرض . ومع ذلك فقد فات المفسرين دلالة هذه الإضافة وهم معذورون إذ صرفوها إلى مايعرفون من هذا الليل وجعلوها من المجاز ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ، ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدا عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لايدرى معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا تجاوزنا القسم وإشارته واستزدنا من الدلالة على الحركة اليومية فى القرآن وجدناها فى قوله تعالى ﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا** ﴾[3] .

فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار ؛ لأن التعبير يحتملها كما يقول الزمخشرى : وإذن فهو يشملهما إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى الخالق لا الآخر لجاء التعبير القرآنى نصا فى ذلك لايحتمل غيره لأنه كلام الخالق سبحانه الذى لايجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصد ، وإذن فكل من الليل والنهار : يطلب الآخر طلبا حثيثا بإذن الله كى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر ، كما تفيده صيغة المضارعة فى الفعلين مع الحالية فى الفعل الثانى .

فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالا محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالا محله من الطرف الآخر فى كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها ، أو حول محورها أمام الشمس ، نتيجة لذلك الدوران الذى يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير فى قوله تعالى : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ فإنه راجع إلى لفظ الجلالة فى أول الآية الكريمة فى سورة الأعراف .

ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصا صريحا فى قوله : ﴿ **يكور الليل على**

---

(١) الآية : ٣ من سورة الشمس .

(٢) الآيات : من ٢٧ - ٢٩ من سورة النازعات .

(٣) من الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .

النهار ويكور النهار على الليل ﴾[١] (والتكوير) اللف واللى ، يقال كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشرى فى تفسيره : إلا أنه جعل يلتمس لذلك معنى مجازيا . . لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين لقرون بعيدة ، من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محورى حقيقى للأرض ، التى هى محل الليل . ويلف النهار على الليل بلى حقيقى بأشعة ضوء الشمس فى غلاف الأرض الهوائى الذى تملؤه الظلمة وهى تدور .

وفى الفعل (تكور) المكرر مرتين فى الآية : معجزة علمية أخرى إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذى يشغله ، ويتعاوره الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض . وفى هذا غناء عن الاستشهاد على كروية الأرض بكلمة (دحاها) فى (والأرض بعد ذلك دحاها ـ النازعات ٣٠)

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة فى القرآن على الحركة اليومية للأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله فى قوله : **﴿ ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾** ـ يس ـ ٤٠ ـ ومعنى الكلمات الأربع الأولى : ظاهر فيما تقدم فلا محل للاشكال الذى ذكره (الفخر الرازى) أما الشاهد فهو فى الكلمات الأربع الأخرى **﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾** وقد جاءت فى إثر الأربع الأولى كما ترى ، فهل تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين فى مفتتح الآية الكريمة **﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾** ـ يس ٤٠ ـ فالليل والنهار يسبحان فى فلك ، لكل فلك يدور فيه ، ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذى يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففى القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل ، إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها فى الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما فى الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة ، وذلك فى مثل قوله تعالى : **﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾** ـ فاطر ١٣ ـ وقوله : **﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾** ـ لقمان ٢٩ ـ وقوله : **﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾** ـ الحج ٦١ ـ وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية ، وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى ، والسر هو فى تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين (كيبلر) لدوران السيارات حول الشمس ، ولقانون الجاذبية العامة التى كشفها وكشف قانونها (نيوتن) .

أما الدلالة الثانية فهى أهم ، لأنها إشارة تكاد تكون فى صراحة ، عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية ، وتلك هى دلالة قوله تعالى : **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾** ـ النمل ٨٨ .

والسحاب كما هو معروف لايتحرك بذاته ولكن ينتقل محمولا على الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها وهى تمر مسرعة محمولة أيضا ، وليس لها حامل إلا الأرض ، فالأرض

---

(١) من الآية : ٥ من سورة الزمر .

إذن هى المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين من صنع الله الذى أتقن كل شىء . فالاستنتاج فى الواقع قريب غير بعيد . ييسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل ، أو ينبغى أن يدل ، الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة للجبال من آيات الله ومن المنافع لعباده مايشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ماأثبته العلم للأرض من حركة حول الشمس ، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما ، لايومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة ومايستلزمه قوله تعالى : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ ـ النمل ٨٨ ـ **من أن الظاهرة التى لفت الله إليها الإنسان فى قوله** : ﴿ **وترى الجبال . .** ﴾ هى ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه ، وماينافى ماسماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة ، أو بين يدى يوم القيامة ، من نسف الجبال نسفا ، إلى آخر مانطقت به الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها .

و (الزمخشرى) وحده هو الذى أدرك بذوقه البيانى عدم التلاؤم بين قوله تعالى : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ وبين ماسيحل بالجبال بين يدى الساعة ، فقدر محذوفا يليق فى رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال : « والمعنى يوم ينفخ فى الصور ، وكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين » ثم قال : « (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة » وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، إلى آخر ماقال مما رفضه غيره مثل أبى حيان فى تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشرى فى الاعتزال .

ولو عرف الزمخشرى وأبو حيان مانعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، ومايحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة ومايترتب عليها من المنافع للناس ، إذن لكبروا الله وتسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ، ومن تشبيهها التمثيلى ، ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، ولفهموا الخطاب فى ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** ﴾ ـ النمل ٨٨ ـ على أنه خطاب للإنسان ، الآن وفى كل عصر آت ، يدل على آية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله ، كما دله فى الآية التى قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدى إلى الله ، أو من شأنها أن تهدى إليه سبحانه ، وهى قوله : ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[1] والسياق ودلالته ينبغى على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية :

﴿ **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين** ﴾[2] فى موضعها بين الآيتين تشهد لمن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

---

(١) الآية : ٨٦ من سورة النمل .

(٢) الآية : ٨٧ من سورة النمل .

وبعد فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية : ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾ إلى ظاهرة تنشأ من إحدى حركتى الأرض وأن تشير آية : ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** ﴾ إلى الحركة الأخرى ، تلك الإشارة الواضحة العجيبة . ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث ، لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذى لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله فى حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التى أقسم الله بها تنبيها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ **فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس** ﴾ ـ التكوير ـ ١٥ ، ١٦

وللقرآن الكريم فى كل من ميدانية الخاص والعام أسلوبه الحكيم للدلالة على مايريد أن يدل عليه من أسرار الفطنة ليكون كل سر فيها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن .

ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل لايصدم البديهى المسلم به عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذا يسر الله سبيل الكشف لأولى العلم فى مستقبل العصور . وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لاتنقضى . ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما ، أو يدل عليها أولى العلم ، ثم لايصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان مايعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة ـ هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية أو فى دلالة أولى العلم عليها ، أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس .

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ـ يس ٣٨ ـ وهى مسبوقه بقوله : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ فكلمة (الشمس) فى الآية إما أن تكون معطوفة على (الليل) فى الآية قبلها ويكون المعنى ﴿ **وآية لهم الشمس تجرى لمستقر لها** ﴾ ، وتكون جملة ﴿ **تجرى لمستقر لها** ﴾ كجملة ﴿ **نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ فى الآية قبلها تباينا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس . وإما أن تكون كلمة الشمس مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره ﴿ **تجرى لمستقر لها** ﴾ .

وفى هذه الحالة يكون كونها آية الله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ، ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية فيها : هى أن الشمس تجرى . وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها .

وقد سيقت القضيتان ليكون فى كل منهما ، أو فى مجموعهما ، هاد إلى الله ، ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لاتجب العبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه . .

فأنظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى ، كيف إنطبقت على البديهى المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الشمالى ، وفى نصفها الجنوبى ، من قطب إلى قطب ، لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر ، وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم ، بما فسرت أو فسر ، مما خطأه علم الفلك الحديث ، إذ أثبت أن حركة

الشمس فى الظاهر حول الأرض ـ كما هو معروف ـ هى حركة نسبية راجعة فى الحقيقة إلى حركة الأرض حول محور لها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة فى اليوم . ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبتت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من دلالتها بهذا الذى أثبته العلم ؟ إن الذى جد بما أثبته العلم هو إنتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار ، واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة فى حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر كونية متكررة فى اليوم وفى العام ، تنطق بذاتها وبعظمها وبإنتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة ، يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، فلابد لها من موجد قدير حكيم قدر ، ودبر ، ولايزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الإله الحق سبحانه ، ولاينتقص من هذه الدلالة شيئا أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث . بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم الحديث .

لكن هناك سؤالا آخر لايقل أهمية عن السؤال السابق ، لأنه يتعلق بالصدق كما يتعلق ذلك بالدلالة ، فهل فقدت الآية شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ـ فصلت ٤١ ، ٤٢ ـ فمستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط ، لا فى تكويناته ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو إشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة ، والمؤمن بها ، الذى يحاذر أن يقفو ماليس له به علم ، ليس له فى الإجابة عن السؤال إلا الجزم بأن آية سورة (يس) لايمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم . .

وليس لها فى تفهمها إلا طريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لابد له فى الكلام من قرينة تبرره ، وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد ، وليس فى الآية الكريمة ولا فيما قبلها أو بعدها فى موضعها من سورة (يس) مايدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله : ﴿ والشمس تجرى ﴾ مستعملة فى غير ما وضعت له . أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة للشمس من باب إطلاق المسبب على السبب ، فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآية على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لامجازا .

وهنا نتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب ، فقد أثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها ، أى من حيث المقدار والإتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا فى الثانية تقريبا ، وأما الاتجاه فهو نحو النجم المسمى (فيجا) فى الإنجليزية والنسر الواقع فى العربية ، أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى فى الفضاء بسرعة اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع .

﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[1] فأنت ترى الآن فى قوله سبحانه

---

(١) الآية : ٣٨ من سورة (يس)

﴿ والشمس تجرى ﴾ معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال ، حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، لم يكشف عنها إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد وأدوات التحليل الضوئى ومن المقدرة على تفسير النتائج التى توصل إليها عن طريقها ، ماأدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم ، كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى فى ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعى فى دورته حول الأرض !!

لقد فتن الناس أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية ، التى ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا فى ذلك ماوهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل . إذ هى إنما تدور طوعا لسنن الله فى الحركة من ناحية ، وفى الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون فى هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى فى الصناعة والعلم ، ولايكون فى الشمس وجريها فى الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم ، سبحانه الذى خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها فى الفضاء ؟

ثم كيف لايكون فى إخبار القرآن بجرى الشمس هذا ، قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة مايكشفه له ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها فى غفلة عن جريها وجهل به ؟ كيف لايكون فى هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذى فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ .

فأنظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ماينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ إذا انبعثت الدقة من تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بألا يعدل فى تفهم الآيات القرآنية الكونية عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام . صحيح أن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا .

لكن هذا لاينقص شيئا من العبرة التى ينبغى استخلاصها ، ألا وهى وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة فى تفهم آى الذكر الحكيم فى ضوء المعروف من الحق ، والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعة فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق .

ثم تأمل بالغ حكمة الله فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ماعلم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم الله سبحانه ـ أن سوف تمر قبل أن يستطيع أولو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيقى ، حتى إذا كشفوه وحققوا صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد ، أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى . إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية ،

والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ، فإن الجرى لايمكن الا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر ، وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوها أى السيارات . مركوزة فى أفلاك كرية شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنة لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ماليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية الكواكب أو السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ وقوله : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ إذ لاقرينة فى الرأى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز .

ذلك من آيات الله

قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير ﴾(١) .

هذا هو رابع الأدلة على التوحيد فقد استدل بأحوال السماء والأرض ، وبالآثار العلوية ، وهنا استدل بأحوال الحيوان فقال :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين مايتركب منه من المواد ، لظهور إحتياج الحيوان إليه ، ولاسيما بعد كمال تركيبه ، ولامتزاج الأجزاء الترابية به .

ثم فصل أجزاء الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ كالحيات والسمك وغيرها من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ كالإنسان والطير .

﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه مايمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ، لدخوله فى قوله :

﴿ يخلق الله مايشاء ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر ، مع الاختلاف فى الصور والأعضاء ، والحركات والطبائع ، والقوى والأفاعيل .

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى : أن الله على احداث ذلك وخلقه وخلق مايشاء من الأشياء ـ لذو قدرة فلا يتعذر عليه شىء أراده .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمال والأخلاق ـ لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم ، مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا

(١) الآية : ٤٥ من سورة النور .

فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أنه هو المنزل للآيات المبينات والأدلة الواضحات الناطقة بنعوت الجلال والجمال والكمال ، فهو صاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، وقد جاءت هذه الآية : بعد بيان الآيات الكونية المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، ومن قبل ذلك أخبر سبحانه أنه منزل الآيات التنزيلية .

وهكذا تعانق الآيات الكونية الآيات التنزيلية ، فالكل من عنده جل جلاله وكل من الآيات : نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى ... حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا ... لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه ... تمحو أثيم الشك والانكار

من قبائح القوم

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

(١) الآية : ٤٦ من سورة النور .

* تفسير المفردات *

يتولى : أى يعرض .
مذعنين : أى منقادين .
مرض : أى فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال .
ارتابوا : أى شكوا فى نبوتك .
يحيف : أى يجور .
الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم .
يخشى الله : أى فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى .
يتقه : أى فيما بقى من عمره .
جهد أيمانهم : أى أقصى غايتها من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها .
تولوا : أى تتولوا (بحذف إحدى التاءين)

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتم بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، فيقولون :

آمنا بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد مايقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا مادعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ، ثم بين بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها ، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الإيمان أنهم مطيعون للرسول فى كل مايأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعا ، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لاتحتاج إلى يمين وبأن يقوله لهم : أطيعوا الله حقا لارياء ، فإن أبيتم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتمونى اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ماكلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودى فلم يرض المنافق لقضائه ـ عليه السلام ـ فقال نتحاكم إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ ، فلما ذهبا إليه قال له اليهودى : قضى لى النبى ﷺ فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل ـ رضى الله عنه ـ بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ .

* التفسير *

النفاق مرض إجتماعى خطير والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على الأمة فى السراء ، وسوس ينخر عظامها فى الضراء إنهم الآكلون على كل الموائد .

قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ● اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ● ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ● وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ● وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ● سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[١]

وكم من شخص يلقاك عناقا ويقسم إنه لايطيق لك فراقا ، ملاك فى مظهره ، شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى لهب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ● وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ● وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٢] .

فدع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ... إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقـاك يقسم إنـه بـك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

كان المسيح ـ عليه السلام ـ يقول : (يابنى إسرائيل لاتأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ؛ ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) .

وقد جاء فى الحديث القدسى الجليل : (لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران فبى يغترون ؟ أم على يجترئون)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وماأولئك بالمؤمنين ● وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ● وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ● أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ● إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ● ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[٤] .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن حال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ؛ ولكنهم فى الحقيقة كاذبون يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قال تعالى : ﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ والمنافقون لاتفرز قلوبهم إلا الكذب والخداع كما تفرز الكبد الصفراء ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى

---

(١) سورة المنافقون ، الايات : ١ ـ ٦
(٢) سورة البقرة الآيات : من ٢٠٤ ـ ٢٠٦
(٣) الحديث فى الأحاديث القدسية فى (ماجاء فى الإخلاص فى العمل وذم الرياء ، وترك النهى عن المنكر) ج ٢ ص ٢٩٣ برقم ٢٩٣ ط بيروت
(٤) سورة النور الآيات : ٤٧ ـ ٥٢

الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ● أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾(١) .

ثم قال سبحانه : ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾

أى إن كان الحكم لهم وفى جانبهم جاءوا مذعنين طائعين لماذا يفعلون هذا فى قلوبهم مرض وشبهة ، أم إرتابوا فى رسالتك وعدالتك أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، تنزه الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وتنزه رسوله عن الحيف والظلم والجور ، بل أولئك هم الظالمون روى بن أبى حاتم بسنده عن الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبى ﷺ وهو محق أذعن - وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان : فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبى ﷺ (من كان بينه وبين أخيه شىء فدعى إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لاحق له)(٣) .

ثم أخبر تعالى : عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لايبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى سمعا وطاعة .

ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقيبا بدويا أحد نقباء الأنصار : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، والا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

قال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولاخير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يقول : عروة الإسلام شهادة ألا لاإله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

---

(١) سورة النساء آيات : ٦٠ - ٦٣

(٢) سورة النساء آية : ٦٥

(٣) هذا الحديث ورد فى تفسير ابن كثير تفسير سورة النور آية : ٥٠ ص ٨١ طبعة الشعب . وقال : هذا حديث غريب وهو مرسل .

وقوله : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك مانهياه عنه ، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل . وقوله ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير وآمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون ● قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾[١] .

يخبر سبحانه وتعالى : عن بعض صفاتهم التى عرفوا بها ، فقد بلغت بهم الجرأة أنهم يحلفون ويكذبون ، كما قال سبحانه : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله** ﴾[٢] وكما قال : ﴿ **يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين** ﴾[٣] .

إن كذب هؤلاء سيمتد بهم حتى بعد البعث(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون لهم كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ● إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . لقد أقسموا بأغلظ الأيمان ، وحلفوا جهد طاقتهم ؛ لئن أمرتهم يامحمد بالخروج جهادا فى سبيل الله ليخرجن ، والله يعلم إنه لكاذبون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ● لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة). قل لهم يامحمد لاتقسموا فطاعتكم معروفة لدى الجميع لأنها طاعة مكذوبة مراوغة مخادعة ، ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ● لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون** ﴾[٤] .

وجاء فى قوله تعالى : ﴿ **طاعة معروفة** ﴾ مامعناه أى إن طاعة المؤمنين معروفة بعدم الحلف فلا داعى للحلف والقسم ، لأن الله مطلع على مافى القلوب عليم بذات الصدور وخبير بما تعملون لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

الله يدرى كل ماتضمر يعلم ماتخفى وماتظهر
وإن خدعت الناس لن تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

قل لهم يامحمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن استجابوا لطاعة الله ورسوله فقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وإن تلوا وتعرضوا فإنما عليه ماحمل أى : إبلاغ الرسالة ، وآداء الأمانة ، ﴿ **وعليكم ماحملتم** ﴾ أى : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ **صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض** ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾

---

(١) سورة النور الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة المنافقون . آية : ٢
(٣) سورة التوبة ، آية : ٩٦ .
(٤) سورة الحشر الآيتان : ١١ ، ١٢
(٥) سورة الشورى ، آية : ٥٣ .

كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[١] وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ● لست عليهم بمسيطر ﴾[٢] .

قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل - يقال له : شعياء - : أن قم فى بنى إسرائيل فإنى سأطلق لسانك بوحى ، فقام فقال : ياسماء اسمعى ، وياأرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأنا ويدبر أمرا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقراء ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على العقب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيرا ونذيرا ، لايقول الخنا ، أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به الرسل[٣] . رواه ابن أبى حاتم .

الوعد الحق

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٢) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ، ٢٢
* الخنا : الفحش فى القول .
(٣) أخرجه القاضى عياض فى الشفاء : عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ١/١٥ . وأورده ابن كثير فى تفسير سورة النور ط الشعب ج ٦ ص ٨٣ .

* المناسبة واجمال المعنى *

بعد أن بين أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم ، أردف ذلك وعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ، ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو آمنا فيعبدون الله وحده ، وهم آمنون ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك ، فقد عصى ربه وكفر أنعمه ، وبعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ، ويجعل لهم من بعد الخوف آمنا - أردف ذلك أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، شكرا له على ماأنعم به عليهم ، وإحسانا إلى عباده البائسين الفقراء ، كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة ، وضعفهم قوة ، ثم أعقبه برفع أستبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد عدوهم وعددهم ، وبعدئذ ذكر أن مآلهم إلى النار وبئس القرار .

* التفسير *

حقائق التاريخ تثبت ، ووقائع الأيام تؤكد ، وأحداث الليالى تشهد بأن الله جلت قدرته ، قد صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وفى تلك الآية الكريمة وعد صادق لرسول الله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنا ، وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى : ذلك وله الحمد والمنة .

فإنه - ﷺ - لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والأسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصبحمة - رحمه الله وأكرمه - ثم لما مات الرسول - ﷺ - وأختار الله له ماعنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلم شعث ماوهى بعد موته - ﷺ ووطأ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة - رضى الله عنه - ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص - رضى الله عنه - إلى أرض مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله - عز وجل - واختار له ماعنده من الكرامة ، ومن على أهل الاسلام بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قياما تاما ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله ، وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله - عليه من ربه أتم سلام ، وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ماهنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق ،

وخراسان ، والاهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها)[1] فها نحن أولاء نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا ؟ قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : عن ابن أبى عمر ، بسنده عن جابر بن سمرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لايزال أمر الناس ماضيا ماوليهم اثنا عشر رجلا) ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : (كلهم من قريش) . ورواه البخارى .

وفى رواية لمسلم : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر[2] . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لابد من وجود أثنى عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر ، فان كثيرا من أولئك لم يكن من الأمر شىء . فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يولون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لايشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على - رضى الله عنهم - ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم ماشاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدى الذى اسمه يطابق إسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما ، وقد روى الإمام أحمد عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضا)[3]

وقال الربيع بن أنس : عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾[4] قال : كان النبى - ﷺ - وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لاشريك له سرا وهم خائفون ، لايؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال . فكانوا بها خائفين يمسون فى السلام ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ماشاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يارسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ . أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ (لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محبيا ليست فيه حديدة) . وأنزل الله

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفتن) باب : هلاك هذه الأمة بعضهم لبعض : ج ٨ ص ١٧١

(٢) رواه مسلم فى : (كتاب الإمارة) باب : الناس تبع لقريش ج ٦ ص ٣ .
ورواه البخارى فى : (كتاب الأحكام) باب : الاستخلاف : ج ٩ ص ١٠١ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسنده : ٥/ ٢٢٠ - ٢٢١ وفى سنن أبى داود فى (كتاب السنة) باب : فى الخلفاء ج ٤/ ٢١١ وفى تحفة الأحوذى أبواب الفتن ، باب : ماجاء فى الخلافة ، رقم ٢٣٢٦ : ج ٦ ص ٤٧٦ ص ٤٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه غير واحد عن سعيد بن جمهان .

(٤) من الآية : ٥٥ من سورة النور .

هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فآمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله تعالى قبض نبيه - ﷺ فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا ، فغير بهم[١] . وقال بعض السلف خلافة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - حق فى كتاب الله - ثم تلا هذه الآية . وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن فى خوف شديد . وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض - إلى قوله - لعلكم تشكرون** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ كما قال تعالى : عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم** ﴾ كما قال رسول الله - ﷺ - لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : (أتعرف الحيرة ؟) قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : (فو الذى نفسى بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز) قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد) . قال عدى بن حاتم . فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جواز أحد ، ولقد كنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها[٥] . وقال الامام أحمد بسنده عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ (بشر هذه الأمة بالسنا والرقعة ، والدين والنصر ، والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب)[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **يعبدوننى لايشركون بى شيئا** ﴾ . قال الامام احمد بسنده عن أنس : أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبى ﷺ على حمار ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل ، قال : (يامعاذ) . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ثم قال : (يامعاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : (يامعاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : (هل تدرى ماحق الله على العباد ؟) قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : (يا معاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : (فهل تدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال (فإن حق العباد على الله الا يعذبهم) أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة .[٧] .

---

(١) الدر المنثور ، عن عبد بن حميد وابن أبى حاتم : ج ٥ ص٥٥ .
(٢) سورة الأنفال : آية : ٢٦
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٥
(٥) أخرجه البخارى ، (كتاب المناقب) باب : علامات النبوة فى الإسلام : ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفاتحة . الحديث ٤٠٢٩ : ٨/ ٢٨٦ - ٢٨٩ ومسند الإمام أحمد : ٤/ ٢٥٧ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/ ١٣٤ .
(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٥/ ٢٤٢
وأخرجه البخارى فى (كتاب اللباس) باب : إرداف الرجل خلف الرجل : ٢١٨/٧ . ومسلم ، فى (كتاب الإيمان) باب : من لقى الله بالإيمان الخ : ١/ ٤٣ .

قوله تعالى : ﴿ **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أى فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما فالصحابة رضى الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا فى سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم فى بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ولكن قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة ـ وفى رواية حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ـ وفى رواية ـ حتى تقاتلوا الدجال ـ وفى رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون) وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير** ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهى الاحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين وراءه فيما به أمرهم وترك ما عنه زجرهم لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **أولئك سيرحمهم الله** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ (لا تحسبن) أى لا تظن يامحمد ان (الذين كفروا أى خالفوك وكذبوك (معجزين فى الأرض) أى لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومأواهم** ﴾ **أى فى الدار الآخرة (النار ولبئس المصير) أى لبئس المآل مآل الكافرين وبئس القرار وبئس المهاد .**

الاستئذان وأحكام أخرى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

---

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٧١

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

معانى المفردات

ما ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والاماء أى الذكران والاناث . الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ ، إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم (بفتح اللام) . تضعون : أى تخلعون . الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار والعورات : أى الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية ـ القواعد : واحدها قاعد وهى العجوز ـ لا يرجون نكاحا أى لا يطمعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها .

الحرج لغة : الضيق ، ويراد به فى الدين الاثم . ما ملكتم مفاتحه : أى ما كان تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على الواحد والجمع كالخليط والعدو . جميعا : أى مجتمعين ـ أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

التفسير

كان الاستئذان فى قوله تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ كان هذا استئذان الأجانب على غيرهم . أما الاستئذان هنا فى قوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ فإن المراد به استئذان الأقارب من خدم وملك يمين وأطفال لم يبلغوا الحلم . فإن الآية الكريمة حددت لهم ثلاثة أوقات يستأذنون فيها : أول هذه الأوقات : من قبل صلاة الفجر . وثانيها : حين تضعون ثيابكم من الظهيرة . وثالثها : من بعد صلاة العشاء . وسماها القرآن : (ثلاث عورات) لأن الناس فيها قد يتخففون من ثيابهم طلبا للنوم والراحة . فعلى ملك اليمين والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أن يستئذنوا فى الدخول على المالك والقريب ماداموا فى هذه الأوقات .

١ ـ روى أن سبب نزول الآية (أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج ، وكان عمر نائما ، فدق عليه الباب ودخل ، فاستيقظ وجلس ، فانكشف منه شىء ، فقال : لوددت أن الله تعالى نهى أبناءنا وآباءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن . فانطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد نزلت فخر ساجدا) . وهذا أحد موافقات رأية الصائب رضى الله عنه للوحى .

٢ ـ وقيل إن السبب ما روى من أن أسماء بنت أبى مُرْشد دخل عليها غلام كبير لها فى وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ الآية . وقوله فى النساء . ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾[1] الآية . وقوله فى الحجرات : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

٣ ـ وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمُه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من

---

١ ـ هذا الحديث أورده القرطبى فى تفسيره ١٢ / ٤ ـ ٣ بهذا اللفظ .

وبمراجعة كتب الحديث لم أجده الا فى أسباب النزول للواحدى بلفظ : قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال يارسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

راجع أسباب النزول للواحدى / ٢٤٨ تصوير ط : عالم الكتب بيروت على طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ

٢ ـ وقال قائل : نزلت فى أسماء بنت مرشد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فأنزل الله هذه الآية (أسباب النزول للواحدى/ ٢٤٨) .

واخرج ابن ابى حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن جابر بن عبدالله حدث عن أسماء بنت مرشد كانت فى مخدعها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما فى أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء : ما أقبح هذا ؟ فأنزل الله فى ذلك (وقل للمؤمنات . .) الآية (أسباب النزول للسيوطى / ١٢٧

ـ هذا الحديث : رواه ابو داود وابن المنذر وابن ابى حاتم واللفظ له وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما وراجع الدر المنثور ٥/ ٥٦ ، قال ابن كثير بعد عزوه لابن ابى حاتم وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس تفسير ابن كثير ٦/ ٩٠ ط الشعب .

والحديث رواه ابو داود عن ابن عباس (راجع عون المعبود شرح سنن ابى داود ١٤ / ٨٦ ـ ٩٧ كتاب الأدب ، باب فى الاستئذان فى العورات الثلاث ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ)

الاستئذان الذى أمروا به . وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ . الجناح هو الاثم . والمعنى ليس عليكم إثم إذا مكنتموهم من الدخول عليكم فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، وليس عليهم إثم كذلك إذا دخلوا بدون استئذان فى غير هذه العورات ، فإنهم طوافون عليكم أى يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم فلا غنى لهم من الدخول عليكم ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم . ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى ﷺ قال فى الهرة : (إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم أو الطوافات) .

وكما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم . فأنتم كذلك تطوفون عليهم لطلب الخدمة منهم ، ولقضاء حوائجكم . ومثل ذلك البيان الذى سبق ، يبين لكم الله الآيات والأحكام هنا ، فإنه تعالى العليم بأحوالكم ، الحكيم المنزه عن العبث ، الذى يضع الأمور فى نصابها ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) ، فى هذه الآية يبين الله تعالى حكم الأطفال إذا بلغوا الحلم . ولذلك علامات بدنية معروفة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول فى كل الأوقات سواء فى الأوقات الثلاثة أو فى غيرها ، كما استأذن الذين من قبلهم (أى الكبار من الأقارب) وذلك بخلاف ملك اليمين من العبيد والاماء ، فإن حكمهم ثابت لا يتغير فى الاستئذان فى أوقات العورة . ومثل ما بين الله تعالى من الأحكام يبين هنا ، فهو العليم الحكيم ، الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . حكيم منزه عن اللغو والعبث .

قوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ . المراد (بالقواعد من النساء) هن العجائز اللاتى قعدن عن الولد ويئسن من المحيض ، ولا يطمعن فى الزواج . رفع الله تعالى عنهن الحرج إذا تخففن من بعض الثياب كالجلباب الذى يلبس فوق الملابس ، بحيث لا يظهرن الزينة الداخلية ، وبشرط أن تظل محتفظة بخمارها الصفيق . قال تعالى : ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ ثم رغبهن الله جلت حكمته ـ فى الاحتفاظ بالعفة ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، إذ قد لا تؤمن الفتنة ، وكما قال أحدهم :

لكل ساقطة فى الحى لاقطة وكل كاسدة يوما لها سوق

والله سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم ، فاحذروا عقوبته ، واجتنبوا مخالفته فالسعيد هو التقى :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ : للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نبينها فيما يلى :

● قال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال إنها نزلت فى الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى فى سورة الفتح ، وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ـ إلى قوله ـ أن لا يجدوا ما ينفقون)[١] .

● وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم .

١ ـ وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية . قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته ، أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .[٢] .

٢ ـ قال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله ﷺ غازيا وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .[٣]

٣ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه أن المراد من الحرج المنفى فى الآية الحرج فى الأكل : ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾[٤] تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام . فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

---

(١) سورة التوبة (الآيتان ٩١ ، ٩٢

(٢) هذا الحديث اخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ١٨/ ١٢٩ /عن مجاهد بلفظ : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض والأعرج إلى بيت أبيه أو إلى بيت أخيه أو عمه أو خاله أو خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .
واخرجه ايضا عبد الرزاق وابن ابى شيبة وابراهيم وعبد الله حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم والبيهقى عنه ايضا (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٨) والواحدى فى أسباب النزول ص ٢٤٩ .

(٣) هذا الحديث رواه الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج الحارث غازيا مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن زيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت (راجع الدر المنثوره ٥ / ٥٨) .

(٤) سورة البقرة اية ١٨٨

(٥) هذا الحديث رواه الواحدى فى أسباب النزل ٢٤٨ ـ ٢٤٩ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله تبارك وتعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والمريض لا يستوفى الطعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وكما رفع الله تعالى الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، رفع الحرج كذلك عن عباده أن يأكلوا فى بيوتهم . وإنما نص عليه مع أنه معلوم أنه لا حرج على الانسان أن يأكل من بيت نفسه ، نص على ذلك ليعطف عليه غيره ويدخل فى بيت الانسان بيت ابنه . لقوله ﷺ : (أنت ومالك لأبيك) وقوله (إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه)[1]

كذلك لا حرج على العباد أن يأكلوا فى تلك البيوت : بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، ومن ملك المفاتيح والأصدقاء والمراد بقوله تعالى ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وما يشبه فلا جرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شىء منها . وقال سعيد بن جبير والسدى : هو خادم الرجل ، فلا يأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

٤ ـ وقال الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون فى النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل . إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم . وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ أى بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقال ابن زيد : هذا شىء قد انقطع ، إنما كان فى أوّله ولم يكن لهم ستور أبواب ، أو كانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، وربما وجد الطعام وهو جائع . فسُوِّغ له أن يأكل منه ، ثم قال : ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء ، وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

---

(١) حديث : أنت ومالك لأبيك رواه ـ والذى بعده رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله أن رجلا قال يارسول الله : ان لى مالا وولدا ، وإن أبى يريد أن يجتاح مالى فقال : أنت ومالك لأبيك ـ قال السندى : وفى الزوائد اسناده صحيح ورجاله ثقات على شروط البخارى ـ سنن ابن ماجه ٢ / ٤٤ أبواب التجارة ، باب ما للرجل من مال ولده ـ الطبعة الاولى) ورواه أحمد فى مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (المسند ٢ / ٤ ـ ٢)

وفى رواية لاحمد عنه : أنت ومالك لوالدك ، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا (المسند ٢/ ١٧٩) .

وفى رواية عنه : ان أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم (المسند ٢ / ٢١٤) وورواه ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : أن أطيب ما أكلتم من كسبكم وان اولادكم من كسبكم (سنن ابن ماجه ٢ /٤٣ ـ ٤٤)

(٢) عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تإكلوا ما أحببتم ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا ، إنهم آذنوا عن غير طيب نفس ، فإنزل الله عز وجل (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج . . إلى قوله أو ما ملكتم مفاتحه . (رواه البزار وقال : لا نعلم رواه عن الزهرى إلا صالح أ هـ (راجع كشف الاسنار ٣ / ٦١ / ٦٢ رقم ٢٢٤١ قال السيوطى فى أسباب النزول ص ١٢٩ (أخرجه البزار بسند صحيح) .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ : قيل فى سبب نزولها ما روى عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لما أنزل الله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم ﴾ وكانوا أيضا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون به غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) : أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين[١] .

٤ ـ روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت فى بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تحرّجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين . . وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفا يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الابل الحُفّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحدا أكل[٢] ،وفى مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمس له أكيلا فإنى لستُ آكله وحدى

وفى الحديث : (شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رِفْدَه) وإنما ذمَّ هذا لأنه بخل بالقِرى .

١ ـ روى الامام أحمد بسنده عن وحش بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبى ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : (لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه)[٣] .

٢ ـ وروى ابن ماجه أيضا بسنده عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (كلوا جميعا ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

٣ ـ قال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس قال : أوصانى النبى ﷺ بخمس خصال قال (يأنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت ـ يعنى بيتك ـ فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك يأنس أرحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة)[٥] .

(١) تقدم تخريجه فى الصفحة قبل السابقة برقم / ٣
(٢) « روح المعانى للألوسى ١٨/ ٢٢١ »
(٣) (رواه احمد وأبو داود وابن ماجه) المسند ٣ / ١ ـ ٥ وعون المعبود ـ ١ / ٢٣٨ كتاب الأطعمة باب فى الاجتماع على الطعام ، سنن ابن ماجه الطبعة الاولى ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ كتاب الأطعمة ، باب الاجتماع على الطعام)
(٤) سنن ابن ماجة ٢ / ٣٠٨ كتاب الاطعمة باب الاجتماع على الطعام .
(٥)(تفسير ابن كثير ٦ / ٩٥ ط الشعب) وأخرجه ايضا : ابن عدى والبيهقى فى شعب الايمان عن أنس ايضا ـ (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٩ ـ ٦٠)

ولما كان المسلمون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، صاروا كأن كل واحد منهم نفس الآخر ، لذا جاء التعبير القرآنى (فسلموا على أنفسكم) لأن غيرك نفسك إذ وشيجة الاسلام وآصرته أقوى من وشيجة الدم والعرق .

٤ ـ قال ابن جريج : أخبرنى أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، قال ما رأيته إلا يوجبه)(١) .

٥ ـ وقال مجاهد (إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)(٢) .

٦ ـ وروى الثورى عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك وحدثنا أن الملائكة ترد عليه)(٣) .

قوله تعالى : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة) أى حيوا تحية ثابتة من عند الله فيها البركة لأهل البيت ، كما أنها تطيب نفوسهم . ومثل ذلك التفصيل والبيان يوضح الله لكم الأحكام لتعقلوا وتفهموا . ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ليتدبر الآيات وتكون له زادا ونورا فى حياته .

المؤمنون والرسول

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ١٨ / ١٣٢ .

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ٦٨ / ١٣٢ عن الأعمش عن إبراهيم فى قوله (إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت بيتك فقل السلام عليكم .

(٣) (تفسير ابن كثير ٦ / ٩٤ ـ ٩٥ ط الشعب) .

عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

أمر جامع : أى خطب جَلَل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور فى حادث قد عرض . والتسلل : الخروج من البيت تدريجا وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر ، يقال لاذ فلان بكذا ، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وإمتحان فى الدنيا . عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجع فى الآخرة .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان عند الدخول ، بين هنا أن من كمال إيمانهم أن يستأذنوا عند الخروج إذا كانوا على أمر جامع ، أى خطب جسيم ، كإعلان الحرب والقتال ، كما أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم ويستغفر الله لهم . كما أدبهم فى نداء رسول الله ، بألا ينادوه باسمه إنما ينادونه بـ « يأيها النبى » و « يأيها الرسول » وحذرهم من سوء العاقبة إذا خالفوا أمره . وختم سبحانه السورة بإثبات ملكيته للسموات والأرض وإحاطة علمه بكل شيء .

التفسير

بين الله حقيقة المؤمنين الكاملين بأنهم الذين آمنوا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . ومن كمال إيمانهم أنهم إذا كانوا مع قائد المسلمين الأعظم على أمر جامع وشأن خطير ، لم يذهبوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله** ﴾ .

ثم أرشد رسوله ومصطفاه فقال : (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) وهذه إشارة كريمة فيها التنويه بمكانة رسول الله عند ربه فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله لما سوف يفوتهم من الخير عندما يفارقونك ، فإن فى استغفارك لهم رحمة بهم ، إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم .

قوله تعالى : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**) : أى لا تسموه إذا دعوتموه يامحمد ولا تقولوا ياابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يانبى الله يارسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم فى قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال أمرهم ان يشرفوه هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا**)[1] إلى آخر الآية وقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ إلى قوله ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾[2] . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة

١ ـ سورة البقرة الآية رقم ١٠٤
٢ ـ سورة الحجرات الآيات ٢ ـ ٥

النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما امروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .
والقول الثانى فى ذلك ان المعنى فى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تعتقدوا ان دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا ان يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن ابى حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله اعلم .
وقد نادى الله تعالى فى القرآن الانبياء بأسمائهم قال : ﴿ ويآادم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[١] ﴿ يانوح اهبط بسلام منا ﴾[٢] (ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾[٣] (ياموسى إنى أنا ربك ﴾[٤] (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾[٥] (يازكريا إنا نبشرك بغلام)[٦] (يايحيى خذ الكتاب بقوة)[٧] (ياعيسى إنى متوفيك)[٨]
فإذا أراد أن ينادى رسوله ومصطفاه ، قال له : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ﴾[٩] ﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾[١٠].
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد العقلاء ياخير الورى يامن اتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا وطلعت فى الاكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله وما برا بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ فى هذا النص أقوال لأئمة التفسير بيانها كالتالى : ـ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ، ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل ان يخرج من المسجد ، إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة بعد ما يأخذ فى الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبى ﷺ فيأذن له من غير ان يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ﷺ يخطب ، بطلت جمعته . وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم .
وقال قتادة فى قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ يعنى : لواذا عن نبى الله وعن كتابه .
وقال سفيان : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال من الصف .
وقال مجاهد فى الآية : ﴿ لواذاً ﴾ خلافا .
وقوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أى عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان ، كما ثبت فى الصحيحين.وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال :

---

(١) سورة الاعراف الآية رقم ١٩
(٢) سورة هود الآية رقم ٤٨
(٣) سورة الصافات الاية رقم ١٠٤ ، ١٠٥
(٤) سورة طه الآية رقم ١١ ، ١٢
(٥) سورة ص الآية رقم ٢٦
(٦) سورة مريم الآية رقم ٧
(٧) سورة مريم الآية رقم ١٢
(٨) سورة آل عمران الآية رقم ٥٥
(٩) سورة الاحزاب الآية رقم ٤٥
(١٠) سورة المائدة الآية رقم ٦٧

١ - (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) اى فليحذر وليخف من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا (أن تصيبهم فتنة) أى فى قلوبهم من كفر ، أو نفاق ، أو بدعة . (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الدنيا بقتل ، أوحد ، أو حبس ، أو نحو ذلك ،

٢ - (كما روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ ـ أنه قال : (مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائى يقعن فى النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها) أخرجاه من حديث عبد الرزاق[١] .

قوله تعالى : ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) ألا أداة استفتاح (إن لله ما فى السموات والأرض) فهو المالك لهما المدبر لشئونهما (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[٣] .

وهكذا يقترن الملك بالعلم إذ يلزم ان يكون المالك عالما بشئون ما يملك فما بالك إذا كان المالك .

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .

(هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾

قد هنا للتحقيق إذ العلم الألهى أمر ثابت وحقيقى كما فى قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾[٥] وقال تعالى : (قد سمع الله قول التى تجادلك) (٦)

وقال : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[٧]

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ رواه البخارى معلقا فى كتاب الاعتصام/ ث (فتح البارى ١٧/ ٨٢ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ . .) ، وفى كتاب البيوع / ٦٠ (فتح البارى ٥ / ٢٥٩ باب النجش) ورواه مسلم موصولا عن عائشة رضى الله عنها (صحيح مسلم ١٢ / ١٦ كتاب الأقضية ، نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور) ورواه احمد فى مسنده عنها رضى الله عنها (المسند ٦ / ١٤٦)

(٢) البخارى فتح البارى ١٤ / ٩٩ ـ ١٠١ كتاب الرفاق مسلم ١٥/ ٤٩ كتاب الفضائل احمد ٢/ ٢٤٤ / ٣١٢ / ٣ / ٣٦١ ، ٣٩٢

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٥

(٤) سورة الحشر الآيتان رقم ٢٢ ـ ٢٤

(٥) سورة الاحزاب الآية رقم ١٨

(٦) سورة المجادلة الآية رقم ١ .

(٧) سورة الانعام الآية رقم ٣٣ .

وقال : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾[1] .

فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتا : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أى هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم . إلى قوله : - إنه هو السميع العليم)[2] وقوله : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين)[3] .

وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)[4] . أى هو شهيد على عباده ، بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون)[5] .

وقال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[7] وقال : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)[8] وقوله : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ ينبئهم بما عملوا ﴾ أى يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير .

كما قال تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)[9] . وقال : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[10] . ولهذا قال ههنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم ﴾ .

سورة الفرقان

مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق وعدد آياتها سبع وسبعون وكلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وثلاثون

مقصود السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة :

(١) المنة بإنزال القرآن ومنشور رسالة سيد ولد عدنان

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٤٤ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٧ - ٢٢٠
(٣) سورة يونس الآية رقم ٦١ .
(٤) سورة الرعد الآية رقم ٣٣ .
(٥) سورة هود الآية رقم ٥
(٦) سورة الرعد الآية رقم ١٠
(٧) سورة هود الاية رقم ٦ .
(٨) سورة الانعام الآية رقم ٥٩
(٩) سورة القيامة الآية رقم ١٣
(١٠) سورة الكهف الآية رقم ٤٩

(٢) تنزيه الحق تعالى من الولد والشريك وذم الأوثان
(٣) الشكاية من المشركين بطعنهم فى المرسلين بأكل الطعام بأخس مكان
(٤) استدعائهم محالات المعجزات من الانبياء كل أوان .
(٥) ذل المشركين فى العذاب والهوان .
(٦) عز المؤمنين فى ثوابهم بفراديس الجنان .
(٧) خطاب الحق مع الملائكة فى القيامة تهديدا لأهل الكفر والطغيان .
(٨) بشارة الملائكة للمجرمين بالعقوبة فى النيران وبطلان أعمال الكفار يوم الميزان .
(٩) الاخبار بمقر المؤمنين فى درجات الجنان .
(١٠) انشقاق السموات بحكم الهول وسياسة العبدان
(١١) الاخبار عن ندامة الظالمين يوم الهيبة ونطق الأركان
(١٢) ذكر الترتيب والترتيل فى نزول القرآن
(١٣) حكاية حال القرون الماضية
(١٤) تمثيل الكفار بالأنعام أخس الحيوان .
(١٥) تفضيل الأنعام عليهم فى كل شان .
(١٦) عجائب صنع الله فى ضمن الظل والشمس وتخليق الليل والنهار والآفات والأزمان .
(١٧) المنة بانزال الأمطار وإنبات الاشجار فى كل مكان .
(١٨) ذكر الحجة فى المياه المختلفة فى البحار وذكر النسب والصهر فى نوع الانسان وعجائب الكواكب والبروج ودور الفلك وسير الشمس والقمر وتفصيل صفات العباد وخواصهم بالتواضع .
(١٩) حكم قيام الليل والاستعاذة من النيران .
(٢٠) ذكر الاقتار والاقتصاد فى النفقة .
(٢١) الأحتراز من الشرك والزنى وقتل النفس بالظلم والعدوان
(٢٢) الاقبال على التوبة والاعراض عن اللغو والزور .
(٢٣) الوعد بالغرف للصابرين على عبادة الرحمن .
(٢٤) بيان ان الحكمة فى تخليق الخلق التضرع والدعاء و الابتهال إلى الله الكريم المنان بقوله : (ما يعبؤبكم ربى لولا دعاؤكم) الآية .

المتشابهات

قوله : ﴿ تبارك ﴾ هذه لفظة لا تستعمل الا لله تعالى ولا تستعمل إلا بلفظ الماضى وجاء فى هذه السورة . فى ثلاثة مواضع ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾
﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك ﴾
﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ﴾
وخصت هذه المواضع بالذكر ، لأن ما بعدها عظائم :

الأول ذكر الفرقان ، وهو القرآن المشتمل على معانى جميع الكتب المنزلة من عند الله .
والثانى : ذكر النبى ﷺ -
والثالث ذكر البروج والسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، ولولاها ما وجد فى الأرض حيوان ولا نبات .

ومثلها ﴿ **فتبارك الله رب العالمين** ﴾[١] ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[٢] ﴿ **تبارك الذى بيده الملك**[٣] .

قوله ﴿ **من دونه** ﴾ هنا وفى مريم ويس ﴿ **من دون الله** ﴾ لان فى هذه السورة وافق ما قبله ، وفى السورتين لو جاء ﴿ **من دونه** ﴾ لخالف ما قبله ، لأن ما قبله فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما فصرح .

قوله : ﴿ **ضرا ولا نفعا** ﴾ قدم الضر موافقة لما قبله ، وما بعده ، فما قبله نفى وإثبات ، وما بعده موت وحياة قوله : ﴿ **مالا ينفعهم ولا يضرهم** ﴾ قدم النفع ، موافقة لقوله تعالى : ﴿ **هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج** ﴾

قوله : ﴿ **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن** ﴾
ومثله فى السجدة يجوز أن يكون ﴿ **الذى** ﴾ فى السورتين مبتدأ ﴿ **الرحمن** ﴾ خبره فى الفرقان . ﴿ **وما لكم من دونه** ﴾ خبره فى السورة وجاز غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

---

(١) سورة غافر الآية رقم : ٦٤
(٢) سورة المؤمنون الآية رقم : ١٤
(٣) سورة الملك الآية رقم (١)

وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة ، بكونه مالكا لما فى السموات والأرض ، مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع ، والوضع الانيق . وانه سيحاسب عباده يوم القيامة ، على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا .

وافتتح هذه بما يدل على تعاليه فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وعلى حبه لخير عباده ، بإنزال القرآن لهم ، هاديا وسراجا منيرا .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك ، وتحذيرهم من مخالفة أمره ، خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه ، لارشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذم الجاحدين لنبوته بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، إلى آخر ما قالوا . .

(٣) فى كل من السورتين وصف السحاب ، وإنزال الأمطار ، وإحياء الأرض الجرز ، فقال فى السالفة **﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾**(١) وقال فى هذه : **﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا ﴾**(٢)

(٤) ذكر فى كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم فتيلا ولا قطميرا ، فقال فى الأول : **﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾**(٣) وقال فى هذه : **﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾**(٤)

(٥) وصف النشأة الأولى للانسان فى أثنائهما فقال فى الأولى **﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾**(٥) وفى الثانية **﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ﴾**(٦)

معانى المفردات

تبارك : من البركة ، وهى كثرة الخير لعباده بانعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، كما قال : **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**(٧)

والفرقان : هو القرآن ، سمى بذلك ، لأنه فرق فى الانزال ، كما قال : **﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾**(٨) على عبده : أى على رسول الله ﷺ ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، وتنبيها إلى ان الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ، وفيه رد على النصارى ، الذين يدعون ألوهية عيسى عليه السلام .

للعالمين : أى الثقلين من الانس والجن .

فقدره : أى هيأه لما أعده له من الخصائص والأفعال .

الافتراء : الاختلاق والكذب

من قولهم : افتريت الأديم - الجلد - إذا قطعته للافساد

جاءوا أى أتوا .

والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه .

والزور : الكذب .

الاساطير : واحدها اسطار أو اسطورة كأحدوثة وهو ما سطره المتقدمون .

---

(١) سورة النور آية رقم ٤٣
(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٨
(٣) سورة النور آية رقم ٣٩
(٤) سورة الفرقان آية رقم ٢٣
(٥) سورة النور آية رقم ٤٥
(٦) سورة الفرقان آية رقم ٥٤
(٧) سورة إبراهيم آية رقم ٣٤ ، سورة النحل آية رقم ١٨
(٨) سورة الاسراء آية رقم ١٠٦

اكتتبها : أى أمر بكتابتها .
تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها
بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء والمراد دائما .
مسحورا : أى سحر فاختل عقله .
الامثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال
فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم .
اعتدنا : أى هيأنا .
والسعير : النار الشديدة والاشتعال .
رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد من قولهم : دور تتراءى أى تتناظر ومنه قوله ﷺ .
(ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما) أى (تتقاربان) بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ،
والتغيظ : إظهار الغيظ والمراد صوت التغيظ
والزفير : اخراج النفس بعد مده .
مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل
والثبور : الهلاك .
جنة الخلد : هى التى لا ينقطع نعيمها .
مسئولا : أى جديرا ان يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .
ضل السبيل : فقده وخرج عنه .
والذكر : ما ذكر به الناس على السنة أنبيائهم .
بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع
صرفا : أى دفعا للعذاب .
يظلم : أى يكفر .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ لفظ تبارك من البركة العظيمة ، التى لا يدرك كنهها ، فقد عظمت بركة الله حتى شملت الكون كله ، وقد اثنى الله تعالى على ذاته ، لأن المقام مقام نعمة ، لا تسامى ولا يلحق بها ، ولا يشق لها غبار ، إنه مقام تنزيل الفرقان على عبده ومصطفاه ، كما أثنى تبارك اسمه على ذاته بالحمد فى أول سورة الكهف ، حيث قال : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا**[١]

قوله ﴿ **على عبده** ﴾ المقصود به خاتم الأنبياء ، والتعبير بالعبودية هنا ، فيه تشريف وتكريم معبودية الانسان لربه اسمى ما يناله العبد ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا** ﴾[٢] .

(١) سورة الكهف الآيات رقم ١ ـ ٣

(٢) سورة فاطر الآية رقم ـ ١٠

قال القائل :

ومما زادنى شرفا وقدرا وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

لذا جاء لفظ العبد ، معبرا عن رسول الله فى أشرف المقامات ، وأسمى الغايات ، فهو فى سورة الاسراء ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾(١) .

وفى سورة النجم ، المشتملة على المعراج ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾(٢)

وفى موقف الدعاء: ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾(٣)

قوله : ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ فى الآية دليل على عموم رسالته ﷺ فالعالمون جمع عالم ، والعالم كل ما سوى الله تعالى ، فقد كانت بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - عامة للجن والانس ، صح فى الحديث عنه أنه قال : ﴿ كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ﴾

وقال له ربه : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾(٤) وقال عن رسالته : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٥) .

وقال فى شأن إرساله إلى الجن : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾(٦) .

وقال عز من قائل : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) .(٧)

﴿ والفرقان ﴾ المنزل على خاتم الأنبياء ، هو القرآن العظيم الذى يفرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلمات ، أنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٨)

قوله تعالى : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن نفسه ، بأنه له ملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك الملك أحد ، فهو المالك المدبر المتصرف ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله . قل أفلا تتقون . قل من بيده

---

١ - سورة الاسراء آية رقم (١)
٢ - سورة النجم آية رقم (١١)
٣ - سورة الجن آية رقم ١٩
٤ - سورة الاعراف آية رقم ١٥٨
٥ - الانبياء آية رقم ١٠٧
٦ - سورة الأحقاف الآيات - ٢٩ - ٣١
٧ - سورة الجن الآيات ١ - ٣
٨ - سورة الشورى الآيتان ٥٢ - ٥٣

ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون .[١]

سبحانه لم يتخذ ولدا ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] لقد قال المفترون : ان الملائكة بنات الله ، فقال لهم مولانا جل ذكره ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾[٣]

كما ألقى باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا لله الولد ، فقال : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[٤]

وقال سبحانه : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[٥] وقال عز من قائل : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾[٦]

فالله جل شأنه نفى الولدية والشريك ، بعد ما أثبت أن له ملك السموات والأرض ، وأثبت أنه خلق كل شيء ، على نظام بديع ، ونسق رتيب ، فقدره تقديرا ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٧]

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾

وبعد بيان الأدلة ، وقيام الحجة على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، بعد ذلك كله ، اتخذوا من دونه آلهة ، لا نصيب لها من الحقيقة ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى[٨] عبدوا من دونه ما لا يخلق شيئا وهو يخلق ، وتركوا عبادة من يخلق ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ﴾[٩]

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ٨٨ ـ ٨٩
(٢) سورة الانعام الآيات ١٠١ ـ ١٠٣
(٣) سورة الصافات الآيات ١٥٠ ـ ١٥٧
(٤) سورة مريم الآيات ٨٨ ـ ٩٥
(٥) سورة يونس الآيات ٦٨ ـ ٧٠
(٦) سورة الاسراء الآية رقم ١١١
(٧) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ـ ٥٠
(٨) سورة النجم الآيات ١٩ ـ ٢٣
(٩) سورة الانعام الآية رقم ١٤

ولقد وجه القرآن الكريم هذا السؤال إليهم ، بعد ما عدد البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة فى سورة النحل ، من خلق السموات والأرض ، والانسان والأنعام ، وإنزال الماء ، وإنبات النبات ، وتسخير الفلك والبحر وألقاء الرواسى ، قال لهم سبحانه : ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾[1] إن هذه المعبودات مع كونها مخلوقة ، فإنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[2] كما أن هذه المعبودات ، لا تملك الموت ولا الحياة ، ولا البعث بعد الموت قال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ، إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾[3]

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ أى كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبى - ﷺ - ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ أى واستعان على جمعه بقوم آخرين ، فقال الله تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعنون كتبها الأوائل ، أى استنسخها ﴿ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ أى تقرأ عليه أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم ، كل أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة ، أن محمدا رسول الله ﷺ لم يكن يعرف شيئا من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ونزاهته ، وبره وأمانته ، وبعده عن الكذب والفجور ، وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيما يقذفونه ، فتارة من افكهم يقولون ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون مجنون ، وتارة يقولون كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾ الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين ، والآخرين ، أخبارا حقا صدقا

(١) سورة النحل الآية رقم ١٧
(٢) سورة فاطر الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٣) سورة الأعراف الآيات ١٩٤ - ١٩٨

مطابقا للواقع فى الخارج ، ماضيا ومستقبلا ﴿ الذى يعلم السر ﴾ أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان غفورا رحيما ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والانابة ، وإخبارهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه ،

فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم ، وفجورهم وبهتانهم ، وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الاسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾[١] وقال تعالى ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾[٢] قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

قوله تعالى :

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا - تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغظيا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنا لك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا ، قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا . لهم فيها ما يشاءون كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى ، مخبرا عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشى فى الأسواق ﴾ أى يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ يقولون هلا انزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدقه ، وهذا الكلام قاله فرعون من قبل لموسى . ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[٣] وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ، ولهذا قالوا ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أى كنز ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أى تسير معه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾قوله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾

أى جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم ساحر مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ، ولهذا قال ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق ، وطريق الهدى ، فانه ضال

١) سورة المائدة الآيتان : ٧٣ - ٧٤
٢) سورة البروج الآية رقم : ١٠
٣) سورة الزخرف الآية رقم : ٥٣

حيثما توجه ، لأن الحق واحد ومنهجه متحد ، يصدق بعضه بعضا ، ثم قال تعالى . مخبرا نبيه : أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون فى الدنيا ، وأفضل وأحسن فقال : ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ الآية ، قال مجاهد : يعنى فى الدنيا ، قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة ، قصرا كبيرا كان أو صغيرا ، قال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن خيثمة قيل للنبى - ﷺ :- (إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطى أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : (اجمعوها لى فى الآخرة فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أى إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة ، يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿ وأعتدنا ﴾ أى أرصدنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ أى عذابا أليما حارا لا يطاق فى نار جهنم . قال سعيد بن حبير : ﴿ السعير ﴾ واد من قيح جهنم ، وقوله : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أى جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعنى من مقام الحشر . قال السدى من مسيرة مائة عام (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى حنقا عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ ﴾[1] أى يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وروى ابن أبى حاتم بسنده عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من يقل على ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ مقعده من النار - وفى رواية - فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا) قيل يا رسول الله : وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ الآية

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : (إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن مالك ؟ فتقول انه ليستجير منى فيقول أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يارب ما كان هذا الظن بك ، فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول ان تسعنى رحمتك قال فيقول أرسلوا عبدى وان الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . (قال ابن كثير وهذا اسناد صحيح)[2] .

وعن مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله : ﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل إلا خر لوجهه ، ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم الا نفسى[3]

وقوله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ﴾ قال قتادة عن أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل

---

(١) سورة الملك آية رقم ٧ ، ٨

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره وابن ماجة وابن أبى حاتم
(جامع البيان ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٤ ط الشعب)

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن أبى حاتم ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٥ ط الشعب

وهذا الحديث رواه ابن جرير فى تفسيره ١٨ / ١٤٠ عن عبيد بن عمير ولفظه : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبى إلا خر ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه فيقول يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى .

الزج فى الرمح أى من ضيقه . وقوله : ﴿ مقرنين ﴾ قال أبو صالح يعنى مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ أى بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعو اليوم ثبورا واحدا ﴾ . . . الآية . . أى لا تدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور : الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون ﴿ وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ أى هالكا .

قوله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ـ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيق مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه ، اهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه ، ومناظر وغير ذلك مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا ، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يبغون عنها حولا ، وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : ﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية ان معنى قوله : ﴿ وعدا مسئولا ﴾ أى وعدا واجبا . وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله : (كان على ربك وعدا مسئولا) يقول ان الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ﴾[١] . وهذا المقام فى هذه السورة ، من ذكر النار ، ثم التنبية على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال بعد ذلك ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾[٢]

فيا أخى المسلم صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود .

ويحذركم الله نفسه

ـ عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[٣] رواه مسلم (الزمام ما يجعل فى أنف البعير) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا

(١) سورة غافر الآية رقم : ٨

(٢) سورة الصافات الآيات : ٦٢ ، ٧٠

(٣) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعاذنا الله منها (صحيح مسلم ١٧ / ١٧٩ بشرح النووى) ورواه الترمذى فى أبواب جهنم / ١ (تحفة الأحوذى ٧ / ٢٩٤) باب ، ما جاء فى صفة النار

وإنه لأهونهم عذابا) متفق عليه . [١]

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته) رواه مسلم (الحجزة) معقد الازار تحت السرة و (الترقوة) بفتح التاء وضم القاف : هى العظم الذى عند ثغرة النحر ، وللانسان ترقوتان فى جانبى النحر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين)[٢] .متفق عليه .

وفى رواية : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال (عرضت على الجنة والنار فلم أر كاليوم فى الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رءوسهم ولهم خنين)[٣] . (الخنين) بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى انصاف أذنيه) متفق[٤] عليه (والرشح) العرق .

وعن المقداد ـ رضى الله عنه ـ قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل) قال سليم بن عامر الراوى عن المقداد فوالله ما ادرى ما يعنى بالميل ، أمسافة الأرض أم الميل الذى يكحل به العين ؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ، واشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه ، رواه مسلم .[٥]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة ، حتى يذهب

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الرقاق / ٥١ فتح البارى ١٤ / ٢٢٣ باب صفة الجنة والنار وفى كتاب العيدين/ ٩ ، مسلم فى كتاب الايمان (صحيح مسلم ٣ / ٨٥ ـ ٨٦ باب التخفيف عن أبى طالب ..) ، أبو عوانه الاسفراييني فى مستخرجه الصحيح على مسلم (مسند أبى عوانه ١ / ٩٨ ـ ٩٩) والترمذى فى جهنم /١٢ ، والنسائى فى الاستفادة/ ٦٢ وأحمد ٤ / ٢٧١ ، ٢٧٤

(٢) الحديث : رواه البخارى فى الكسوف / ٢ ، وفى التفسير ٥/ ١٢ ، وفى النكاح ١٠٧ ، وفى الرقاق/ ٢٧ ، وفى الايمان ٣ ، مسلم فى الصلاة / ١١٢ ، وفى الكسوف / ١ ، وفى الفضائل / ١٣٤ ، والنسائى فى السهو/ ١٠٢ ، وفى الكسوف / ١١ ، ٢٣ ، والترمذى فى الزهد / ٩ ، وابن ماجه فى الزهد ١٩ ، والدارمى فى الرقاق/ ٢٦ ومالك فى الموطأ فى الكسوف / ١ ، وأحمد ٢ / ٢٥٧ ، ٣١٣ ... الخ

(٣) الحديث رواه البخارى فى المواقيت / ٣١١، وفى الفتن / ١٥ ، وفى الاعتصام / ٣

(٤) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٤٧ ، وفى الزكاة/ ٥٢ ، وفى التفسير (سورة ٨٣) ومسلم فى الجنة ٦٠ ، ٦١ ، والترمذى فى القيامة/ ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٣ ، وابن ماجة فى الزهد ٣٣ ، أحمد ٢ / ١٣ ، ١٩ ، ٣١ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(٥) راجع صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦ بشرح النووى
ورواه أيضا : أحمد والطبرانى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح واقره الذهبى عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه ـ بألفاظ متقاربة)
المسند ٥ / ٢٥٤ ، المستدرك ٤ / ٥٧١ موارد الظمآن ٦٤٠ ، الترغيب والترهيب ٤/ ٣٨٩)

عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم)[١] متفق عليه . ومعنى يذهب فى الأرض ينزل ويغوص .

وعنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال : هل تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجبتها)[٢] رواه مسلم .

وعن عدى بن حاتم - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر اشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)[٣] متفق عليه .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنى أرى ما لا ترون أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع ، إلا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى)[٤] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وأطت (بفتح الهمزة وتشديد الطاء (وتئط) بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة . والأطيط صوت الرحل والقتب وشبههما ومعناه ان كثرة من فى السماء من الملائكة العابدين قد أثقلها حتى أطت (والصعدات) بضم الصاد والعين : الطرقات : ومعنى تجأرون ، تستغيثون . وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ . فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[٥] رواه الترمذى وقال حديث حسن و(القرن) هو الصور الذى قال الله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور ﴾[٦]) كذا فسر رسول الله ﷺ

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة)[٧] رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

و(أدلج)باسكان الدال ومعناه سار من أول الليل . والمراد التشمير فى الطاعة والله أعلم .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ : يقول (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) قلت يا رسول الله الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال (يا عائشة الأمر

(١) هذا الحديث رواه البخارى واللفظ له ومسلم ولفظه : ان العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعا ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم (يشك ثور أيهما قال) قال الحافظ : وفى رواية الاسماعيلى عن سليمان بن بلال (سبعين عاما) : (فتح البارى ١٤ / ١٨٥ . صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦)

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٣١

(٣) الحديث رواه البخارى فى المناقب / ٢٥ ، وفى الزكاة / ٩ ، وفى الرقاق / ٤٩ ، وفى التوحيد / ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم فى الزكاة / ٦٧ ، والترمذى فى القيامة / ١ ، وابن ماجة فى مقدمة / ١٣ ، وفى الزكاة / ٢٨ ، وأحمد فى المسند ٤ / ٢٥٦ ، ٣٧٧

(٤) الحديث رواه الترمذى فى الزهد / ٩ ، ابن ماجه فى الزهد / ١٩ ، وأحمد فى المسند ٥ / ١٧٣ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى القيامة / ٨ وفى تفسير سورة ٣٩ / ٧ ، وأحمد فى المسند ١ / ٣٢٦ ، ٣ / ٧ ، ٤ ، ٣٧٤

(٦) سورة الزمر آية رقم : ٦٨

(٧) الحديث رواه الترمذى فى القيامة / ١٨

أشد من أن يهمهم ذلك) . وفى رواية (الأمر أهم من ان ينظر بعضهم إلى بعض)[١] . متفق عليه
(غرلا) بضم الغين المعجمة : أى غير مختونين .

اعمل لدار غدا

لا تركنن إلى الدنيا وصافها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (يأكل أهل الجنة فيها ، ويشربون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاء ، ورشح ، كرشح المسك . يلهمون التسبيح والتكبير ، كما يلهمون النفس)[٢] رواه مسلم

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة . لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون . امشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الالوة ـ عود الطيب ـ أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء)[٣] متفق عليه .

وفى رواية للبخارى ومسلم : آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم فيها المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة واصيلا)[٤]

قوله ﴿ على خلق رجل ﴾ رواه بعضهم بفتح الخاء واسكان اللام وبعضهم بضمها وكلاهما صحيح .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : قال سأل موسى ﷺ ربه ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة فيقول : لأى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : اترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله . فيقول فى الخامسة . رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال . رب فاعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت : غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن . ولم يخطر على قلب بشر ، رواه مسلم .

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ان النبى ـ ﷺ قال : (إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الانبياء /٨ ، وفى تفسير ٥/١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، وفى الرقاق /٤٥ ومسلم فى الجنة /٥٨ ، الترمذى فى القيامة/ ٣ ، وفى تفسير سورة ٢١ / ٤ والنسائى فى الجنائز ١١٩ ، أحمد فى المسند ٥ / ٣

(٢) الحديث رواه مسلم فى الجنة ١٨ ، ١٩ ، وأحمد فى المسند ٣ / ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤

(٣) الحديث : رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، وفى الانبياء /١ ، ومسلم فى الجنة ١٤ ، ١٦ ، والنسائى فى القيامة /٦٠ ، وفى الجنة ٥ ، ٧ ، وابن ماجة فى الزهد /٣٩ ، والدارمى فى الرقاق /١٠٢ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٣٠ ، ٢٣٢ ... الخ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، ومسلم فى الجنة /١٧ ، والترمذى فى الجنة /٧ ، وأحمد فى المسند ١ /٦ ، ٢ / ٣١٦

مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا)(١) متفق عليه (الميل) ستة آلاف ذراع

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها) متفق عليه وروياه فى الصحيحين أيضا من رواية إبى هريرة رضى الله عنه قال : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها (الجواد بفتح الجيم وتخفيف الواو الفرس)(٢)

وعن النبى ﷺ قال:(إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الافق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم (قال) يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)(٣) متفق عليه .

الكوكب الدرى الغابر : الكوكب المعنى الذاهب فى الأفق)

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ . قال : (لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب)(٤) متفق عليه (لقاب قوس بالقاف والباء) أى قدر ما بين المقبض والسية من القوس . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعة . فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم ، وقد ازادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنا وجمالا ، فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)(٥) رواه مسلم .

٥ - وعن أبى سعيد وأبى هريرة - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد ! إن لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وان لكم ان تنعموا فلا تبأسوا أبدا)(٦) رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول : (الا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : أى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا) متفق عليه .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ١ / ٥٥ ، ومسلم فى الجنة / ٢٣

(٢) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، وفى تفسير سورة ١ / ٥٦ ، وفى الرقاق / ٥١ ، ومسلم فى الجنة ٦ ، ٨ ، والترمذى فى الجنة ١ ، وفى تفسير سورة ١ ، ٢ / ٥٦ ، وابن ماجه فى الزهد ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق ١١٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧ ، ٣ / ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق / ٨ ، وفى الرقاق / ٥١ ، ومسلم فى الجنة / ١١ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٥ ، وفى بدء الخلق / ٨ ، ومسلم فى الإمارة ١١٥ ، والنسائى فى الجهاد / ١٢ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٤٨٢ ، ٥ / ٤٢٢

(٥) الحديث روه مسلم فى الجنة / ١٣

(٦) الحديث رواه مسلم فى الجنة / ٢٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٠ / ٣٩ ، أحمد فى مسنده ٢ / ٣١٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٩٥

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : (انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته) متفق عليه .[(١)]

١ - (عيانا بكسر العين وتخفيف الياء : أى معاينة ، لا تضامون فى رؤيته : بضم التاء وتخفيف الميم : أى لا يصيبكم ضيم : أى ضرر من زحام ونحوه حال رؤيته .

وعن صهيب - رضى الله عنه - ان رسول الله ﷺ قال : (اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا ازيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم) رواه مسلم .[(٢)]

قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾

قال الله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا**)

هذا مشهد من مشاهد الحشر ، يجمع الله فيه أهل الضلال ليواجههم بالذين عبدوهم من دون الله أمثال المسيح وعزيز والملائكة فيسأل الله هؤلاء المعبودين أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . وذلك ليقطع المعاذير عليهم ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾[(٣)] وكما جاء فى هذا المشهد الذى سيلقى الله فيه هذا السؤال على المسيح ابن مريم **﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ﴾ فقد قال عز وجل فى آخر** سورة المائدة **﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسك ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ان تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾**[(٤)]

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المواقيت/ ١٦ ، وفى تفسير سورة ٢ / ٥ ، وفى التوحيد/ ٤ ، وأبو داود فى السنة/ ١٩ ، والترمذى فى الجنة / ١٩ ، وابن ماجه فى المقدمة / ١٣ ، وأحمد فى المسند ٤ / ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الايمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى (صحيح مسلم ٣ / ١٦ - ١٧) بشرح النووى

(٣) سورة سبأ الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

(٤) سورة المائدة الآيات : ١١٦ -١٢٠

فماذا كان جواب المعبودين ، بعد أن قال الله لهم ﴿ **أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ كان جوابهم تنزيها لله وتعظيما له ، وتوقيرا وإجلالا وتقديسا وتوكلا عليه ، وتفويضا للأمر إليه .

﴿ **قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ أنت الواحد الذى تقدس عن الشريك ذاتك ، وتنزهت عن مماثلة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالاحسان موصوف ، ما كان لنا أن نشرك بك شيئا ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وشغلتهم الدنيا كما شغلتهم كثرة الأموال والأولاد ، فحجبت قلوبهم عن رؤية الحق ، ففى الآذان وقر ، والقلوب فى اكنة ، ومن بينهم وبين نور التوحيد حجاب ، ﴿ **وكانوا قوما بورا** ﴾ نفوسهم خربة ، كالأرض البور التى لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء ، هنا وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وقال الله بعد ذلك وقوله الحق : ﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾

أى بما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ﴾ أى لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أى يشرك بالله ﴿ نذقه عذابا كبيرا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا** ﴾

ليس أكل الطعام عيبا وليس المشى فى الاسواق عارا ، وليس محمد ﷺ بدعا من الرسل ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** ﴾[٢] ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى** ﴾[٣]

فإذا كان محمد - ﷺ - يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فمنطق الفطرة البشرية يقتضى ذلك ، وهل يطعن ذلك فى صدقه وأمانته وفطانته وعصمته وتبليغه .

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ أى ابتلاء واختبارا ، فالانبياء مع الأمم كل منهما فى حال اختبار ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[٤] فاصبروا أيها الرسل على اذى الأقوام ، وفوضوا الأمر للخبير العلام قال محمد بن اسحق فى قوله : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾ قال ؟ يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم ، وابتليكم بهم ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ : (**يقول الله تعالى انى مبتليك ومبتلى بك**) وفى المسند عن

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) سورة الأنبياء الآيتان رقم : ٧ ، ٨
(٣) سورة يوسف الآية رقم : ١٠٩
(٤) سورة الاسراء الآية رقم : ١٥

رسول الله ﷺ (لو شئت لاجرى الله معى جبال الذهب والفضة) وفى الصحيح انه عليه الصلاة والسلام (خير بين ان يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا).

ويرحم الله صاحب البردة اذ يقول.

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسها فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ان الضرورة لا تعدو عن العصم

قوله تعالى:
﴿وكان ربك بصيرا﴾ أى مطلع على قلوب العباد وأحوالهم، يعلم الصابر من الجزع والطائع من العاصى

لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، فعلى كل عاقل أن يعلم ان الدنيا دار فناء وابتلاء، وان الآخرة دار قرار وبقاء، فليأخذ من العاجلة إلى الباقية ومن دار المفر إلى دار المقر، لمثل هذا فليعمل العاملون.